ستيفن رنسيمان

تاريخ الحروب الصليبية

نقله إلى اللغة العربية

الدكتور السيد الباز العريني

الجزء الثالث

القسم الثاني

دار الثقافة
بيروت - لبنان

تاريخ الحروب الصليبية

ستيفن رنسيمان

تاريخ الحروب الصليبية

المجلد الثالث

القسم الثاني

المغول والمماليك
ونهاية الشرق الفرنجي

نقله الى اللغة العربية
الدكتور السيد الباز العريني
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الكتاب الثالث

المغول والمماليك

الفصل الاول

قدوم المغول

في سنة ١١٦٧ ، أي قبل عشرين سنة من استرداد صلاح الدين بيت المقدس للمسلمين ، وُلد طفل لزعيم مغولي اسمه يسوكاي وزوجته هويلون في مكان بالغ البعد يقع على شاطىء نهر أونون في شمال شرقي آسيا . اطلق على الطفل اسم تيموجين ، غير انه اشتهر في التاريخ باسمه الذي عُرف به فيما بعد ، وهو جنكيزخان [١] .

---

(١) عن حياة جنكيزخان ، انظر :

Howorth, History of the Mongols, I, pp. 27 - 115.
Grousset, L'Empire Mongol, 1ère phase, pp. 35 - 242.
L'Empire des Steppes, pp. 243 - 315.
Martin, Chingis Khan and his Conquest of Northern China.

اما المصادر الاصلية الاساسية فمنها :

Yûan Ch'ao Pi Shih. (يعتبر التاريخ الرسمي للمغول) .
Yûan Shing Wu Ch'in Cheng Lu.

لم يكن المغول إلا مجموعة من القبائل كانت تعيش بأعالي نهر آمور ، واستعرت الحرب الدائمة بينهم وبين جيرانهم النازلين الى الشرق منهم ، وهم التتار . والمعروف ان كابل خان ، جد يسوكاي نظم هذه القبائل في حلف مفكك ، غير ان مملكته تفككت بعد وفاته ، فاستطاع امبراطور كين في الصين الشمالية ان يوطد سيادته على كل المنطقة . ولم يرث يسوكاي إلا شطراً صغيراً من الحلف القــديم ، غير انه زاد في سلطانه وذيوع شهرته ، ما أنزله من الهزيمة ببعض قبائل التتار وقهرها ، وما حدث من تدخله في امور خان الكرايث ، الذي يعتبر اعظم جيرانه المباشرين مدنية .

والكرايث شعب شبه بدوي ، ينتمي الى أصل تركي ، أقــام بالاقليم الواقع حول نهر أورخون ، في أقصى اطراف منغوليا الحالية . وفي أوائل القرن الحادي عشر تحوّل ملكهم ومعظم رعاياه الى الديانة المسيحية على

= هذان المصدران جرت كتابتهما أصلا باللغــة المغولية ، ثم ترجما الى اللغة الصينية . على ان المصدر الاول في نصه المغولي ، اعيـد تقويمه وتم نشره في حروف لاتينية ، وقـام بترجمة جانب منه الى اللغة الفرنسية بلليو ، بعنوان :

Pelliot, L'Histoire Secrète du Mongols.

Rashid ad - Din, Jami at - Tawarikh.

والمعروف ان رشيد الدين ألف كتابه باللغة الفارسية ، ونشر كاترمير جانباً منه ، مع ترجمته الى اللغة الفرنسية ، على ان بريزين ترجم الكتاب كاملا الى اللغة الروسية .

وما ارتبط بجنكيزخان من نصوص مغولية وصينية ، نشرها وترجمها الى اللغة الالمانية :

Haenisch : (« Die Letzten Feldzüge Cingis Hans und Sein Tod », in Asia Major, vol. IX) .

عن تاريخ ولادة جنكيزخان ، انظر :

Grousset, L'Empire Mongol, p. 53, n. 3.

المذهب النسطوري ، وأدّى تحوّل الكرايث الى المسيحية أن أضحوا على اتصال بالترك الأويغور ، الذين كان من بينهم عـدد كبير من النساطرة وسبق للأويغور ان أقـاموا حضارة مستقرة في موطنهم في وادي نهر التاريم ومنخفض طورفان ، وابتكروا أبجدية للغة التركية ، استندت الى الحروف السريانية . وفي الازمنة المتقدمة سادت بينهم الديانة المانوية ، على ان المانويين نزعوا تحت تأثير الصينيين الى ان يتحولوا الى البوذية . ومع ان سلطان الأويغور أخذ في التداعي ، فان مدنيتهم امتدت الى الكرايث والنايمان ، نظراً لأن بلاد الأويغور تقع بين هذين الشعبين التركيين (١) .

وحوالي سنة ١١٧٠ مات كورياكوس‌خان الكرايث ، ابن ميرجوزخان ، وصادف ابنه طغرل بعض العقبات في الاستحواذ على ملكه ، إزاء معارضته اخوته وأعمامه . على انـــه ظفر في حروبه على اخوته وأقاربه بمساعدة يسوكاي الذي صار أخاً له بحكم ما تعاهدا عليه وأقسما من يمين . فهيأت هذه الصداقة ليسوكاي مكانة رفيعة بين زعماء المغول ، غير انه مات قبل

---

(١) عن القبائل التركية المغولية ، انظر :

Howorth, op. cit. I, pp. 19 - 26.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 1 - 32.
Martin, op. cit. pp. 48 - 58.
Pelliot, « Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrème Orient », in T'oung Pao, vol. XI.

وانظر عن الاويغور :

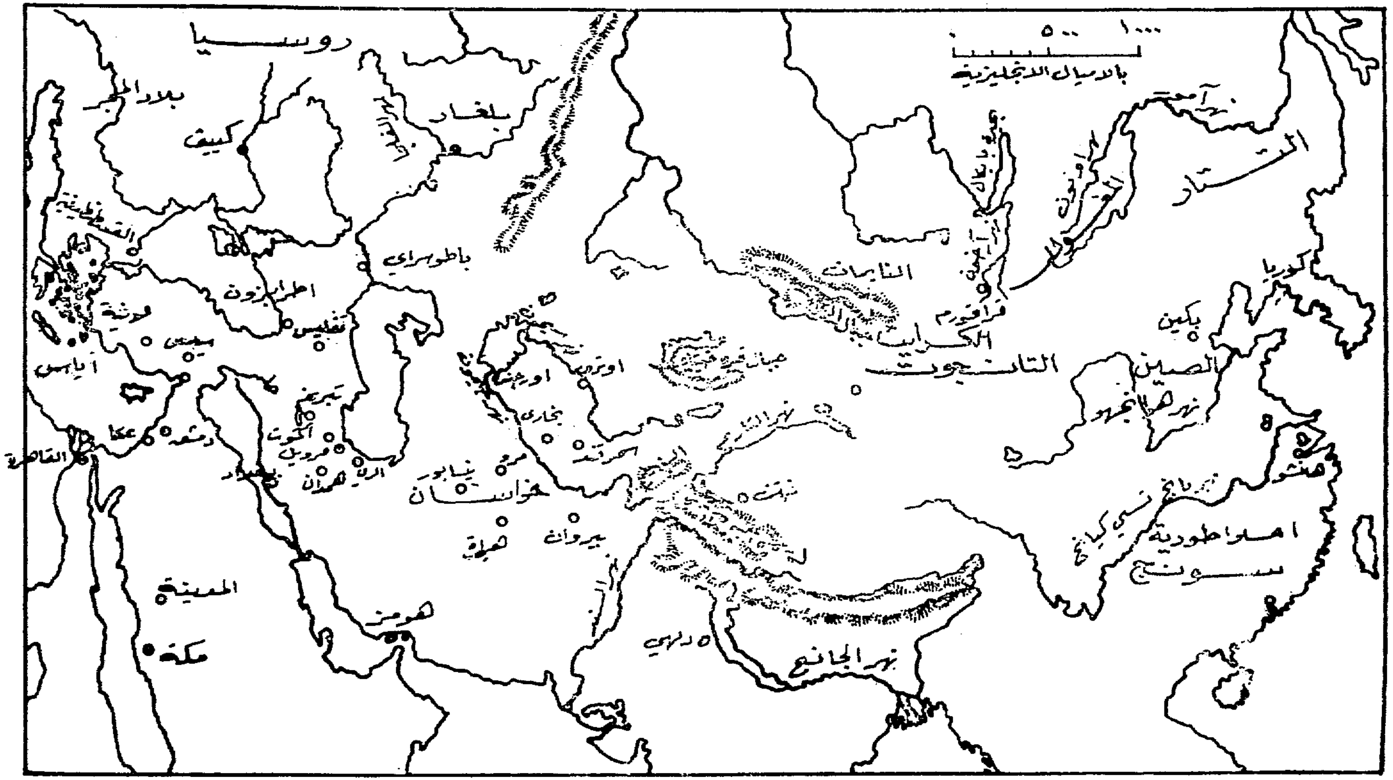
Bretschnieder, Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources, I, pp. 236 - 263.

ان يستقر خاناً أعظم للمغون ، إذ دسّ له السم بعض التتار الرحل الذين كان يشاركهم طعام العشاء ، ولم يتجاوز ابنه الاكبر تيموجين وقتذاك التاسعة من عمره[1].

على ان ما اشتهرت به هويلون أرملة يسوكاي من النشاط حفظ لابنها الخان الصغير (تيموجين) قدراً من السلطان على قبائل ابيه . والواقع ان طفولة تيموجين كانت عاصفة ، ولكنه دلّ ، وهو لا زال صبياً ، على انه قائد ، فلم تأخذه رحمة ولا رأفة بمنافسيه ، ولو كانوا من أسرته . ففي أثنـــاء الحروب التي ظفر فيها بالسيادة على المغول وقع لفترة من الزمن أسيراً في أيدي قبيلة تايجيوت ، كما ان بؤركة التي تزوجها وهو في السابعة عشرة من عمره ، ظلت بضعة شهور في أسر الترك المركيت النازلين عند بحيرة بايكال ، ولذا حامت الشكوك حول شرعية بنوّة ولدها الاكبر جوجي ، الذي جرت ولادته أثناء أسرها . على ان توالي انتصارات تيموجين يرجع الى حد كبير الى تحالفه مع طغرل خان الكرايت الكبير ، الذي بلغ من محبته له انه اعتبره (تيموجين) والداً له ، وقـد ساعده طغرل في حروبه مع المركيت . وحوالي سنة ١١٩٤ تم اختيار تيموجين ملكاً او خاناً على جميع المغول ، واتخذ اسم جنكيزي أي القوي . ولم يلبث ان تلى ذلك ، ان اعترف امبراطور كين بجنكيزخان ، خاناً أعظم على المغول ، وظفر بتحالفه لمناهضة التتار ، الذين كانوا يهددون الصين . وأدّت حرب خاطفة الى خضوع التتار لحكم جنكيزخان . ولما جرى طرد طغرل

---

(١) انظر :
Yûan Ch'ao, Mongol text, pp. 10 - 14.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 48 - 54.



٣ - امبراطورية المغول

خان من عرش الكرايت ، سنة ١١٩٧ ، كان جنكيزخان هو الذي أعاده للحكم . ثم انحاز جنكيز خان بقواته سنة ١١٩٩ الى طغرل خان ، فأنزلوا الهزيمة بالنايمان الترك . غير ان جنكيز خان لم يلبث ان اشتدت غيرته من قوة الكرايت ، إذ أضحى طغرل اعظم الامراء في الاستبس الشرقية . كان معروفاً بلقب وانك خان ، او اونك خان ، الذي تسرّب الى سكان غرب آسيا في صيغة يوحنا ، التي كانت أكثر قبولاً ، وأيسر نطقاً عندهم ، وبذا رشحوه للدور الذي قام به بريستر يوحنا . على ان طغرل اشتهر بتعطشه لسفك الدماء ، والميل الى ارتكاب الخيانة ، وهما صفتان ليستا في شيء من الفضائل المسيحية ، كما انه لم يكن بوسعه ان يبذل المساعدة لرفاقه المسيحيين . وقع الشجار بينه وبين جنكيزخان سنة ١٢٠٣ ، ودارت اول معركة بينهما عند خلاخاليت ايليت ولكن لم تؤد الى نتيجة حاسمة . ولم تمض إلا بضعة أسابيع حتى جرى استئصال شأفة جيش الكرايت عند جيجر أوندور ، في جوف بلاد الكرايت ، فلقي طغرل مصرعه أثناء فراره التماساً للنجاة . ومن بقي على قيد الحياة من أفراد أسرته خضع لجنكيزخان ، الذي أضاف لملكه كل بلاد طغرل (١) .

ويعتبر النايمان ثانية الامم التي أخضعها لحكمه جنكيزخان سنة ١٢٠٤ بعد معركة عنيفة دارت في شقيرماوت ، حيث تعرّض مصير سلطان

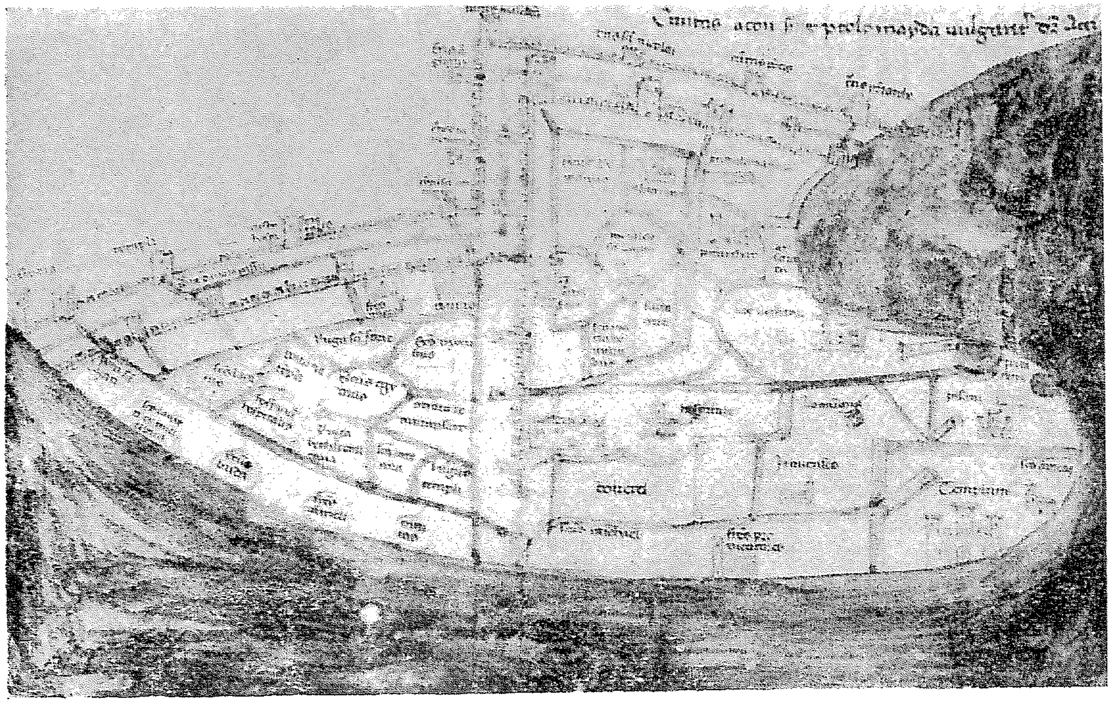
---

(١) لعل خير رواية محدثة عن ارتقاء جنكيزخان العرش ، ما ورد في :
Martin, op. cit. pp. 60 - 84.
عن طغرل وشهرته بأنه بريستر يوحنا ، انظر :
Yule, Cathay and the Way Thither, III, pp. 15 - 22.

جنكيزخان للخطر . وما نشب في السنتين التاليتين من حروب ، وطّدت سيادة جنكيزخان العليا على كل القبائل النازلة بين حوض نهر التاريم ، ونهر آمور ، وسور الصين الكبير . وفي سنة ١٢٠٦ انعقد على شاطىء نهر اونون مجلس او قوريلتاي مؤلف من جميع القبائل التابعة له ، وأعلن موافقته على ما اتخذه جنكيزخان من اللقب الملكي ، فأعلن انه ينبغي ان تُعرف كل اقوامه في مجموعها باسم المغول .

تنظيم امبراطورية جنكيزخان سنة ١٢٠٦ :

تألفت امبراطورية جنكيزخان أساساً من جمع للعشائر ، فلم يحاول التدخل فيما كان للقبائل من نظام قديم يقوم على العشائر ، التي تخضع لزعماء يتوارثون رياستها . وكل ما فعله هو انه فرض اسرته ، المعروفة باسم ألتن اوروك ، أي العشيرة الذهبية ، وأقام حكومة مركزية يسيطر عليها رجال حاشيته وأصدقاؤه المخلصون ، وجعل للعشائر الحرة اعداداً كبيرة من الارقاء الذين اتخذهم من القبائل التي قاومته ، ثم قهرها ، ومنح اقاربه وأصدقاءه الألوف من الارقاء . ففي القوريلتاي الذي انعقد سنة ١٢٠٦ ، بذل لكل من امه هويلون وأخيه تيموجيه أوتشين عشر آلاف اسرة ملكاً له ، وجعل لكل من ابنائه الصغار خمس او ست آلاف اسرة . أما القبائل ، بل المدن التي خضعت دون قتال ، فإنه لم يتدخل في امرها بل تركها وشأنها ، طالما احترمت قوانيه ثقيلة الوطأة ، وأدت لجباة الضرائب ما طلبه من اتاوة باهظة . وكيما يربط اقاليمه معاً ، اصدر مجموعة قوانين وهي المعروفة بالياسة ، والتي نسخت كل ما سبق من قوانين العرف في الاستبس . والياسة التي صدرت مجزءة طوال حكمه ، حددت ما لرؤساء



١٤ — خريطة عكا (مارينو سانودو)



١٣ — العذراء والطفل (المسيح)



١٢ — التجلية



١١ — التجربة ، كتاب المزامير (ميليسند)



١٥ — امراء من المماليك ، حوالي نهاية القرن الثالث عشر
الراجح ان الامير سلار نائب السلطنة في مصر سنة ١٢٩٩ هو الثاني من جهة اليمين

العشائر من حقوق وامتيازات ، وما هو مقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات ، وقواعد نظام الضرائب ، فضلاً عن مبادىء القانون الجنائي والمدني والتجاري . ومع ان جنكيزخان يعتبر الطاغية الاكبر فإنه قصد ان يلتزم هو وأخلافه بالقانون (١) .

ولم يكد جنكيزخان ينظم ادارة امبراطوريته ، حتى شرع في مد رقعتها . اضحى لديه جيش ضخم ، اولى اهتماماً كبيراً بتنظيمه . إذ ان كل افراد القبيلة الذين يتراوح عمرهم بين الرابعة عشرة سنة والستين سنة يلتزمون بالخدمة العسكرية وفقاً للعرف المغولي والتركي . وما يجري في شتاء كل سنة من حملات الصيد ، اللازمة لمد الجيش والبلاط باللحوم ، ليست إلا مناورات للإبقاء على تدريب العساكر . ودأب رجال القبيلة بإرادتهم على ان يبذلوا لسادتهم الطاعة العمياء ، وأدرك سادة القبائل من التجربة المريرة انه لا بدّ لهم ان يطيعوا الخان . ولرعاياه ايضاً ، شأن كل القبائل البدوية ، شغف شديد بالتحرّك الى ما وراء الأفق ، فضلاً عن تخوّفهم من نفاد اراضي الكلأ والغابات ، ولذا امدهم الخان بأقاليم جديدة ، ومقادير ضخمة من الغنائم ، وجموعاً من الارقاء . كانوا يؤلفون جيشاً من الفرسان والرماة والرماحة ، امتطوا براذين سريعة العدو ، ودرج الرجال والافراس منذ الولادة على ممارسة الحياة القاسية ، والقيام بأسفار بعيدة عبر الصحاري ،

---

(١) انظر : Yule, op. cit. pp. 85 - 101.
وخص المصدر يوان شاو معركة شقيرمارت بثلاثة فصول ، فزاد بذلك على ما جعله لأية معركة من معارك جنكيزخان . انظر :
Yûan Ch'ao, (SS. 194 - 196, pp. 68 - 72, Mongol text) .

ليس لديهم إلا قدر قليل من الزاد والماء . وهذا الارتباط بـين سرعة الحركة ، والنظام ، والاعداد الضخمة ، لم يكن معروفاً من قبل [١] .

وتاخم المغول وقتذاك ثلاث دول كبيرة : امبراطورية كين ، وتقع الى الشرق منهم ، وعاصمتها بكين ، ثم مملكة هسياهزي التانجوتية ، على امتداد الروافد العليـا للنهر الاصفر ، حيث حكمت اسرة من أصل تبيتي سكاناً مستقرين من اخـلاط المغول والترك والصينيين ، والى الجنوب الغربي من المغول تقع مملكة قره خيتاي ، المؤلفـة من بدو بوذيين من منشوريا ، طردهم من موطنهم أباطرة كين في أوائل القرن الثاني عشر ، فشقوا لهم طريقاً صوب الغرب ، وأقاموا امبراطورية على حساب الأويغور النازلين بحوض نهر التاريم ، والترك المسلمين في يرقند وختن . وكان ملكهم كورخان يعتبر فعلا عاملاً بالغ الأهمية في سياسات المسلمين الشرقيين ، وكان من أتباعه ايضاً الأويغور النازلون في طُرفان . ونظراً لأن مملكة هسياهزي تعتبر أضعف الممالك الثلاث ، كانت اول ما تعرضت منها لهجوم جنكيزخان ، ولم يسع ملكها إلا ان يقبل سيادته في سنة ١٢١٢ . ثم توالت بعـدئذ غارات جنكيزخان على امبراطورية كين . ومـا نشب من سلسلة المعارك العنيفة ، جعل كل ذلك الجانب من الاقليم الممتـد حتى البحر الاصفر ، وشانتونج ، يدخل في سلطانه . على ان المغول لم يألفوا مهـاجمة المواضع المنيعة التحصين ، ولذا قاومتهم المدن الضخمة المسوّرة . ولم تبدأ جيوش

---

(١) عن الجيش المغولي ، انظر :

Yule, op. cit. III, pp. 11 - 47

جنكيزخان في تعلم فن الحصار في الحرب ، إلا حينما دخل في خدمته مهندس من مملكة كين اسمه ليو بو - لين . ولم تحل سنة ١٢٢٦ حتى خضع امبراطور كين ، فصار من أتباع جنكيزخان . وسبق ان حدث سنة ١٢٢١ ان انضم الى املاك جنكيزخان اقليم منشوريا التابع لأسرة كين ، كما اعترفت كوريا بالسيادة المغولية . فلما مات سنة ١٢٢٣ آخر امبراطور من اسرة كين ، دخل في نطاق الامبراطورية المغولية ما تبقّى من أقاليمه [١] .

في تلك الاثناء أمدّ جنكيزخان سلطانه نحو الجنوب الغربي ، وقد بلغت الامبراطورية الخوارزمية وقتذاك ذروة قوتها زمن محمد خوارزمشاه . بسط محمد خوارزمشاه سلطانه على كل آسيا ، من كردستان والخليج العربي الى بحر آرال وهضبة بامير ونهر السند . وإذ لقي كورخان قره خيتاي في محمد خوارزمشاه جاراً مثيراً للقلق ، حرص على ان يضايقه بتحريض اتباعه في اقليم مـا وراء النهر على الخروج على طاعته . وما ترتب على ذلك من حروب ، اصابت قره خيتاي بالضعف الشديد ، فبينما استولى محمد خوارزمشاه على املاكهم الجنوبية وأضافها الى بلاده ، اغتصب عرش كورخان ، كجلك ، وهو امير من النايمان لجأ اليه . وكان كجلك مسيحياً نسطورياً بحكم ولادته ، ثم تحوّل الى البوذية بعد زواجه من اميرة خيتائية ، غير انه اختلف عن كورخان في أنه لم يتسامح مع رعاياه من المسيحيين والمسلمين . وهيأت كراهية الناس له الفرصة لتدخل جنكيزخان ، فلما

---

(١) انظر : Yule, op. cit. III, Chs. V-VII, passim.
حيث عالج بالتفصيل فتح المغول للصين .

انساب جيش مغولي في حوض طرفان ، لقي الترحيب على أنه قوة من المحررين ، فخضع الاويغور عن طيب خاطر لحكم المغول ، بينما اقتصر مُلْك كجلك على إمارة صغيرة في وادي التاريم [1] .

محمد خوارزمشاه سنة ١٢١٨ :

ترتب على هذا التوسع ، ان أضحى جنكيزخان على اتصال مباشر ببلاد الخوارزمية . ولم يكن محمد خوارزمشاه بالرجل الذي يتسامح مع منافس يضارعه في الطموح . وتبادل الملكان ، جنكيزخان ومحمد خوارزمشاه ، السفارات فيما بينهما ، غير ان محمداً أحسّ بالإهانة حينما طلب جنكيزخان ، باعتباره خاناً على الشعوب التركية المغولية ، الى الامير الخوارزمي ان يعتبره سيداً عليه . وحدث سنة ١٢١٨ ان ارتحلت من منغوليا قافلة كبيرة من التجار المسلمين وبرفقتهم مائة من المغول ، تقرر ارسالهم في سفارة خاصة الى البلاط الخوارزمي . فلما بلغت القافلة مدينة اوترار الواقعة على نهر سيحون ، في أملاك محمد خوارزمشاه ، اجهز حاكم اوترار على المسافرين ، وسلب بضاعتهم ، التي جرى حمل نصفها الى محمد خوارزمشاه ، فلم يكن بوسع جنكيزخان ان يتجاهل هذه الإثارة . وإذ ادرك كجلك ان الحرب وشيكة الوقوع ، قرر ان يقوم بمغامرة لإحياء مملكة قره خيتاي . على ان القائد المغولي جيب توجّه في حملة كبيرة لمطاردة كجلك

---

(١) عن محمد خوارزمشاه ، انظر :

Barthold, « Khivaresm », in Encyclopedia of Islam, pp. 220, 224.

عن كجلك ، انظر : Martin, op. cit. pp. 103 - 104, 109 - 111.

وجيشه في داخل ممتلكاته ، واستطاع آخر الامر ان يصرعه في وادٍ بأعلى هضبة البامير [1] .

هزيمة الخوارزمية سنة ١٢٢١ :

وباختفاء كجلك ، أضحى جنكيزخان مستعداً للنهوض لقتال الخوارزمية. وكان ذلك مشروعاً بالغ الخطورة ، إذ كان بوسع محمد خوارزمشاه ، فيما يروى ان يدفع الى ساحة القتـــال نصف مليون رجل ، على حين ان جنكيزخان سوف يقـاتل على مسافة تبعـد عن بلاده الف ميل . ففي أواخر صيف سنة ١٢١٩ غادر جيش مغولي مؤلف من مائتي الف رجل ، معسكره عنـــد نهر ارتيش . وانحاز الى الخان اثناء سيره نحو الغرب أتباعه من الملوك ، مثل امير الأويغور . وإذ لم يتحقق محمد خوارزمشاه أين يوجّه المغول ضربتهم ، قسّم عساكره بين خط نهر سيحون وممرات فرغانه ، بينما أخذ ينتظر بمعظم جيشه في المدن الهامة بإقليم مـا وراء النهر ، امثال بخارى وسمرقند ، بينما توجّه الجيش المغولي رأساً نحو الحوض الأوسط لنهر سيحون ، فاجتاز النهر عند اوترار . وتولى جانب من الجيش المغولي حصار المدينة ، الذي استغرق زمناً غير قصير ، نظراً لأن المغول لم يزالوا يفتقرون الى الخبرة في اعمال الحصار ، بينما هبط جانب آخر من الجيش مع النهر لمهاجمة الجيش الخوارزمي على ضفتي نهر سيحون ، وسار جانب ثالث من الجيش مصعداً مع النهر ، لقطع الطريق على الجيش الخوارزمي

---

(١) انظر : Barthold, op. cit. pp. 397 - 399.
Martin, op. cit. pp. 230 - 233.

في فرغانة ، وزحف جنكيزخان بقواته الاساسية على بخارى ، فبلغها في فبراير سنة ١٢٢٠ ، فبادر السكان المدنيون على الفور بفتح ابوابها له . على ان الترك المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون بضعة ايام ، ثم لقوا مصرعهم عن آخرهم ، مع الائمة المسلمين الذين شجعوهم على المضي في القتال . ثم تحرّك جنكيزخان من بخارى الى سمرقند ، بينما انسحب محمد خوارزمشاه بعد ان فقد ثقته في عساكره ، الى عاصمته في اورجنده ، قرب خيوه ، على نهر جيحون . وإذ لحق بجنكيزخان ابناؤه في سمرقند ، بعد ان استولوا على اوترار ، بادرت الحامية التركية في سمرقند الى التسليم على الفور ، وكانت تأمل من وراء ذلك ان تنخرط في سلك جيش الغازي (جنكيزخان) ، غير انه لم يثق في هؤلاء العساكر الذين لا يصبح الركون اليهم ، فأمر بإعدامهم جميعاً . وحاولت فئة قليلة من سكان المدينة (سمرقند) ان تنظم المقاومة ، غير انها باءت بالفشل ، ولقيت ايضاً مصرعها . وتلي ذلك ان بعث جنكيزخان ابناءه لمنازلة اورجنده . واشتدت صلابة المدافعين عنها . وما وقع من منازعات بين ابناء جنكيزخان ، ارجأ سقوطها بضعة شهور . وفي تلك الاثناء هرب محمد خوارزمشاه الى خراسان ، فطارده جيش مغولي بقيادة سبوتاي وجيب اللذين يعتبران اصدق قادة جنكيزخان وأكثرهم ثقة عنده . غير ان محمد خوارزمشاه افلت من مطارديه ، ولم يلبث ان مات كسير القلب ، وقد تخلى عنه رجاله ، وذلك في ديسمبر سنة ١٢٢٠ بجزيرة صغيرة داخل بحر قزوين .

على ان قتالاً يفوق ما حدث شدة ، أنشبه جلال الدين بن محمد خوارزمشاه الذي لحق بالجيش الخوارزمي في فرغانة ، ثم تقهقر الى افغانستان . فأنزل هزيمة ساحقة ، في بيروان الواقعة الى الشمال من جبال

هندوكوش ، بالجيش المغولي الذي جرى إنفاذه لقهره وتدمير قوته . أما جنكيزخان فعبر نهر جيحون ، واجتاز بلخ التي دانت له ، فأبقى عليها ، ومنها توجه الى باميان في جوف جبال هندوكوش . وامتنع الحصن عليه ، وفي أثناء الحصار لقي مصرعه حفيده موتوجين أحب الناس اليه ، فلما سقطت المدينة عنوة ، لم يبق على قيد الحيـاة احد من سكانها . وفي تلك الأثناء كان ابنه تولوي وصهره توقتشار يقاتلان في أقصى الغرب ، فاستوليا على مدينة مرو ، التي لم يبق على قيد الحياة من سكانها الذكور سوى أربعمائة من الصناع المهرة ، ثم سقطت في ايديها نيسابور حيث لقي مصرعه توقتشار ، وتعرضت لنفس المصير الذي تعرضت له مرو ، اذ تصدرت ارملة توقتشار بنفسها عمليـــة القتل والذبح . وتقرر إرسال الصناع من المدينتين ، نيسابور ومرو ، الى منغوليا . وواصل جنكيزخان في خريف سنة ١٢٢١ سيره مخترقاً افغانستان لمهاجمة جلال الدين فحصره على ضفتي نهر السند . وتحطم الجيش الخوارزمي في معركة حامية الوطيس ، دارت في ٢٤ نوفمبر سنة ١٢٢١ ، ولاذ جلال الدين بالفرار بعد ان اجتـاز نهر السند ، فالتجأ الى ملك دلهي ، أما أطفاله فوقعوا في أيدي جنكيزخان ، الذي أمر بالإجهاز عليهم .

أمضى جنكيزخان في افغانستان نحو سنة . على ان مدينة هراة الضخمة التي سبق ان دانت للمغول دون قتال ، لم تلبث ان أعلنت العصيان بعد انتصار جلال الدين في بيروان ، وظلّ الجيش المغولي يحاصرها شهوراً عديدة ، فلما سقطت في ايدي المغول في يونيه سنة ١٢٢٢ ، دارت مذبحة في كل سكانها الذين يبلغ عددهم مئات الالوف ، واستمر القتال اسبوعاً . أما المدن التي تخربت ، والاراضي التي خلت من النبات ، فتولى ادارتها

رجال من المغول ، يساندهم من العساكر ما يكفي لإخضاع السكان للنظام . ثم عاد جنكيزخان الى اقليم ما وراء النهر ، الذي كان يقلّ خراباً عن الجهات الاخرى ، فنصّب على اقليم ما وراء النهر حاكماً خوارزمياً ، اسمه مسعود يَلواج ، وجعل الى جانبه مستشارين من المغول ليراقبوه ويضبطوه . وأرسل محمود يلواج والد مسعود صوب الشرق ليحكم بكين ، ويعتبر ذلك من قبيل التشريف ، لم يكن الغرض منه سوى ان يزيـــد مسعود ولاء وإخلاصاً له . وعبر جنكيزخان نهر سيحون مرة اخرى في ربيع سنة ١٢٢٣ ، وأخذ يسير في بطء مجتازاً الاستبس الى ان بلغ نهر ارتيش في صيف سنة ١٢٢٤ ، ثم وصل في الربيع التالي الى موطنه على نهر تولا (١) .

على ان فتوح جنكيزخان العجيبة ، لم تجر دون ان يلحظها المسيحيون في سوريا ، اذ كان معروفاً انه هاجم اضخم دولة اسلامية في آسيا الوسطى (دولة خوارزمشاه) ، كما ان النساطرة الذين انتشرت كنائسهم عبر آسيا يستطيعون ان يؤكدوا انه لم يكره المسيحيين . ومع ان الخان (جنكيزخان) كان شامانياً ، فانه كان يميل الى استشارة رجال الدين المسيحيين والمسلمين ولاسيما المسيحيين منهم . إذ ان أبناءه تزوجوا من اميرات مسيحيات من الكرايث ،

---

(١) انظر : Browne, Literary History of Persia, II, pp. 426 - 440.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 31 - 46.
Bretschnieder, op. cit. I, pp. 276 - 294.
Yûan, Ch'ao, pp. 105 - 108.
Rashid ad - Din, (trans. Berezin), II, pp. 42 - 85.

كان لهن نفوذ كبير في بلاطه ، ولعله كان من الخير اتخـاذ جنكيزخان حليفاً للعالم المسيحي [1] .

المغول يبلغون جبال القوقاز سنة ١٢٢٢ :

تعرضت هذه الآمال لشيء من الاضطراب اثناء سنة ١٢٢١ ، إذ أن الجيش الذي أنفـذه جنكيزخان بقيادة سبوتاي وجيب للامساك بمحمد خوارزمشاه ، اخفق في تحقيق غرضه المباشر ، فأفلت منهما محمد خوارزمشاه ، وعجّل بالعودة الى بحر قزوين . غير ان القائدين المغولين ، سبوتاي وجيب ، واصلا سيرهما نحو الغرب ، ففي صيف سنة ١٢٢٠ قاما بالاستيلاء ونهب مدينة الري ، الواقعة قرب مدينة طهران الحالية ، غير أنهما أبقيا على حياة معظم سكانها . ثم سقطت في ايديهما مدينة قم ، ولم يفلت احد من سكانها من القتل . وحل هـذا المصير بقزوين وزنجان ، امـا همدان فخضعت في الوقت المناسب ، فنجا اهلها من القتل بعد ان أدّوا فدية باهظة . واستطاع امير اذربيجان ان يدرأ الهجوم على تبريز بما بذله من الأموال ، وتجاوزه المغول في فبراير سنة ١٢٢١ ، لمهاجمة بلاد الكرج . وقـاد الملك جورج الرابع ابن الملكة ثامار ، فرسان الكرج لمقاومة زحفهم ، غير انه تعرّض

---

(١) انظر : Registra Papae Honorii III, no. 1478, I, p. 565.

وكتاب البابا هونوريوس الثالث المؤرخ في ٢٠ يونيه سنة ١٢٢١ يشير الى القوات القادمة من الشرق لإنقاذ الارض المقدسة .

انظر ما ورد عن ديانة جنكيزخان في :

Martin, op. cit. pp. 310 - 311, 316 - 317.

لهزيمة ساحقة عند خناني ، جنوبي تفليس . وكانت كارثة لم ينهض منها مطلقاً جيش الكرج . غير ان الغزاة الظافرين (المغول) استداروا راجعين صوب الجنوب . إذ خرجت همدان على طاعتهم ، ولا بد من انزال العقوبة بها ، وفي الطريق الى همدان لنهبها وتدميرها ، لم يتوقفوا إلا كيما ينهبوا مراغة في اذربيجان . فأمضوا ما تبقى من السنة في شمال غربي فارس . ثم توجهوا من جديد الى الشمال في اوائل سنة ١٢٢٢ ، وبعد ان استباحوا الاقاليم الشرقية من بلاد الكرج ، وأنزلوا الهزيمة بالقوات التي توجهت لوقف تقدمهم ، مضوا في سيرهم على امتداد شاطىء بحر قزوين ، فاجتازوا دروب قزوين ، واتجهوا نحو بلاد القبجاق الواقعة بين نهري الفلجا والدون .

فأسرع القبجاق الى التحالف مع القبائل النازلة شمالي جبال القوقاز ، من اللان واللكز ، غير أنه لما عرض سبوتاي وجيب على هاتين القبيلتين ، نصيباً من الغنيمة ، لم تتدخلا حينما سحق المغول القوقازيين ، وكان لا مفر للمغول ان يتحولوا لقتالهما عقب الفراغ من القوقازيين . وكان اللان واللكز يأملون في ان يبذلوا الرشوة للروس كيما ينهضوا لمساعدتهم ، غير ان جيشاً روسياً ضخماً بقيادة امراء كييف ، وجاليش ، وشرنيخوف ، وسمولنسك ، تحطم على ضفتي نهر كلكا ، قرب بحر أزوف ، ولكن القائدين المغوليين لم يواصلا انتصارهما ، بل نفذا الى بلاد القرم ، ونهبا المحطة التي اقامها الجنويون في صولدايا ، ثم انطلقا الى الشرق ، ولم يتوقفا إلا ريثما يدمران جيشاً لبلغار كاما ، وينهبان بلادهم . ثم لحقا بجنكيزخان مرة اخرى في أوائل سنة ١٢٢٣ ، عند نهر سيحون .

على ان ضحايا الغرب في هذه الغارة العنيفة كانوا يأملون في أنها ليست إلا ظاهرة طارئة ، وكارثة بغيضة لن تتكرر . أما جنكيزخان فإنه اظهر اغتباطه بقائديه ، سبوتاي وجيب ، إذ أنهما لم يجريا فحسب

استطلاعاً بالغ القيمة ، واكتشاف انه ما من جيش في غرب آسيا يستطيع ان يتصدى لهما ، بل انهما ايضاً ، بتجردهما من الرحمة والشفقة ، أثارا في الأمم النازلة بتلك الجهات من الفزع والخوف ، ما يمنع أمة من الأمم من المخاطرة بالمقاومة ، اذا حان الوقت للقيام بغارة جدية [١] .

امتدت أملاك جنكيزخان ، عند وفاته سنة ١٢٢٧ ، من كوريا الى فارس ، ومن المحيط الهندي الى سهول سيبريا المتجمدة . وما من احد سواه اقام مثل هذه الامبراطورية بالغة الاتساع . ومن المستحيل ان نفسر ما حازه جنكيزخان من نجاح ، وفقاً لنظرية ما كان عند المغول من باعث اقتصادي حملهم على التوسع ، وكل ما يصح قوله هو أن المغول لم يكونوا إلا أداة صالحة لقائد يغوى التوسع . إذ يعتبر جنكيزخان صانع مصيره . على انه ظل دائماً رجلاً يكتنفه الغموض والخفاء . فمن ناحية المظهر كان جنكيزخان ، على حد ما يروى ، طويل القامة ، وافر النشاط ، كأن عينيه عينا القط . ومن المحقق انه كان من الناحية البدنية شديد الاحتمال والصبر ، ومن المؤكد ايضاً انه كان له من قوة الشخصية ما أثر في كل شخص اتصل

---

(١) انظر : Bretschnieder, op. cit. *I*, pp. 294 - 299.

وما اورده المؤرخون الروس من روايات عن هذه الحملة ، سادها الخلط والاضطراب . انظر :

Karamzin : History of the Russian Empire, (in Russian), *III*, p. 545.

Vernodsky, Kievan Russia, pp. 236 - 239.

The Novgorod Chronicle, (ed. Nasonov), p. 63.

يشير هذا التاريخ الى ان الله وحده هو الذي يعلم من أين قدم هؤلاء التتار ، والى أين توجهوا وساروا .

به او تعامل معه . أما براعته في التنظيم فكانت فائقة ، إذ عرف كيف يختار الرجال ، وكيف يفيد منهم . اشتهر باحترامه الصادق للعلم ، فكان دائماً مستعداً لأن يبقي على حياة كل عالم يظفر به ، غير انه لسوء الحظ لم تتهيأ الفرصة إلا لفئة ضئيلة من ضحاياه ، ليثبتوا جدارتهم او علمهم . اختار للمغول أبجدية الأويغور ، فوضع اساس ادب المغول . أما أمور الدين فاشتهر فيها بالتسامح ، والاستعداد لبذل المساعدة لكل مذهب ديني لا يتعارض مع سياسته . وحرص جنكيزخان على ان يقيم حكومة عادلة ترعى الأمن والنظام . فتطهرت الطرق من اللصوص ، وأدخل في دولته نظام البريد ، وبفضل تشجيعه ، ازدهرت التجارة ، فأضحى بوسع القوافل التجارية الضخمة ان تجتاز في اطمئنان قارة آسيا من اقصاها الى اقصاها . على انه تجرد من الرحمة والشفقة ، إذ لم يولِ اعتباراً لحياة الانسان ، ولم يحفل بآلام البشر ، إذ هلك في حروبه ملايين الابرياء من سكان المدن ، وشهد ملايين الفلاحين حقولهم وبساتينهم تتعرض للدمار والخراب ، فقامت امبراطوريته على تعاسة الناس وشقائهم [1] .

اوكيتاي يخلف جنكيزخان على الحكم سنة ١٢٢٧ :

هيأت وفاة الفاتح الكبير ، جنكيزخان ، للعالم الخارجي الفرصة للراحة . إذ لم تستقر ولاية الحكم في الامبراطورية إلا بعد ان مضى على وفاته ما

---

(١) اورد مارتن خلاصة طيبة عن اخلاق جنكيزخان وطباعه . انظر :
Martin, op. cit. pp. 1 - 10.

يقرب من سنتين . وبمقتضى عرف المغول كان للابن الاكبر وسلالته الحق في ولاية حكم الامبراطورية ، على حين ان للابن الاصغر الحق في الاحتفاظ بالوطن الاصلي للمغولي ، ومن واجبه ان يدعو المجلس العام (قوريلتاي) للانعقاد للتصديق على ولاية الحكم . غير ان جنكيزخان خالف هذا العرف ورشح للحكم ثالث ابنائـه ، اوكيتاي ، ليكون خليفته في السلطة العليا ، وتغاضى بذلك عن ابنه الأكبر ، جوجي ، الذي كانت شرعية بنوّته موضع نزاع ، فضلاً عـن ان سجل اعماله العسكرية والادارية لم يكن مقبولاً . أما ثاني ابناء جنكيزخان ، وهو جغتاي ، فكان جندياً لامعاً ، غير ان ما اشتهر به من المزاج الحـاد المتقلب ، جعله لا يصلح لأن يكون حاكماً صالحاً . ومع ان اوكيتاي حسبما اعتقد جنكيزخان ، لم يتوافر له من المواهب ما كان لأخويه ، فإن ما اتصف به من الصبر والكياسة ، يكفل له القدرة على معالجة اخوتـه والاتباع . ومع ان تولوي اصغر ابناء جنكيزخان يعتبر فيما يبدو اقدر الاخوة واكفأهم ، فإنه ينقص من قدره ما درج عليه من الانغماس في المباذل . وباعتبار تولوي الامير المسئول عن عقد المجلس (قوريلتاي) ، كان محط الانظار في تقرير ولاية الحكم ، فأقنع زعماء العشيرة بـأن ينفذوا رغبات جنكيزخان . اضحى اوكيتاي الخان الأعظم ، فخصّ اقاربـه بالإقطاعات الثقيلة ، فكان من نصيب اخوة جنكيزخان الاقاليم الشرقية حول نهـر آمور ومنشوريا ، واحتفظ تولوي لنفسه بأراضي الاسرة عند نهر اونون . أمـا املاك اوكيتاي الشخصية فشملت ما كان بأيدي الكرايت والنايمان من بلاد . والمعروف ان جوجي قـد مات ، غير ان ابناءه باطو وأوردا وبركه وشيبان ، حازوا الاقاليم الغربية حتى نهر الفلجا . ومع انـه اضحى للأمراء حقوق اوتوقراطية على رعاياهم ، فإنه كان لزاماً عليهم ان يطيعوا قانون المغول ، وأن يقبلوا ما

يصدر من قرارات عن حكومة الخان العليا ، التي اقامها اوكيتاي في قراقورم . ولم تتعرض وحدة الامبراطورية المغولية للضعف [١] .

لما عاد جنكيزخان بجيوشه الى منغوليا ، غادر جلال الدين خوارزمشاه مأواه في الهند ، فالتف حوله بقايا جيوش ابيه ، ولقي جلال الدين خوارزمشاه ترحيباً كبيراً في فارس ، على انه محرر البلاد من المغول ولم تحل سنة ١٢٢٥ حتى صارت له السيطرة على الهضبة الفارسية واذربيجان ، وفي سنة ١٢٢٦ غدت له السيادة على بغداد . وإذ اخذت مملكة جلال الدين خوارزمشاه تهدد الايوبيين ، صارت عاملاً بالغ الأهمية في سياسة الفرنج بالشام ، غير ان المسيحيين بأقصى الشمال لم يلقوا في جلال الدين إلا جاراً يفوق المغول في انزال الضرر . إذ انه اغار سنة ١٢٢٥ على بلاد الكرج ، فأرسلت اليه روسودان ملكة الكرج ، وشقيقة جورج الرابع ، ولم تكن متزوجة ، ولم تكن عذراء ، جيشاً لقتاله . والمعروف ان زهرة الفروسية الكرجية سقطت منذ اربع سنوات في معركة خناني ، كما ان عساكرها تعرضوا في سهولة ويسر للهزيمة ، في جارنهي ، الواقعة على الطرف الجنوبي لمملكتها . وإذ ولت الملكة الأدبار الى قطيس ، احتل جلال الدين تفليس عاصمة بلاد الكرج ونهبها ، فأضاف الى مملكته جميع وادي نهر كور . وما قام به الكرج من محاولة لاسترداد ما فقدوه من الاقاليم ، انتهت بكارثة حلت بهم سنة ١٢٢٨ . فأضحت مملكة الكرج قاصرة على املاكها الواقعة على البحر الاسود ، فلم تعد بالغة القيمة باعتبارها المعقل الواقع في الشمال

---

(١) انظر : Grousset, L'Empire Mongol, pp. 284 - 291.

الشرقي للعـالم المسيحي ، وباعتبارها دولة تستطيع ان تتحدى المسلمين في آسيا الصغرى [١] .

على ان المغول عادوا الى الغرب بعد فترة ليست طويلة . اذ كان لا بدّ لهم اول الامر ان يسحقوا ثورة اسرة كين في الصين الشمالية . غير انـه حدث في اوائل سنة ١٢٣١ ان ظهر في فارس جيش مغولي ضخم بقيادة شورماجان ، فأفاد من ذكرى غارة المغول السابقة على هذا الاقليم ، فلم يصادف مقاومة أثناء مسيره من خراسان الى أذربيجان . فهرب أمامه جلال الدين الذي لم يلبث ان مات في احوال غامضة في كردستان . أما جنوده من الخوارزمية فاقتفوا أثره في الفرار ، ثم اجتمعوا من جديد في الجزيرة حتى يكونوا في الوقت الراهن بعيدين عن متناول الجموع المغولية . ومن ثم صاروا يؤجرون أنفسهم للأمراء الايوبيين المتنافسين ، حتى نزلت بهم الضربة القاصمة سنة ١٢٤٦ قرب حمص . فأضاف القائد المغولي شورماجان كل شمال فـارس وأذربيجان الى الامبراطورية المغولية ، وظلّ يحكم هذا الاقليم من سنة ١٢٣١ حتى سنة ١٢٤١ ، من معسكره في موقان ، قرب بحر قزوين . ثم أغار شورماجان على بلاد الكرج . اذ ان الملكة

---

(١) انظر ترجمة حيـاة جلال الدين التي ألفها كاتبه النسوي ، ونشرها هوداس ، وأعاد نشرها بالقاهرة حافظ حمدي .

Browne, op. cit. pp. 447 - 450.

d'Ohsson, Histoire des Mongols, *I*, pp. 255 - 259, 306.

Georgian Chronicle, (ed. Brosset), *I*, pp. 324 - 331.

عالج هذا المصدر ما أصاب بلاد الكرج من انهيار .

روسودان احتلت تفليس من جديد ، بعد زوال جلال الدين ، غير انها فرّت مرة اخرى الى قطيس فاستولى المغول على الشطر الشرقي من بلاد الكرج . على ان الكرج ، بعد ان انتهت شدائد وفظائع الفتح المغولي ، صاروا يؤثرون المغول على الخوارزمية ، لما اشتهرت به ادارتهم من الكفاية والقدرة . فأضحت الملكة رسودان نفسها ، سنة ١٢٤٣ من أتباع المغول ، بعد ان تم الاتفاق على ان يكون لابنها كل مملكة الكرج ، يحكمها تحت السيادة المغولية [١] .

على ان المسيحيين في أقصى الشمال لم تتوافر لهم الطمأنينة ، ففي ربيع سنة ١٢٣٦ ، احتشد جيش مغولي ضخم شمالي بحر آرال ، بقيادة باطو بن جوجي ، الذي شملت أملاكه تلك السهوب . وصحب باطو ، اخوته وأربعة من أبناء أعمامه ، كيوك ، وقاذان ولدا اوكيتاي ، وبايدار بن جغتاي ، ومونك بن تولوي . أما القائد الشيخ سبوتاي فكان رئيساً لأركان حرب الجيش . ولما فرغ الجيش المغولي من قمع القبائل التركية النازلة على نهر الفلجا ، زحف الى البلاد الروسية في خريف سنة ١٢٣٧ ، فاستولى عنوة على ريضان في ٢١ ديسمبر ، ودارت مذبحة هلك فيها اميرها وجميع سكان المدينة . ثم سقطت كولومانا بعد بضعة ايام . وفي اوائل السنة الجديدة، ١٢٣٨ ، هاجم المغول مدينة فلاديمير الكبيرة ، ولكنها لم تصمد للقتال إلا ستة ايام ، واقترن سقوطها في ٨ فبراير سنة ١٢٣٨ بمذبحة جماعية اخرى .

---

(١) انظر : Browne, op. cit. *II*, pp. 449 - 450.
d'Ohsson, *III*, pp. 65 - 66.
Georgian Chronicle, *I*, p. 343.

وتعرضت سوذدال للنهب حوالي ذلك الوقت ، وتلى ذلك الاستيلاء وتدمير المدن الاخرى ، في روسيا الوسطى ، أمثال موسكو ، ويوريبف ، وجاليش ، وبريسلاف ، وروستوف ، وياروسلاف . وحدث في ٤ مارس سنة ١٢٣٨ ، ان حلت الهزيمة ، بالامير الكبير يوري ، سيد فلاديمير ، ولقي مصرعه على ضفاف نهر سيتي . ولم تلبث تفير وتورزوك ان سقطتا في ايدي المغول بعد المعركة ، وتقدم الغزاة فاجتازوا تلال فالداي ، قاصدين نوفجورود . وواتى تلك المدينة الحظ الطيب ، بأن امطار الربيع غمرت ما يحيط بها من المستنقعات . فانسحب باطو ، وأمضى ما تبقى من السنة في سحق ، آخر ما صادفه من المقاومة من قِبل القبجاق ، بينما قهر ابن عمه ، مونك ، اللان والقبائل النازلة بشمال القوقاز ، ثم قـــام بغارة استكشافية حتى بلغ كيف .

غارة المغول على اوربا :

وقـــاد باطو ، في خريف سنة ١٢٤٠ ، الجيش المغولي الرئيسي الى اوكرانيا ، فنهب شرنيجوف ، وبريسلافل ، واستولى عنوة على كييف في ٦ ديسمبر سنة ١٢٤٠ ، بعد ان استبسلت في الدفاع . وتعرض للدمار مقادير كبيرة من كنوزها العظيمة ، ولقي معظم سكانها مصرعهم ، على انه جرى الإبقاء على حياة ديمتري قائـــد الحامية ، لشجاعته التي استرعت إعجاب باطو . ثم تحركت من كييف شعبة من الجيش المغولي بقيادة بايدر ابن جغتاي ، ومضت نحو الشمال الى بولندا ، فنهب ساندومير وكراكوف . فاستنجد الملك البولندي بالفرسان التيوتون النازلين على ساحل بحر البلطيق . غير ان جيوشهم المتحدة بقيادة هنري دوق سيليزيا تعرضت في ٩ ابريل لهزيمة ساحقة ، بعـد معركة عنيفة دارت رحاها في فاهلشتات ، قرب

ليبجنتز ، غير ان بايدر لم يجرؤ على ان يمضي نحو الغرب ، الى أبعد من ذلك . فاجتاح سيليزيا وخرّبها ، ثم توجه نحو الجنوب الى بلاد المجر ، بعد ان اجتاز مورافيا .

وفي تلك الأثناء ، مضى باطو وسبوتاي الى غاليسيا ، بعد ان ساقا امامها جموعاً من الآبقين الذين استبدّ بهم الخوف ، وانتموا الى كل أقوام الاستبس . ثم اجتازا جبال الكريات الى سهل المجر . وقاد بيلا ملك المجر جيشه للقائها ، غير انه حلت به هزيمة ساحقة في ١١ ابريل عند جسر موهي على نهر سايو . فتدفق المغول على بلاد المجر ، ونفذوا الى كرواتيا وواصلوا زحفهم حتى بلغوا سواحل بحر الادرياتي . وأقام باطو بضعة شهور في بلاد المجر ، ولعله أراد ان يضيفها الى الامبراطورية المغولية ، غير انه حدث في أوائل سنة ١٢٤٢ ان قدم عليه الرسل تحمل النبأ بأن الخان الكبير اوكيتاي مات في قراقورم في ١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ (١) .

لم يكن بوسع باطو ان يكون بعيداً عن منغوليا ، عند تقرير ولاية الحكم . فالمعروف انه اشتد نزاعه ، اثناء الحملة الروسية ، مع ابني عميه ،

---

(١) انظر : Bretschneider, op. cit. *I*, pp. 308 - 334.
(استند بريتشنيدر الى المصادر الشرقية) .
Novgorod Chronicle, pp. 74 - 76, 285 - 288.
وردت احداث حملة المغول بالتفصيل في :
Strakosch - Grossman, Der Einfall den Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242.
Sacerdoteanou, Marea Invazie Tatara Si Sud - estul European.

كيوك بن اوكيتاي ، وبوري حفيد جغتاي . فانسحبا غاضبين ، وعادا الى وطنهما . ونهض اوكيتاي لمساندة باطو على ابنه ، الذي طرده وأرسله الى المنفى . أما كيوك ، اكبر ابناء الخان ، فلا زال قوياً . ورشح اوكيتاي لولاية الحكم بعده ، حفيده شيريمون ، الذي مات ابوه كوشو ، وهو يقاتل الصينيين . على ان شيريمون كان شاباً لم يسبق له التجربة . ولما تولت الوصاية على العرش ارملة اوكيتاي ، خاتون توراكيتا ، وهي اميرة تنتمي الى النايمان ، عزمت على الا يلي العرش سوى كيوك . فدعت الى عقد المجلس (قوريلتاي) . وعلى الرغم من اعتراف الامراء بسلطتها ، الى ان يتم تنصيب خان اكبر جديد ، فإنها لم تستطع ان تحمل امراء العصب ورؤساء العشيرة بقبول كيوك إلا بعد خمس سنوات ، وقد تولت ادارة الحكومة اثناء تلك السنوات . ومع انها اشتهرت بالنشاط ، فإنها كانت معروفة بالشراهة للمال . وعلى الرغم من انها كانت مسيحية بحكم ولادتها ، فإنها تعلقت بأحد المسلمين وهو عبد الرحمن الذي تناولته اسمار الناس وأحاديثهم ، بأنه هو الذي عجّل بوفاة اوكيتاي . وما اشتهر به عبد الرحمن من الفساد والنهم ، جعله بغيضاً عن جميع الناس ، غير انه ما من احد كان عنده من القوة مـــا يكفي للتخلص من الوصاية [١] .

لم يكن باطو مستعداً للانغماس في مغامرات حربية في الغرب إلا بعد ان تحققت ولاية الحكم . إذ انه ابقى حاميات عسكرية في روسيا ، غير

---

(١) انظر : Grousset, op. cit. pp. 303 - 306.
Bar Hebraeus, (trans. Budge), pp. 410 - 411.

ان اوربا الوسطى حظيت بفترة راحة وهدوء . ولم يواصل المغول الزحف إلا في غرب آسيا ، حيث انفذت الوصية قائـدا كفئا نشطا اسمه بيجو ليكون حاكما .

المغول في آسيا الصغرى سنة ١٢٤٢ :

حدث في اواخر سنة ١٢٤٢ ان غزا بيجو بلاد سلطان السلاجقة ، كيخسرو ، الذي كان وقتئذ بأقليم الجزيرة ، يسعى الى أن يضيف الى بلاده كل الاراضي التي خلت من سادتها وأمرائها بعد اختفاء جلال الدين خوارزمشاه . ففي اوائل الربيع سقطت ارزن الروم في ايدي المغول ، وحلّت بجيش السلطان هزيمة فادحة ، في ٢٦ يونيه سنة ١٢٤٣ ، عنـد صدغ ، قرب ارزنجان ، ثم زحف بيجو على قيصرية مازاكا . فـلم يسع السلطان كيكاوس إلا أن يعلن خضوعه ، ويقبل السيادة المغولية ، ولم يلبث جاره ، هيثوم ملك ارمينية ، ان احتذى حذوه [١] .

كان من المتوقع ان يدبر أمراء العالم المسيحي في الغرب القيام باجراء مشترك لمواجهة هذا التهديد بالغ الخطورة . فحينما دمّر شورماجان سلطان الخوارزمية في فارس ، سنة ١٢٣٢ ، وتعرّض لتهديد المغول ، مقر قيادة

---

(١) انظر : Ibn Bibi, (ed. Houtsma), IV, pp. 234 - 247.
Bar Hebraeus, (trans. Budge), pp. 406 - 409.
Vincent of Beauvais, Speculum Historiale, (Douai edition), XXX, pp. 147, 150.
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 694 - 696.

طائفة الحشيشية في آلموت بجبال فارس ، فأوفد الحشيشية الرسل الى اوربا لتحذير المسيحيين ، والتماس النجدة منهم [1] . ولما تراءى للبابا جريجوري التاسع ان مصير اوربا الوسطى قد تقرر ، حثّ على اجراء محالفة كبيرة لإنقاذها . غير أن الامبراطور فردريك الثاني الذي انصرف وقتذاك الى غزو الإمارات البابوية بايطاليا ، رفض ان يتحول عن غرضه . فأصدر الاوامر الى ابنه كنراد ، الذي كان يحكم المانيا ، بأن يعبىء الجيش الالماني ، كما انه طلب المساعدة من ملكي فرنسا وانجلترا [2]. فلما انسحب المغول الى روسيا في السنة التالية ، عاد العالم المسيحي في الغرب الى اوهامه وأفكاره الكاذبة . إذ أن اسطورة بريستر يوحنا التي اسهمت في ذيوع ما انطوت عليه الرؤيا من اعتقاد بأن الخلاص سوف يجيء من الشرق ، تركت طابعاً قوياً . فما من احد تريث كيما يفكر في انه اذا كان وانك خان ملك الكرايث هو يوحنا الذي يكتنفه الغموض ، فليس من الراجح ان يؤدي قاتله نفس الدور المنسوب اليه . إذ ان كل فرد كان يؤثر ان يتذكر بأن المغول قاتلوا المسلمين ، وبأن الاميرات المسيحيات تزوجن في الأسرة الامبراطورية . فقد لا يكون خاقان المغول الاكبر مسيحياً ، وقد لا يكون

---

(١) انظر : Pelliot, « Les Mongols et la Papauté », in Revue de l'Orient Chrétien, vol. XXIII, pp. 238 ff.

(٢) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, V, pp. 360 - 841, 921 - 985.

(وردت به مجموعة من الرسائل عن الخطر المغولي) .

فعلا بريستر يوحنا ، غير انه كان مأمولاً ان يوطن نفسه على الحرص على مساندة العقيدة المسيحية إزاء قوى الاسلام . على ان ظهور حليف قوي في الشرق ، جعل الفرصة فيما يبدو ناضجة للدعوة الى حملة صليبية جديدة ، وكان المحارب الصليبي المتحمس جاهزاً ، في متناول اليد [1] .

---

(١) انظر : Pelliot, loc. cit.
Martinescou, « Le Prêtre Jean », in Bulletin de la Section Historique de l'Academie Roumaine, vol. X.
Langlois, La Vie en France au Moyen Age, vol. III, pp. 44 - 56.

الفصل الثاني

القديس لويس

في ديسمبر سنة ١٢٤٤ وقع لويس التاسع ملك فرنسا فريسة لحمّى الملاريا التي كادت تودي بحياته . وإذ أشرف على الموت ، نذر انه اذا أبلّ من مرضه ، فسوف يخرج في حملة صليبية . على انه نجا من الموت ، ولم يكد يستردّ صحته ، حتى شرع في إعداد الحملة . كان الملك وقتذاك في الثلاثين من عمره ، طويل القامة ، ممتلىء الجسم ، أشقر الشعر والبشرة يعاني دائماً مرضاً جلدياً erysipelas والأنيميا ، غير ان أخلاقه لم تفتقر ابداً الى القوة . وما اتصف به من قوة الضمير والفضيلة لم يضارعه فيها إلا قلة من البشر . وأحسّ لويس ، باعتباره ملكاً ، بأنه مسؤول امام الله عن سعادة شعبه . فليس لأحد من رجال الكنيسة ، ولو كان البابا نفسه ، ان يحول بينه وبين واجبه . فاعتبر من واجبه ان يقيم حكومة عادلة . ومع انه ليس مبتدعاً ، وأن ضميره حمله على مراعاة ما لأتباعه من حقوق إقطاعية ، فانه توقع من هؤلاء الأتباع ان يؤدوا واجبهم ، فاذا فشلوا فلا بد من انتقاص سلطاتهم . هذا التعلق الشديد بالواجب أكسبه إعجاب

الناس به ، ومنهم خصومه . وزاد في هذا الإعجاب ما اشتهر به من الورع والتقوى والتواضع ، فضلاً عما انفرد به من التقشف . أما مقياس الشرف عنده فكان رفيعاً عالياً ، فلم ينقض مطلقاً عهداً قطعه على نفسه . ولم تأخذه الرحمة والشفقة بمن يرتكبون الاذى . على انه كان فظاً وقاسياً في علاقاته مع الملحدين والكفار . ولمس اصدقاؤه المقربون ما حفل به حديثه من الرقة والعذوبة ، وما اتصف به من الدعابة اللطيفة ، غير انه كان يحرص على الابتعاد عن وزرائه وأتباعه . ويعتبره أبناؤه سيداً مستبداً ، أما زوجته الملكة ، مرجريت بروفانس ، فكانت فتاة مرحة ، شديدة الاعتزاز بنفسها ، غير انه روّضها على ان تتخذ من السلوك ما يجعلها جديرة بأن تكون زوجة قديس [١] .

وفي ذلك العصر، الذي ظفرت فيه الفضيلة بإعجاب الناس ، وقلما تحققت فيه الفضيلة ، فاق الملك لويس كل اقرانه من الملوك والأمراء . ولذا كان من الطبيعي ان يعرب لويس عن رغبته في المضي الى الحرب الصليبية . وما حدث فعلاً من تعلق لويس بالحركة الصليبية تلقاه الناس بالارتياح والسرور، إذ اشتدت الحاجة وقتذاك الى حملة صليبية . حدث في ٢٧ نوفمبر سنة ١٢٤٤ ، عقب معركة غزة ، أن ابحر من عكا ، جاليران اسقف بيروت ، كيما ينهي الى امراء الغرب ، بالنيابة عن روبرت بطريرك بيت المقدس انه لا بد من ارسال امداد ، حتى لا تتعرض المملكة بأسرها للفناء . وفي

(١) تجلت طباع لويس في ترجمة حياته التي كتبها كل من جوانفيل ، ووليم نانجيس ، ووليم سانت باثوس ، الذي تلقى الاعتراف من الملكة مرجريت ، والترجمة الاخيرة ، وهي التي كتبها وليم سانت باثوس ، لم يكن المقصود منها إلا تبرير تطويبه وتقديسه .

يونيه سنة ١٢٤٥ عقد البابا انوسنت الرابع ، الذي طردته من ايطاليا قوات الامبراطور فردريك الثاني ، مجمعاً في مدينة ليون الامبراطورية ، للتشاور فيما ينبغي اتخاذه لكبح جماح فردريك . ولحق بالبابا في ليون ، الاسقف جاليران وألبرت بطريرك انطاكية . والواقع ان البابا انوسنت استاء من الملك لويس ، الذي أصرّ على ان يرفض إقرار كل مـا اتخذه البابا من اجراءات ازاء الامبراطور ، غير انـه عند سماع البابا ما جلبه الاسقف جاليران من الشرق من تقرير قاتم ، أقرّ عن طيب خاطر مـا بذله الملك لويس من وعود للقيام بحملة صليبية ، وأرسل الكاردينال اودو ، اسقف فراسكاتي للدعوة الى حملة صليبية في جميع انحاء فرنسا (١) .

استغرقت استعدادات الملك ثلاث سنوات . إذ تقررت جباية ضرائب استثنائية للانفاق على الحملة ، ولم يعف من أدائها رجال الدين ، ممـا أثار غضبهم . وكان لا بد من تنظيم حكومة البلاد . فتقرر ان تتولى الوصاية مرة اخرى ، الملكة الوالدة بلانش التي ثبتت كفايتها وقدرتها على الحكم ، اثناء حداثة ابنها العاصفة . وكان لزاماً على الملك لويس ان يحلّ بعض المشاكل الخارجية . فلا بد من اقناع ملك انجلترا بالمحافظة على السلام ،

---

(١) انظر : Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, V, 2, pp. 1635, 1651 - 1653, 1655 - 1661.
Ms. of Rothelin, pp. 566 - 567.
Joinville, ed. Wailly, p. 37.
William of Saint - Pathus, pp. 21 - 22.
William of Nangis, R. H. F. vol. XX, p. 352.

اثناء غيابه في الحرب الصليبية (١) . اما العلاقات مع الامبراطور فردريك فكانت بالغة الدقة ، فالمعروف أن الملك لويس حظي بتقدير الامبراطور فردريك وامتنانه ، لما التزمه من الحياد الدقيق في النزاع بين البابوية والامبراطورية ، غير انه كان لزاماً عليه في سنة ١٢٤٧ ان يهدد بالتدخل حينما اقترح فردريك على حلفائه ان يهاجموا البابا ذاته في ليون . يضاف الى ذلك ، ان فردريك كان والد كنراد الملك الشرعي لبيت المقدس ، فليس للملك لويس ان يدخل بلاد كنراد إلا بعد الحصول على اذن منه . ويبدو ان المبعوثين الفرنسيين اوقفوا الامبراطور فردريك ، فيما يبدو ، على الحملة التي نوى الملك لويس القيام بها ، وأن الامبراطور فردريك نقل خبرها الى سلطان مصر ، على الرغم من إظهار عطفه عليها . وكان لا بد ايضاً للملك لويس ان يلتمس السفن اللازمة لنقل الحملة الصليبية الى الشرق . فوافقت جنوه ومرسيليا ، بعد مفاوضات جرت معها على ان تمدّا الحملة بما تحتاجه من السفن . اما البنادقة الذين جزعوا فعلاً لكل خطة ترمي الى قطع علاقاتهم التجارية الطيبة مع مصر ، فقد زاد في كراهيتهم ما حدث (٢) .

---

(١) انظر : Joinville, pp. 41 - 42.
William of Nangis, loc. cit.
Powicke, King Henry III and the Lord Edward, I, p. 239.

(٢) انظر : Hefel - Leclerc, op. cit. V, 2, pp. 1681 - 1683.
Al - Aini, p. 201.
يشير العيني الى ان الامبراطور فردريك حذر السلطان .

الملك لويس يبحر من ايج مورتز سنة ١٢٤٨ :

وجرى آخر الأمر ، ان غــادر الملك لويس باريس ، في ١٢ اغسطس سنة ١٢٤٨ ، ثم ابحر في ٢٥ اغسطس من ايج مورتز قاصداً جزيرة قبرص وصحبه في الرحيل ، الملكة وإثنان من اخوته ، هما روبرت كونت ارتوا ، وشارل كونت انجو ، ثم سار في اثره ابنا عمه هيو دوق برجنديا ، وبطرس كونت بريتاني ، وكلاهما كانا من المحاربين الصليبيين سنة ١٢٣٩ ، وتلاه ايضاً هيو العاشر لوزجنان ، كونت لامارش ، وزوج والدة الملك هنري الثالث ، الذي اشترك وهو شاب ، في الحملة الصليبية الخامسة ، وكذا وليم دامبيير كونت فلاندر ، وجاي الثالث كونت سانت بول ، الذي اشترك ابوه في الحملتين الصليبيتين الثالثة والرابعة ، ويوحنا كونت ساربروك وابن عمــــه يوحنا جوانفيل ، صنجيل شامبانيا ، وهو مؤرخ الحملة ، فضلاً عن عدد كبير من صغار السادة . واستقل فريق منهم السفن في ايج مورتز ، بينما استقلها فريق آخر من مرسيليا . أما جوانفيل وابن عمه ، بفرسانهما ، البالغ عددهم ثمانية عشر فارساً ، لكل منهما تسعة فرسان ، فاستأجرا سفينة خاصة من مرسيليا (١) .

واقتفى اثره جماعة من العساكر الانجليزية بقيادة وليم ايرل ساليسبوري حفيد هنري الثاني ، وروزاموند الاشقر ، كما ان سادة آخرين من الانجليز سبق لهم ان اعدوا انفسهم للحاق بالحملة الصليبية ، غير ان الملك هنري

---

(١) انظر : Joinville, pp. 39 - 40, 43 - 46.
Matthew Paris, V, pp. 23 - 25.

الثالث لم يشأ ان يفقد خدماتهم ، فأوعز الى البابا ان يمنعهم من المسير . وقـــدم من اسكتلندة باتريك ايرل دنبار ، الذي مات في مرسيليا اثناء رحيله (١) .

وصل الاسطول الملكي الى ليماسول في ١٧ سبتمبر سنة ١٢٤٨ ، فهبط اليها الملك والملكة في صبيحة اليوم التالي . وفي اثناء الايام القليلة التالية ، اجتمعت في قبرص العساكر التي تؤلف الحملة الصليبية . وبالإضافة الى النبلاء الذين جاءوا من فرنسا ، قدم الى قبرص ايضاً ، من عكا نائب مقدم الاسبتارية يوحنا روناي ، ومقدم الداوية ، وكثير من بارونات سوريا . فاستقبل هنري ملك قبرص جميع القادمين بكل مظاهر الضيافة والمودّة (٢) .

ولـــا جرت مناقشة خطة الحملة ، وافق الجميع على ان تكون مصر

---

(١) انظر : Matthew Paris, IV, pp. 628 - 629.
V, pp. 41, 76.

على ان عدداً كبيراً من المحاربين الصليبيين الانجليز تحللوا من عهودهم بما بذلوه من اموال . انظر : Matthew Paris, V, pp. 73 - 74.

وأراد سيمون مونتفورت ان يتوجه مع الصليبيين ، غير ان الملك هنري الثـــالث منعه من ذلك . انظر : Powicke, op. cit. I, p. 214.

ولاح الامل بأن يقدم هاكون ملك النرويج في جماعة من العساكر . انظر : Matthew Paris, IV, pp. 650 - 652.

ووردت اشارة الى وفاة باتريك دنبار في :
Estoire d'Eracles, II, p. 436.

(٢) انظر : Joinville, pp. 46 - 47.
Gestes des Chiprois, p. 147.

الهدف الذي تقصده . إذ كانت مصر اخصب اقاليم الامبراطورية الايوبية ، وأيسرها منالاً عند الهجوم ، وتذكر الرجال كيف ان السلطان كان يود اثناء الحملة الصليبية الخامسة ان يتنازل عن بيت المقدس مقابل جلاء الفرنج عن دمياط . ولما تمّ اتخاذ القرار ، اراد لويس ان يشرع على الفور في الاعمال الحربية . غير ان مقدمي الاسبتارية والداوية وبارونات سوريا اثنوه عن عزمه . إذ لن تلبث العواصف الشتوية ان تهب ، وسوف يصير من الخطر الاقتراب من شاطىء الدلتا ، بما زخرت به من جسور رملية ، لا يصح الاطمئنان اليها ، فضلاً عن ندرة الموانى . يضاف الى ذلك انهم كانوا يأملون في ان يقنعوا الملك بالتدخل فيما شجر بين الايوبيين من منازعات اسرية . ففي صيف سنة ١٢٤٨ عمد الناصر يوسف امير حلب الى طرد ابن عمه الاشرف موسى من حمص ، فاستنجد الامير المعزول بالسلطان الصالح ايوب ، الذي قدم من مصر ، وأنفذ جيشاً لاسترداد حمص . وكان الداوية قد دخلوا فعلاً في مفاوضات مع السلطان ، فاقترحوا عليه انه اذا تنازل للفرنج عن بعض الاراضي ، فإنه سوف يفوز منهم بقوات اضافية . غير ان الملك لويس لم يكن لديه ما يدعوه للاهتمام بهذه الخطة ، إذ انه لم يختلف عن سائر الصليبيين الزائرين في القرن السابق ، في انه لم يقدم إلا لقتال المسلمين ، لا للانغماس في الدبلوماسية . فأمر الداوية بأن يقطعوا مفاوضاتهم مع السلطان الصالح ايوب [١] .

(١) انظر : Joinville, pp. 47, 51, 52.
William of Nangis, pp. 367 - 369.
Abu'l Feda, p. 125.
Makrizi, X, pp. 198 - 199.

بيان دل كاربيني وسفارته الى المغول ١٢٤٥ – ١٢٤٧ :

على ان المحاذير التي منعت الملك لويس من الوصول الى اتفاق مع المسلمين لم تطبق على المغول الوثنيين . وتوافرت له سابقة سليمة . ففي سنة ١٢٤٥ عزّز البابا انوسنت الرابع جهوده لإنقاذ العالم المسيحي في الشرق الادنى ، بأن أنفذ سفارتين الى منغوليا ، الى بلاط الخان الكبير . فغادرت السفارة الاولى برئاسة الراهب الفرنسيسكاني يوحنا بيان دل كاربيني ، ليون في ابريل من تلك السنة ، وبعد ان أمضت خمسة عشر شهراً في اجتياز روسيا وسهول آسيا الوسطى ، وصلت الى المعسكر الامبراطوري في سيرا اوردو الواقع قرب قراقورم ، في اغسطس سنة ١٢٤٦ ، في الوقت المناسب ، كيما تشهد انعقاد المجلس (قوريلتاي) الذي انتخب كيوك خاناً كبيراً . وأحسن كيوك استقبال رسول البابا ، نظراً لكثرة عدد النساطرة بين مستشاريه ، غير انه حينما قرأ رسالة البابا التي يطلب فيها ان يعتنق المسيحية ، كتب رداً عليها بأن طلب الى البابا ان يعترف بسيادته العليا ، وأن يقدم عليه مع سائر امراء الغرب ليحلفوا يمين التبعية . ولما عاد يوحنا بيان دل كاربيني الى المجلس البابوي في نهاية سنة ١٢٤٧ ، قدّم الى البابا انوسنت الرابع مع هذه الرسالة المخيبة للآمال ، تقريراً مفصلاً ، أشار فيه الى ان المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح (١) . غير ان البابا انوسنت

---

(١) انظر : Pian del Carpine, Historia Mongolorum, (ed. Pulle), esp. pp. 115 ff, 125 - 126.

اورد تقريراً مفصلاً عن هذه السفارة ، ولا سيما ما جاء عنها في صفحة ١١٥ وما يليها ، وأثبت رسالة كيوك في صفحتي ١٢٥ – ١٢٦ .

الرابع لم يرض لأوهامه ان تتبدد نهائياً . اذ ان سفارته الثانية التي رأسها الراهب الدومنيكاني اسكلين اللومباردي ، ارتحلت بعد فترة قصيرة مضت على السفارة الاولى ، فاجتازت سوريا ، والتقت في تبريز بالقـائد المغولي بيجو في مايو سنة ١٢٤٧ . وعلى الرغم من ان اسكلين صادف في بيجو رجلاً يميل الى الاعتداء والهجوم ، فضلاً عن انه ليس مقبولاً ، فان بيجو أعرب عن استعداده لمناقشته في احتمال قيـام تحالف لمناهضة الايوبيين . اذ جعل خطته تستند الى مهاجمة بغداد ، ولذا يلائمه ان تقوم حملة صليبية بصرف مسلمي الشام عنه . فأنفذ بيجو رسولين ، ايبك وسركيس ، ومن المحقق ان سركيس كان من النساطرة ، ليصحبا اسكلين في عودته الى روما ، ومع انه لم يكن لهذين الرسولين سلطات السفراء المفوضين ، فان الآمال انتعشت من جديد في الغرب . مكث هذان الرسولان نحو سنة عند البابا ، ثم حدث في نوفمبر سنة ١٢٤٨ ان أخطرا بأن يعودا الى بيجو ، بعد ان جرى الاعراب لهما عن الاسف بأنه لم يطرأ شيء جديد عن التحالف [١] .

وبينما كان الملك لويس في قبرص ، وصل الى نيقوسيا في نوفمبر سنة ١٢٤٨ مبعوثان نسطوريان ، وهما مرقص وداود ، وأنهيا بأن أنفذهما القائد المغولي الجيهيداي ، الذي كان مندوباً سامياً للخان الكبير في الموصل . وحمل المبعوثان رسالة تحدثت في عبارات جافة غليظة عن عطف المغول على المسيحية . فأعرب لويس عن اغتباطه ، وبادر بإرسال بعثة مؤلفة من

---

(١) انظر : Pelliot, « Les Mongols et la Papauté », Revue de l'Orient Chrétien, vol. XXVIII, pp. 112 , 131.

رهبان دومنيكانيين ، برئاسة اندرو لونججيمو وأخيه ، اللذين يتحدثان اللغة العربيــة . والواقع ان اندرو كان كبير مندوبي البابا فيما دار اخيراً من مفاوضات مع المونوفيزتيين . وحمـــل الاخوان معهما كنيسة متنقلة تعتبر هدية تليق بخان بدوي حديث العهد باعتناق المسيحية ، وما يلزم مذبحها من المخلفات الدينية ، فضلاً عن هــدايا اخرى دنيوية . فغادرا قبرص في ينــاير سنة ١٢٤٩ ، قاصدين معسكر الجيهيداي ، فأرسلهما الى منغوليا . ولما وصلا الى قراقورم تبين لهما ان كيوك قد مات ، وأن ارملته اغول قايميش تولت الوصاية على العرش . فاستقبلت البعثة في شيء من الظرف ، غير انها اعتبرت هدايا الملك اتاوة من تابع لسيد ، على ان المشاكل الأسرية في وطنها منعتها من إرسال حملة ضخمة الى الغرب ، حتى لو كانت تنوي ذلك . ثم عاد اندرو بعد ثلاث سنوات ، ولم يحمل معه إلا رسالة تؤكد سيادتها ، فانطوت على شكر الوصية لما يبديه تابعها من الاهتمام بهـا ، وطلبت الوصية انه لا بد للتابع ان يبعث اليها كل سنة هدايا من هذا القبيل . وارتاع الملك لويس لهذا الردّ ، غير انه ظلّ يأمل في ان يتحقق في يوم من الايام التحالف مع المغول [١] .

---

(١) انظر : Pian del Carpine, op. cit. pp. 174 - 195.

وما يدعو للشك ان الجيغيداي كان مفوضاً بأن يرسل سفارته . اورد خبر وصولها ، وسفارة لويس ، كل من :

Joinville, pp. 47 - 48.
Ms. of Rothelin, p. 469.
Matthew Paris, V, pp. 80, 87.

اعتبر ماثيو باريس مـا تردد من شائعات عن تحول ملك التتار الى المسيحية ، اكثر الامور إثارة للابتهاج والمرح ، (Jocundissimi) .

الحملة الصليبية تصل قبالة دمياط ، سنة ١٢٤٩ :

على هذا النحو جرى استنفاد فترة انتظار الحملة في قبرص ، من الناحية الدبلوماسية . وحدث قبل حوالي سنة ان ارسل الملك لويس وكلاءه ، ليجمعوا ما يلزم للجيش من مؤن وذخيرة ، وتحقق توفير الذخيرة والسلاح للجيش ، غير ان الوكلاء لم يأملوا في ان يكون لديهم من المؤن ما يكفي هذا العدد الكبير من العسكر لأكثر من شهر او شهرين . ومع ذلك فانه لم يتيسر للحملة من الناحية العملية ، ان تبحر الى مصر إلا في مايو سنة ١٢٤٩ . فحينما حلّ الربيع طلب الملك لويس الى الجاليات المحلية من التجار الايطاليين ان يمدوه بالسفن . وإذ لم يقرّ البنادقة الحملة الصليبية بأكملها ، لم يبذلوا له المساعدة . وفي مارس سنة ١٢٤٩ بدأت حرب سافرة بين الجنويين والبيازنة على امتداد الساحل السوري . وتعرض الجنويون الذين اعتبرهم لويس سنده الأساسي ، لأسوأ آثار الحرب . واستطاع يوحنا ابلين سيد ارسوف ، بعد نحو ثلاثة أسابيع ان يحمل الجاليات الايطالية في عكا على ان تعقد هدنة لمدة ثلاث سنوات . وفي نهاية مايو سنة ١٢٤٩ ، تيسر العثور على السفن اللازمة للصليبيين [١] . وفي تلك الأثناء استقبل الملك لويس في نيقوسيا الزائرين والسفارات . فبعث اليه هيثوم ملك أرمينية بالهدايا النفيسة ، واستجاب لطلب بوهمند امير انطاكية ، بأن أمدّه بجماعة

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 46 - 47.
Estoire d'Eracles, II, pp. 436 - 437.
Matthew Paris, V, p. 70.
William of Nangis, p. 368.

من الرماة ، عدّتهم ستمائة ، لحماية إمارته من قطّاع الطرق من التركمان ، وارتحلت الى نيقوسيا ماريا بريين امبراطورة اللاتين بالقسطنطينية ، والتمست من الملك ان يساعدها على الامبراطور البيزنطي في نيقية . ومع أن لويس أظهر عطفه ، فإنه أخبرها بأنه ينبغي ان تكون الأسبقية لتوجيه الحملة الصليبية لقتال المسلمين . ثم وصل آخر الامر الى قبرص ، في مايو سنة ١٢٤٩ ، وليم هاردوين امير اخايا في اربع وعشرين سفينة وكتيبة من الفرنج من شبه جزيرة المورة ، إذ ان دوق برجنديا قد أمضى مع وليم هاردوين فصل الشتاء في اسبرطة ، وأقنعه بأن يلحق بالملك في قبرص . على ان الجيش المحتشد بالجزيرة ازداد كثافة . غير ان ما اشتهرت به هذه الجزيرة الرائعة من المباهج اضعف الروح المعنوية للجيش . وكادت تنفد كميات الطعام التي كان مفروضاً انها تكفي الحملة الموجهة الى مصر (١) .

وفي ١٣ مايو سنة ١٢٤٩ ، كان يرسي تجاه ليماسول اسطول مؤلف من مائة وعشرين سفينة كبيرة لنقل العساكر ، وعدد كبير من السفن الصغيرة ، فشرع الجيش في اتخاذ أماكنه عليها ، غير انه حدث لسوء الحظ بعد بضعة أيام ان هبت عاصفة فشتتت السفن ، حتى اذا أبحر الملك في ٣٠ مايو سنة ١٢٤٩ لم يقلع معه سوى ربع عدد الجيش ، بينما أبحر الى مصر سائر رجال الحملة متفرقين ، ووصل اسطول الملك تجاه دمياط في ٤ يونيه

(١) انظر :
Joinville, pp. 48 - 51.
Vincent of Beauvais, pp. 1315 ff.

سنة ١٢٤٩ [١] .

المعروف ان السلطان الصالح ايوب أمضى الشتاء في دمشق ، وكان يأمل في ان يفرغ عساكره من الاستيلاء على حمص ، قبل ان تبدأ غارات الفرنج . توقع اول الامر ان يهبط الملك لويس في سوريا ، غير انه لما تأكد ان الهجوم موجّه الى مصر ، رفع الحصار عن حمص ، وعجّل بالعودة الى مصر ، بعد ان أمر جيوشه بالشام ان تتبعه اليها . كان الصالح رجلاً مريضاً ، يعاني مرحلة متقدمة من مرض السلّ ، ولم يعد بوسعه ان يتولى بنفسه قيادة الجيش ، فأمر وزيره المتقدم في العمر ، فخر الدين ، صديق فردريك الثاني ، ان يتولى قيادة الجيش ، وعهد اليه بمنع الفرنج من النزول الى البر ، وأرسل الى دمياط كميات ضخمة من الذخائر وشحنها برجال قبيلة بني كنانة ، وهم من البدو المشهورين بالشجاعة ، واتخذ مقره في اشمون طناح التي تقع الى الشرق من الفرع الرئيسي لنهر النيل [٢] .

وعلى ظهر سفينة القيادة (Montjoie) ، توسل الى الملك مستشاروه بألا يحاول الهبوط الى البر إلا بعد ان تصل بقية السفن التي تقل

---

(١) انظر : Joinville, pp. 52 - 53.
William of Nangis, pp. 370 - 371.
Ms. of Rothelin, p. 589.
Abu'l Feda, p. 126.
قدر ابو الفدا عدد جيش الملك بنحو تسعة وخمسين الف رجل . انظر رسالة جاي ميلون في:
Matthew Paris, V, pp. 155 - 156.

(٢) انظر : Makrizi, X, pp. 200 - 201.
Abu'l Feda, p. 126.
Al - Aini, p. 201.

العساكر ، غير انه رفض التأجيل . ففي فجر ٥ يونيه سنة ١٢٤٩ ، بدأت عملية النزول الى الرمال الواقعة غربي مصب النهر ، متحدياً بذلك كل مقاومة من قِبل العدو . على ان معركة ضارية نشبت على حافة البحر ، غير ان ما التزم به العساكر الفرنسيون من نظام بالغ الجرأة ، وعلى رأسهم ملكهم ، وما أبداه فرسان الشرق الفرنجي ، بقيادة يوحنا ابلين كونت يافا من البسالة والإقدام ، كل ذلك أجبر المسلمين على الارتداد بعد ان تكبّدوا خسائر فادحة . فلما جنّ الليل ، سحب فخر الدين رجاله ، وتراجع الى دمياط بعد ان اجتاز اليها جسراً من السفن . وإذ استبدّ الذعر بسكان دمياط ، وساد القلق والاضطراب في حامية المدينة ، قرر فخر الدين الجلاء عن دمياط . وهرب معه كل المسلمين المدنيين ، بعد ان أشعلوا النيران في الاسواق ، غير انهم تجاهلوا أوامره فلم يدمّروا جسر المراكب . وفي صبيحة اليوم التالي علم الصليبيون من المسيحيين الذين لزموا دورهم ، ان دمياط تجردت من كل اسباب الدفاع ، فاجتازوا الجسر في موكب الانتصار ، الى المدينة (١) .

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 53 - 58.
William of Nangis, p. 371.
Ms. of Rothelin, (letter of John Sarrasim), pp. 589 - 591.
Gestes des Chiprois, pp. 147 - 148.
Matthew Paris, V, p. 81. VI, pp. 152 - 154, (letter of Robert of Artois to Queen Blanche), VI, pp. 155 - 162, (letter of Guy of Melum).
Makrizi, XIII, pp. 203 - 204.
Abu'l Feda, p. 126.
Al - Aini, pp. 201 - 223.
Abu Shama, II, p. 195.

الملك لويس في دمياط سنة ١٢٤٩ :

على ان استيلاء الفرنج على دمياط في سهولة ويسر آثار دهشتهم وابتهاجهم ، ولكن لم يكن بوسعهم في الوقت الراهن ان يواصلوا انتصارهم ، إذ ان زمن فيضان النيل لن يلبث ان يحين ، وإذ افاد لويس من التجربة المريرة التي عانتها الحملة الصليبية الخامسة ، رفض ان يواصل سيره إلا بعد ان يهبط فيضان النهر . يضاف الى ذلك ، انه كان ينتظر قدوم الامداد من فرنسا بقيادة اخيه ، الفونسو كونت بواتو . وفي نفس الوقت تحولت دمياط الى مدينة فرنجية . فأضحى المسجد الجامع مرة اخرى ، مثلما حدث سنة ١٢١٩ . كاثدرائية ، وتقرر تعيين اسقف بهـــا . واختصت الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة بعمائر المدينة ، وتم توزيع الاقطاعات النقدية على كبار سادة الشرق الفرنجي ، وحاز كل من الجنويين والبيازنة سوقاً وشارعاً مكافأة على مـــا بذلوه من خدمات ، ونجح البنادقة في سعيهم في الحصول على مكافأة مماثـــلة ، بعد ان ندموا على اظهار عداوتهم . ولقي المسيحيون الوطنيون من الاقباط المعاقبة من الملك لويس العدالة المطلقة في المعاملة ، فرحبوا بحكمه . أمـا الملكة التي توجهت الى عكا مع سائر سيدات الحملة الصليبية ، حينما غادر الجيش جزيرة قبرص ، فقـد تقررت دعوتها للحاق بالملك في دمياط . ورحب الملك ايضاً بصديق رفيع الشأن برغم ما حلّ به من فقر ، وهو بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية الذي سبق ان تعرّف به في باريس ، حيث قام الامبراطور بزيارة الملك ليحصل على المال ، بأن باعـــه المخلفات المقدسة لآلام المسيح ، التي نجت من نهب عاصمة الامبراطورية (القسطنطينية) ، على ايدي الصليبيين . وظلت دمياط طوال شهور صيف سنة ١٢٤٩ عاصمة الشرق الفرنجي . غير ان ركود الجند في

حرارة الدلتا الرطبة أدى الى تداعي روحهم المعنوية . وأخذت المؤن في النفاذ ، وتفشى المرض في المعسكر [1] .

على ان ضياع دمياط روّع العالم الاسلامي ، غير انه بينما تردد الفرنج ، بادر السلطان المريض الى اتخاذ اجراء ايجابي ، بأن عرض ، مثلما فعل ابوه قبل ثلاثين سنة ، على الفرنج ان يسترد دمياط ، مقابل التنازل عن بيت المقدس ، فلم يلق العرض إلا الرفض ، إذ أن الملك لويس ما زال يرفض التعامل مع كل مسلم . وفي تلك الاثناء أنزل السلطان ايوب العقاب بالقادة المسئولين عن ضياع المدينة (دمياط) ، فأمر باعدام أمراء بني كنانة ، وبعزل فخر الدين وكبار قادة المماليك . وأراد المماليك ان يقوموا بثورة داخل القصر ، غير ان فخر الدين أثناهم عن عزمهم ، وما أظهره من الولاء والاخلاص ، ردّه الى ما كان له من حظوة عند السلطان . فاندفعت العساكر الى المنصورة ، وهي المدينة التي معناها « المنتصرة » والتي شيدها السلطان الكامل في الموضع الذي أحرز فيه النصر على الحملة الصليبية الخامسة . أما السلطان الصالح ايوب فجرى حمله في محفة الى المنصورة

---

(١) انظر : Ms. of Rothelin, pp. 592 - 594.
Matthew Paris, VI, pp. 160 - 161.
IV, p. 626.
(أشار ماثيو باريس الى زيارة بلدوين) .
Baluze, Collectione Veterum Scriptorum, IV, pp. 491 - 495.
(اورد تقرير الملك لويس عن كنيسة دمياط) .

كيما يشرف على تنظيم الجيش . وانطلق البدو المشهورون في حرب العصابات يجوبون الريف ، وظلوا يزحفون حتى بلغوا اسوار دمياط ، يقتلون كل فرنجي يلتقون به ضالاً خارج اسوار المدينة . وتحتم على الملك لويس أن يقيم الحواجز ، وأن يحفر الخنادق لحماية معسكره [1] .

وهبطت مياه النيل في نهاية شهر اكتوبر سنة ١٢٤٩ ، وحوالي ذلك الوقت ، في ٢٤ اكتوبر ، وصل الفونسو كونت بواتو ، ثاني اشقاء الملك ، بأمداد من فرنسا . فحان الوقت للزحف على القاهرة . وعندئذ اقترح بطرس كونت بريتاني ، يسانده بارونات الشرق الفرنجي ، انه لمن أصوب الأمور ، توجيه الهجوم الى الاسكندرية ؛ إذ أن هذه الحركة سوف تكون مفاجأة للمصريين ، كما انه توافر للصليبيين من السفن ما يكفي لاجتياز فروع النيل ، فمتى استولوا على الاسكندرية ، أضحوا يسيطرون على كل سواحل مصر على البحر المتوسط ، فيضطر السلطان عندئذ الى طلب الصلح . غير ان روبرت كونت ارتوا شقيق الملك حمله حماسه وعاطفته على مقاومة هذا المشروع ، وانحاز الملك الى جانبه . وفي ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩ خرج جيش الفرنج من دمياط ، وسلك الطريق المتجه جنوباً نحو المنصورة . وبقيت بدمياط حامية قوية ، فضلاً عن الملكة

---

(١) انظر : Al - Aini, pp. 202 - 206.
Matthew Paris, V, p. 89.
يشير ماثيو باريس الى ان هيو لامارس لقي مصرعه اثناء هذه الاشتباكات .

وبطريرك بيت المقدس [1] .

الصليبيون يزحفون نحو المنصورة سنة ١٢٤٩ :

وواتى الحظ فيما يبدو الملك لويس ، إذ ان السلطان الصالح ايوب كان وقتذاك على فراش المرت ، فلم تمض ثلاثة ايام ، حتى مات بالمنصورة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ . اشتهر الصالح ايوب بالعبوس ، والميل الى العزلة ، ولم يتصف بما عرف به اقاربه من سهولة التحدث اليهم ، او السخاء ، او الشغف بالعلم . كان دائماً معتلّ الصحة ، ولعل ما كان يجري في عروقه من دماء سودانية ، حمله على الابتعاد عن سائر أفراد أسرته ، الذين لم يخالط دماءهم الكردية شيء من الكدر . على انه كان حاكماً كفئاً ، ويعتبر آخر كبار رجال الأسرة الأيوبية العظيمة . وهددت وفاته المسلمين بكارثة خطيرة . إذ ان ابنه الوحيد ، توران شاه كان يقيم بعيداً في إقليم الجزيرة حيث ينوب عن ابيه في الحكم . ولم ينقذ مصر إلا السلطانة الارملة ، شجر الدر ، الأرمنية الجنس . وإذ وثقت في الطواشي جمال الدين محسن ، الذي خضع البلاط لسلطانه ، وفي فخر الدين ، أخفت خبر وفاة زوجها ،

---

(١) انظر : Joinville, pp. 64 - 65
(رسالة جاي ميلون) .

Matthew Paris, VI, p. 161.
V, pp. 105 - 107.
V, p. 130.

أخطأ ماثيو باريس في تحديد تواريخ احداث الشتاء فجعلها في فبراير .

Makrizi, XIII, p. 215.

وزوّرت وثيقـــة تحمل توقيعه ، تقضي بتعيين توران شاه ولياً للعهد ، وفخر الدين قائداً عاماً للجيش ونائباً للسلطان أثناء مرضه . ولما تسرّبت أنباء وفاة الصالح ايوب ، كانت السلطانة وفخر الدين قد توطدت سلطتها ، بينما كان توران شاه في طريقه الى مصر . غير ان الفرنج تشجعوا عند سماع هـذه الانباء ، إذ تراءى لهم ان هذه الحكومة المؤلفة من امرأة وقائد كهل لن تلبث ان تنهار . فأصروا على ان يزحفوا نحو القاهرة [١] .

المعروف ان الطريق من دمياط ، اعترضه عدد لا حصر له من القنوات وفروع النيل ، كان أكبرها البحر الصغير ، الذي ينبع من فرع النيل الرئيسي ، جنوبي المنصورة . ويسير مجتازاً اشمون طناح الى بحيرة المنزلة ، فعزل بذلك ما يعرف بجزيرة دمياط . أبقى فخر الدين معظم قواته خلف البحر الصغير ، غير انـــه ارسل من الخيالة من يوقعون الاضطراب في صفوف الفرنج عند اجتياز كل قناة . على ان ما من مناوشة من هـذه المناوشات نجحت في وقف زحف الفرنج . ثم تقدم الملك لويس في بطء وحذر ، ودارت معركة قرب فارسكور في ٧ ديسمبر سنة ١٢٤٩ ، حيث ارتدّت الخيالة المصرية ، وأصرّ الداوية متحدين اوامر الملك ، على ان يمضوا في مطاردة الفارين حتى صادفوا صعوبة في الاتصال برفاقهم من

---

(١) انظر :
Makrizi, XIII, pp. 208 - 215.
Abu'l Feda, p. 127.
Al - Aini, p. 207.
Ms. of Rothelin, p. 599.
Matthew Paris, V, pp. 107 - 108.

جديد . ثم بلغ الملك في ١٤ ديسمبر البرمون ، وفي ٢١ يسمبر عسكر جيشه على ضفاف البحر الصغير تجاه المنصورة (١) .

وظلّ الجيشان ستة اسابيع ، يواجه احدهما الآخر عبر البحر الصغير . وما قام به الخيالة المصريون من محاولة لاجتياز البحر الصغير الى جزيرة دمياط ، وراء البحر الصغير ، ومهاجمة مؤخرة الجيش ، أحبطها شارل انجو قرب المعسكر . وفي تلك الاثناء امر الملك لويس باقامة جسر على البحر الصغير . غير انه على الرغم من تشييد أروقة مسقوفة لحماية العمال والصناع ، فإن ما لجأ اليه المصريون من الشاطىء المقابل من إلقاء القذائف ، ولا سيما النيران الاغريقية بلغ من العنف والشدة ، ما دعا الفرنج الى التخلي عن العمل . وفي اوائل فبراير سنة ١٢٥٠ قدم الى معسكر الملك احد الاقباط من قبل سلمون ، وعرض على الملك ان يكشف له عن مكان مخاضة يعبرون منها البحر الصغير ، مقابل خمسمائة بيزنتة (دينار) . وفي فجر يوم ٨ فبراير شرج الصليبيون في اجتياز المخاضة . وتخلف دوق برجنديا في قوة كبيرة للمحافظة على المعسكر ، بينما ارتحل الملك مع الجيش الصليبي الزاحف . وتولى اخوه روبرت قيادة مقدمة الجيش ، بمن كان بها من الداوية والكتيبة الانجليزية . وتلقى روبرت اوامر صارمة بألا يهاجم المصريين إلا بعد ان يأذن له الملك . وتحقق للصليبيين ان يعبروا في عناء وبطء شديد مخاضة

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 69 - 70.
Ms. of Rothelin, pp. 597 - 598.
Makrizi, XIII, pp. 215 - 216.
Al - Aini, p. 207.

البحر الصغير . ولم يكد روبرت كونت ارنوا يجتاز البحر الصغير مع رجاله ، حتى خشي انه ما لم يبادر الى مهاجمة العدو ، فسوف يضيع عنصر المفاجئة . وفشل الداوية في ان يذكروه بما اصدره من تعليمات ، غير انه لما أصرّ على الزحف ، لم يسعهم إلا الموافقة على ان يصحبوه في الهجوم . وكان لتهوره من الدواعي ما يبرره . ذلك ان المعسكر المصري ، الذي يقع على مسافة ميلين خارج المنصورة ، لم يكد يقوم بما درج عليه كل يوم من الطواف دون ان يساور العسكر شيء من الارتياب ، حتى اندفع فجأة خيالة الفرنج الى داخله . فلقي عدد كبير من المصريين مصرعهم ، عندما هرعوا لالتماس اسلحتهم ، بينما هرب آخرون ، لم يستكملوا ارتداء ملابسهم ، يلتمسون في المنصورة ملاذاً لهم . اما القائد فخر الدين فانه لم يكد يفرغ من الاستحمام ، ويقوم غلامه بطلاء لحيته بالحنا حتى سمع الجلبة والضجيج . فوثب الى صهوة جواده ، دون أن ينتظر حتى يرتدي درعه ، وقصد المعركة ، فألفى نفسه وسط طائفة من الفرسان الداوية ، فتعرّض لطعناتهم حتى هوى صريعاً .

معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ :

صار لروبرت كونت ارتوا السيطرة على المعسكر المصري ، وتوسل اليه مرة اخرى مقدم الداوية بـأن ينتظر حتى يجتاز الملك والجيش الرئيسي المخاضة ليلحقوا به ، ونصحه ايضاً وليم سالسبوري بالتزام الحيطة والحذر . غـير ان روبرت عزم على ان يستولي على المنصورة ، ويجهز على الجيش المصري . وإذ انكر على الداوية والانجليز جبنهم ، حشد رجاله ، وكرّ مرة اخرى على المصريين الفارّين ، وكان لزاماً على الداوية ووليم سالسبوري ان

يتبعوه مرة اخرى . ومع ان فخر الدين قد مات ، فإن قادة المماليك ، حرصوا على ان يعيدوا النظام الى عساكرهم ، وتولى القيادة اقدر هؤلاء القادة وأكفأهم ، وهو ركن الدين بيبرس البندقداري ، أي الذي يرمي البندق . فجعل رجاله يتخذون مواقعهم في نقط نقاطع الشوارع بداخل المدينة ذاتها ، ثم ترك الخيالة الفرنج يتدفقون على المدينة ، مجتازين الباب الذي امر بفتحه . وإذ شق الفرسان الفرنسيون ومن اقتفى أثرهم من الداوية ، طريقهم حتى بلغوا اسوار القلعة ، انقض عليهم المماليك من الشوارع الجانبية . ولما لم يتيسر لخيول الفرنج ان تستدير في الحيّز الضيق ، وقعت على الفور في فوضى واضطراب . فلم يفلت إلا عدد قليل من الفرسان ، بلغوا ضفاف النيل راجلين ، ولم يلبثوا ان غرقوا في مياهه . واستطاعت فئة قليلة اخرى ان تخلص نفسها من المدينة . أما الداوية فلقوا مصرعهم وهم يقاتلون في الشوارع ، ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا خمسة من مجموعهم الذي يبلغ مائتي وتسعين فارساً . واعتصم روبرت كونت ارتوا وحرسه في بيت ، غير ان المصريين لم يلبثوا ان اقتحموا البيت وأجهزوا عليهم اجمعين . ومن الفرسان الذين سقطوا في ساحة المعركة ، ايرل سالسبوري ومعظم اتباعه من الانجليز ، وكونتا كوسي ، وبريين ، وكان معهما في المقدمة بطرس كونت بريتاني ، الذي أصابته جراح خطيرة في رأسه ، ولكنه استطاع ان يمتطي حصانه ويخرج من المدينة ، ويهرع الى الملك لتحذيره .

اوشك الجيش الصليبي على الفراغ من اجتياز البحر الصغير . ولما سمع الملك لويس بالكارثة ، بادر الى اقامة خط امامي لمواجهة ما يتوقعه من هجوم من قبل المماليك ، وفي تلك الاثناء انفذ المهندسين لإنشاء جسر على مجرى البحر الصغير . أما الرماة فاتخذوا مواضعهم على الطرف البعيد للنهر ،

حـــتى يحموا الجنـــد عنـــد عبورهم متى دعت الضرورة الى ذلك . وكان حريصاً على ان يلحقوا بـــه . وحدث مـــا توقعه الملك ، إذ لم يلبث المماليك المظفرون أن كرّوا من المدينة على خطوطه . واشتد الملك لويس في ضبط جنوده ، بينما كان العدو يمطر صفوفهم بوابل من السهام ، على انه لم تكد ذخيرة المماليك تأخذ في النفـاد ، حتى امر بشن هجوم للرد على هجوم المماليك ، فردت خيالته المسلمين على اعقابهم ، غير انهم لم يلبثوا ان اعـادوا تنظيم صفوفهم ، ورجعوا الى الهجوم ، بينما حاولت وحدات منهم ان تحول دون بناء جسر على البحر الصغير . وكاد الملك ان يهوى الى القناة بعد ان اضطر الى التراجع ، ولم ينقذه إلا هجوم من قِبل الفرنج . وحدث آخر الأمر ، قبيل غروب الشمس ، ان اكتمل بناء الجسر ، فاجتازه الرمـاة ، فكفل قدومهم النصر للملك ، وإذ انسحب المصريون مرة اخرى الى المنصورة ، ونصب الملك لويس معسكره في الموضع الذي سبق ان عسكروا فيه في الليلة السابقة ، ولم يعلم الملك إلا وقتئذ بمصرع اخيه من نائب مقدم الاسبتارية . فاغرورقت عيناه بالدموع[1].

ومع أن الصليبيين أحرزوا النصر ، فإنه كلفهم ثمناً باهظاً . فلو لم يقم روبرت كونت ارتوا بغارتـه الضارية على المنصورة ، لأحسّ الصليبيون

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 71 - 93.
Ms. of Rothelin, pp. 599 - 608.
Matthew Paris, V, pp. 147 - 154.
VI, pp. 191 - 193.
Al - Aini, p. 208.

بأنهم من القوة ما يكفي لأن يحاولوا فيما بعد شنّ هجوم على المدينة ، على الرغم من أنهم سوف يواجهون من أدوات الحرب ما يفوق ما عندهم . على ان ما حدث جعلهم عاجزين عن أن يقوموا بالهجوم . فاضحى الموقف ينذر بالخطر كالذي حدث في الحملة الصليبية الخامسة ، حينما توقف الجيش المسيحي الذي استولى على دمياط ، في مكان قريب من هذه البقعة ، واضطر آخر الأمر الى الارتداد . فلم يأمل لويس وقتئذ فيما هو خير من هذا المصير ، إلا إذا وقع في البلاط المصري من الاضطرابات والفتن ما يحمل الحكومة بالقاهرة على ان تعرض عليه شروطاً للصلح يقبلها . وفي نفس الوقت لجأ الملك لويس الى تحصين معسكره ، وتدعيم الجسر على البحر الصغير . وكان هذا الإجراء سليماً ، إذ ان المصريين كرّوا مرة أخرى ، بعد ثلاثة أيام ، في ١١ فبراير سنة ١٢٥٠ . جاءتهم الأمداد من الجنوب ، فازدادوا قوة عما كانوا عليه من قبل . فدارت معركة تعتبر أعنف ما يصح ان يتذكره رجال الشرق الفرنجي . وتوالى هجوم المماليك مرة بعد أخرى ، يطلقون سحابة من السهام كلما جاءوا ، بينما أخذ الملك يمنع رجاله من لقائهم المرة بعد المرة ، حتى حان الوقت للقيام بهجوم للرد على هجمات المماليك . وثبت في أماكنهم شارل انجو في الجناح الايسر وبارونات سوريا وقبرص في الجانب الايسر من قلب الجيش ، بينما تزعزعت مواقف بقايا الداوية والنبلاء الفرنسيين في الجانب الايمن من قلب الجيش ، وكان لزاماً على الملك ان ينهض لنجدتهم حتى لا يفقد الاتصال بميسرة الجيش . على ان مقدم الداوية وليم ، الذي سبق ان فقد احدى عينيه في المنصورة ، فقد العين الاخرى ايضاً ، ومات متأثراً بذلك. وفي لحظة تمّ تطويق الفونسو كونت بواتو الذي كان يتولى حراسة المعسكر على الجناح الأيمن ، ولم ينقذه إلا الطباخون والنساء من حواشي المعسكر . وإذ حلّ بالمسلمين

آخر الأمر الارهـاق والتعب ، انسحبوا في نظام رائع ، راجعين الى المدينة (المنصورة) [1] .

توران شاه يتولى قيادة المسلمين سنة ١٢٥٠ :

ظل الملك لويس ثمانية اسابيع ينتظر في المعسكر امـام المنصورة ، ولم يحدث ما كان يأمله من قيام المصريين بثورة ، بل جرى عوضاً عن ذلك ان وصل الى المعسكر المصري ، في ٢٨ فبراير سنة ١٢٥٠ ، توران شاه ابن السلطان الراحل . إذ أنه لم يكد يسمع من زوجة ابيه شجر الدر ، نبـأ وفاة والده ، حتى غادر عاصمته في ديار بكر ، وبادر بالقدوم نحو الجنوب ، فأمضى ثلاثة ايام في دمشق ، حيث جرت المناداة به سلطاناً ، ثم وصل الى القاهرة حوالي نهـاية فبراير . وكان قدومه الى المنصورة ايذاناً بأن يجدد المصريون نشاطهم ، إذ أمر بإنشاء اسطول من السفن الخفيفة ، تمّ نقلها على ظهور الابل الى فروع النيل السفلى ، وتقرر انزالها في هذه القنوات ، فأخذت تعترض طريق السفن التي تجلب المؤن من دمياط الى معسكر الصليبيين . فاستولى الاسطول المصري على ما يزيد على ثمانين سفينة للفرنج ، الواحدة بعد الاخرى ، وحدث في ١٦ مارس ان فقد الصليبيون قافلة مؤلفة من اثنين وثلاثين من السفن ، بعد ان تعرضت لهجوم واحد من قِبل الاسطول المصري . ولم يلبث ان تعرض

---

(١) انظر : Joinville, pp. 93 - 95.
Ms. of Rothelin, pp. 608 - 609.

الفرنج لخطر المجاعة ، وأعقب المجاعة اندلاع المرض ، كالدوسنطاريا والتيفوئيد [1] .

أدرك الملك لويس ، في مستهل ابريل سنة ١٢٥٠ ، أنه لا بد ان يبذل كل ما في وسعه لأن يخلص الجيش من وخامة المعسكر وفساد هوائه ، وأن يتقهقر الى دمياط. وأعد نفسه آخر الامر لأن يدخل في مفاوضات مع المسلمين، فأرسل الى توران شاه يعرض عليه أن يستبدل بدمياط بيت المقدس [2] . غير ان الوقت قد فات ، إذ علم المصريون كيف اضحى مركز لويس بالغ الحرج . فلما لم يلق عرض لويس سوى الرفض ، دعا قادته للاجتماع به لمناقشة امر الارتداد الى دمياط . فتوسلوا اليه أن يتسلل بحرسه الى دمياط ، غير انه رفض في كبرياء ان يتخلى عن رجاله . فتقرر نقل المرضى على السفن بطريق النيل ، وأن يتخذ الأصحاء من الجند الطريق الذي سبق ان

---

(١) انظر :
Abu Shama, II, p. 195.
Al - Aini, p. 209.
Makrizi, XIII, pp. 220 - 224.
Matthew Paris, VI, pp. 193 - 194.
Joinville, pp. 102 - 104.
Ms. of Rothelin, pp. 609 - 612.

(٢) انظر :
Matthew Paris, V, pp. 87 - 88, 105, 143.
VI, p. 117.

يشير ماثيو باريس الى عروض الصلح التي سبق ان عرضها السلطان ، ولكنها لقيت الرفض ، بناء على نصيحة روبرت كونت ارتوا ، او المندوب البابوي. اما ما عرضه الملك لويس من شروط الصلح فأوردها جوانفيل . وبلغت اوربا شائعة بأن لويس قد استولى على القاهرة . انظر:
Joinville, pp. 106 - 107, 118.

سلكوه في قدومهم . وفي صبيحة يوم ٥ ابريل سنة ١٢٥٠ ، تمّ رفع المعسكر ، وبدأت الرحلة المثيرة للأسى والألم ، فاتخذ الملك مكانه في المؤخرة كيما يشجع العساكر الذين ضلوا الطريق . وإذ شهد المماليك بالمنصورة تحرُّك الفرنج ، نهضوا لمطاردتهم . فاكتشفوا ان الفرنج جميعاً قد اجتازوا البحر الصغير ، غير ان المهندسين نسوا ان يدمروا الجسر العائم ، فهرعوا الى اجتياز البحر الصغير على هذا الجسر ، ولم يلبثوا أن ضايقوا الفرنج من كل جانب . على أن الفرنج الذين كانوا يسيرون في بطء ، استطاعوا طوال ذلك اليوم ان يردوا كل هجمات المماليك . وتجاوزت مروءة الملك كل حدود التقدير والثناء . غير انه خرّ مريضاً في تلك الليلة ، وفي صبيحة اليوم التالي لم يستطع ان يحفظ توازنه على حصانه إلا بكل صعوبة . وكلما مضى النهار اشتد تضييق المسلمين على الجيش فأخذوا يهاجمونه بكل ما لديهم من قوة . وقلّ ان حاول العساكر المرضى المرهقون مقاومتهم . وأضحى من الجلي ان النهاية قد اقتربت . فحينما اشتد القتال قام جيفري سارجينس الذي قاد الحرس الملكي ، باصطحاب الملك الى كوخ بقرية ميت الخولي عبدالله الواقعة الى الشمال من شرمساح . ولم يكن بوسع الفرسان الفرنسيين أن يسلموا بالهزيمة . وإذ صار لبارونات الشرق الفرنجي السيطرة ، انفذوا فيليب مونتفورت لإجراء المفاوضات مع العدو . وكاد فيليب ينجح في اقناع القادة المصريين بأن يسمحوا بجلاء الجيش ، مقابل تسليم دمياط ، لولا ان حدث فجأة ان احد الأجناد (السرجندارية) ، واسمه مارسيل ، ركب الى الصفوف المسيحية وأخطر القادة باسم الملك بالإذعان دون قيد أو شرط ، وقد جرى الظن بأن المصريين بذلوا له الرشوة . فأطاع القادة الامر ، الذي لم يدر الملك لويس عنه شيئاً ؛ فألقوا بأسلحتهم ، وتمّ تطويق الجيش بأسره ، وقيادته الى

الأسر . وحدث حوالي هذه الساعة ايضاً ، ان جرى تطويق وأسر السفن التي كانت تحمل المرضى الى دمياط [1] .

الملك لويس في الحبس سنة ١٢٥٠ :

ارتبك المصريون في اول الامر بكثرة عدد الأسرى . وإذ تبين لهم استحالة حراستهم جميعاً ، تقرر على الفور الإجهاز على اولئك الذين بلغوا من الضعف أنهم لم يستطيعوا المضي في السير ، فجرى كل يوم ، ولمـدة اسبوع ، إخراج ثلثمائة من هؤلاء الأسرى الضعاف ، وقتلهم بناء على اوامر السلطان . وتمّ نقل الملك لويس من فراش مرضه وإنزاله مكبلاً بالأغلال في دار خاصة بالمنصورة . أما كبار البارونات فحلوا جميعاً في سجن كبير . ودأب آسروهم على تهديدهم دائماً بالموت ، والواقع أنهم لم يكن في نيتهم ان يقتلوا كل من يصح ان يؤدي فدية كبيرة . فاستطاع جوانفيل ، الذي كان على ظهر احدى السفن التي وقعت في الأسر ، أن ينجو مع رفاقه ، بعد أن صار معلوماً عند اسريه بأنه ابن عم الملك لويس ، ولما سأله امير

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 107 - 110.
Ms. of Rothelin, pp. 612 - 616.
William of Nangis, p. 376.
William of Saint - Pathus, pp. 74 - 75.
Matthew Paris, *V*, pp. 157 - 159, 165 - 168.
VI, pp. 193 - 197.
Al - Aini, pp. 209 - 213.
Makrizi, XIII, p. 227.
Abu'l Feda, p. 128.

البحر المصري عن ذلك ، وعرف ان ما شاع ليس صحيحاً ، واكنه في الحقيقة كان ابن عم الامبراطور فردريك ، فازداد ذيوع شهرة جوانفيل .

الواقع ان مكانة الامبراطور الكافر (فردريك الثاني) ، اسهمت الى حد كبير في تخفيف ما كان من قسوة وضع الصليبيين . فلما تلقى الملك لويس في حبسه امر السلطان ، بألا يتنازل فحسب عن دمياط ، بل عن كل مـا للفرنج من بلاد في سوريا ، أجاب بأن هـذه البلاد ليست من املاكه ، بل تخص الملك كنراد ، ابن الامبراطور ، ومـا من احد سوى الامبراطور يستطيع ان يتخلى عنها . فبادر المسلمون على الفور الى إغفال هـذا الاقتراح . غير ان الشروط التي انتزعوها من الملك كانت بالغة القسوة . إذ كان لزاماً عليه ان يفتدي نفسه ، بأن يؤدي مبلغـاً قدره خمسمائة الف ليرة تورناوية اي مـا يقابل مليون بيزنتة . كان المبلغ بالغ الضخامة ، على ان عدد من يطلق من الاسرى كان كبيراً . ولم يكد الاتفاق يتم على شروط الصلح ، حتى تمّ نقل الملك وكبار البارونات على السفن التي اقلعت بهم الى فارسكور ، حيث اتخذ السلطان مقر اقامته . وقضى الاتفاق بأن يتوجهوا الى دمياط ، وأن يتم تسليم المدينة بعد يومين أي في ٣٠ ابريل سنة ١٢٥٠ [١] .

---

(١) انظر : Joinville, pp. 110 - 122.
Ms. of Rothelin, pp. 616 - 618.
Matthew Paris, *V*, pp. 160 - 164.
VI, pp. 196 - 197.

يشير كاتب الرسالة التي اوردها ماثيو باريس ، والتي حررها احد الاسبتارية ، الى ان أملنا لم ينعقد إلا على فردريك وحده .

انظر ايضاً : Al - Aini, pp. 213 - 214.

الواقع أنه لولا شدة تحمّل الملكة مرجريت وصبرها ، لما تمّ الاتفاق مطلقاً . فحينما تركها الملك بدمياط ، ومضى في سيره الى المنصورة ، كانت على وشك ان تضع مولوداً . على انها وضعت طفلها بمساعدة فارس يناهز الثمانين من عمره ، بعد ثلاثة ايام من ورود نبأ تسليم جيش الفرنج . فأطلقت على ابنها الطفل يوحنا الحزين Tristan ، اي ابن الأسى والحزن . وفي نفس اليوم سمعت الملكة ان البيازنة والجنويين أعدوا انفسهم للجلاء عن دمياط ، نظراً لأنه لم يتوافر بالمدينة من المؤن ما يكفي سكانها ، وأدركت انه ليس بوسعها ان تحتفظ بدمياط إلا بمساعدة الايطاليين . فدعت زعماءهم للاجتماع بها في حجرة نومها كيما تتوسل اليهم بالبقاء في دمياط ، لأنهم اذا تخلوا عن دمياط ، لم يعد لديهم ما يعرضونه على المماليك مقابل اطلاق سراح الملك . فلما اقترحت ان تقوم بشراء كل ما في المدينة من مؤونة ، وأن تتولى الاشراف على توزيعها ، وافقوا على البقاء بدمياط . ومع أن شراء المؤونة كلفها ما يزيد على ثلثمائة وستين الف ليرة ، فإنه رفع الروح المعنوية بالمدينة . وما كادت الملكة تسترد صحتها ، وأضحت قادرة على السفر ، أصرّ رجالها على ان ترحل بطريق البحر الى عكا ، بينما توجّه البطريرك روبرت ، بعد ان حصل على أمان ، الى فارسكور للاجتماع بالسلطان لإنجاز التدابير المتعلقة بالفدية (١) .

ولما وصل البطريرك الى فارسكور ، تبين له ان السلطان توران شاه لقي مصرعه ، فتعرضت المفاوضات النهائية للإرجاء بعض الوقت . والمعروف

---

(١) انظر : Joinville, pp. 142 - 144.

ان توران شاه والأسرى ظلوا حتى يوم الاثنين ، ٢ مايو سنة ١٢٥٠ ، في فارسكور . ففي ذلك اليوم أقام مأدبة لأمرائه . غير ان توران شاه قد فقد تأييد المماليك . إذ ان هذه الفئة الضخمة من الجيش التي تألفت من الأرقاء من الترك والجراكسة ، ازدادت أهميـة وقوة اثناء حكم السلطان الصالح ايوب ، الذي أولاهم من العطف والإيثار ، ما حملهم على ان يجازوه بما بذلوه له من الولاء والاخلاص ، كما ان مساندتهم للسلطانة شجر الدر كفلت العرش لتوران شاه . غير ان توران شاه بعد ان انتصر على الفرنج أضحى يحسّ بأن له من القوة مـــا يكفي لأن يملأ وظائف الحكومة بألزامه من اقليم الجزيرة ، فلما احتجّ عليه المماليك ردّ عليهم اثناء سكره بالتهديد والوعيد . وفي الوقت ذاته أهان زوجة ابيه ، شجر الدر ، بأن طالبها بكل ما كان بحوزة ابيه من أملاك . فبادرت بالكتابة على الفور الى قادة المماليك ، تطلب اليهم ان يقوموا بحمايتها .

مصرع توران شاه سنة ١٢٥٠ :

ولما نهض توران شاه من المائدة ، في ٢ مايو سنة ١٢٥٠ ، اقتحم الموضع عساكر المماليك البحرية ، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري وشرعوا ، يتصدرهم بيبرس ، في ضرب السلطان بسيوفهم ، فهرب توران شاه وقد أصابته الجراح الى برج خشبي يقع الى جانب النهر . ولما تعقبه الاجناد ، وأشعلوا الحريق في البرج ، قفز الى النيل ، وأخذ يتوسل اليهم ، وقد وقف في مياه النهر ، ملتمساً الرحمة ، بعد ان عرض عليهم التنازل عن العرش والعودة الى اقليم الجزيرة ، غير انه ما من احد منهم استجاب لندائه . ولما لم تنجح الرماية بالسهام في قتله ، وثب بيبرس من الشاطىء الى النهر ، وأجهز على السلطان

توران شاه بسيفه . وظلت جثة السلطان المشوهة ، ثلاثة ايام ، ملقـــاة بالعراء دون ان يتمّ مواراتها . وتولى آخر الامر سفير خليفة بغداد ، بعد ان حصل على إذن ، دفنها في مقبرة بسيطة . ونصّب المتآمرون المنتصرون كبير قادة المماليك ، عز الدين أيبك ، قائداً عاماً (أتابكا) للعساكر ووصياً على العرش ، فتزوج من السلطانة الارملة ، شجر الدر ، التي تمثل الصفة الشرعية في الحكم . ثم جرى فيما بعد العثور على طفل اسمه الأشرف موسى ، ابن عم للسلطان الراحل (توران شاه) ، وتقررت المنـــاداة به قسيماً في السلطنة ، غير انه تمّ خلعه عن العرش بعـد اربع سنوات ، على ان مصيره الاخير ليس معروفاً (١) .

لما قدم من دمياط البطريرك الكهل بأمان بتوقيع توران شاه ، ادّعت الحكومة الجديدة انه لا قيمـة لهذا الأمان ، وعاملت البطريرك على انه أسير . وظهر امام الملك لويس جمـاعة من المماليك بسيوفهم التي لا تزال تقطر دماً ، وطلبوا منه مالاً لأنهم قتلوا غريمه . بينما اخذت جماعة اخرى منهم ، بعـــد ان اشتدت نشوتهم ، تهزّ السيوف في وجوه البارونات الأسرى ، ولم يخفِ جوانفيل جزعه وخوفه ، غير ان المماليك لم يقصدوا ما سبق تقريره من فدية ضخمة ، إذ انهم صدقوا على الشروط السابقة .

---

(١) انظر :
Makrizi, XIII, pp. 230 - 231.
Abu'l Feda, p. 129.
Abu Shama, II, pp. 198 - 209.
Ibn Khallikan, III, p. 248.
عن الاشرف موسى ، انظر ما يلي الكتاب الثالث ، الفصل الثالث .

فمتى تمّ تسليم دمياط ، تقرر اطلاق سراح الملك والنبلاء ، امـــا سائر العساكر ، الذين تمّ نقل جماعة منهم الى القاهرة ، فكان لزاماً عليهم ان ينتظروا حتى يتمّ دفع المال ، الذي نقص مقـداره فأضحى اربعمائة الف دينار تورناوي ، بدفع نصفه في دمياط ، ويؤدى النصف الآخر عند وصول الملك لويس الى عكا . وأصرّ الملك على الرفض حينما ُطلب اليه ان يحلف انه اذا لم يوفِ بعهده ، فكأنه اعلن إنكاره للمسيح . والواقع ان ما اتصف به الملك لويس من هيبة وشخصية ما ظل طوال مدة اسره ، من شدة التأثير في نفوس اسريه ، ان جماعة منهم اقترحت ، على سبيل المزاح ، ان يكون سلطانهم المقبل [١] .

وفي يوم الجمعة ، ٦ مايو سنة ١٢٥٠ ، توجه جيوفري سارجينس الى دمياط ، وقام بتسليم الحصن الى مقـــدمة الجيش الاسلامي ، وانتقل الى دمياط الملك والنبلاء بعـد ظهر ذلك اليوم . وأخذ الملك لويس يلتمس المال اللازم لتسديد القسط الاول من الفدية . غير ان ما بخزائنه من المال لم يتجاوز مـائة وسبعين الف دينار تورناوي . واحتفظ المصريون بشقيق الملك ، الفونسو كونت بواتو ، رهينة عندهم ، حتى يتم تحصيل ما تبقى من المال المطلوب . واشتهر عن الداوية انهم اختزنوا مقادير كبيرة من المال ،

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 123 - 132.
William of Nangis, p. 381.
William of Saint - Pathus, pp. 23, 58, 75 - 76.
Ms. of Rothelin, pp. 618 - 619.
Al - Aini, p. 213.

في اكبر سفينة عندهم . على انهم لم يوافقوا على ان يبذلوا ما هو مطلوب من المال ، إلا بعـد ان تعرضوا للتهديد باستخدام العنف معهم . ولما تمّ تسليم المبلغ بأكمـله الى المصريين ، تقرر اطلاق سراح كونت بواتو . وفي مساء اليوم ذاته ، أبحر الملك والبارونات الى عكا ، التي بلغوها بعد ستة ايام ، بعـــد رحلة عاصفة . ولم يتهيأ اعداد ملابس او فراش للملك على السفينة ، فتحتم عليه ان يرتدي الملابس الرسمية ، وأن ينـام على الحشية (المرتبة) التي سبق ان استخدمها في السجن [١] .

وتخلف بدمياط عـدد كبير من الجند والجرحى ، على أن المسلمين أجهزوا عليهم ، فخالفوا بذلك ما بذلوه من الوعد [٢] .

الملك لويس يبقى في الشرق الفرنجي سنة ١٢٥٠ :

وحدث عقب وصول الملك لويس الى عكا ، أن دعـا اتباعه للاجتماع بـه للتشاور في الخطط المقبلة . سبق لأمه ان كتبت له من فرنسا تحثه على التعجيل بالعودة ، إذ أن هنري ملك انجلترا كان ، فيما يروى ، في طريقه الى الحرب ، فضلاً عما كان بفرنسا من مشاكل كثيرة أخرى ملحّة . غير ان لويس أحسّ ان الحاجة ماسة اليـه في الشرق الفرنجي . إذ ان ما حل من كارثة بالحملة الموجهة الى مصر لم تدمر فحسب الجيش الفرنسي ،

(١) انظر : Joinville, pp. 135 - 138.
Ms. of Rothelin, pp. 619 - 620.

(٢) انظر : Ms. of Rothelin, p. 620.

بل انهــا كادت تحرم الشرق الفرنجي من كل عساكره . يضاف الى ذلك ان من واجبه ان يبقى في موضع قريب ، حتى يتم اطلاق سراح آخر اسير في مصر . على ان إخوة الملك وكونت فلاندر نصحوه بالعودة الى فرنسا . والواقع ان لويس كان قد اتخذ قراره ، وفي ٣ يوليه سنة ١٢٥٠ اذاع هذا القرار . فكل من اراد الرحيل من أخوته وغيرهم ، فليبادر الى العودة الى الوطن ، اما هو فسوف يبقى ، وسوف يُلحق بخدمته كل اولئك ، امثال جوانفيل ، الذين ارادوا البقاء معــه . وبعث الى بارونات فرنسا برسالة يشرح فيها ما اتخذه من قرار ويلتمس ارسال امداد للحملة الصليبية . لقد احسّ في مرارة بفشل حملته الكبيرة . ورأى انه من الخير ان يعلن ان الكارثة ليست إلا من علامات رضى الله ، ساقها الله اليــه لتعلـّمه التواضع ، غير انه كان لا بد ان يفكر ان هــذا الدرس الذي خصه الله به كلفه التضحية بآلاف من الارواح البريئة [١] .

أبحر من عكا حوالي منتصف شهر يوليــه سنة ١٢٥٠ ، أشقاء الملك مع كبار نبلاء الحملة الصليبية ، وخلـّفوا وراءهم كل مــا استطاعوا ان يدبروه من مــال ، ولكن لم يتركوا سوى الف وأربعمائة رجــل [٢] . وبقيت الملكة في صحبة الملك . وجرى على الفور الاعتراف بــه حاكماً

---

(١) انظر : Joinville, pp. 154 - 157.
William of Nangis, p. 383.
William of Saint - Bathus, pp. 91 - 92.
Matthew Paris, *V*, pp. 173 - 174.

(٢) انظر : Joinville, p. 157.

فعلياً لمملكة بيت المقدس . ومع ان العرش لا زال من الناحية الشرعية من حق كنراد امبراطور المانيـا ، فالواضح ان كنراد لن يقدم مطلقاً وقتذاك الى الشرق ، إذ أنه لمـا ماتت أليس انتقلت الوصاية على عرش بيت المقدس الى ابنها هنري ملك قبرص ، الذي اختار ابن عمه ، يوحنا سيد ارسوف ، نائباً عنه في ادارة المملكة ، فسلّم يوحنا عن طيب خاطر زمام الحكومة الى الملك لويس[1] .

على ان رحيل اتباع لويس الفرنسيين ، هيـأ له الفرصة لأن يكون اكثر استعداد للاستماع لمـا يبذل من النصيحة ، إذ ان تجربته وخبرته وسّعت مداركه ، كما ان افتقاره الى السلاح علّمه الحاجة الى العلاقات الدبلوماسية مع المسلمين . ولمس فيه بعض اصدقائه انه ليس مستعداً لأن يسلك سياسة الفرنج البلديين (Poulain) ، وكان على حق في ذلك ، إذ أن الوقت كان ملائماً للدبلوماسية . فما حدث في مصر من ثورة المماليك لم تلقَ القبول في سوريا الاسلامية ، التي استمر بها الولاء للأيوبيين . فلما وردت اليها الانباء بمصرع توران شاه ، هبط الناصر يوسف سلطان حلب من حمص ، فاحتل دمشق في ٩ يوليه سنة ١٢٥٠ ، حيث لقي استقبالاً حـاراً ، باعتباره حفيد ابن صلاح الدين . وتجددت المنافسة المريرة بين القـاهرة ودمشق ، وحرص كل من البلاطين على التماس مساعدة الفرنج . فلم يكد لويس يصل الى عكا ، حتى قدمت اليها سفارة من قِبل الناصر

---

(١) لم يتحدد مطلقاً مـا كان للملك لويس من وضع قانوني ، غير انه من الواضح انه تقرر الاعتراف به سيداً أعلى ، اثناء غياب كنراد .

يوسف . غير ان لويس لم يشأ ان يلتزم بشيء نحوهـا . فيصح أن يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من اهمية استراتيجية ، غير انه كان لزاماً عليه ان يفكر في اسرى الفرنج الذين لا زالوا في مصر [1] .

وفي شتاء سنة ١٢٥٠ شرع جيش دمشق في الإغـــارة على مصر ، فالتقى في ٢ فبراير سنة ١٢٥١ بالجيش المصري بقيادة ايبك عند العباسة في الدلتـــا ، والتي تقع على مسافة اثني عشر ميلاً الى الشرق من مدينـــة الزقازيق الحالية . أحرز العساكر السوريون النصر اول الامر ، على الرغم من استبسال فصيلة ايبك وصمودها في القتال . غير انه حدث ان فصيلة من المماليك في جيش الناصر يوسف ، تخلت عن مواقعها في غمرة القتال ، ولما لم يكن السلطان النـــاصر يوسف مشهوراً بالشجاعة ، لم يلبث ان استدار راجعاً ولاذ بالفرار ، وبذا سلمت سلطة المماليك في مصر ؛ ومع ذلك فما زال الايوبيون يحوزون فلسطين وسوريا . ولما ارسل الناصر يوسف بعدئذ الى عكا ، يلوح بالتنازل عن بيت المقدس مقـــابل الحصول على مساعدة من الفرنج ، ارسل الملك لويس سفارة الى القاهرة ينـــذر ايبك بأنه مـــا لم يتم على الفور تسوية مشكلة اسرى الفرنج ، فسوف يتحالف مع سلطان دمشق ، الناصر يوسف . ونجح سفيره يوحنا فالنسيين ، اثنـــاء زيارتين قـــام بهما الى القاهرة ، في ان يحقق اولاً اطلاق سراح الفرسان

---

(١) انظر :

Abu Shama, II, p. 200.
Abu'l Feda, p. 131.
Ibn Khallikan, II, p. 446.
Joinville, p. 158.

الذين وقعوا اسرى في غزه سنة ١٢٤٤ ، ومن بينهم مقـدم الاسبتارية ، ثم الافراج عن نحو ثلاثة آلاف من الاسرى المستجدين ، وذلك مقـابل اطلاق سراح ثلاثمائة من الاسرى المسلمين الذين وقعوا بأيدي الفرنج . وازداد حرص ايبك على التماس صداقة الملك لويس ، فأرسل اليـه ، مع الدفعة الثانية من الاسرى الذين افرج عنهم ، هدية تتألف من فيل وحمار وحشي . وعنـدئذ تجرّأ لويس فطلب اطلاق سراح جميع من تبقى في ايدي المماليك من الاسرى ، دون ان يؤدي عنهم اموالاً اخرى . ولـمـا أيقن ايبك ان رسولاً من قبل الملك لويس ، وهو ييف البريتوني المعروف بدرايته في التحدث باللغـة العربية ، يزور بلاط دمشق ، استجاب لطلب الملك مقابل عقـد محالفة عسكرية لمناوأة الناصر يوسف . ووعد ايبك ايضاً انه متى احتل المماليك فلسطين ودمشق ، فسوف يعيدون للمسيحيين كل مملكة بيت المقدس القديمة التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الاردن . ووافق الملك لويس ، وتمّ اطلاق سراح جميع الاسرى في نهـاية شهر مارس سنة ١٢٥٢ . على ان المعـاهدة كادت تتحطم حينما رفض الداوية قطع علاقاتهم بدمشق ، فاضطر الملك الى ان يؤنبهم علناً ، وأن يطلب منهم اعتذاراً ينمّ عن ضعتهم [١] .

---

(١) انظر :

Abu Shama, II, loc. cit.
Abu'l Feda, loc. cit.
Joinville, pp. 158 - 160.
Ms. of Rothelin, pp. 624 - 627.
Matthew Paris, *V*, p. 342.

الخليفة يتوسط في الصلح بين الأمراء المسلمين سنة ١٢٥٣ :

لم يؤدّ التحالف بين الفرنسيين والمماليك الى شيء من النتائج . فلم يكد الناصر يوسف يسمع عنه ، حتى ارسل العساكر الى غزه ، لمنع الاتصال بين الحليفين . وهبط الملك الناصر يوسف الى يافا ، غير ان المماليك لم يخرجوا من مصر . وظل الجند السوريون ، والجند الفرنج مدة سنة لم يتحركوا من مواضعهم ، ولم يشأ كل من الجانبين ان يثير المعركة . وفي تلك الأثناء أصلح الملك لويس استحكامات يافا ، وسبق له ان قام بعمارة استحكامات عكا وحيفا وقيسارية . وفي أوائل سنة ١٢٥٣ استنجد النـاصر يوسف ببغداد للتوسط بينه وبين المماليك . وإذ حرص الخليفة المعتصم على توحيد العـالم الاسلامي إزاء المغول ، حثّ ايبك الذي اعترف بسيادته الاسمية على قبول شروط النـاصر يوسف ، فتقرر الاعتراف بأيبك سلطاناً على مصر ، وله ان يضيف الى املاكه ، من جهة الشمال مـا يقع من فلسطين حتى الجليل ، وحتى نهر الاردن من جهة الشرق . وتمّ إبرام الصلح في ابريل سنة ١٢٥٣ ، وبذا جرى اغفال اتفاق ايبك مع الفرنج [1] .

ارتحل جيش دمشق من غزة راجعاً الى بلاده ، مجتازاً أراضي الفرنج ، ومغيراً على كل مـا صادفه من جهات أثناء عودته . على ان المدن بلغت

---

(١) انظر :
Joinville, pp. 167 - 168, 184 - 185.
Ms. of Rothelin, pp. 627 - 628.
Matthew Paris, *VI*, p. 206.
Al - Aini, p. 215.

من المناعة ما يجعل من العسير مهاجمتها ، باستثناء مدينة صيدا التي تجددت عمارة أسوارها . ومع انهم لم يحاولوا مهاجمـــة القلعة القائمة على جزيرة صغيرة ، فانهم نهبوا المدينة ، ثم انسحبوا بعد ان امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى . وانتقم الملك لويس لما حدث ، بأن وجّه حملة للاغارة على بانياس ، غير أنها لم تحرز شيئاً من النجاح . وواتى الحظ الشرق الفرنجي بأن كلا من أيبك والناصر يوسف لم يظهر رغبة صادقة للحرب(1) .

على ان امتناعهما عن الحرب يرجع الى حـد كبير الى وجود ملك فرنسا في الشرق . فعلى الرغم من ان سجل الملك لويس كان حـــافلاً بالكوارث ، فمن المحقق انه كان لشخصيته تأثير قوي . وكان لذلك أهمية ايضاً ، فالمعروف انه مات في ايطاليا ، في ديسمبر سنة ١٢٥٠ ، الامبراطور فردريك الذي ما زال لاسمه وزن وتقدير في الدوائر الاسلامية ، ولم يرث ابنه كنراذ شيئاً من مجده ومكانته (2) . يضاف الى ذلك ان لويس فاق فردريك فيما احرزه من نجاح في معالجة سكان الشرق الفرنجي ، لما اشتهر به من الكياسة ، وتجرّده من العواطف الخاصة ، ودلّ على قيمته ما حدث من تدخله في إمارة انطاكية ، إذ مات بوهمند الخامس في ينـاير سنة ١٢٥٢ ، وقد خلّف وراءه ، ابنة اسمها بلايسانس التي تزوجت منذ بضعة شهور هنري ملك قبرص الذي لم ينجب ذرية ، فكانت زوجته الثالثة ،

---

(١) انظر : Joinville, pp. 197 - 198.
Estoire d'Eracles, II, pp. 440 - 441.

(٢) انظر : Hefel - Leclerc, *V, I*, p. 1693.
أشار الى ان فردريك مات في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٥٠ في فيورنتينو .

وابناً ، هو بوهمند الذي ناهز الخامسة عشرة من عمره ، وتولى حكم انطاكية بوصاية الاميرة الايطالية الارملة ، لوسيين . كانت لوسيين امرأة بالغة الضعف ، لم تغادر طرابلس مطلقاً ، سلمت مقاليد حكومة الإمارة الى اقاربها من اهل روما . ولم يلبث بوهمند السادس ان احسّ ان أمه ليست مقبولة ، فاستطاع بعد موافقة الملك لويس ان يحصل على اذن من البابا بأن يبلغ سن الرشد قبل بضعة شهور من الميعاد القانوني . فلما وافق البابا انوسنت الرابع ، قدم بوهمند السادس الى عكا ، حيث نصبه الملك لويس فارساً . ثم تقرر عزل لوسيين من السلطة ، وتعويضها بخراج وفير ، وفي نفس الوقت قام الملك لويس باتمام التوفيق بين بلاط انطاكية وبلاط أرمينية . إذ سبق لبوهمند الخامس في اواخر سنوات حكمه ان ارتبط بعلاقات مع الملك هيثوم . غير ان ماضيه كان حافلاً بذكريات مريرة ، اما بوهمند السادس فلم يكن عنده هذا الحقد والغل ، ففي سنة ١٢٥٤ ، وبناء على اقتراح الملك لويس ، تزوج بوهمند من سبيللا ابنة هيثوم ، فأضحى الى حد ما من اتباع صهره . ووافق الأرمن على ان يشتركوا في تحمل المسئولية من أجل الدفاع عن انطاكية (١) .

مات هنري ملك قبرص في ١٨ يناير سنة ١٢٥٣ ، وإذ لم يتجاوز ابنه هيو الثاني من العمر إلا بضعة شهور ، طالبت الملكة بلايسانس

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 439, 441 - 442.
Ms. of Rothelin, p. 624.
Joinville, pp. 186 - 187.
Vincent of Beauvais, p. 96.

بالوصاية على عرش قبرص ، وبالقوامة الإسمية على مملكة بيت المقدس . وأقرّت المحكمة العليا بقبرص وضع الملكة بالجزيرة ، غير ان بارونات برّ الشام ، لم يعترفوا بها إلا بعد ان تتقدم بنفسها اليهم . وفي تلك الأثناء ظل يوحنا ابلين سيد أرسوف نائباً عن الملك ، وفكرت بلايسانس ان تتزوج من ابنه الشاب باليان . على ان الملك لويس استمرّ يتولى الإدارة الفعلية للحكومة [1] .

لم يكن ثمة أمل في قدوم حملة صليبية جديدة من أوربا . إذ ان هنري الثالث ملك انجلترا الذي سبق ان وعد بالإشتراك مع عـــدد كبير من رعاياه في حملة صليبية في ربيع سنة ١٢٥٠ ، اقنع البابا بـأن يسمح له بارجاء اية حملة ؛ ورفض أشقاء الملك لويس ارسال مساعدة من فرنسا . واشتدت ثائرة الرأي العام في فرنسا ، غير انه لم يكن مخدوعاً . فحينما وصل اول نبأ عن كارثة المنصورة ، اجتاح البلاد حركة هستيرية للرعاع المؤلفين من الفلاحين والعمال الذين اطلقوا على انفسهم اسم الرعاة Pastouraux ، وتولى قيادتهم واتخذ لنفسه لقبـاً غريباً « سيد المجر » وأخذوا يعقدون

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.
Assises, II, p. 420.
La Monte, Feudal Monarchy, pp. 74 - 75.
Hill : History of Cyprus, II, p. 149.
والراجح ان بلايسانس لم تكن اكثر من خطيبة لباليان، اذ اقترحت ان تكون عروساً لادموند دوق لانكستر بعد بضعة سنوات . انظر : Rymer, Foedera, I, p. 341.
ولم يتم الاعتراف بهـا نهائياً وصية على بيت المقدس ، الى ان قامت بزيارة عكا سنة ١٢٥٨ .

اجتماعات ، اتهموا فيهـــا علناً البابا واكليروسه ، ونذروا بأنهم سوف ينجدون الملك المسيحي . وبذلت لهم الملكة الوصية بلانش تأييدها اول الأمر ، غير أنه وقع بينهم من الأضطراب والخلل مـــا قضى بضرورة قمعهم . أما النبلاء الفرنسيون فقنعوا بما وجهوه من تلميحـات مريرة الى البـــابا ، الذي آثر الدعوة الى حملة صليبية لقتال أنصار الأمبراطور من المسيحيين ، على أن يبعث بمساعـدة الى اولئك الذين يقاتلون المسلمين . ومضت بلانش الى أبعد من ذلك ، فصادرت أملاك كل تابع استجـاب لنـداء البابا انوسنت الرابـع للاشتراك في حملة صليبية لقتال الملك كنراد سنة ١٢٥١ ، غير انه لم يكن بوسعها او بوسع مستشاريها ان يجرءوا على إرسال حملة الى الشرق [١] .

تحالف الملك لويس مع الحشيشية ، سنة ١٢٥٢

وإذ سعى الملك لويس لالتماس حلفاء أجانب ، دخل مع الحشيشية في اشدّ ما تكون العلاقات وداً وصداقة . إذ حدث بعد كارثة دمياط ان ارسل زعيم الحشيشيـــة في الشام الى عكا ، يطلب من لويس ان يؤدي له مالاً مقابل التزام الحشيشية الحياد ، غير انه ازعجه ما اعطاه الملك لرسله من إجابة حاسمة في حضرة مقدمي الطوائف الدينيـة العسكرية . الواقع ان طائفة الحشيشية طلبت بصفـة خاصة ان تتحلل من الالتزام

---

(١) انظر : Matthew Paris, Chronica Majora, V, pp. 172 - 173, 259 - 261.
Throop, Criticism of the Crusades, pp. 57 - 59.

بدفع جزية للاسبتارية . على ان سفارة الحشيشية التالية كانت اكثر تواضعاً، إذ حملت معها الى الملك الهدايا الفائقة ، وطلبت إقامـــة تحالف وثيق بينهما . ونظراً لما يعلمـه الملك لويس من العـداوة التي تكنها الحشيشية الإسماعيلية للمسلمين السنيين ، شجع خطوتهم ، وانفذ ييف البريتوني للاتفاق على عقد معاهدة . واستهوى ييف البريتوني المكتبة التي أقامها الحشيشية في مصياف . إذ عثر فيها على موعظـة من سفر الأخبار وجهها السيد المسيح الى القديس بطرس ، الذي يعتبر حسبما اخبره رجـــال مذهب الحشيشية ، تجسيداً آخر لهابيل ونوح وابراهيم . وتمّ بينهما ابرام معاهدة للدفاع المشترك [١] .

على ان أهم ما كان يطمح لويس لتحقيقه من الناحيـة الدبلوماسية ، هو ان يظفر بصداقة المغول ألدّ عدو للحشيشية . وحدث في زمن مبكر من سنة ١٢٥٣ ان وصل الى عكا تقرير بأن احد امراء المغول ، وهو سارتاق بن باطو قد تحوّل الى المسيحية ، فبادر لويس الى إرسال راهبين دومنيكانيين ، وليم روبروق ، وبارثولوميو الكريموني ، كيما يحثا الامير المغولي على النهوض لمساعدة اخوانه المسيحيين في سوريا ، غير أنه لم يكن لأمير مغولي صغير من السلطات ما يجعله يعقد محالفة تعتبر بالغـة الأهمية [٢] .

---

(١) انظر : Joinville, pp. 160 - 165.

(٢) انظر : Pelliot, « Les Mongols et la Papauté », loc. cit. p. 220

قام روكهيل بترجمة ونشر رحلة روبروق الى اللغة الانجليزية. ارتاب روكهيل في تحول سارتاق الى المسيحية ، وقد اجتمع به . غير ان الارمن اعتقدوا في صدق اعتناقه للمسيحية . انظر :

Rockhill, Rubruck's Itinerarium, pp. 107, 116.

Kiriakos of Gantzag, History, (trans. Brosset), p. 178.

وبينما كان الراهبان الدومنيكيان يوغلان في جوف آسيا قاصدين بلاط الخان الكبير ، كان لزاماً على الملك لويس ان يغادر الشرق الفرنجي . إذ ماتت امه الملكة الوصية بلانش في نوفمبر سنة ١٢٥٢ ، وأعقب وفاتها حدوث اضطرابات وقلاقل ، فأخذ ملك انجلترا يثير المتاعب ، على الرغم من اليمين التي بذلها للمضي الى الحرب الصليبية ، كما انه لم يساند أساقفته الذين عهد اليهم البابا بالدعوة الى الحرب الصليبية . واندلعت الحرب الاهلية بسبب التنازع على إرث كونتية الفلاندر ، وازدادت كراهية كبار الأتباع بفرنسا للمسير الى الحرب الصليبية . على ان لويس جعل لمملكته اول ما يقوم به من واجبات . فتجهز كارهاً للعودة الى وطنه ، ثم أقلع من عكا في ٢٤ أبريل سنة ١٢٥٤ ، وكادت سفينته تتحطم تجاه ساحل قبرص ، غير ان الملكة نذرت ان تقدم سفينة مصنوعة من الفضة الى مشهد القديس نقولا في فارانجفيل ، فهدأت العاصفة . ولم تمض إلا بضعة ايام حتى أنقذ السفينة من الدمار حرقاً ، ما اشتهرت به الملكة من سرعة الخاطر . وفي يوليه سنة ١٢٥٤ هبط الركب الملكي الى البر في هييرز من أملاك شارل انجو شقيق الملك (١) .

---

(١) انظر :
Joinville, pp. 218 - 234.
William of Saint - Pathus, pp. 29 - 30.
Ms. of Rothelin, pp. 629 - 630.
Matthew Paris, V, pp. 434, 452 - 454.
أشار ماثيو باريس الى وفاة الملكة بلانش في اول ديسمبر سنة ١٢٥٢ . انظر :
Matthew Paris, V, p. 354.

نتائج رحيل الملك لويس سنة ١٢٥٤ :

الواقع ان حملة القديس لويس الصليبية ورّطت الشرق المسيحي في كارثة عسكرية مروعة ، فعلى الرغم من إقامة الملك لويس بعكا لمدة اربع سنوات أسهمت كثيراً في اصلاح الضرر ، فان ما حدث من خسارة في القوة البشرية ، لم يجرِ مطلقاً استردادها. ومع ان الملك لويس فاق جميع المحاربين الصليبيين فيما حازه من أنبل الصفات والاخلاق ، فلعله كان خيراً للشرق الفرنجي ، لو انه لم يغادر فرنسا ، إذ ان فشله كان ضربة عميقة الأثر ، فمع انه كان رجلاً صالحاً يخاف الله ، فان الله قاده الى الكارثة . وإذ جرى تفسير ما تعرض له الصليبيون في الايام المتقدمة من سوء الحظ على انه عقاب لهم على ما ارتكبوه من جرائم وما انغمسوا فيه من رذائل ، فان هذه النظرية السهلة لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها . أليس من الجائز ان الله تجهم لكل الحركة الصليبية (١) ؟

ومع ان قدوم الملك الفرنسي الى الشرق لازمه سوء الطالع ، فان رحيله عرّض الشرق لخطر وقوع ضرر مباشر . خلّف لويس وراءه جفري سارجينس ليكون ممثلاً له ، بعد ان شغل وظيفة رسمية ، إذ كان صنجيلاً للمملكة اما نائب الملك فكان وقتذاك يوحنا ابلين ، كونت يافا الذي خلف ابن عمه يوحنا سيد أرسوف في هذه الوظيفة سنة ١٢٥٤ ،

---

(١) انظر : Salimbene, Chronica, pp. 235 - 237.

يشير هذا المؤرخ الى انه جرى الإعراب عن هذه الشكوك ، اذ تعرض الرهبان الذين دعوا لهذه الحملة الصليبية ، للإهانة علناً بعد ان فشلت الحملة .

غير انه أعادها له سنة ١٢٥٦ . والراجح ان يوحنـا سيد أرسوف كان غائباً في قبرص اثنـاء تلك السنوات ، يعمل مستشاراً للملكة بلايسانس التي استمرت وصية شرعية على المملكتين [١] (قبرص وبيت المقدس) . وما حدث من وفاة كنراد ملك المانيـا ، في ايطاليا ، في مـايو سنة ١٢٥٤ ، أدّت الى انتقال لقب ملك بيت المقدس الى ابنه كنرادين الذي لم يتجاوز الثـانية من عمره ، والذي حرص رجال القـانون في الشرق الفرنجي على تذكـّر حقوقه الاسمية [٢] . على ان الملك لويس عقـد مع دمشق قبيل رحيله معـاهدة لمدة سنتين ، وستة شهور ، وأربعين يوماً ، ابتداء من ٢١ فبراير سنة ١٢٥٤ . إذ ان النـاصر يوسف سلطان دمشق أضحى يدرك الخطر المغولي ، ولم يعد له رغبـة في قتال الفرنج . كما ان أيبك سلطان مصر أراد ان يتجنب خوض حرب كبيرة ، فعقد في سنة ١٢٥٥ هدنة مع الفرنج لمدة عشر سنوات . غير انه تعمّد استبعاد يافـا من الهدنة ، لما كان يأمله من اتخاذها ميناء لإقليم فلسطين التابع له [٣] . على انه وقعت عبر الحدود غارات من الجانبين . ففي يناير سنة ١٢٥٦ ، استولى جيوفري سارجينس ويوحنا كونت يافـا على قافلة ضخمة من الدواب . ولما أرسل الحاكم المملوكي لبيت المقـدس في مارس سنة ١٢٥٦

---

(١) انظر : La Monte, loc. cit. n. 1.

(٢) انظر : Matthew Paris, V, pp. 459 - 460.

عن حقوق كنرادين ، انظر ما يلي ص ٤٨٩ — ٤٩١ .

(٣) انظر : Matthew Paris, V, p. 522.

Ms. of Rothelin, p. 630.

Annales de Terre Sainte, p. 446.

حملة لتأديب المغيرين ، تعرّض لهزيمة ساحقة ، ولقي مصرعه . وإذ واجه أيبك مشاكل مع قادته ، ومنهم بيبرس ، أبرم معاهدة جديدة مع دمشق ، وتنازل عن فلسطين مرة اخرى ، بناء على توسّط الخليفة . غير ان كلا من الدولتين الاسلاميتين ، دمشق والقاهرة ، جدّدت الهدنة مع الفرنج ، لمدة عشر سنوات ، على ان تدخل فيها منطقة يافا[1] .

الحرب حول دير القديس سابا سنة ١٢٥٦ :

ما اظهرته كل من القاهرة ودمشق من الصبر والاحتمال ، الذي أملاه عليهما ازدياد خوفهما من المغول ، انقذ الفرنج مما يستحقونه من النتائج التي نجمت عن الحرب الاهلية التي مـا لبثت ان اندلعت بعـد رحيل الملك لويس . فالمعروف ان مختلف التجـار الايطاليين اضحـوا يؤلفون انشط العناصر في كل ميناء بالشرق الفرنجي . إذ سيطر على تجارة البحر المتوسط الجمهوريات الثلاثة الكبيرة ، جنوة ، والبندقية ، وبيزا ، بما لها من جاليات في كل ميناء على الساحل الشرقي . وفيما عدا ما اشتهر به الداوية من اعمال الصيرفة ، امدت تجارة الايطاليين الشرق الفرنجي بمعظم مـا حصل عليه من موارد ، كما انها كانت تعتبر بالغة النفع للأمراء المسلمين ، إذ أن رغبتهم من حين الى آخر في توقيع هدنة مع الفرنج ترجع الى حـد كبير الى تخوفهم من انقطاع هذا المصدر المدر للربح . غير ان الجمهوريات الايطالية

---

(١) انظر :

Ms. of Rothelin, pp. 631 - 633.
Annales de Terre Sainte, loc. cit.
Abu'l Feda, pp. 133 - 134.

اشتدّ بينها التنافس . فما وقع من نزاع بين بيزا وجنوة حمل الملك لويس على ارجاء إبحاره من قبرص سنة ١٢٤٩ ، ونشب القتال في شوارع عكا سنة ١٢٥٠ ، بعد ان لقي احد تجار جنوة مصرعه بيد احد البنادقة (١).
ولما ارتحل الملك لويس الى اوربا ، تجددت الفتنة . فالمعروف انه يفصل حي البنادقة عن حي الجنويين تل النبي صمويل ، الذي حازه الجنويون باستثناء الصخرة التي تعلو قمته والتي يحتلها من قديم الزمن دير القديس سابا ، وزعمت كل من الجاليتين لنفسها امتلاك الدير . وحدث ذات صباح في اوائل سنة ١٢٥٦ ، وبينما كان رجال القانون يتجادلون في المسألة ، أن تملك الجنويون الدير ، ولما احتج البنادقة ، اطلقوا رجالاً مسلحين من التل فهبطوا الى حي البنادقة . وهرع البيازنة ، الذين سبق ان اجروا معهم اتفاقاً ، فانحازوا اليهم . وشهد البنادقة ، بعد ان أُخذوا على غرة ، ما تعرضت له من النهب دورهم ، وسفنهم التي جرى ربطها الى الرصيف . ولم يطردوا الغزاة من حيّهم إلا بصعوبة . ففقدوا الدير وعدداً كبيراً من سفنهم (٢) .

---

(١) انظر : Annales Januenses, p. 238.
انظر ما سبق ، ص ٤٥٠ .

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 443.
Annales Januenses, p. 239.
Dandolo, p. 365.
Heyd, Histoire de Commerce du Levant, I, pp. 344 - 354.
اؤرد هايد القصة الكاملة لحرب القديس سابا .

وفي تلك اللحظة ، ظن سيد تبنين وصور ، الذي ظل زمناً طويلاً ينازع البنادقة في حق تملكهم بعض القرى قرب صور ، انه تهيأت الفرصة لطردهم من ثلث مدينة صور ، الذي حازوه بمقتضى المعاهدة التي انعقدت حينما تم الاستيلاء على صور ، سنة ١١٢٤ ، وإخراجهم من أملاكهم في ضواحيها . ونظراً لما وقع من خصومة بين البنادقة والجنويين ، لم يكن بوسع البنادقة ان يمنعوا فيليب مونتفورت . وإذ لم تكن حكومة جنوه راضية على ان تنشب الحرب مع البندقية ، عرضت وساطتها ، غير ان الغضب بلغ من الشدة عند البنادقة ما منع قبول عرض جنوه . واشتهر قنصل البندقية في عكا ، ماركو جويستياني ببراعته الدبلوماسية . على ان ما قام به من إجراء تعسفي ، أثار قلق أبناء عمومته من أسرة ابلين ، الذين اشتهروا بتعلقهم بالحقوق الشرعية . فارتاب نائب الملك ، يوحنا سيد أرسوف في ان أسرة مونتفورت تنوي إعلان استقلال صور عن حكومة عكا . ومع ان ما اتسمت بــه علاقات يوحنا سيد أرسوف بالبنادقة من البرود يرجع اساساً الى ما اتخذه البنادقة من اتجاه فاتر نحو حملة لويس الصليبية ، فان قنصل البنادقة في عكا ، جويستياني ، استطاع ان يستميله الى جانبهم . أما يوحنا كونت يافا فلم يكن فعلاً في علاقات ودية مع الجنويين ، وقد حاول احد الجنويين ان يغتاله . وإذ انزعجت الطوائف (النقابات) Fraternities في عكا ، لما يسعى اليه فيليب مونتفورت من جعل صور منافساً تجارياً لمدينتهم عكا ، بذلوا عطفهم ومساعدتهم الى جويستياني ، الذي أقنع بدوره البيازنة ان الجنويين ليسوا إلا حلفاء محبين لأنفسهم ، لا يصح الركون اليهم او الثقة فيهم ، فظفر بمساندتهم . ثم انحاز اليه تجار مرسيليا الذين كانوا دائماً يحقدون على الجنويين ، بينما اتخذ جانب البنادقة تجار قطلونيا الذين حسدوا تجار مرسيليا . ولقي البنادقة المساندة

من فرسان الداوية والفرسان التيوتون ، واتخذ الاسبتارية جانب الجنويين . وفي أقصى الشمال انحـاز الى الجنويين أسرة امبرياكو التي كانت تحكم في جبيل والتي لم تنس أصلها الجنوي . فأرسل زعيم هـذه الأسرة ، هنري ، العساكر لمساعدة الجنويين في عكا ، متحدياً بذلك ما فرضه سيده ، بوهمند السادس امير انطاكية وطرابلس من قيود خاصة ، بعد ان وقع الشجار بينهما . وحاول بوهمند السادس ان يلتزم الحياد ، غير ان عواطفه كانت مع البنادقة ، على ان عداوتـه لبيت امبرياكو أجبرته على الانغماس في النزاع . اما أخته الملكة الوصية بلايسانس فليس بوسعها ان تفعل شيئاً ، إذ انهـا لم تثق الا في جيوفري سارجينس من رجال الشرق الفرنجي ، واذ كان سارجنس غريباً ، لم يكن له شيء من النفوذ او القوة المادية . وأخذت الحرب الأهليـة تعمّ مجتمع الشرق الفرنجي بأسره . لم تعد مسألة بارونات محليين اتحدوا لمناهضة سيد اجنبي ، مثلما حدث زمن فردريك الثاني . إذ أثار النضال مـــا وقع بين الأسرات من خصومات تافهة . فالمعروف ان ام فيليب مونتفورت ، وزوجة هنري سيد جبيل ، تنتميان الى أسرة ابلين ، كما ان جدة بوهمند السادس كانت من اسرة امبرياكو. غير ان اواصر القرابة أضحت لا قيمة لها (١) .

وعجلت حكومة البندقية باتخاذ اجراء سريع . فـلم يكد الجنويون يعلمون ان البيـازنة تخلوا عنهم ، حـتى اغاروا على حي بيزا في عكا ،

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 445.
Dandolo, pp. 366 - 367.
Annales Januenses, loc. cit.

فتهيأ لهم بذلك السيطرة على الميناء الداخلية . غير انه مـا كاد يتوافر لهم الوقت لمد سلسلة لتسد مدخل الميناء ، حتى أقلع اسطول ضخم للبنادقة بقيـادة امير البحر لورنزو تيبيبولو ، فاقتحمت سفنه السلسلة ، وأنزلت الرجال على الرصيف . ودارت معركة في الشوارع راقت فيها الدماء ، وارتد الجنويون آخر الامر الى حيهم ، الذي كان يحميه حي الاسبتارية الواقع الى الشمال منه مباشرة . امـا دير القديس سابا فاحتله البنادقة ، غير ان البنادقة لم يستطيعوا طرد الجنويين والبيازنة من عمائرهم (١) .

الملكة بلايسانس في عكا سنة ١٢٥٨ :

حاولت بلايسانس ، في فبراير سنة ١٢٥٨ ان تفرض سلطتها ، فعبرت من قبرص مع ابنهـــا الملك هيو الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره ، ونزلت بطرابلس عند اخيها بوهمند السادس الذي رافقها الى عكا. فتقررت دعوة المحكمة العليا للانعقاد ، فطلب اليها بوهمند التصديق على دعوى هيو ملك قبرص ، باعتباره وريث مملكة بيت المقدس الذي يلي كنرادين المتغيب ، بالاعتراف به حافظاً للسلطة الملكية ، والاعتراف بدعوى امه القيمة عليه ، وصية على العرش . غير انه خاب أمل بوهمند في ان سلطة اخته وقدومها الى عكا سوف ينهي الحرب الاهلية . ولم يكد يقر سادة ابلين كل مـــا لهيو وبلايسانس من دعـاوى ، بأستثناء حقوق الملك كنرادين ، ويلتقي

---

(١) انظر :
Dandolo, loc. cit.
Annales Januenses, p. 240.
Estoire d'Eracles, II, p. 447.

فرسان الداوية مع فرسان التيوتون على رأي واحد ، حتى بادر الاسبتارية الى التصريح بأن لا يجوز اتخاذ قرار في غيبة كنرادين ، متذرعين بالحجة التي سبق ان تغلبت في سنة ١٢٤٣ . وبذا انساقت الاسرة الملكية الى الحرب الاهلية ، بأن صار البنادقة يساندون بلايسانس وابنها ، على حين ان من سخرية التـــاريخ ، صار المدافع عن اسرة هوهنشتاوفن ، جنوه والاسبتارية وفيليب مونتفورت ، الذين كانوا جميعاً من ألدّ أعداء فردريك الثـــاني . على ان بلايسانس ظفرت بالوصاية بأغلبية الاصوات . ورفع اليها يوحنا سيد ارسوف استقالته بصفة رسمية من وظيفته على انه نائب الملك ، فأمرت بتعيينه في هـــذا المنصب من جديد . ثم عادت بصحبة أخيها ، بوهمند السادس ، الى طرابلس ، ومنها أبحرت الى قبرص ، بعد ان أصدرت التعليمات الى نائبها بأن يستخدم الصرامة في معالجة المتمردين [١] .

امـــا بطريرك بيت المقدس ، فكان جيمس بانتاليون ، ابن إسكافي في تروي . تقرر تعيينه بطريركاً في ديسمبر سنة ١٢٥٥ ، غير انـــه لم يصل الى عكا إلا في صيف سنة ١٢٦٠ ، حينما اندلعت الحرب الاهلية . ومع انه اظهر مقدرة فائقة منذ زمن قريب في معاملة الوثنيين في بلاد البلطيق ، فان الوضع في الشرق الفرنجي تجاوز قدرته . أصاب البطريرك فيما بذله من مساندة للملكة بلايسانس ، واستنجد بالبابا كيما يتخذ اجراء في ايطاليا فدعا البـــابا الاسكندر الرابع مندوبين عن الجمهوريات الايطالية الثلاثة ،

---

(١) انظر :

Assises, II. p. 401.
Estoire d'Eracles, II, p. 443.
Ms. of Rothelin, p. 643.
Gestes des Chiprois, pp. 149, 152.

لحضور محكمته في فيتربو ، وأمر بعقد هدنة مباشرة . فتوجه الى سوريا على سفينة جنوية مندوبان مفوضان من قِبل كل من البندقية ، وبيزا ، بينما استقل سفينة بندقيــة ، مندوبان من قِبل جنــوة ، كيما يقوموا بتسوية المشكلة بأجمعها . وارتحل المندوبون في يوليه سنة ١٢٥٨ ، غير انهم علموا اثناء الرحلة ، أنهم جاءوا متأخرين ، إذ ان جمهورية جنوة ارسلت فعــلا اسطولاً بقيادة روسو ديللا توركو، وصل تجاه صور في يونيه سنة ١٢٥٨ ، فانحاز بها الى الاساطيل الجنوية في مياه الساحل الشرقي للبحر المتوسط . وفي ٢٣ يونيه سنة ١٢٥٨ أبحر من صور الاسطول المشترك الذي تألف من ثماني وأربعين سفينة ، بينما سارت على الساحل صوب الجنوب ، سرية من عساكر فيليب مونتفورت . امـا البنادقة وحلفاؤهم البيــازنة فكان بحوزتهم ثماني وثلاثين سفينة بقيادة تيبيولو . ودارت المعركة الفاصلة في ٢٤ يونيه سنة ١٢٥٨ تجــاه عكا . اثبت تيبيولو براعته في تدبير الخطط الحربية . إذ فقد الجنويون بعد قتال عنيف اربعاً وعشرين سفينة ، والفاً وسبعمائة رجل ، وانسحبوا دون نظام . ومن بقي على قيد الحياة ، لم ييسر لهم العودة الى صور إلا نسيم هبّ فجأة من جهــة الجنوب . وفي تلك الاثناء أوقفت قوات عكا المحلية زحف فيليب مونتفورت ، وتعرض الحي الجنوي بداخل عكا للغــارة والنهب . وترتب على هزيمــة الجنويين ، انهم قرروا الجلاء نهائياً عن عكا ، واتخاذ صور مستقراً لهم [١] .

(١) انظر :

Dandolo, p. 367.
Annales Januenses, p. 240.
Gestes des Chiprois, pp. 153 - 156.
Raynald, XXII, pp. 30 ff.
Estoire d'Eracles, II, p. 445.

ارسل البابا ، في ابريل سنة ١٢٥٩ ، الى الشرق مندوباً عنه ، توماس اجني لنتينو اسقف بيت لحم ، وأصدر اليه الأوامر بأن يسوّي ما وقع من نزاع . وحوالي ذلك الوقت مات يوحنا سيد ارسوف ، نائب الملك ؛ وعادت الى عكا الملكة بلايسانس ، فعينت في اول مايو سنة ١٢٥٩ ، جفري سارجينس نائباً للملك . كان جفري سارجينس رجلا محترماً ، لا يميل الى الإكثار من الجدل والنقاش ، فاشترك مع المندوب البابوي في عقد الهدنة . وفي يناير سنة ١٢٦١ أسفر اجتماع المحكمة العليا الذي شهده مندوبون من الجاليات الايطالية ، عن الاتفاق الذي يقضي بأن يستقر الجنويون في صور ، بينما يتخذ كل من البنادقة والبيازنة مقرهم في عكا . وتمّ الوفاق من الناحية الرسمية بين المتحاربين من النبلاء والطوائف الدينية العسكرية . ولم تلبث الحرب ان نشبت من جديد ، وظلت مستعرة ، فألحقت الضرر بالتجارة وحركة الشحن على امتداد الساحل السوري[1] .

البيزنطيون يستعيدون القسطنطينية سنة ١٢٦١ :

أنزلت هذه الحرب ايضاً الضرر بالفرنج النازلين في الشرق ، وراء الطرف السوري . اذ ان الامبراطورية اللاتينية المتداعية بالقسطنطينية لم تعش اساساً إلا بفضل مساعدة الايطاليين ، الذين خشوا ضياع امتيازاتهم التجارية . اذ كان للبندقية بما تحوزه من أملاك في القسطنطينية ذاتها ، وفي

---

(١) انظر : Tafel - Thomas, Urkunden, III, pp. 39 - 44.
Gestes des Chiprois, p. 156.
Annales de Terre Sainte, pp. 448 - 449.

جزائر بحر إيجه ، اهتمام خاص بالإبقاء عليها . ولذا بذلت جنوه التأييد الفعلي للامبراطور البيزنطي القوي ميخائيل باليولوجس في نيقية . والمعروف ان ميخائيل باليولوجس وضع فعلا الأسس اللازمة للبيزنطيين لاستعادة بلاد البيلوبونيز في سنة ١٢٥٩ ، بما أحرزه من انتصار باهر في بيلاجونيا ، في مقدونيا حيث وقع في أسره وليم فيلهاردوين امير أخايا مع كل باروناته ، وأجبر على ان يتنازل عن حصون : ماينا ، وميسترا ، ومونيمفاسيا التي تحكمت في الشطر الشرقي من شبه الجزيرة . وفي مارس سنة ١٢٦١ وقّع ميخائيل باليولوجس معاهدة مع الجنويين ، جعل لهم بمقتضاها الافضلية في المعاملة ، في جميع ممتلكاته الحاضرة والمستقبلة . وبفضل مساعدة الجنويين دخلت عساكره القسطنطينية في ٢٥ يوليه سنة ١٢٦١ . وبهذا زالت امبراطورية اللاتين التي نبتت من الحملة الصليبية الرابعة . فكل ما فعلته هذه الامبراطورية انها ألحقت الضرر بالشرق المسيحي (١) .

فما حدث من استرداد البيزنطيين للقسطنطينية ، وانهيار الامبراطورية اللاتينية ، ليس إلا نتيجة لما نشب من حرب حول دير قديم في عكا . وكان ذلك ضربة قاصمة لهيبة اللاتين والبابوية ، وانتصاراً لليونانيين . على ان بيزنطة ، حتى بعد استردادها لعاصمتها ، لم تعد الامبراطورية العالمية التي كانت في القرن الثاني عشر ، اذ انها أضحت دولة من دول بيزنطية عديدة . وأضحى في البلقان ، الى جانب ما تبقى من الامارات اللاتينية ،

---

(١) انظر : Vasiliev, History of the Byzantine Empire, pp. 538 - 539.
ومن المصادر البيزنطية الرئيسية : Pachymer, pp. 140 ff.
George Acropolita, I, pp. 182 ff.

مملكتان قويتان للبلغار والصرب . امـا في بلاد الاناضول فليس ثمة أمل في طرد الأتراك ، برغم ما ألحقه المغول بسلطنة السلاجقة من الضعف الشديد . والواقع ان تملك البيزنطيين لوطنهم القديم أدّى الى ازدياد مشاكل الأباطرة لا الى قوتهم . وكان الجنويون اكثر من أفاد من ذلك . إذ سبق ان تعرضوا للهزيمة في سوريا ، غـير ان تحالفهم مع بيزنطة أتاح لهم السيطرة على تجارة البحر الاسود ، التي ازدادت في حجمها وأهميتها بعـد ان أدّت فتوح المغول الى تأمين طرق القوافل عبر آسيا الوسطى (١) .

واستطاع جيفري سارجنيس ، في الشرق الفرنجي بمـا يستند اليه من الذكرى التي خلفتها مكانة القديس لويس ، ان يعيد قدراً ضئيلاً من الأمن والنظام بين بارونات المملكة . ومع ان الملاحين الايطاليين قـد يواصلون القتال ، فإن العداوات الحادة بينهم تحطمت على صخرة الساحل . غير ان مـا كان من صداقة قديمة بين انصار مونتفورت وأنصار الابليين ، قـد ولّـت ولن تعود . ولم تخف حدة العداء التقليدي بين الداوية والاسبتارية ، على حين ان الفرسان التيوتون اخذوا ، بعد ان يئسوا من مستقبل سوريا ، يوجهون اهتمامهم الرئيسي الى شواطىء بحر البلطيق النائية ، حيث حازوا منذ سنة ١٢٢٦ اراضي وقلاعاً مقابل ما يبذلونه من مساعدة في ترويض الوثنيين البروسيين والليفونيين ، وحملهم على اعتناق المسيحية (٢) .

---

(١) انظر : Heyd, I, pp. 427 ff.

(٢) عن الفرسان التيوتون ، انظر : Strehlke, Tabulae Ordinis Teutonici.

لم تمتد سلطة جفري سارجينس الى كونتية طرابلس . فما كان بوهمند السادس يكنّه من كراهية لتابعه هنري سيد جبيل ، أدّت الى اندلاع الحرب بينهما . فلم يكتف هنري سيد جبيل بالتخلص من سيادة بوهمند ، وتأكيد استقلاله التام بفضل مساعدة الجنويين ، بل ان ابن عمه برتراند رئيس الفرع الاصغر من اسرة امبرياكو ، هاجم بوهمند في طرابلس ذاتها . ولما تقرر عزل الاميرة الارملة لوسيين عن الوصاية ، حرصت على ان تبقي كثيراً من اتباعها الايطاليين المحظوظين في الوظائف الهامة بالكونتية (طرابلس) ، فاشتد حنق البارونات ، الذين ظفروا بزعامة برتراند امبرياكو ، الذي تملك ضياعاً شاسعة في جبيل وما حولها من الاراضي ، وصهره يوحنا الانطاكي ابن عم بوهمند وسيد البترون . وفي سنة ١٢٥٨ زحف البارونات على طرابلس حيث اقام بوهمند ، وألقوا الحصار على المدينة . وقام بوهمند بهجوم من داخل المدينة ، غير انه حلّت به الهزيمة ، وأصابه جرح في كتفه من يد برتراند نفسه . وأجبر بوهمند على ان يبقى محاصراً في عاصمته الثانية (طرابلس) ، حتى انفذ اليه الداوية رجالاً لإنقاذه . وتحرّق بوهمند غيظاً للانتقام . فبينما كان برتراند يسير ذات يوم راكباً حصانه في احدى قراه ، هاجمه فجأة جماعة من الفلاحين المسلحين ، واجتزوا رأسه ، وأرسلوه هدية الى بوهمند . وما من احد ارتاب في ان بوهمند هو الذي أوحى بقتله ، وخدم هذا الحادث في الوقت الراهن غرض بوهمند ، إذ استبد الخوف بالعصاة المتمردين فلجأوا الى جبيل . على انه وقع منذئذ العداء والثأر بين بيتي انطاكية وأمبرياكو (جبيل) (١) .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 157 - 160.
Rey : « Les Seigneurs de Giblet », in Revue de l'Orient Latin, III, pp. 399 - 400.

هيو ملك قبرص يصير وصياً على مملكة بيت المقدس سنة ١٢٦٤ :

زالت حكومة جفري سارجينس سنة ١٢٦٣ ، إذ أن بلايسانس ملكة قبرص ماتت في سبتمبر سنة ١٢٦١ ، واشتد الحزن على وفاتها ، لما كان لها من شخصية بالغة الاكتمال . لم يتجاوز ابنها هيو الثاني وقتذاك الثامنة من عمره ، واحتاج الامر تعيين وصي جديد على قبرص وبيت المقدس . وإذ كان لهنري الاول والد هيو اختان ، تزوجت كبراهما ، ماريا من والتر بريين ، وماتت صغيرة السن ، بعد ان خلفت وراءها ابناً ، هو هيو ؛ أما الصغرى ، وهي ايزابيللا ، فتزوجت من هنري شقيق بوهمند الخامس امير انطاكية ، ولا زالت على قيد الحياة . وكان ابنها هيو يكبر في السن ابن خالته هيو بريين الذي تولت ايزابيللا ايضاً تربيته مع ابنها . ومع ان هيو بريين يعتبر الوريث التالي للعرش ، فإنه لم يودّ ان ينافس خالته وابنها على الوصاية على العرش . وقررت المحكمة العليا بقبرص بعد المناقشة والمداولة ، رفض دعوى ايزابيللا ، وأقرّت دعوى ابنها ، نظراً لأن الرجل يفضل المرأة في الوصاية ، فتقرر تعيينه وصياً باعتباره اكبر الامراء الذي يجري فيهم الدم الملكي ، اما المحكمة العليا في بيت المقدس فتهيأت لها فسحة من الوقت لإنعام النظر في امر الوصاية . إذ لم تقدم ايزابيللا وزوجها هنري الى عكا إلا في ربيع سنة ١٢٦٣ ، فاعترف نبلاء عكا بها وصية ، غير انهم رفضوا ان يبذلوا لها يمين الولاء ، بعد ان ساورهم

= كان يوحنا لا وليم (حسبما ورد خطأ في فهرس الجستا الذي نشره ماس لاتريه) سيداً للبترون. اما ابوه، وليم، فانه لقي مصرعه في رقعة الحربية (La Forbie) غزه سنة ١٢٤٤ .

من الشكوك ما كانوا يجهلونه حتى وقتذاك . ولو ان الملك كنرادين كان حاضراً ، لما حدث شيء من هذا القبيل . إذ أن جفري سارجينس استقال من منصبه ، نائب الملك ، الذي جعلته الوصية لزوجها . ثم عادت ايزابيللا منفردة فرحة مسرورة الى قبرص ، بعد ان تركت زوجها في عكا .

على ان ايزابيللا ماتت بقبرص في السنة التالية ، فأضحت الوصاية على بيت المقدس شاغرة مرة اخرى . فطالب بالوصاية هيو الامير الانطاكي الوصي على قبرص ، باعتباره ابن ايزابيللا ووريثها ، غير ان هيو بريين تقدم من جانبه بدعوى معارضة . إذ أعلن أنه بناء على العرف السائد بفرنسا ، والمتبع في الشرق الفرنجي ، يكون لابن البنت الكبرى السابقة في الحكم على ابن البنت الصغرى ، بصرف النظر عن أيهما كان اكبر سناً . غير أن رجال القانون بالشرق الفرنجي اعتبروا صلة القرابة بآخر من تولى هذا المنصب هي العامل الحاسم في تقرير ذلك . ولما كانت ايزابيللا آخر من تولى الوصاية ، كان لابنها هيو الأسبقية على ابن خالته في الوصاية . فأعلن النبلاء وكبار الموظفين بالإجماع الاعتراف بوصايته ، وحلفوا له يمين الولاء التي سبق ان انكروها على أمه . وبادرت القومونات والجاليات الاجنبية الى اعلان اخلاصها ، كما اعترف به مقدما الداوية والاسبتارية . وعلى الرغم من ان الايطاليين لا زالوا يقاتلون بعضهم بعضاً في البحار ، فإنه ساد المملكة جو من الوفاق وإن كان ظاهرياً ، وذلك بفضل ما اشتهر به هيو من النشاط . لم يعين هيو نائباً عنه ليحكم في البر السوري ، فظل يتنقل بين قبرص وعكا . فإذا أقام بقبرص عهد بحكومة عكا الى جفري سارجينس الذي اضحى صنجيلاً للمملكة مرة اخرى ، فأصبحت الادارة من جديد في يدي رجل محترم ، إذ أن اخطاراً جسيمة

متزايدة تلوح في الأفق [١] .

آخر حملة صليبية قام بها الملك لويس، سنة ١٢٧٠ :

لم ينسَ الملك لويس مطلقاً الارض المقدسة . فدأب كل سنة على ان يرسل مبلغاً من المال للإنفاق على جماعة صغيرة من العساكر ، كان قد خلّفها وراءه بعكا تحت قيادة جفري سارجينس . وظل هذا الإجراء مستمراً ، حتى بعد وفاة سارجينس ، وبعد وفاته هو ايضاً . اذ كان لويس يأمل دائماً في انه سوف يتوجه مرة اخرى في حملة صليبية في يوم من الايام ، غير ان حاجات بلاده لم تهيىء له فرصة للراحة . فلم يحس ان بوسعه إعداد حملة صليبية جديدة إلا في سنة ١٢٦٧ ، بعد ان حلّ به الإرهاق والمرض ، فشرع يعدّ في بطء التدابير اللازمة ، وفي توفير الاموال الضرورية . وفي سنة ١٢٧٠ أضحى مستعداً للإقلاع الى فلسطين[٢].

على ان هذا المشروع الصليبي تعرّض شكله للانتقاص والالتواء والدمار على يد شارل شقيق الملك لويس . اذ حدث سنة ١٢٥٨ ان الطفل كنرادين الملك الاسمي لصقلية وبيت المقدس ، عزله عن العرش وحلّ مكانه في الحكم عمه مانفرد،وهو ابن غير شرعي للامبراطور فردريك الثاني.وحاز مانفرد قدراً كبيراً مما اشتهر به ابوه فردريك من الألمعية والغطرسة ، ولقي من

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 75 - 77.
Hill, op. cit. pp. 151 - 154.
إذ ناقشا ما يتعلق بالوصاية من النواحي القانونية، انظر ايضاً المراجع الواردة بهذين الكتابين .

(٢) انظر : Joinville, pp. 210 - 212.

البابوية ما لقيه ابوه من الكراهية . وأخذ البابوات يلتمسون اميراً يجعلونه مكانه على عرش صقلية ، التي خضعت عرفاً وتقليداً لسيادتهم . وعــثر البابوات على ضالتهم في شارل كونت انجو ، بعـد ان استعرضوا ادموند دوق لانكستر ابن هـنري ملك انجلترا . على ان شارل لم يحز إلا قدراً ضئيلاً مما يتصف به اخوه لويس من القداسة ، فاتصف بالبرود والقسوة والطموح الذي لا حدّ له . امـــا زوجته ، الكونتيسة بياتريس ، ووريثة بروفانس وشقيقة ثلاث ملكات ، فتطلعت الى ان تتخذ التاج ايضاً . وفي سنة ١٢٦١ أضحى جيمس بانتاليون بطريرك بيت المقدس ، بابا باسم اربان الرابع . فلم يلبث ان أقنع لويس بأن استئصال شأفة الهوهنشتاوفن من صقليـــة يعتبر خطوة تمهيدية لا بد منها لضمان نجاح كل حملة صليبية مستقبلة .

وافق لويس على ترشيح اخيه ليتولى عرش صقلية ، بل انه قرر فرض ضرائب في فرنسا لصالحه . ومع ان البـــابا اربان الرابع مات في سنة ١٢٦٤ ، فان خليفته ، كلمنت الرابع ، وهو فرنسي ايضاً ، أتمّ الاتفاق مع شارل كونت انجو ، الذي زحف سنة ١٢٦٥ على ايطاليا ، وأنزل الهزيمة بمانفرد وقتله في معركة بنيفنتو . وبفضل هـذا الانتصار أضحى جنوب ايطاليا وصقلية في حوزة شارل ، وظفرت زوجته بالتـــاج الذي كانت تنشده . وحدث بعد ثلاث سنوات ان قام كنرادين بمحاولة باسلة لاسترداد تراثه بإيطاليا ، غير انه تعرّض لكارثة ساحقة قرب تاجليكوتسو ، ووقع في الأسر كنرادين آخر سلالة هوهنشتاوفن ، وهو صبي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وتقرر اعدامه . ازداد شأن مطامع شارل ، اذ أراد ان يسيطر على كل ايطاليا ، ولا بد له من استعادة القسطنطينية من أيدي اليونانيين المنشقين ، وأراد ان يقيم في حوض البحر المتوسط امبراطورية كالتي كان

يحلم بهـا دون طائل اسلافه النرمان . وأخذ البابا كلمنت يخشى الوحش الذي نصّبه ، غير انه لم يلبث ان مات سنة ١٢٦٨ . وظلّ شارل ثلاث سنوات يعطّل انتخاب بابا جديد ، بمـا لجأ اليه مع الكرادلة من تدبير المؤامرات . ومـا كان لأحد ان يناوئه ، غير انه أقلق باله حرص اخيه على القيام بحملة صليبية ، فلا بد من الإفادة من الفرنسيين والاموال الفرنسية لمصلحته ، لا لمساندة مملكة ثانية ليس مستعداً في الوقت الراهن ان يهتم بها . كان شارل يأمل في الحصول على مساعدة لشنّ هجوم على بيزنطة ، فاذا لم يتيسر ذلك ، فلا أقل من ضرورة تحويل الحملة الصليبية الى جهة يصحّ ان يجني من ورائها ثمرة وربحاً [1] .

كان المستنصر امير تونس الذي يسيطر على ساحل افريقيـة المواجه لجزيرة صقليـة ، معروفاً بالميل الشديد نحو المسيحيين ، غير انه أساء الى شارل بإيواء بعض العصاة من جزيرة صقلية . وأقنع شارل أخاه لويس ، الذي لم تحجب التجربة ما اشتهر به من التفاؤل من أجل الايمان ، أن أمير تونس مستعد للتحول الى المسيحية . فإظهار قدر قليل من القوة كفيل بجعـله يعتنق المسيحية ، كما انه سوف يضاف الى المسيحية اقليم جـديد يقع في بقعة بالغة الأهمية الاستراتيجية لكل حملة صليبية جديدة . على ان ما ألمّ بلويس من مرض يصحّ ان يثنيه عن قراره ، كما ان أصدقاءه العقـلاء

(١) انظر : Jordan, Les Origines de la Domination Angevine en Italie, passim.
Hefel - Leclerc, op. cit.
Powicke, op. cit. II, pp. 598 - 599.

يناقش بويك سياسة شارل انجو .

امثال جوانفيل لم يخفوا كراهيتهم للمشروع . غير ان لويس وثق في اخيه ، شارل انجو . ففي اول يوليه سنة ١٢٧٠ أقلع لويس من ايج — مورت على رأس حملة ضخمة ، وصحبه فيها أبناؤه الثلاثة الذين بقوا على قيد الحياة ، وصهره تيبالد ملك نافار ، وابن اخيه روبرت كونت ارتوا ، وكونت بريتاني ، وكونت لامارش ، وولي عهد الفلاندر ، وجميعهم أبناء رفاقه في حملته الصليبية السابقة ، فضلاً عن كونت سانت بول الذي بقي على قيد الحياة من تلك الحملة ، وكونت سواسون . ووصل الاسطول قبالة قرطاجنة في ١٨ يوليه سنة ١٢٧٠ في أشد اوقات صيف افريقية حرارة ، ولم يظهر امير تونس من الدلائل ما يشير الى رغبته في التحول الى المسيحية ، بل انه عوضاً عن ذلك أعاد تحصين عاصمته ، وعزز حاميتها . على انه لم يكن في حاجة الى القتال ، اذ ان المناخ أدّى له ما أراد ان يفعله ، فسرعان ما تفشى المرض في المعسكر الفرنسي ، فوقع فريسة المرض الوف الأمراء والفرسان والعساكر ، وكان الملك من أوائل الذين عصف بهم الوباء . فلما وصل شارل انجو بجيشه في ٢٥ اغسطس سنة ١٢٧٠ ، علم ان أخاه قد مات منذ ساعات قليلة . واشتد المرض بفيليب ولي عهد فرنسا ، اما يوحنا تريستان الذي جرت ولادته بدمياط ، فكان يحتضر . وما اشتهر به شارل من القوة والنشاط ، حفظ الحملة من الكارثة حتى الخريف ، حينما بذل امير تونس مبلغاً من المال على سبيل التعويض ، فعاد الى ايطاليا ، غير ان الحملة في مجموعها قد تبدّدت [1] .

(١) انظر : Joinville, pp. 262 - 265.
Sternfeld, Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis, passim.

لما وصلت الى الشرق أنباء كارثة تونس ، ازداد ارتياح المسلمين ، بينما غمر المسيحيين حزن عميق ، وكان لهذا الحزن والأسى مـا يبرره . فلن يخرج من جديد من بلاد الفرنج جيش ملكي لإنقاذ من كان منهم بالشرق الفرنجي . كان لويس من كبار ملوك فرنسا وأكثرهم صلاحاً وتقوى ، غير انه لم يجلب لفلسطين التي أحبها من كل قلبه إلا الخيبة والأسى . وحينما كان على فراش الموت ، كان يفكر في المدينـــة المقدسة التي لم يشهدها مطلقاً ، والتي لم تثمر جهوده لتخليصها ، وكان آخر ما فاه به من كلمات : بيت المقدس .. بيت المقدس (١) .

---

(١) انظر : William of Saint - Pathus, pp. 153 - 155.

الفصل الثالث

المغول في بلاد الشام

لما وصل وليم روبروق الى بلاط الخان الكبير ، في الايام الاخيرة من سنة ١٢٥٣ ، صادف حكومة بالغة الاختلاف عن تلك التي سبق ان احتفلت بأندرو لونججيمو ، المبعوث السابق للملك لويس . فحينما مات كيوك بن اوكيتاي سنة ١٢٤٨ ، قامت ارملته اوغول قيميش بالوصاية على ابنائها الصغار ، قوشو ، وَنَقو ، وقوغو . غير أنها لم تكن تصلح للحكم ، لما اشتهرت به من الشحّ والبخل والميل الى السحر ، وما من أحد من ابنائها كان يبشر بقدرة فائقة . على حين ان ابن عمهم ، شيرامون ، الذي أعدّه جده اوكيتاي ليخلفه على العرش ، دأب على تدبير المؤامرات لهم . غير ان المعارضة بالغة العنف جاءت نتيجة التحالف الذي قام بين باطو ، نائب الخان في الغرب ، وبين الاميرة سورخقتاني ، ارملة طولوي اصغر ابناء جنكيزخان . وإذ كانت تنتمي الى الكرايت بحكم مولدها ، وشديدة التمسك ، شأن جنسها ، بالمسيحية النسطورية ، لقيت تقديراً واحتراماً كبيراً لما اشتهرت به من الحكمة والاستقامة . اراد اوكيتاي ان

يزوجها لابنه كيوك، بعد وفاة زوجها، غير انها رفضت في لباقة، وأشارت بأنها تؤثر ان تكرس حياتها لتربية ابنائها الاربعة المشهورين، منكو، وقبيلاي، وهولاكو، وأريق بوقا. ولما تولى كيوك فحص ما للأسرة المالكة من موارد مالية، كانت هي وأولادها وحدهم، هم الذين دلوا على انهم لم يتصرفوا إلا على اساس الأمانة التامة. هام بحبها واشتد اعجابه بها باطو، الذي لم يندمل مطلقاً العداء بينه وبين كيوك. وإذ أيقن باطو بأن حقه في الوصول الى العرش أضعفه دائماً ما ثار من الشكوك حول شرعية بنوة ابيه، جوجي، انحاز اليها في الدفاع عن حقوق ابنها منكو في العرش. قدم باطو الى منغوليا، وباعتباره من كبار امراء بيت جنكيزخان دعا المجلس الوطني (القوريلتاي) للانعقاد، فانتخب في اول يوليه سنة ١٢٥١ منكو خانا كبيراً. وعلى الرغم من محاولات سورخقتاني الصادقة لاسترضاء أحفاد اوكيتاي، فانهم رفضوا شهود القوريلتاي، بل انهم تآمروا لمهاجمة اعضائه عند انهماكهم في الشراب أثناء الاحتفالات التي تعقب حفلة القوريلتاي الافتتاحية. وحبطت المؤامرة، وانتصر منكو على كل منافسيه، بعد حرب اهلية ظلت دائرة سجالاً نحو سنة، فاستقر خاناً كبيراً في قراقورم. أما الوصية على العرش اوغول قيميش، ووالدة شيرامون فتقررت ادانتهما بالسحر، وقتلها غرقاً، وتمّ ارسال امراء بيت اوكيتاي الى المنفى (١).

وإذ تولى منكو العرش، أحيا المغول سياستهم التوسعية. عاد كبار

---

(١) انظر: William of Rubruck, (ed. Rockhill), pp. 163 - 164.
Howorth, History of the Mongols I, pp. 170 - 186.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 306 - 311.

الأمراء الى حكوماتهم ، إذ صارت الأقاليم الشرقية موكولة الى قبيلاي ، ثاني اخوة مونكو ، فنهض لفتح الصين بكل ما توافر له من نشاط وما اتخذه من أساليب وطرق. تحوّل قبيلاي الى البوذية ، واتسمت حروبه ومعاملته للمغلوبين على امرهم بالانسانية والرفق . وبقي في منغوليا منكو وشقيقه الأصغر اريق يوقا للإشراف على ضبط هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . اما ورثة جغتاي في تركستان ، فشرعوا في القيام بمحاولات تمهيدية لمدّ سلطانهم الى الهند عبر هضبة البامير . ونقل باطو مقرّه الى الروافد السفلى لنهر الفولجا ، كما يسيطر على اتباعه الأمراء في روسيا ، وأنشأ بتلك الجهات الخانية التي أطلق عليها المؤلفون المسلمون اسم القبجاق ، والتي اشتهرت عند المغول والروس باسم القبيلة الذهبية (Golden Horde). اما حكومة فارس فانتقلت الى يد هولاكو ، ثالث اخوة منكو ، فأضحت جهود المغول الرئيسية موجّهة الى طرف فارس ، وطرف قبيلاي في الشرق [١] .

تحالف الارمن مع المغول سنة ١٢٥٤ :

كانت مملكة الارمن بقليقية اول الإمارات التي تحف بالبحر المتوسط إدراكاً لأهمية الزحف المغولي . فالمعروف ان الارمن شهدوا في اهتمام بالغ ما أصاب الجيش السلجوقي من هزيمة ساحقة سنة ١٢٤٣ امام الحملة المغولية التي قادها احد ولاة الأقاليم . فصار بوسعهم ان يقدّروا ما يكون عليه

(١) انظر : Grousset, op. cit. pp. 312 - 313, 364 - 366.
Jakoubvski and Grekov, La Horde d'Or, pp. 98 - 120.

جيش الامبراطور من قوة لا سبيل الى مقاومتها ولذا كان الملك هيثوم مصيباً حينما ارسل سنة ١٢٤٣ الى بيجو كتاباً يفيض بالولاء والاحترام . غير ان المغول انسحبوا وقتئذ ، واسترد كيخسرو ما فقده من اراضيه ببلاد الاناضول ، وأخذ من جديد يضغط على ارمينية ، يساعده الامير الارمني الثائر ، قنسطنطين سيد لامبرون [١] ، قدر هيثوم ان المغول سوف يعودون ، وأنـه سوف يكون لهم قيمة وأهمية للعالم المسيحي في آسيا ، وله بصفة خاصة ، فأنفذ في سنة ١٢٤٧ اخاه الكندسطبل سمباد في سفارة الى بلاط الخان الكبير ، فوصل سمباد الى قراقورم سنة ١٢٤٧ ، قبيل وفاة كيوك . فاستقبله كيوك بكل مودة ، ولما سمع بأن هيثوم مستعد لأن يعتبر نفسه من اتباع الخان الكبير ، وعد بأن يبذل للأرمن المساعدة اللازمة لاسترداد ما انتزعه السلاجقة من المدن . ورجع سمباد يحمل تقليداً من الخان الكبير بكفل سلامة ممتلكات هيثوم ووحدتها [٢] . غير ان وفاة كيوك اوقفت كل اجراء مباشر ، وإذ سمع هيثوم بأن تولى عرش المغول خان آخر قوي ، توجه الى قراقورم [٣] .

---

(١) انظر : Ibn Bibi, (ed. Houtsma), pp. 243, 249 - 250.
Sempad, pp. 649 - 651.
Kirakos, trans. Brosset, p. 142.
Vincent of Beauvais, pp. 1295 - 1296.

(٢) انظر : William of Nangis, pp. 361 - 363.
الذي اورد رسالة سمباد الى هنري ملك قبرص .

(٣) انظر : Ibn Sheddad, Geography, (ed. Cahen), in Revue des Etudes Islamiques (1936), p. 121.
Bar - Hebraeus, (trans. Budge), pp. 418 - 419.

اضحت قراقورم وقتئذ مركز الدبلوماسية في العالم . فحينما وصل اليها سنة ١٢٥٤ ، وليم روبروق ، سفير الملك لويس التاسع ، لقى سفارات من قبل الامبراطور اليوناني ، ومن لدن الخليفة العباسي ، ومن عند ملك دلهي ، ومن جهـــة السلطان السلجوقي ، كما صادف امراء من الجزيرة وكردستان وروسيا ، وجميعهم يقفون في خدمة الخان الكبير . وأقام بقراقورم كثير من الاوربيين ، منهم تاجر جواهر من باريس مع زوجته المجرية ، وامرأة الزاسية تزوجت الى مهندس روسي [١] ، ولم يكن بالبلاط شيء من التفرقة العنصرية او الدينية . على ان الوظائف العليا بالجيش والحكومة ، اختص بها افراد من الاسرة الامبراطورية ، ومع ذلـك فإنه كاد يكون من كل الامم الاسيوية وزراء وحكام اقاليم . وعلى الرغم من ان منكو يدين بعقيدة اسلافه ، الشامانية ، فإنه كان يشهد الاعياد البوذية والمسيحية والاسلامية دون تفرقة او تمييز . إذ سلم بوجود إله واحد ، يعبده كل انسان حسبما شاء ، على انه كان للمسيحيين النساطرة أقوى نفوذ ديني ، فحباهم منكو بعطف خاص ، تخليداً لذكرى امـــه سورجقتاني ، التي ظلت دائماً وفية لعقيدتها ، على الرغم من ان كان لها من سعة العقل ، ما جعلها تهب الاحباس لمدرسة للدين الاسلامي ببخارى . وكانت الامبراطورة كوتوكتاي وكثيرات

---

(١) انظر : William Rubruck, (trans. Rockhill), pp. 165 ff. 176-177 يشير روبروق الى رجل انجليزي اسمه باسيل ، ولد ببلاد المجر وعاش في قراقورم . (انظر : Ibid, 211) . ويصف ابن العبري هيثوم وملكي الكرج في قراقورم ، مع السفارات القادمة من حلب ، ومن قبل الفرنج ، والحشيشية ، وذلك في المجلس الوطني ، القوريلتاي ، الذي انعقد عقب وفاة اوكيتاي . انظر : Bar - Hebraeus, p. 411.

من زوجاته الآخريات على المذهب النسطوري ايضاً (١) . وأعلن وليم روبروق ارتياعه لما كان عليه رجال الكنيسة النساطرة من الجهل والانغماس في المباذل ، فلم تزد صلواتهم على فجور السكارى . وشهد في يوم من ايام الآحاد الامبراطورة تترنح عند عودتها من القداس . وكلما ساءت اموره ، نزع الى ان يلقي باللوم على ما وقع من تنافس في هذه الهيئة الملحدة (٢) .

وليم روبروق في قراقورم سنة ١٢٥٤ :

الواقع ان سفارة روبروق لم تظفر بنجاح كبير . إذ اجتاز في سفره عاصمة باطو على نهر الفولجا ، حيث التقى بسارتاق بن باطو ، الذي اشتهر بميله للمسيحيين على الرغم من انه لم يكن مسيحياً ، فبعث به باطو الى منغوليا . وتولت الحكومة الانفاق عليه في سفره على امتداد الطريق التجاري الكبير ، وتهيأت له اسباب الراحة والأمن ، على الرغم من ان اياماً بأكملها كانت تنقضي دون ان يشهد داراً واحدة . ثم وصل في نهاية ديسمبر سنة ١٢٥٣ الى معسكر الخان الكبير الذي يقع على مسافة بضعة

---

(١) انظر : Howorth, op. cit. I, pp. 188 - 191.

ماتت سورجقتاني في فبراير سنة ١٢٥٢ . وأطلق عليها ابن العبري « الملكة الكاملة العقل والدين » . انظر : Bar - Hebraeus, p. 417.

William of Rubruck, (trans. Rockhill), pp. 184 - 186.

Pelliot, « Les Mongols et la Papauté », loc. cit. p. 198.

روى هولاكو للمؤرخ الارمني فارطان ان امه كانت مسيحية شديدة الايمان . انظر :

Vartan, Armenian Text, ed. Emin, p. 205.

(٢) انظر : William of Rubruck, loc. cit.

أميال الى الجنوب من قراقورم . فمثل بين يدي منكو في ٤ يناير سنة ١٢٥٤ ، ولم يلبث ان ارتحل مع البلاط الى قراقورم . فألفى الحكومة المغولية قد عزمت، فعلاً على مهاجمة المسلمين في غربي آسيا ، وأنهـا على استعداد لمناقشة ما يصح اتخاذه من اجراء مشترك . على انه اعترض ذلك عقبة لم يتيسر التغلب عليها . ذلك ان الخان الكبير لا يقبل مطلقاً ان يكون في العالم سيد سواه .

والواقع ان سياسته الخارجية كانت بالغة البساطة . إذ ان أصدقاءه يعتبرون أتباعاً له ، اما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم او إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً له . وكل ما استطاع وليم روبروق أن يحصل عليه ، هو انه استخلص وعداً صادقاً بأن يتلقى مساعدة كبيرة طالما قدم أمراؤهم لبذل الولاء لسيد العالم . على ان ملك فرنسا لا يستطيع التفاوض على أساس هـذه الشروط . وغادر وليم روبروق قراقورم في اغسطس سنة ١٢٥٤ ، بعـد ان أدرك مثلما أدرك كثيرون من السفراء الذين جاؤوا من بعـده الى بلاط ملوك أقاصي آسيا ، أن ملوك الشرق لا يفقهون تقاليد الدبلوماسية الغربية او مبادئها . فارتحل راجعاً الى بلاط باطو ، بعد ان اخترق آسيا الوسطى ، ومن ثم اجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول الى ارمينية ، ومنها الى عكا . ولقي وليم روبروق في كل مكان من الاحترام والتبجيل ما يليق برسول يقصد الخان الكبير [١] .

---

(١) انظر : Ibid, pp. 165 ff.

ووصل الى قراقورم هيثوم ملك ارمينية ، عقب رحيل وليم روبروق . قدم من تلقاء نفسه على انه تابع للخان الكبير . وحاز حظوة خاصة عنده ، نظراً لأن سائر الزائرين الاجانب ، إما كانوا اتباعاً جرى استدعاؤهم برغم ارادتهم ، وإما كانوا ممثلين لملوك زعموا لأنفسهم في تعاظم وتعال الاستقلال . ففي حفل الاستقبال الرسمي الذي اقامه له منكو في ١٣ سبتمبر سنة ١٢٥٤ ، منحه الخان وثيقة تكفل لشخصه ومملكته السلامة ، وعدم انتهاك حرمتها . وجرت معاملته على انه كبير مستشاري الخان المسيحيين في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا . ووعده منكو بأن يعفي كل الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب . وصرح بأن اخاه هولاكو ، الذي استقر في فارس ، قد تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد ، وتدمير سلطان الخلافة ، وتعاهد انه اذا تعاون معه كل القوى المسيحية ، فسوف يعيد الى المسيحيين بيت المقدس ذاتها . وغادر هيثوم قراقورم في اول نوفمبر سنة ١٢٥٤ ، مثقلا بالهدايا ، ومبتهجاً بما تكللت به جهوده من نجاح . وارتحل عائداً الى بلاده ، وقد سلك طريق تركستان وفارس ، حيث بذل لهولاكو مظاهر الاحترام ، ثم عاد الى ارمينية في شهر يوليه التالي (سنة ١٢٥٥) [١] .

---

(١) انظر :

Kirakos, pp. 279 ff.
Vahram, Rhymed Chronicle, p. 519.
Bar - Hebraeus, pp. 418 - 419.
Hayton, Flor d'Estoires, pp. 164 - 166.
Bretschnieder, Medieval Researches, I, pp. 164 - 172.

من الطبيعي ان يتفاءل هيثوم ، غير ان هـذا التفاؤل تجاوز الحدود قليلاً ، فمن المحقق ان المغول كانوا حريصين على السيطرة على الخلافة وإلا دمروها . فالمعروف ان رعاياهم من المسلمين كانوا من الكثرة انه اضحى من الامور الجوهرية لهم ان يسيطروا على اهم نظام ديني في العالم الاسلامي . لم يخصوا الاسلام بعداوتهم باعتباره ديانة . ومع انهم جعلوا للمسيحية من الحظوة مـا يفوق سائر الديانات الاخرى ، فانهم ايضاً لم يقصدوا السماح بقيام امارات مسيحية مستقلة . فاذا عادت بيت المقدس للمسيحيين ، فانما تعود اليهم في نطاق الامبراطورية المغولية . ومن الطريف ان نتصور فيما قـد يحدث لو تحققت اطماع المغول في غرب آسيا . فالراجح ان تقـوم خانية مسيحية كبيرة ، وأنه سوف يجري في الوقت المناسب خروجها من يد السلطة المركزية في منغوليا . ولم يخطر على البـال ما كان يحلم به القديس لويس بأن المغول سوف يصبحون أبنـاء أوفياء لكنيسة روما . وما قد يقوم في غرب آسيا من امارات مسيحية ، لن تبقى مستقلة . فما قـد يحرزه المغول من انتصار يصح ان يفيد مصالح العالم المسيحي في مجموعه ، أما الفرنج بالشرق الفرنجي الذين أدركوا اتجاه الخان الكبير نحو الامراء المسيحيين ، فلا يصح توجيه اللوم لهم لأنهم يؤثرون المسلمين الذين عرفوهم على هـذا العنصر الغريب الهمجي المتغطرس القادم من الصحارى النائية ، والذي كان سجله في شرق اوربا داعياً للنفور [1] . على ان محاولة

---

(١) دافع عن اتجاه الفرنج :

Cahen, La Syrie du Nord, pp. 708 - 709.

Grousset, Histoire des Croisades.

هيثوم لإقامة تحالف مسيحي كبير لمساعدة المغول لقيت قبولاً حسناً من المسيحيين الوطنيين ، فأعلن انحيازه اليه بوهمند امير انطاكية الذي خضع لنفوذ صهره (هيثوم) . أما الفرنج بآسيا فالتزموا الحياد [1] .

الجيش المغولي يتحرك صوب الغرب سنة ١٢٥٦ :

حدث في يناير سنة ١٢٥٦ ان اجتاز نهر جيحون جيش مغولي ضخم بقيادة هولاكو ، شقيق الخان الكبير . وكان هولاكو يشبه اخاه قبيلاي في انه فاق في التعليم معظم امراء المغول . إذ شغف بالعلماء ، وشارك في الفلسفة والكيمياء ، واستهوته البوذية مثلما استهوت قبيلاي ، غير أنه لم يتخل مطلقاً عن ديانة أجداده ، وهي الشامانية ، كما أنه أعوزه ما اشتهر به اخوه قبيلاي من حب الخير والنزعة الانسانية . كان هولاكو يعاني نوبات صرع ، ولعلها أثرت في مزاجه الذي لا يصح الركون اليه والوثوق به . ولم يختلف عن أسلافه في شدة قسوته مع المغلوبين على امرهم . غير انه ليس لدى المسيحيين من الدواعي ما يحملهم على الشكوى منه . وكان لزوجته طقز خاتون أقوى نفوذ في بلاطه ، وكانت هذه السيدة المشهورة ، من اميرات قبيلة الكرايت ، حفيدة لطغرل خان ، فتعتبر ابنة عم والدة

= دأب جروسيه على الاشارة الى ما أضاعه الفرنج من الفرص برفضهم التحالف مع المغول . وعلى الرغم من دراية جروسيه بتاريخ المغول ، فانه فيما يبدو اغفل استحالة اعتراف الخان الكبير بالفرنج مستقلين لا اتباعاً له . ولم يقر المغول بأن تقوم امارات اجنبية مستقلة .

(١) انظر ما يلي ص ٥٢٨ وما يليها .

هولاكو . وكانت شديدة التعلق بالنسطورية ، فلم تخف كراهيتها للاسلام ، وحرصها على مساعدة المسيحيين على اختلاف مذاهبهم [١] .

كان اول هدف لهولاكو ، هو الاستيلاء على مقر الحشيشية في فارس . فمن المستحيل ان تقوم حكومة منظمة ما لم يتحطم مذهب الحشيشية . فما ألحقه الحشيشية بصفة خاصة بالمغول من الاذى هو انهم اغتالوا جغتاي ، ثاني أبناء جنكيزخان . وكانت بغداد ثاني اهداف هولاكو ، ثم يمضي الجيش المغولي بعدئذ الى الشام . وتم إعداد كل شيء بدقة وعناية ، فتقرر إصلاح الطرق التي تجتاز تركستان وفارس ، وجري تشييد الجسور . وتم تجهيز العربات اللازمة لجلب ادوات الحصار من الصين ، وخلت المروج من القطعان ، حتى تغزر الاعشاب اللازمة لأفراس المغول . واصطحب هولاكو ، طقز خاتون وزوجتين أخريين ، وولديه الكبيرين . وكان يمثل بيت جغتاي ، حفيده نيقودار . وأرسل باطو من القبيلة الذهبية ثلاثة من أبناء اخيه ، الذين ارتحلوا على امتداد الساحل الغربي لبحر قزوين ، ولحقوا بالجيش المغولي في فارس . وبذلت كل قبيلة من قبائل الحلف المغولي خُمس رجالها المقاتلين ، واشترك في الحملة نحو الف من الرماة الصينيين الذين برعوا

---

(١) أنظر : Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), pp. 94 - 95, 145.

يشير رشيد الدين الى ما كان لطقزخاتون من نفوذ . وكان منكو شديد الاعجاب بها ، فكان يطلب الى هولاكو ان يستأنس دائماً بنصيحتها . وتشبه سورخقتاني في انهـا اميرة كرايتية بحكم منبتها .

عن هولاكو ، انظر : Howorth, op. cit. III, pp. 90 ff .

Grousset, Histoire des Croisades, III, pp. 563 - 566.

في قذف السهام التي تحمل اللهب والنار . وحدث قبل نحو ثلاث سنوات ان جرى ارسال جيش لتمهيد الطريق ، وتولى قيادته أقرب القـادة الى هولاكو ، وأعظمهم موطناً لثقته ، وهو كتبغا النسطوري ، الذي ينتمي الى عنصر النايمـان ، والذي شاع أنه ينحدر من حكماء الشرق الثلاثة . والمعروف ان كتبغا أعاد سلطة المغول على المدن الكبيرة بهضبة ايران ، واستولى على بعض معاقل الحشيشية قبل قدوم هولاكو[1] .

تدمير الحشيشية في فارس ، سنة ١٢٥٧ :

حاول عبثاً زعيم الحشيشية ركن الدين خورشاه أن يدرأ الخطر ، بما لجأ اليه من مؤامرات دبلوماسية ، وأساليب لصرفهم عن أهدافهم . نفذ هولاكو الى فارس ، وتحرك في بطء وعنف مجتازاً ديمونـد وعباس آباد الى وديان الحشيشية . ولما ظهر الجيش الضخم أمام قلعة آلموت ، وأخذ يضيّق الحصار على القلعة ، لم يسع ركن الدين إلا التسليم ، فقدم بنفسه في ديسمبر الى خيمة هولاكو ، وأعلن خضوعه وإذعانه . غير ان والي القلعة رفض ان يطيع ما اصدره اليه من اوامر بتسليم القلعة ، فسقطت عنوة بعد بضعة ايام . وتلقى ركن الدين وعداً من هولاكو بالإبقاء على حياته ، غير أنه طُلب اليه التوجه الى قراقورم ، لعله يحصل من الخان الكبير منكو ، على شروط تفضُل تلك التي بذلها هولاكو . غير انه لما

---

(١) انظر : Bretschnieder, op. cit. pp. 114 - 115.
Hayton, Flor des Estoires, p. 173.

يشير هايتون الى اجداد كتبغا .

وصل الى قراقورم ، رفض منكو ان يلقاه ، وقال انه من الخطأ إرهاق خيولنا الجيدة في هذه السفارة التافهة . على ان اثنين من حصون الحشيشية ، وهما جردوه ، ولمبوذر ، امتنعا على المغول . فجرى إخطار ركن الدين بالعودة الى بلاده ليحملها على التسليم ، غير انه لقي مصرعه مع اصحابه أثناء مسيره . وصدرت الأوامر في نفس الوقث الى هولاكو باستئصال شأفة الحشيشية . وتقرر ارسال عدد من أقارب زعيم الحشيشية الى ابنة جغتاي ، سالقان خاتون ، كيما تنتقم منهم لمصرع ابيها ، بينما تمّ استدعاء آخرين بحجة إحصاء عددهم ، ودارت فيهم مذبحـــة هلك فيها الألوف منهم . ولم تنته سنة ١٢٥٧ حتى لم يبقَ إلا عدد قليل من اللاجئين في جبال فارس . أما الحشيشية في الشام ، فانهم لم يكونوا في متناول منكو ، ومع ذلك ترقبوا ما ينتظرهم من مصير [١] .

وقد كان الحشيشية يحتفظون في آلموت بمكتبة ضخمة زخرت بكتب في علوم الفلسفة والتنجيم . فأرسل هولاكو حـــاجبه المسلم ، عطا الملك الجويني ليفحصها ، فأخرج منها ما صادفه من مصاحف القرآن ، وسائر الكتب ذات القيمة التاريخية والعلمية ، وأمر بحرق جميع كتب الملاحدة. ومن المصادفات الغريبــة ، ان شبّ حوالي ذلك التاريخ حريق كبير في المدينة سببه البرق ، فأتى على كل ما تحويه مكتبتها من المؤلفات عن فلسفة السنيين [٢] .

---

(١) انظر : Bretschnieder, op. cit. pp. 116 - 118-
Browne, Literary History of Persia, II, pp. 458 - 459.

(٢) انظر : Browne, loc. cit.

لما فرغ هولاكو من استئصال الحشيشية من فارس ، تحرك مع الجيش المغولي لمهاجمة مقر الخلافة ببغداد . كان الخليفة وقتذاك المستعصم ، الذي يعتبر الثالث والثلاثين من الخلفاء العباسيين ، ابنـاً للخليفة المستنصر من جارية حبشية ، وكان يأمل في ان يعيد للخلافة سلطتها ومجدها ، إذ أضحى للخلافة السيادة التامة منذ انهيار الخوارزمية ، ومـا وقع من تنافس بين الأمراء في القاهرة ودمشق ، هيـأ للخليفة الفرصة لأن يكون حكماً بين المسلمين . وبرغم ما احاط به المستعصم نفسه من مظاهر الابهة والعظمة ، كان رجلاً ضعيفاً احمق ، جعل كل اهتمامه في اشباع متعته . ومزق بلاطه ما وقع من عداء بين وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي ، وكاتبه السنّي ايبك الذي سانده ولي العهـد . اشتهرت بغـداد بمناعة استحكاماتها ، كما انـه كان بوسع الخليفة ان يحشد جيشاً ضخمـاً ، إذ أن خيالته وحدهم كانوا يبلغون مائة وعشرين الف فارس . على ان الفرسان استندوا الى ما يحصلون عليه من اقطاعات حربية ، ولم يثق المستعصم في أتباعه ، ولذا اتبـع نصيحة وزيره فخفض عدد الجيش ، وأنفق ما وفره بذلك من المال فيما بذله تطوعـاً من إتاوة للمغول ، حتى يبتعدوا عن مهاجمته . والراجح انه قلّ ان تنجح هذه السياسة القائمة على التهدئة حتى لو استمر المضي فيها . غير ان نفوذ ايبك اخذ في الازدياد والتفوق حينما رد هولاكو على الخليفة ، انـه يطلب حقوق السيادة على الخلافة ذاتها ، فلم يلق اقتراح هولاكو إلا الرفض الشديد [1] .

---

(١) انظر : D'Ohsson, Histoire des Mongols, III, pp. 215 - 225.

وتحدث هولاكو الى رجال الحملة في شيء من الاضطراب والقلق ، إذ لم يجمع منجموه على ان النصر سوف يكون حليف الحملة ، وكان يخشى الخيانة من قِبل اتباعه المسلمين ، وتدخّل امراء دمشق ومصر. غير ان ما اتخذه من تدابير لدرء الخيانة كانت قوية ، وما من احد نهض لنجدة بغداد. وفي تلك الاثناء ازداد جيشه قوة بوصول كتيبة من القبيلة الذهبية ، وبقدوم الجيش الذي ظل بيجو يحتفظ به على اطراف الأناضول في السنوات العشرة الاخيرة ، فضلاً عن كتيبة من فرسان الكرج الذين تلهفوا على مهاجمة حاضرة الاسلام .

وفي نهاية سنة ١٢٥٧ تحرّك الجيش المغولي من قاعدته في همدان. وعبر بيجو بجيشه نهر دجلة عند الموصل ، وسار ازاء الشاطىء الغربي للنهر. أما كتبغا والجناح الأيسر للجيش فدخل سهل العراق الواقع شرقي العاصمة مباشرة ، بينما زحف هولاكو بقلب الجيش مخترقاً كرمان شاه. ولم يكد الجيش الرئيسي للخليفة ينهض بقيادة ايبك ليلتقي بهولاكو ، حتى سمع باقتراب جيش بيجو القادم من جهة الشمال الغربي. فعبر ايبك نهر دجلة من جديد ، وفي ١١ يناير سنة ١٢٥٨ باغت المغول قرب الانبار ، على مسافة نحو ثلاثين ميلاً من بغداد فتظاهر بيجو بالارتداد ، وبذا جرّ العرب الى ارض منخفضة حافلة بالمستنقعات ، وأرسل المهندسين ليقطعوا ما يقع خلفهم على نهر الفرات من السدود. وتجدّد القتال في اليوم التالي ، وارتد جيش ايبك الى الحقول المغمورة بالمياه. هرب ايبك وحرسه بطريق النهر الى بغداد ، أما معظم عساكره فهلكوا في ساحة القتال ، ومن بقي منهم على قيد الحياة لاذوا بالفرار الى البادية وتفرقوا في كل صوب [١] .

---

(١) انظر : Browne, op. cit. II, pp. 461 - 462.

المغول ينهبون بغداد سنة ١٢٥٨ :

في ١٨ يناير سنة ١٢٥٨ ، ظهر هولاكو امام الاسوار الشرقية لمدينة بغداد ، وفي ٢٢ يناير سنة ١٢٥٨ ، تعرّضت المدينة للهجوم من كل الجهات بعد إقامة جسور من القوارب على نهر دجلة ، بأعلى المدينة وبأسفلها . والمعروف ان بغداد تقع على ضفتي نهر دجلة . على ان المدينة الغربية التي شملت قصر الخلفاء الاوائل ، اضحت اقل أهمية من المدينة الشرقية ، التي تركزت بهـا مباني الحكومة . وركز المغول اشد هجماتهم على الاسوار الشرقية . وأخذ المستعصم يفقد الأمل . وفي نهاية شهر يناير سنة ١٢٥٨ بعث بوزيره الذي كان دائمـاً يدافع عن سياسة المصالحة مع المغول ، وأرسل معه البطريرك النسطوري الذي كان الخليفة يأمل في ان يتوسط عند طقزخاتون ، لمحاولة التفاوض مع هولاكو ، غير انه تقرر إعادة الرسولين دون ان يحظيا بلقاء هولاكو . وأخذ السور الشرقي لبغداد يتداعى بعد ان تعرّض للقذف الشديد في الاسبوع الاول من شهر فبراير سنة ١٢٥٨ . وفي ١٠ فبراير ، بينما كانت العساكر المغولية تتدفق الى داخل المدينة ، ظهر الخليفة وسلم نفسه لهولاكو ، مع كبار قادة الجيش وكبار موظفي الدولة . وبعد ان صدرت اليهم الأوامر بإلقاء سلاحهم ، تمّ الاجهاز عليهم ولم يجر الإبقاء إلا على حياة الخليفة حتى دخل هولاكو المدينة والقصر في ١٥ فبراير سنة ١٢٥٨ . ولقي الخليفة مصرعه ، بعد ان كشف لهولاكو عن الأماكن التي اختبأت فيها ثروتـه وكنوزه . وفي تلك الاثناء ظلت المذابح مستمرة في جميع انحـاء المدينة (بغداد) . وتعرّض للقتل على السواء اولئك الذين بادروا الى التسليم ، واولئك الذين مضوا في القتال ، وهلك النساء والاطفال مع رجالهم . وعثر احد المغول في شارع جانبي

على اربعين طفلاً حديثي الولادة ، وقد ماتت امهاتهم ، فأجهز على هؤلاء الاطفال رحمة بهم ، لعلمه انه ليس بوسعهم البقاء على قيد الحياة طالما لم يكن ثمة من يرضعهم . أما عساكر الكرج الذين كانوا اول من اقتحم الاسوار ، فاشتهروا بشدتهم وقسوتهم في التدمير . فهلك في اربعين يوماً نحو ثمانين الف من سكان بغداد . ولم يبق على قيد الحياة إلا فئة قليلة واتاها الحظ فلم يكتشف المغول الحواصل التي اختبأوا فيها ، فضلاً عن عدد من الغلمان والفتيات الفاتنات ، الذين اضحوا ارقاء ، وكذا الجالية المسيحية التي لجأت الكنائس فلم يتعرّض لها احد بسوء ، وفقاً لأوامر طقزخاتون [١] .

وبلغت رائحة الجثث المتعفنة بالمدينة من النتن ، في نهاية مارس سنة ١٢٥٨ ، ما دعا هولاكو الى سحب قواته حتى لا تتعرّض للوباء . وحزن كثير منهم لمغادرة المدينة لاعتقادهم انه لا زال بها من التحف القيمة ما يصح العثور عليه . غير انه صار بحوزة هولاكو كل ما كدسه الخلفاء العباسيون من ثروات وكنوز طوال خمسة قرون . وبعد ان ارسل هولاكو شطراً كبيراً من الغنائم الى اخيه منكو انسحب راجعاً الى همدان ، في

---

(١) انظر :

Browne, op. cit. II, pp. 462 - 466.
Bretschnieder, op. cit. I, pp. 119 - 120.
Abu'l Feda, pp. 136 - 137.
Bar - Hebraeus, pp. 429 - 431.
Kirakos, pp. 184 - 186.
Vartan, (Armenian text, ed. Emin), p. 197.
Hayton, Flor des Estoires, pp. 169 - 170.

تمهتل . ومنها توجه الى اذربيجان ، حيث شيّد قلعة منيعة في شبها على شاطىء بحيرة ارميه ، وجعل منها مستودعاً لكل ما حازه من الذهب والمعادن النفيسة والجواهر . وجعل على بغداد والياً ، الوزير السابق مؤيد الدين ، الذي خضع لإشراف دقيق من قبل الموظفين المغول . أما البطريرك النسطوري ، ماكيكا ، فغمره هولاكو بالأحباس ، وجعل له احد قصور الخليفة مقراً وكنيسة . وأخذت المدينة (بغداد) تستعيد رويداً رويداً نظافتها ، وتعود الى سابق عهدها من النظام والترتيب ، على انها لم تعد بعد اربعين سنة سوى مدينة اقليمية وافرة الرخاء ، لا تتجاوز عشر حجمها السابق (١) .

كان لذيوع انباء تدمير بغداد أثر عميق في جميع انحاء آسيا . فابتهج المسيحيون في كل مكان بآسيا ، إذ كتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية ، وهللوا لهولاكو وطقزخاتون واعتبروهما قنسطنطين وهيلينا ، وأنهما ليسا إلا ادوات الله للانتقام من اعداء المسيح (٢) . أما المسلمون فاعتبروا تخريب بغداد صدمة مريعة ، وتحدياً مخيفاً . فعلى الرغم من أن الخلافة العباسية ظلت منذ زمن طويل تفقد قدراً كبيراً من سلطتها المادية ، فان مكانتها الادبية لا زالت قوية . فما حدث من استئصال الأسرة العباسية ،

---

(١) انظر : Bretschnieder, op. cit. pp. 120 - 121.
D'Ohsson, op. cit. III, p. 257.
Levy, A Baghdad Chronicle, pp. 259 - 260.

(٢) انظر : Stephen Orbelian, History of Sinai, (Armenian text), pp. 234 - 235.
اطلق ستيفن على هولاكو وطقزخاتون قنسطنطين وهيلينا الجديدين .

وتدمير العاصمة ، جعل زعامة المسلمين شاغرة ، يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين . غير ان ارتياح المسيحيين وسرورهم لم يستمر طويلاً ، إذ لم يمض إلا زمن غير طويل حتى قهر المسلمون غزاتهم . على ان وحدة العالم الاسلامي تعرضت لضربة لم تنتعش منها ابداً ، إذ أن سقوط بغداد الذي وقع بعد نصف قرن من سقوط القسطنطينية في سنة ١٢٠٤ ، قضى نهائياً على ما كان بين بيزنطة والخلافة من حكومة ثنائية متزنة ، ازدهرت في ظلها لمدة طويلة انسانية الشرق الادنى . لم يعد بوسع الشرق الادنى ان يتحكم مرة اخرى في المدنية .

المغول يدخلون سوريا سنة ١٢٥٩ :

وجّه هولاكو اهتمامه الى الشام بعد تدمير بغداد . وأول ما اتخذه من خطوات ،هو أنه حرص على أن يقوّي سيطرة المغول على اقليم الجزيرة ،وأن يقمع بصفة خاصة الأمير الأيوبي ، الكامل محمد ، الذي يحكم ميافارقين ، الذي رفض قبول السيادة المغولية ، بل انه مضى الى ما هو ابعد من ذلك ، فأمر بصلب قسيس يعقوبي ، قدم لزيارته مبعوثاً من قِبل هولاكو [١] . على ان هولاكو استقبل قبل ان يغادر معسكره قرب مراغة ، مبعوثين من قِبل امارات عديدة ، إذ قدم اليه اتابك الموصل السابق ، بدر الدين لؤلؤ ، ليعتذر عما بدر منه من افعال سيئة ، ولم يلبث ان وصل بعده ، سلطانا السلاجقة ، ولدا كيخسرو ، وهما كيكاوس الثاني وقلج ارسلان الرابع ،

---

(١) انظر : D'Ohsson, III, p. 307.

إذ أن اولهما ، وهو كيكاوس الذي قاوم بيجو سنة ١٢٥٦ ، حاول عبثاً ان يسترضي هولاكو ، بأن أمعن في تملقه والتزلف اليه مما صدّم المغول. ثم حدث آخر الأمر أن ارسل الناصر يوسف امير حلب ودمشق ابنه العزيز ، ليؤدي لهولاكو واجب الخضوع والإذعان . ونازل هولاكو ميافارقين واستولى عليها في اوائل سنة ١٢٦٠ ، ويرجع الفضل في ذلك الى حد كبير الى ما بذله من مساعدة حلفاء هولاكو من الكرج والأرمن . فدارت مذبحة في المسلمين ، بينما جرى الإبقاء على حياة المسيحيين ، وتعرض الكامل للتعذيب والتنكيل ، بأن ارغموه على ان يأكل من لحم جسده حتى مات [1] .

وفي سبتمبر سنة ١٢٥٩ ، قاد هولاكو الجيش المغولي للاستيلاء على شمال غربي سوريا . فتولى قيادة المقدمة كتبغا ، بينما قاد بيجو ميمنة الجيش ، وتولى الميسرة قائد آخر من المقربين لهولاكو ، وهو سنجق ، أما هولاكو فتولى قيادة قلب الجيش . فزحف مجتازاً نصيبين وحران والرها ، حتى بلغ البيرة حيث عبر نهر الفرات . حاولت سروج ان تقاومه ، فتعرضت للنهب . وفي أوائل السنة الجديدة (١٢٦٠) أطبق الجيش المغولي على حلب من كل الجهات ، وإذ رفضت حامية المدينة التسليم ، تقرر اقتحامها في ١٨ يناير سنة ١٢٦٠ . ولما هبّت العاصفة كان

---

(١) انظر : Kirakos, pp. 177 - 179.
Vartan, p. 199.
Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), pp. 330 - 331.
D Ohsson, III, p. 356.

السلطان الناصر في دمشق ، إذ كان يأمل في ان وجود ابنه في معسكر هولاكو سوف يدرأ الخطر عن بلاده . ولما تبين له انه كان مخطئاً ، لم يسعه إلا ان يتخذ حركة اخرى بالغة المهانة والذلة ، بأن عرض قبول سيادة المماليك بمصر . إذ وعدوه بالمساعدة ، غير انهم لم يتعجلوا بذلها . وفي نفس الوقت حشد عسكراً خارج دمشق ، ودعا ابني عمه اميري حماه والكرك لمساعدته . غير انه بينما كان ينتظر في دمشق ، شرع بعض قادته الترك في التآمر عليه . واكتشف خططهم في الوقت المناسب ، غير انهم فروا الى مصر ، بعد ان حملوا معهم احد اخوته . وأدّى تسللهم وهروبهم الى ان جيشه أضحى من الضعف ما جعله يفقد كل أمل في المسير لنجدة حلب .

استبسل في الدفاع عن حلب ، توران شاه عم الناصر يوسف ، غير ان الاسوار لم تلبث ان انهارت بعد ان تعرضت للقذف ستة ايام متوالية ، وتدفق المغول الى داخل المدينة . وحدث بحلب مثلما حدث في كل مكان ، إذ دارت المذابح في المسلمين بينما لم يتعرض المسيحيون لسوء ، باستثناء عدد قليل من الارثوذكس الذين لم يحرِ الاعتراف بكنيستهم ، حين استحر القتل . وظلت قلعة حلب تقاوم بقيادة توران شاه اربعة اسابيع اخرى . فلما سقطت آخر الامر أظهر هولاكو من الرحمة ما لم يكن متوقعاً منه ، إذ أبقى على حياة توران شاه لكبر سنه وبسالته ، ولم تتعرض حاشيته للأذى والضرر . ووقع في يدي هولاكو مقادير كبيرة من الثروة . ثم عهد هولاكو بحكومة حلب الى الأشرف ، امير حمص السابق ، الذي حمله ُبعد

نظره على القدوم منذ بضعة شهور الى معسكر المغول ، وجعل من نفسه تابعاً . وأمدّه هولاكو بمستشارين من المغول وبحامية مغولية لتوطيد سلطانه (١) .

وكان لا بد من إنزال العقوبة بحصن حارم ، الواقع على الطريق الممتد من حلب الى انطاكية ، لأنه رفض التسليم ما لم يضمن احد المسلمين الوعد الذي بذله هولاكو . فلما سقط هذا الحصن ، ودارت به مذبحة في المسلمين ، حسبما جرت العادة ، قدم هولاكو الى طرف انطاكية ، وزار معسكره كل من ملك ارمينيا وصهره امير انطاكية ، ليؤديا الولاء له . والمعروف ان ملك ارمينية هيثوم سبق ان أمدّ هولاكو بقوات اضافية ، فكافأه بأن منحه قدراً من الغنائم التي حازها من حلب ، وطلب الى الأمراء السلاجقة ان يردّوا له ما سبق ان استولى عليه ابوهما من الممتلكات في قليقية . وظفر بوهمند ايضاً بمكافأة جزاء له على انقياده لهولاكو ، فتقرر ان يعود الى امارة انطاكية بعض المدن والحصون التي ظلت بأيدي المسلمين منذ زمن صلاح الدين ، ومنها اللاذقية ، في مقابل ان يوافق بوهمند على ان يحلّ البطريرك اليوناني يوثيميوس في انطاكية مكان البطريرك اللاتيني . ومع ان الملك هيثوم لم يكن شديد الميل الى اليونانيين ، فإن هولاكو أدرك أهمية العنصر اليوناني في انطاكية . والراجح ان ما كان بين هولاكو

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, II, pp. 90 - 97.
Abu'l Feda, pp. 140 - 141.
Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), pp. 327 - 341.
Bar - Hebraeus, pp. 335 - 336.

والامبراطور اليوناني في نيقيــة من علاقات ودية ، حملته على ان يزيد في بواعثه [1] .

على ان اللاتين في انطاكية اعتبروا انقياد بوهمند امراً مشيناً ومخزياً لما انطوى عليــه من إذلال الكنيسة اللاتينية بأنطاكية . ولا زال نفوذ البنادقة متغلباً بمملكة بيت المقـــدس ، وأضحى البنادقة مرة اخرى في علاقات تجارية طيبة مع مصر ، إذ توقفت مصلحتهم على التجارة القادمة من الشرق الأقصى والتي تجتاز الطريق الجنوبي الى الخليج العربي ، او الى البحر الاحمر . وراقب البنادقة ببالغ الاهتمام طرق القوافل المغوليــة التي تجتاز آسيا الوسطى الى البحر الاسود ، حيث أخـــذ الجنويون يوطدون سلطانهم ، بعد تحالفهم مع اليونانيين . وتطلعت حكومة عكا (بيت المقدس) تلتمس حماية احد العلمانيين . وكان معروفاً ان لشارل كونت انجو ، شقيق ملك فرنسا ، أطماعاً في البحر المتوسط ، وأخـــذ يدبر المؤامرات فعلاً للوصول الى عرش صقلية . فتقرر إنفــاذ رسالة مثيرة له ، في مايو سنة ١٢٦٠ ، تتناول وصف أخطار الزحف المغولي ، وتلتمس منه التدخل [2] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 161.
Letter to Charles of Anjou, Revue de l'Orient Latin, vol. II, p. 213.
Bar - Hebraeus, p. 436.
Hayton, Flor des Estoires, p. 171.
Urban IV, Registres, 26 May. 1263.
جرت الاشارة الى قطع بوهمند من الكنيسة لتحالفه مع المغول لم يرد ذكر للاذقية ، غير انها كانت بأيدي الفرنج حينما جرت الاشارة اليها بعدئذ. انظر ما يلي، الكتاب الثالث، الفصل الرابع.

(٢) انظر : « Lettre à Charles d'Anjou », in Revue de l'Orient Latin, vol. II, pp. 213 - 214.

استيلاء المغول على دمشق سنة ١٢٦٠ :

حدث في الوقت الذي ارسلت فيه مملكة بيت المقدس بعكا كتاباً الى شارل كونت أنجو ، أن أضحى المغول سادة لدمشق . لم يحاول السلطان الناصر يوسف أن يدافع عن عاصمته (دمشق) . إذ أنه حينما نمي اليه انباء سقوط حلب ، واقتراب الجيش المغولي من دمشق ، فرّ الى مصر ، ليلتجيء الى المماليك ، ثم غيّر رأيه فألقى المغول القبض عليه حينما ركب متوجهاً الى الشمال مرة اخرى . على أن حماه ارسلت في فبراير سنة ١٢٦٠ وفداً الى هولاكو ، ليقدم اليه مفاتيح المدينة ، ولم تمض إلا بضعة ايام حتى احتذى بهم اعيان دمشق . فدخل كتبغا دمشق في اول مارس سنة ١٢٦٠ على رأس جيش مغولي ، وصحبه ملك ارمينية وأمير انطاكية ، وشهد سكان العاصمة السابقة للخلافة لأول مرة منذ ستة قرون ثلاثة امراء مسيحيين يركبون معاً يشقّون بموكبهم شوارع المدينة . على أن قلعة دمشق ظلت تقاوم الغزاة بضعة اسابيع ، غير انها أذعنت في ٦ ابريل سنة ١٢٦٠ .

وبسقوط المدن الثلاثة الكبيرة ، بغداد ، وحلب ، ودمشق ، تراءى كأن الاسلام في غرب آسيا حان أجله . ففي دمشق ، وفي سائر الجهات في غرب آسيا ، لم يكن للفتح المغولي من معنى سوى انتعاش المسيحيين المحليين . وإذ كان كتبغا نفسه مسيحياً ، لم يخف عواطفه . فأضحى المسلمون بداخل سوريا لأول مرة منذ القرن السابع يُعتَبرون اقلية مغلوبة على امرها .

فأخذوا يتحرقون للانتقام [١] .

ارسل كتبغا اثنـاء فصل الربيـع من سنة ١٢٦٠ سراباً من جيشه ، فاحتلت نابلس وغزة ، غير انها لم تصل مطلقاً الى بيت المقدس ذاتهـا . وبذا أحاط المغول بالفرنج من كل الجهات . لم يكن في نيـة السلطات المغولية أن تهاجم مملكة الفرنج ، بشرط ان تظهر لهم الانصياع التام . ومع أن عقـلاء الفرنج اظهروا الاستعداد لتجنب اثارة المغول ، فإنه لم يكن بوسعهم ان يضبطوا مثيري الفتن عندهم . ويعتبر يوليان سيد صيدا والشقيف اشد بارونات الفرنج تجرداً من المسئولية ، وكان يوليان رجلاً ضخم الجثة ، وسيم الخلقة ، يميل الى العبث والمجون ، فضلاً عما اشتهر به من الحماقة ؛ فلم يرث من جده رينالد ما اشتهر به من الذكاء والدهاء ، إذ أن إسرافه وتبذيره اجبره على ان يرهن صيدا لدى الداوية ، الذين اقترض منهم اموالاً طائلة ، كما ان خشونة طبعـه ورطته في شجار مع فيليب سيـد صور ، الذي يعتبر خالاً غير شقيق . وعلى الرغم من انه تزوج من احدى بنات الملك هيثوم ، فإنه لم يكن لصهره سلطان عليه . وما نشب من حروب بين المغول والمسلمين تراءت له على انها فرصة طيبة تهيأت له كيما يغير من الشقيف على سهل البقاع الخصيب . غير ان كتبغا لم يكن ليسمح للمغيرين بأن يقوضوا ما اقامه المغول حديثاً من نظام .

---

(١) انظر : Abu'l Feda, pp. 141 - 143,
Gestes des Chiprois, loc. cit.
Hayton, Flor des Estoires, pp. 171 - 172.
Cahen, op. cit. p. 707, nn. 19, 20.

فأرسل كتبغا جماعة صغيرة من العسكر بقيادة ابن اخته لإنزال العقاب بالفرنج . ولم يسع يوليان عندئذ إلا دعوة جيرانه لنجدته ، فكمنوا لابن اخت كتبغا وقتلوه . وإذ غضب كتبغا لما حدث ، ارسل جيشاً كبيراً ، نفذ الى صيدا وخرب المدينة ، ولم ينقذ قلعة البحر إلا سفن جنوية قدمت من صور ، واغتـاظ الملك هيثوم حينما سمع بذلك ، وألقى اللوم على الداوية الذين افادوا من خسائر يوليان فانتزعوا منه حق رهن صيدا والشقيف . وما حدث بعد فترة قصيرة من إغارة يوحنا الثاني سيد بيروت والداوية على الجليل ، لقيت من القوات المغولية الاضافية معاملة بالغة الصرامة [١] .

وفاة الخان الكبير منكو ، سنة ١٢٥٩ :

على انـه لم يكن بوسع كتبغا ان يقوم بحملات كبيرة . إذ توفي ١١ اغسطس سنة ١٢٥٩ . الخان الكبير منكو بينما كان يشترك مع اخيه قبيلاي في حمـــلة على الصين . كان ابناؤه صغاراً ، يفتقرون الى الخبرة والتجربة . ولذا أصرّ الجيش في الصين على ان يتولى الحكم قبيلاي . غير ان اريق بوقا الأخ الاصغر لمنكو ، كان يسيطر على الوطن الاصلي للاسرة بمـا فيه قراقورم ، والخزانة المركزية للأمبراطورية ، وأراد ان يصير اليه

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 162 - 164.
Hayton, Flor des Estoires, p. 174.
Annales de Terre Sainte, p. 440.

هذه الاحداث وردت في حوليات الارض المقدسة على انها جرت بعـــد وقعة عين جالوت ، والراجح انها وردت على سبيل الخطأ .

العرش . وإذ انقضت عــدة شهور في المناورات، وفي اكتشاف من كان صديقاً لكل منهما ، عقـد كل من الأخوين مجلساً وطنياً (قوريلتاي) في ربيع سنة ١٢٦٠ ، اختاره خاناً كبيراً . كان يساند اريق بوقا معظم اقارب الاسرة الامبراطورية الذين كانوا بمنغوليا ، بينما كان قادة الجيش من اقوى انصار قبيلاي . لم يكن لكلا المجلسين صفة شرعية ، نظراً لأنه لم يمثل في كل منهما كل فروع الاسرة الامبراطورية . ولم يود كل من الجانبين ان ينتظر ، حتى يتم اخطار هولاكو ، وأمراء القبيلة الذهبية ، فضلاً عن بيت جغتاي ، حـتى يرسلوا مندوبين من قبلهم . كان هولاكو يساند قبيلاي ، على حين ان ابنه شوموقار كان من انصار اريق بوقا ، بينما كان بركة خان القبيلة الذهبية يميل الى اريق بوقا . ولم يسحق قبيلاي اريق بوقـا نهائياً إلا في آخر سنة ١٢٦١ . وفي نفس الوقت ظل هولاكو يلتزم الحذر فبقي قرب الطرف الشرقي لأملاكه ، على استعداد لأن يتحرّك الى منغوليا ، متى اقتضت الحاجة ذلك . والواقع انه توافر لديه من الدواعي مـا يثير قلقه . إذ ان اريق بوقـا تدخل في شيء من الاستبداد في امور خانية تركستان ، بـأن طرد من الوصاية ارهانه وأحل مكانها ألجو ، ابن عم زوجها ، الذي كان لما اتصف بـه فيما بعد من نقيصة واقدامه على الزواج من ارهانه أثر كبير فـيما احرزه قبيلاي من انتصار . وخشي هولاكو ان يحدث تدخل من هذا القبيل في ممتلكاته . يضاف الى ذلـك ازدياد سوء العلاقات بينه وبين بني عمومته في القبيلة الذهبية . فبينما كان بلاطه يظهر عطفاً شديداً على المسيحيين كان الخان بركة يتحوّل قطعاً الى جانب المسلمين ، وينكر مـا اتخذه هولاكو من سياسة مناهضة للمسلمين . فوقع الاحتكاك في جبال القوقاز ، التي تعتبر الحد الفاصل بين منطقتي نفوذ بركة وهولاكو . فدأب بركة وقادته على اضطهاد القبائل المسيحية . وما اقدم

عليه هولاكو من محاولة لتوطيد سلطته في الجانب الشمالي لجبال القوقاز احبطتها الهزيمة الساحقة التي انزلها نوغاي ابن اخت بركة بجيش لهولاكو سنة ١٢٦٩ ، قرب نهر تريك [١] .

كان لزاماً على هولاكو ، برغم كل هذه الامور التي شغلت باله ، ان يسحب عدداً كبيراً من عساكره بسوريا ، عقب الاستيلاء على دمشق . وأضحى كتبغا يحكم البلاد بقوة بالغة الضآلة . ومن سوء حظ المغول ان توغلهم في فلسطين اثار دولة اسلامية كبيرة لم تتعرّض للهزيمة ، وهي دولة المماليك في مصر ، إذ أضحى المماليك وقتئذ من الصلاحية والسلامة ما يجعلهم يقبلون تحدي المغول .

لم يكن ايبك ، اول سلاطين المماليك مطمئناً في وضعه . فلكي يجعل سلطانه مشروعاً ، لم يكتف بأن تزوج السلطانة الارملة ، شجر الدر ، بل عين اميراً ايوبياً طفلاً قسيماً له في السلطنة . غير ان هذا الطفل الاشرف موسى لم يكن له وزن ، ولم يلبث ان اصبح عبئاً ثقيلاً ، ووقع الشجار في سنة ١٢٥٧ بين ايبك والسلطانة شجر الدر ، إذ لم تكن مستعدة لأن

---

(١) انظر :

Rashid ad - Din, pp. 341 ff.
Bar - Hebraeus, p. 439.
Kirakos, pp. 192 - 194.
Hayton, Flor des Estoires, p. 173.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 317 - 324.
Howorth, op. cit. III, p. 151.
D'Ohsson, op. cit. III, p. 377.

يبدو ان نوغاي لم يرتبط بالاسرة الامبراطورية إلا عن طريق فرع الأتاث .

تتقبل الإهانة من رجل حديث السلطان ، ففي ابريل سنة ١٢٥٧ دبرت امر اغتياله بأيدي الطواشية أثناء استحمامه . وكاد مصرعه يثير حرباً اهلية ، إذ تصايح بعض المماليك بالانتقام من السلطانة شجر الدر ، بينما قام فريق آخر من المماليك بتأييدها ، على انهـا رمز الحكم الشرعي في البلاد. وكسب اعداؤها آخر الأمر المعركة ، ففي ٢ مايو سنة ١٢٥٧ ، تعرّضت شجر الدر للضرب الشديد حتى لقيت حتفها ، وتقرّرت المناداة بنور الدين علي ابن السلطان ايبك ، الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره سلطاناً . على ان هذا الصبي لم يكن يمثل اسرة محترمة ، ولم يتصف بشخصية القائد . فعزله في ديسمبر سنة ١٢٥٩ احد رفاق ابيه القدماء ، وهو قطز التي حلّ مكانه في السلطنة . وإذ تولى قطز السلطنة ، عاد الى مصر سائر المماليك امثال بيبرس ، الذي حملتهم كراهيتهم لأيبك على الفرار الى دمشق (١) .

المماليك يطلبون المساعدة من الفرنج سنة ١٢٦٠ :

حدث في اوائـل سنة ١٢٦٠ ان ارسل هولاكو سفارة الى مصر ، تطلب الى السلطان الخضوع والإذعان . فأمر قطز بقتل رسول هولاكو ، وتجهز للقاء المغول في سوريا . وفي تلك اللحظة ، ذاع نبأ وفاة منكو ، ونشوب الحرب الاهلية في منغوليا ، فكان لزاماً على هولاكو ان ينقل الجانب الاكبر من جيشه الى الشرق . وما تبقى مع كتبغا من عساكر ، كانت تقل في العدد عن القوات التي اخذ قطز يحشدها . إذ اجتمع الى

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 185.

جانب القوات المصرية ، من تبقى من القوات الخوارزمية ، وعساكر من قبل امير الكرك الايوبي . وفي ٢٦ يوليه اجتاز الجيش المصري الحدود ، وزحف على غزه ، وتولى بيبرس قيادة المقدمة . لم يكن بغزه سوى قوة صغيرة من المغول بقيادة بايدار . الذي ارسل الى كتبغا يخطره بالغزو ، غير ان المصريين تغلبوا على عساكره قبل ان تصل اليه النجدة (١) .

كان كتبغا في بعلبك ، فتجهز على الفور للمسير الى وادي نهر الاردن بعد ان يتجاوز بحر الجليل ، غير انه منعه مـا حدث من نشوب ثورة المسلمين في دمشق ، تحطمت دور المسيحيين وكنائسهم ، واشتدت الحاجة الى العساكر المغولية لإعادة الأمن الى نصابـه (٢) . وفي تلك الاثناء قرر قطز السير على الساحل الفلسطيني ، ثم المضي الى داخل البلاد ، الى اقصى الشمال لتهديد مواصلات كتبغا ، اذا تقدم نحو فلسطين . ولذا تقرر ايفاد سفارة مصرية الى عكا ، تطلب الإذن باجتياز اراضي الفرنج ، والحصول على المؤن اللازمة للجيش اثناء مسيره ، اذا لم يبذل لهم الفرنج مساعدة حربية فعلية .

اجتمع البارونات معاً في عكا لمناقشة هـــذا الطلب . كان البارونات يحسون بالمرارة من المغول لما أقدموا عليه منذ زمن قريب من نهب صيدا ، كما انهم لم يثقوا بهذه القوة القـادمة من الشرق التي حفل سجلها بالمذابح

---

(١) انظر : Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), p. 347.
D'Ohsson, op. cit. III, pp. 333 - 335.

(٢) انظر : Abu'l Feda, p. 143.

الجماعية . لقد ألفوا الحضارة الاسلامية ، وكان معظمهم يؤثرون المسلمين على المسيحيين الوطنيين الذين حبـاهم المغول بقدر كبير من العطف . أظهر البارونات اول الامر ميلهم الى ان يبذلوا للسلطان قوات مسلحة اضافية ، غير ان مقـدم طائفة الفرسان التيوتون ، انّو سانجرهاوزن ، حذرهم بأنه من الحماقة المبالغة في الوثوق بالمسلمين ، ولا سيما اذا اشتد زهوهم بما يحرزونه من النصر على المغول . والمعروف ان لطائفة الفرسان التيوتون ممتلكات كثيرة في مملكة ارمينيـة ، والمعروف ان انّو سانجرهاوزن كان يقـدّر سياسة الملك هيثوم . وكان لعباراته الحكيمة شيء من التـأثير ، إذ قرر الفرنج رفض التحالف العسكري ، على انهم وعدوا السلطان بأن يسمحوا له باجتياز أراضيهم ، وأن يقـدموا التسهيلات اللازمـة لتموين جيش السلطان [1] .

وفي اثنـاء شهر اغسطس ، قـاد السلطان قطز جيشه على الطريق الساحلي ، وعسكر في الحدائق الواقعة خارج عكا عـدة ايام . وتقررت دعوة عـدة أمراء لزيارة المدينة ، باعتبارهم ضيوف شرف ، ومن هؤلاء الأمراء كان بيبرس الذي اقترح على قطز ، عقب عودته الى المعسكر ، انه من اليسير الاستيلاء على الموضع بغتة . غير ان قطز لم يكن مستعداً لأن يكون خائنـاً ، وأنه لا يأمن هجمات المسيحيين الانتقامية ، بينما لم ينهزم المغول بعـد . على انه زاد في حيرة الفرنج كثرة عدد زائريهم ،

(١) انظر : Ms. of Rothelin, p. 637.

ولكن سري عنهم وطمأنهم ما حصلوا عليه من وعد بأن يشتروا بأثمان منخفضة ما يقع في أيدي المسلمين من خيول المغول (١) .

معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ :

وبينما كان قطز في عكا ، علم ان كتبغا عبر نهر الاردن وأنه نفذ الى الجليل الشرقي ، فبادر على الفور بقيادة جيشه صوب الجنوب الشرقي ، مجتازاً الناصرة ، فوصل في ٢ سبتمبر سنة ١٢٦٠ الى عين جالوت ، حيث سبق للجيش المسيحي سنة ١١٨٣ ان تحدى صلاح الدين . وفي صبيحة اليوم التالي قدم الجيش المغولي ، وصحب خيالة المغول كتائب كرجية وأرمنية . وافتقر كتبغا الى الكشافة ، ولم يكن السكان المحليون موالين له . فلم يعلم ان كل جيش المماليك اضحى قريباً منه . وكان قطز شديد الادراك لتفوق جيشه في العدد . ولذا اخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس . ووقع كتبغا في الفخ ، إذ حمل بكل رجاله على العدو الذي شهده امامه ، فأسرع بيبرس في تقهقره الى التلال بعد ان اشتدت مطاردة كتبغا له ، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره ان جرى تطويقه فجأة ، وأبلى كتبغا في القتال ، وأخذ المصريون يتعثرون في سيرهم ، فدخل قطز المعركة بجمعهم . على انه لم تنقض إلا بضع ساعات حتى ظهرت اهمية تفوق المسلمين في العدد . ومع ان

---

(١) انظر : William of Tripoli, De Statu Saracenorum, in Du Chesne, V, p. 443.
Gestes des Chiprois, pp. 164 - 165.

جماعة من رجال كتبغا استطاعت ان تشق لها طريقاً للخروج ، غير انه رفض ان يبقى على قيد الحياة بعد هزيمته ، إذ كاد أن يكون بمفرده حينما لقي حصانه مصرعه ، ووقع هو اسيراً . وبأسره انتهت المعركة ، إذ جرى حمله مقيداً بالأغلال الى السلطان ، الذي سخر لسقوطه . غير أنه اجاب في اعتزاز وتحد ، بعد ان تنبأ بما سوف يتعرض له من انتقام مريع من قِبل الظافرين بـه ، متباهياً بأنه يختلف عن امراء المماليك ، بأنه ظل دائماً محافظاً على ولائه لسيده ، فاجتزّوا رأسه [١] .

تعتبر معركة عين جالوت من اهم المعارك الحاسمة في التاريخ . والواقع انه نظراً لما سبق وقوعه من احداث على مسافة اربعة آلاف ميل ، كان الجيش المغولي في سوريا من الضآلة ما يجعله عاجزاً عن القيسام بإخضاع المماليك إلا اذا واتاه الحظ الطيب . ومن المحقق انه لو ان المغول عجّلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة ، لتيسر تعويض الهزيمة . غير ان أحكام التاريخ حالت دون نقض ما اتخذ في عين جالوت من قرار . فما احرزه المماليك من انتصار انقذ الاسلام من اخطر تهديد تعرض له . فلو ان المغول توغلوا الى داخل مصر ، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة ، شرقي بلاد المغرب ، ومع ان المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد مما يمنع من استئصال شأفتهم ، فانهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم . ولو انتصر كتبغا ، المسيحي ، لازداد عطف المغول على المسيحيين ، ولأصبح

---

(١) انظر : Rachid ad - Din, pp. 349 - 352.
Makrizi, I, 1, Sultan, pp. 104 - 106.
Abu'l Feda, pp. 143 - 144.

للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ سيادة النحّل الكبيرة في العصر السابق على الاسلام . على انه من العبث أن تفكر في الأمور التي قد تحدث وقتئذ . فليس للمؤرخ إلا أن يروي ما حدث فعلا ، إذ أن معركة عين جالوت جعلت سلطنة المماليك بمصر القوة الاساسية في الشرق الادنى في القرنين التاليين ، الى ان قامت الامبراطورية العثمانية ، إذ أتمت تقويض المسيحيين الوطنيين في آسيا . فما حدث من ازدياد قوة العنصر الاسلامي ، وإضعاف العنصر المسيحي ، لم يلبث ان اغوى المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الاسلام . وعجّلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية ، لأن المسلمين المظفرين حسبما تنبأ مقدم طائفة فرسان التيوتون ، أضحوا حريصين على ان يتخلصوا نهائياً من اعداء الدين .

دخل السلطان قطز دمشق بعد ان مضت خمسة ايام على احراز النصر . وتولى الأشرف الايوبي امارة حمص من جديد ، بعد ان تخلى عن المغول . اما امير حماه الايوبي الذي فرّ الى مصر ، فانه رجع الى امارته . وتمّ استرداد حلب من المغول في خلال شهر . وعلى الرغم من غضب هولاكو لضياع سوريا ، فانه ليس بوسعه ان يفعل شيئاً إلا بعد ان يعود الأمن الى جوف الامبراطورية المغولية . ومع انه ارسل العساكر لاسترداد حلب في ديسمبر ، فانهم اضطروا للانسحاب بعد اربعين يوماً ، أجروا اثناءها المذابح في عدد كبير من المسلمين انتقاماً لمصرع كتبغا ، غير ان ذلك كان كل ما استطاع هولاكو ان يفعله للانتقام لصديقه الوفي (١) .

---

(١) انظر :
Abu'l Feda, p. 144.
Bar - Hebraeus, pp. 439 - 440.
Cahen, op. cit. pp. 710 - 711.

استأنف السلطان قطز رحلة العودة الى مصر ، يكلله المجـد والغار . ومع ان نبوءة كتبغا عن الانتقام لم تتحقق بأكملهـــا ، فان إنكاره لما اتصف به المماليك من الخيانة لم يلبث ان تأكد . إذ اشتد ارتياب قطز في بيبرس أقوى أتباعه وأشدهم بأساً ، فلما طلب منه ان يجعله نائباً على حلب ، لم يلقَ الطلب إلا الرفض الصريح . ولم ينتظر بيبرس طويلا حتى يتخـذ قراره . ففي ٢٣ اكتوبر سنة ١٢٦٠ ، حينما وصل الجيش المظفر الى حـــافة الدلتا ، رأى قطز ان يمضي يوم العطلة في الخروج الى صيد الأرانب ، فخرج في جماعة من أمرائه ، من بينهم بيبرس وبعض الأصدقاء . ولم يكد يبتعدون عن المعسكر ،حتى أقبل احدهم على السلطان كأنما يتقدم بطلب اليه ، وبينما أمسك بيد السلطان كأنه يهمّ بتقبيلها ، اندفع بيبرس فأتاه من الخلف ، وغرس سيفه في ظهر سيده . وعندئذ ركض المتآمرون بخيولهم الى المعسكر ، وأعلنوا نبأ مصرع السلطان . كان اقطاي أتابك العساكر في خيمة السلطان ، حينما وصل المتآمرون ، فبادر بالسؤال أيهم قـام بقتل السلطان . فلما اعترف بيبرس بأنه هو الذي فعل ذلك ، طلب اليه اقطاي أن يجلس في دست السلطنة ، وكان اول من بذل الولاء لبيبرس ، ثم حـــذا حذوه جميع القادة في الجيش ، وبذا عاد بيبرس الى القاهرة سلطاناً [١].

---

(١) انظر :

Abu'l Feda, loc. cit.
Makrizi, Sultans, II, pp. 110 - 118.
Bar - Hebraeus, loc. cit.
Gestes des Chiprois, pp. 165 - 166.

الفصل الرابع

السلطان بيبرس

أضحى ركن الدين بيبرس البندقداري ينـاهز الخمسين من عمره . كان ينتمي الى الأتراك القبجاق ، ضخم الجثـة ، اسمر البشرة ، ازرق العينين ، ذا صوت جهوري شديد الوقع . ولما قدم الى الشام لأول مرة بين عدد من الأرقاء ، وجرى عرضه للبيـع على امير حماه الذي فحصه ، فاعتقد انه غلام جلف غليظ . غير انه اثناء عرضه بالسوق لفت نظر احد الأمراء المماليك ، وهو البندقداري ، الذي ادرك ما عليه من ذكاء . وتمّ شراء بيبرس ، كيما يلحق بالمماليك السلطانية . فارتفع شأنه منـذئذ في سرعة ، فلما احرز النصر على الفرنج سنة ١٢٤٤ ، صار يعتبر أكفأ عساكر المماليك . ودلّ تارة على انه رجل سياسي من طراز بالغ الرفعـة ، لا يعوق سبيله ذرة من الشرف ، او عرفان الجميل ، او الرحمة [١] .

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 156.
Sobernheim, Baibars, in Encyclopedia of Islam.

كان اول ما قام به بيبرس من اعمال ، هو ان يوطد مركزه على انه سلطان تقرر الاعتراف به سلطاناً في مصر دون اعتراض ، غير انه حدث في دمشق ان استولى على السلطة امير آخر من المماليك ، وهو سنجر الحلبي . كان سنجر مقبولاً في دمشق ، وما حدث في نفس الوقت من هجوم المغول على حلب ، هدّد سيطرة بيبرس على سوريا . غير ان اميري حمص وحماه الايوبيين انزلا الهزيمة بالمغول ، بينما زحف بيبرس على دمشق ، وقهر عساكر سنجر خارج المدينة في ١٧ يناير سنة ١٢٦١ . ومع ان سكان دمشق حاربوا في جانب سنجر ، فان مقاومتهم لم تلبث ان قُمعت . مضى بيبرس لمعالجة امر الايوبيين . فبذل لأمير الكرك من الوعود المعسولة ما حمله على ان يجعل نفسه في قبضة السلطان ، وبذا تيسر التخلص منه . اما الاشرف امير حمص ، فان بيبرس سمح له ان يبقى على حكمها حتى اذا توفي سنة ١٢٦٣ ، أضافها الى ممتلكاته . ولم يحدث إلا في حماه وحدها ، ان استطاع فرع من فروع الاسرة الايوبية ان يظل في الحكم مدة ثلاثة اجيال اخرى ، وقد خضع لمراقبة شديدة من قبل المماليك (١) . وأراد بيبرس ان يجعل لحكومته سنداً دينياً ، فجاء الى القاهرة جماعة من البدو وبصحبتهم رجل اسود البشرة اسمه احمد ، فأعلنوا انه ابن عم الخليفة الراحل . وزعم بيبرس بأنه تحقق من نسبه ، فناداه على انه الخليفة وإمام المسلمين ، غير انه جرّده من كل سلطة مادية . ولم يلبث احمد الذي صار يعرف بالحاكم ، ان جرى تسييره الى بغداد لاستردادها من أيدي

---

(١) انظر :

Makrizi, Sultans, II, p. 116.
A'bu'l Feda, pp. 145 - 150.
Bar - Hebraeus, p. 439.

المغول . وإذ لقي أحمد مصرعه اثناء محاولته التي لم تلقَ إلا مساندة ضئيلة من بيبرس ، ارتقى ابنه هذه الخلافة الاسمية . هذا الفرع الغامض الذي يسود الشك في انتمائه للعباسيين ظلّ قائماً في مصر ، طوال حكم المماليك وليس له من الامر شيء [١] .

أما الأمر الثاني الذي قام بـه بيبرس ، فهو انزال العقاب بالمسيحيين الذين سبق ان بذلوا المساعدة للمغول . إذ ان كراهيته الشديدة خص بها هيثوم ملك ارمينية ، وبوهمند امير انطاكية . فأرسل في اواخر خريف سنة ١٢٦١ جيشاً للسيطرة على حلب ، بعد ان اعلن اميرها من المماليك العصيان ، واشن غارات واسعة النطاق على املاك انطاكية . وتجددت الغارات في الصيف التالي ، وتعرّض ميناء السويدية للنهب ، وجرى تهديد انطاكية ذاتها . غير ان هيثوم استنجد بهولاكو ، ثم وصل بقوة مؤلفة من المغول والأرمن في الوقت المناسب لإنقاذ انطاكية [٢] . وإذ ظلت سلطة المغول في شمال شرقي سوريا من القوة ما يكفي لإخافة بيبرس ، لم يسعه إلا الالتجاء الى الدبلوماسية . حدث وقتذاك ان تجاهر بالاسلام بركة خان القبيلة الذهبية ، وأعلن استعداده للتحالف مع بيبرس . إذ ان كيكاوس ، احد سلطاني السلاجقة بالأناضول والذي سبق ان حرمه من بلاده ما قام من تحالف بين المغول والبيزنطيين وبين شقيقه قلج ارسلان ، فهرب الى بلاط

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 148.
Makrizi, Sultans, II, pp. 148 - 164.
Bar - Hebraeus, p. 442.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 167.
Estoire d'Eracles, II, p. 466.

بركه ثم عاد الى بلاده بعد ان تلقى مساعدة من القبيلة الذهبية وبيبرس ، بينما استقر وقتذاك زعيم تركماني ، اسمه قرمان في جنوب شرقي قونيه ، فيصح استخدامه في ان يقوم بضغط مستمر على الأرمن [١] .

بيبرس في فلسطين سنة ١٢٦٣ :

كان الفرنج بعكا يأملون في ان ما بذلوه من مودة وصداقة للمماليك زمن حملة عين جالوت سوف يحفظهم من كل عداوة من قبلهم . غير انه حينما توجه الى معسكر بيبرس ، يوحنا كونت يافا ، ويوحنا سيد بيروت ، في اواخر سنة ١٢٦١ ، كيما يحاولا التفاوض في عودة اسرى الفرنج الذين وقعوا في ايدي المسلمين في السنوات الأخيرة ، وفي استيفاء الوعد الذي بذله السلطان ايبك بإعادة زرين في الجليل اليهم ، او دفع تعويض عنها ، رفض بيبرس ان يستمع اليهما برغم ما كان يبدو من ميله الى يوحنا كونت يافا ، بل انه عوضاً عن ذلك امر بإرسال جميع الأسرى الى معسكرات العمل [٢] . وفي فبراير سنة ١٢٦٣ قام يوحنا كونت يافا بزيارة اخرى الى السلطان الذي كان يعسكر وقتذاك قرب جبل الطور ، فحصل منه على وعد بعقد هدنة وتبادل الأسرى . غير ان الداوية والاسبتارية

---

(١) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, p. 711.
Cahen, « Turcomans de Roum », in Byzantion, vol. XIV.

(٢) انظر : Annales de Terre Sainte, p. 450.
Al - Aini, pp. 216 - 217.
يشير العيني الى انعقاد هدنة في تلك السنة بين يوحنا كونت يافا ويوحنا سيد بيروت ، وبين السلطان بيبرس .

رفضوا التخلي عن المسلمين الذين بحوزتهم ، نظراً لأنهم كانوا صناعاً مهرة ، ولما لهم من اهمية مادية للطائفتين . وارتاع بيبرس ذاته لهذا النهم الاستغلالي فقطع المفاوضات ومضى الى بلاد الفرنج . وبعد ان نهب الناصرة ، ودمر كنيسة العذراء ، شن هجوماً مفاجئاً على عكا في ٤ ابريل سنة ١٢٦٣ ، فدار قتال عنيف خارج أسوار عكا ، أصيب فيه الصنجيل جفري سارجينس بجرح خطير . على ان بيبرس لم يكن وقتذاك مستعداً لمنازلة المدينة ، فانسحب بعد ان نهب أرباضها . وساور الناس الشكوك في إنه رتب ان يتعاون معه فيليب مونتفورت والجنويون من صور ، غير ان ضميرهما المسيحي منعهما في آخر لحظة من التعاون معه [1] .

وتعرضت الحدود باستمرار للغارات من كلا الجانبين . إذ ظلت مدن الفرنج في السهل الساحلي مهددة باستمرار للغارات . وحدث في زمن مبكر ، في ابريل سنة ١٢٦١ ان قام سيد ارسوف ، باليان ابلين بتأجير إقطاعه للاسبتارية ، بعد ان أدرك ان ليس بوسعه الدفاع عنه . وفي أوائل سنة ١٢٦٤ قبل الداوية والاسبتارية توحيد قواتها للاستيلاء على حصن ليزون الصغير ، المعروف قديماً باسم مجدو ، ثم قامت الطائفتان بعد بضعة شهور بغارة مشتركة على عسقلان . بينما حدث في الخريف ان نجح العساكر الفرنسيون الذي دفع لهم اجورهم القديس لويس ، في التوغل حتى بلغوا

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 167 - 168.
Annales de Terre Sainte, loc. cit.
Makrizi, Sultans, II, pp. 194 - 197.
Al - Aini, pp. 218 - 219.

أرباض بيسان ، وردّ المسلمون على ذلك بأن شددوا في نهب قرى الفرنج الواقعة الى الجنوب من جبل الكرمل ، حتى لم تعد الحيـاة مأمونة (١).

وفي مستهل سنة ١٢٦٥ ، خرج بيبرس من مصر على رأس جيش كثيف إذ ان المغول اظهروا الدلائل على الاعتداء على شمال سوريا في ذلـك الشتاء ، فأول ما قصده بيبرس هو ان يرد هجوم المغول ، غير انـه علم ان عساكره بشمال الشام منعوهم . فأضحى بوسعه ان يستخدم جيشه في مهـاجمة الفرنج في الجنوب . وبعد ان تظاهر بالتلهّي في حمـلة صيد في التلال الواقعة وراء ارسوف ، ظهر فجأة امام قيسارية ، فسقطت المدينة على الفور في ٢٧ فبراير سنة ١٢٦٥ ، بينما صمدت القلعة مدة اسبوع . فأذعنت الحامية في ٤ مارس سنة ١٢٦٥ ، وسمح لها بيبرس بأن تخرج دون ان تتعرّض لأذى ، غير انه امر بتدمير المدينة والقلعة وتسويتها بالأرض ، ثم ظهرت عساكره في حيفا بعد بضعة ايام . فمن تلقى من السكان التحذير في الوقت المناسب ، هرعوا الى السفن الراسية بالميناء ، بعد ان تخلوا عـن المدينة والقلعة اللتين جرى تدميرهما عـن آخرهما ، ومن بقي من السكان بالمدينة تعرضوا للقتل . وفي تلك الاثناء هاجم بيبرس قلعة عثليت الضخمة التابعة للداوية . فأمر بإشعال الحريق في القرية الواقعة خارج الاسوار ، أما القلعة فإنها نجحت في مقاومتها له . وفي ٢١ مارس تخلى بيبرس عن حصارها ثم زحف على ارسوف . وسبق للاسبتارية ان شحنوها بالعساكر والمؤن ، إذ

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 444 , 449.
Annales de Terre Sainte, p. 451.

كان بالقلعة نحو مائتين وسبعين من الفرسان استبسلوا في القتال ، غير ان المدينة السفلى سقطت في ٢٦ ابريل ، بعد ان دمر اسوارها ادوات الحصار التي نصبها السلطان ، ولم تنقض ثلاثة ايام حتى استسلم قائد القلعة الذي فقد ثلث عدد فرسانه ، مقابل الحصول على وعد بالإبقاء على حياة الذين نجوا من القتل ، غير ان بيبرس نقض وعده ، واتخذهم اسرى . وما حدث من سقوط الحصنين الكبيرين ازعج الفرنج ، وأوحى الى شاعر الداوية الغنائي (من التروبادور) ريسو بونوميل بأن ينظم قصيدة بالغة المرارة ، يشكو فيها ان المسيح اضحى فيما يبدو مسروراً لما حلّ بالمسيحيين من ذلة ومهانة [١] .

وحلّ الدور على عكا ، غير ان الوصي ، هيو من سادة انطاكية ، والذي كان بقبرص ، هرع فعـــلا بكل من استطاع ان يحشده من الرجال من الجزيرة ، واجتاز بهم البحر . فلما تحرّك بيبرس مرة اخرى من ارسوف صوب الشمال ، تبين له ان هيو قد هبط الى عكا في ٢٥ ابريل سنة ١٢٦٥. عاد الجيش المصري الى بلاده ، بعد ان خلّف عسكراً يكفي لضبط البلاد

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, p. 171.
Estoire d'Eracles, II, p. 450.
Annales de Terre Sainte, pp. 451 - 452.
Al - Aini, pp. 219 - 221.
Abu'l Feda, p. 150.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 7 - 8.

وردت قصيدة بونوميل في :

Bartholemaeis, Poesie Provenziale, II, pp. 222 - 224.

التي تمّ فتحها حديثاً . اضحى الحد على مرأى من عكا ذاتها [1] . وبادر بيبرس فكتب بأنباء انتصاراته الى مانفرد ، ملك صقلية ، الذي لا زال بلاط مصر يحتفظ بالصداقة التي أجراها ابوه فردريك الثاني [2] .

وفاة هولاكو سنة ١٢٦٥ :

على ان سنة ١٢٦٥ كانت في صالح بيبرس ، إذ مات هولاكو في أذربيجان في ٨ فبراير سنة ١٢٦٥ . وقد كان اخوه قبيلاي منحه لقب ايلخان ، وجعل له الحكم وراثياً على ممتلكات المغول في جنوب غربي آسيا . ومع ان مشاكله مع القبيلة الذهبية ومغول التركستان الذين اعتنقوا ايضاً الاسلام ، منعته من مواصلة شن هجوم عنيف على المماليك ، فانه لا زال يدخر من القوة والبأس ما يكفي لمنع المماليك من مهاجمة حلفائه . وفي يوليه سنة ١٢٦٤ عقد آخر قوريلتاي في معسكره قرب تبريز . وشهد الاجتماع كل أتباعه ، ومنهم داود ملك الكرج ، وهيثوم ملك ارمينية ، وبوهمند امير انطاكية . وافتقد هيثوم وبوهمند رضى هولاكو ، لأنهما اختطفا في السنة السابقة يوثيميوس بطريرك انطاكية الارثوذكسي ، الذي سبق ان أصرّ هولاكو سنة ١٢٦٠ على تنصيبه بطريركاً ، ثم نقلاه

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, loc. cit.
Estoire d'Eracles, loc. cit.

(٢) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, p. 16.
Al - Aini, p. 219.

يشير العيني الى سفارة الى بيبرس من شارل كونت انجو سنة ١٢٦٤ ، وقد كان شارل يعد هجوماً على مانفرد .

الى ارمينية . ودخل الى انطاكية عندئذ البطريرك اوبيزون اللاتيني . واعتبر هولاكو التحالف مع البيزنطيين كبير الأهمية ، على أنه وسيلة لضبط الترك بالاناضول والسيطرة عليهم . ودارت المفاوضات من اجل الحصول على سيدة من الأسرة الامبراطورية بالقسطنطينية ، ليضمها الى زوجاته العديدات ، ولما اختار الامبراطور ميخائيل ابنته غير الشرعية ، ماريا لتحظى بهذا الشرف ، رافقها الى تبريز البطريرك يوثيميوس الذي لجأ الى القسطنطينية ، ولا شك انه عاد الى الشرق بناء على دعوة عاجلة من هولاكو . على ان المغول ظلوا معروفين بسعة تفكيرهم ، ولن يسمحوا لما يقع من منازعات طائفية ان تتدخل في سياستهم العامة . ويبدو ان بوهمند استطاع ان يلتمس لنفسه عذراً ، وأن يوثيميوس لم يعد الى انطاكية (١) .

لا شك ان وفاة هولاكو اضعفت المغول في لحظة حرجة ، إذ أن نفوذ ارملته ، طقز خاتون ، كفل ولاية العرش لابنه الاثير عنده ، اباقا ، الذي كان واليـاً على تركستان . غير انه لم يتم تنصيب اباقا ايلخاناً من الناحية الرسمية إلا في يونيه سنة ١٢٦٥ ، بعد ان مضت اربعة شهور على وفـــاة والده ، كما انه لم يكتمل إعادة توزيع الاقطاعات وحكومات

---

(١) انظر : Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), pp. 417 - 423.
Howorth, op. cit. III, pp. 206 - 210.
Vartan, (ed. Emin), pp. 205 - 206, 211.
Bar - Hebraeus, pp. 444 - 445.
« Lettre à Charles d'Anjou », in Revue de l'Orient Latin, vol. II, p. 213.
استشارت طقزخاتون ، فارطان ، عن سلامة ما يتلى من قداس على روح هولاكو ، غير انه لم يشجعها ، انظر : Vartan, ed. Emin, p. 211.

الولايات إلا بعد أن مضت اربعة شهور اخرى . وماتت طقز خاتون في صيف هذه السنة ، فاشتد حزن المسيحيين عليها . وفي تلك الاثناء تعرّض اباقا للتهديد المستمر من قِبل ابناء عمومته في القبيلة الذهبية ، الذين اغاروا فعلاً على بلاده في الربيع التالي . كان مستحيلاً على حكومة المغول ان تتدخل في الوقت الراهن في غرب سوريا . اما بيبرس الذي يرجع الى دبلوماسيته اساساً ما وقع للايلخان من متاعب مع جيرانه في الشمال ، فأضحى بوسعه ان يستأنف حملاته لقتال المسيحيين دون ان يخشى تدخلاً [1].

بيبرس يستولي على الجليل سنة ١٢٦٦ :

في اوائل صيف سنة ١٢٦٦ ، بينما كان اباقا منصرفاً الى رد غارة الخان بركة عن فارس ، خرج من مصر جيشان مملوكيان ، ظهر الجيش الاول الذي يقوده بيبرس امام عكا في اول يونيه سنة ١٢٦٦ . على ان الكتيبة المرابطة بعكا ، التي كان ينفق عليها القديس لويس ، تلقت منذ زمن قريب مدداً من فرنسا . ولما اكتشف بيبرس ان المدينة ، عكا ، ترابط بها حامية عسكرية قوية ، انحرف عنها كيما يقوم بمظاهرة امام حصن مونتفورت الذي كان بحوزة طائفة الفرسان التيوتون ، ثم زحف فجأة على صفد ، التي تحكّم الداوية من قلعتها الضخمة في مرتفعات الجليل . والمعروف ان استحكامات صفد تجددت بأكملها منذ خمس وعشرين سنة ، وأن الحامية كانت وفيرة العدد ، على الرغم من ان عدداً كبيراً من

---

(١) انظر : Howorth, op. cit. III, pp. 218 - 225.

العساكر كانوا من المسيحيين الوطنيين او من المهجنيين . واندحر الهجوم الاول الذي شنه السلطان بيبرس على صفد في ٧ يوليه ، ولم تنجح أيضاً المحاولتان اللتان وقعتا في ١٣ ، ١٧ يوليه .

وعندئذ اعلن بيبرس عن طريق المنادين بأنه يمنح العفو التام كل من يستسلم له من العساكر الوطنيين . وما يعتبر موضع ريبة ، كم كان عدد الذين وثقوا في كلمته ، غير ان الفرسان الداوية ازداد تشككهم على الفور ، فدارت بينهم المهاترات والسباب ، التي تحولت الى المضاربة ، فأخذ السوريون يفرون من الجيش . ولم يلبث الداوية ان ادركوا انه من المستحيل الاحتفاظ بالقلعة . ففي نهاية الشهر ، أرسلوا جندياً سورياً اعتقدوا في ولائه وإخلاصه ، الى معسكر بيبرس يعرض تسليم الحصن . وعاد السوري ، واسمه ليو ، بوعد من السلطان ، بأن تنسحب الحامية الى عكا ، دون ان تتعرض للأذى . غير أنه لما سلم الداوية القلعة الى بيبرس وفقاً لهذه الشروط ، أمر بقتلهم عن آخرهم . وليس محققاً ما اذا كان ليو قد تعمد الخيانة ، غير أن تحوله السريع الى الاسلام ليس إلا دليلا يؤخذ عليه [١] .

الواقع ان الاستيلاء على صفد هيأ لبيبرس السيطرة على الجليل . إذ اعقب ذلك بأن هاجم تبنين التي سقطت في يده ، دون قتال . ثم ارسل

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 179 - 181.
Estoire d'Eracles, II, pp. 484 - 485.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 28 - 30.
Abu'l Feda, p. 151.
Al - Aini, pp. 222 - 223.

من تبنين العساكر لتدمير قرية قارة المسيحية ، التي تقع بين حمص ودمشق ، لارتيابه في ان لها صلة بالفرنج . فأمر بقتل البالغين من سكانها واسترقاق الاطفال . ولما ارسل المسيحيون وفداً من عكا يطلب منه السماح لهم بموارات الموتى ، اغلظ في رفض طلبهم ، بأن قال اذا كانوا يلتمسون جثث الشهداء فسوف يجدونها في وطنهم . ولتنفيذ تهديده ، هبط الى الساحل وقتل كل من وقع في يديه من المسيحيين ، غير انه للمرة الثانية لم يجرؤ على مهاجمة عكا ذاتها ، حيث وصل اليها اخيراً من قبرص الوصي هيو . ولما انسحب المماليك في الخريف ، حشد هيو فرسان الطوائف الدينية العسكرية والكتيبة الفرنسية بقيادة جفري سارجينس ، وشن هجوماً معاكساً على الجليل . غير ان مقدمة الجيش وقعت في ٢٨ اكتوبر ، في كمين نصبته حامية صفد بينما هاجم العرب معسكر الفرنج ، وكان لزاماً على هيو ان ينسحب بعد ان تكبد خسائر فادحة [١] .

المماليك يغيرون على قليقية سنة ١٢٦٦ :

وبينما كان بيبرس يغزو في الجليل ، احتشد في حمص الجيش المملوكي الآخر بقيادة أكفأ امرائه ، قلاون . وبعد ان قام قلاون بغارة خاطفة صوب طرابلس ، استولى أثناءها على حصني القليعة ، وحالبه ، ومدينة عرقة ، التي تحكمت في الطريق القادم من البقيعة الى طرابلس ، هرع صوب الشمال ليلحق بجيش المنصور امير حمص . ثم توجهت قواتها المشتركة الى

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 180 - 181.
Estoire d'Eracles, loc. cit.

حلب ، ثم انحرفت صوب الغرب الى قليقية [١] . واذا كان الملك هيثوم يتوقع هجوماً من قبل المماليك ، حاول عند سماع نبأ وفاة هولاكو ان يصالح بيبرس ، سنة ١٢٦٣ . ولما كانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على ما يرد من أخشاب من جنوب الأناضول ولبنان ، وكان هيثوم وصهره بوهمند امير انطاكية يسيطران على هذه الغابات ، فكانا يأملان في ان يتخذا من هذه السيطرة سبباً للمساومة . غير ان الحصار الذي حاولاه لم يؤد إلا الى إمعان بيبرس في عزمه على القتال [٢] . وفي ربيع سنة ١٢٦٦ توجه هيثوم الى بلاط الايلخان في تبريز ، بعد ان علم ان هجوم المماليك أضحى وشيك الوقوع . وبينا كان في تبريز يلتمس المساعدة من المغول ، هبّت العاصفة على قليقية . كان الجيش الارمني بقيادة ولدي هيثوم ، ليو وثوروس ، ينتظر عند دروب الشام ، وقد تولى فرسان الداوية في بغراس حراسة جناحيه . غير ان المماليك انحرفوا صوب الشمال فعبروا جبال الأمانوس قرب سرفنتكار ، فأسرع الارمن لاعتراض طريقهم عند هبوطهم الى سهل قليقية . ودارت معركة حاسمة في ٢٤ اغسطس . وتعرض الارمن لهزيمة ماحقة بعد ان تفوّق عليهم المماليك في العدد . ولقي احد الاميرين الارمنيين ، وهو ثوروس مصرعه ، بينما وقع الآخر ، ليو ، في الأسر . وانساب المسلمون المظفرون في قليقية . وبينما قام قلاون ومماليكه بنهب أياس وأذنه وطرسوس ، قاد المنصور جيشه فتجاوز المصيصة الى

---

(١) انظر : Abu'l Feda, loc. cit.
Al - Aini, p. 222.

(٢) انظر : Mas Latrie, Histoire de Chypre, I, p. 412.

عاصمة الارمن ، سيس ، حيث نهب القصر الملكي ، وأشعل الحريق في الكاثدرائية ، وقتل بضعة آلاف من السكان . وفي نهاية سبتمبر انسحب المنتصرون الى حلب ، في نحو اربعين الف أسير ، وقافلة ضخمة من الغنائم . أسرع الملك هيثوم بالعودة من بلاط الايلخان ، في جماعة صغيرة من المغول ، فألفى ولي عهده اسيراً ، وعاصمته خراباً ، وبلاده بأكملها مستباحة . ولم تنهض مملكة قليقية مطلقاً من هذه الكارثة ، ولم يعد بوسعها إلا ان تقوم بدور سلبي في الامور السياسية بآسيا (١) .

ارسل بيبرس ، بعد ان تخلص من الارمن ، العساكر في خريف سنة ١٢٦٦ لمهاجمة انطاكية ، غير ان قادته قنعوا بالنهب ، وفتر حماسهم . ومـا بذله لهم بوهمند وقومون المدينة من رشاوي اغواهم بالتخلي عن محاولة الهجوم على انطاكية (٢) .

---

(١) انظر :
Vartan, (ed. Emin), pp. 213 - 215.
Hethoum, p. 407.
Vahram, Rhymed Chronicle, pp. 522 - 523.
King Hethoum, poem, R. H. C. Arm. I, pp. 551 - 552.
Balladon Prince Leo Captivity, ibid, pp. 539 - 540.
Hayton, Flor des Estoires, pp. 177 - 178.
Bar - Hebraeus, pp. 445 - 446.
Makrizi, Sultans, I, II, p. 34.
Abu'l Feda, p. 151.
Gestes des Chiprois, p. 181.
Estoire d'Eracles, II, p. 455.

(٢) انظر :
Cahen, op. cit. p. 716.
اقتبس كاهن من مخطوطة محيي الدين بن عبد الرحيم .

واستشاط بيبرس غضباً لضعف نوابه ، أما هو فإنـــه لم يترك للفرنج فرصة للراحة . ففي مايو سنة ١٢٦٧ ظهر مرة اخرى امام عكا . وإذ رفع بيبرس الرايات التي سبق ان استولى عليها من الداوية والاسبتارية ، استطاع ان يمضي رأساً الى اسوار عكا ، قبل ان تنكشف الخدعة . على ان هجومه على الاسوار قد ارتد ، فقنع بما قام بـــه من تخريب القرى والريف ، وظلت الأجساد التي انفصلت عنها رؤوسها ملقاة في الحدائق حول عكا ، الى ان تجاسر سكان المدينة على الخروج لمواراتها . ولما انفذ الفرنج الرسل يطلبون منه عقد هدنة ، استقبلهم في صفد ، حيث احاط بالقلعة جماجم الاسرى المسيحيين الذين لقوا مصرعهم [١] .

أضحت الحياة في عكا بالغة القسوة بعـــد ان تجدد القتال بين البنادقة والجنويين من اجل السيطرة على الميناء . ففي ١٦ اغسطس سنة ١٢٦١ ، شق امير البحر الجنوي لوتشيتو جريمالدي طريقه الى الميناء في ثمـاني وعشرين سفينة ، بعـــد ان استولى على برج الذباب ، الذي يقع في طرف حاجز المياه . غير انه توجه ، بعد اثني عشر يوماً ، الى صور في خمس عشرة سفينة لإصلاحها . وفي اثناء تغيبه ظهر اسطول للبنادقة مؤلف من ست وعشرين سفينة وهاجم ما تبقى من السفن الجنوية . وفقد الجنويون خمس عشرة سفينة في المعركة ، بينما شقت السفن الاخرى طريقها الى صور [٢] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 181 - 183.
Estoire d'Eracles, II, p. 455.
Al - Aini, p. 225.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 186.
Estoire d'Eracles, II, pp. 455 - 456.
Heyd : Histoire du Commerce de Levant, I, p. 354.

خرج بيبرس مرة اخرى من مصر في اوائل سنة ١٢٦٨ . لم يبق للمسيحيين من ممتلكات جنوبي عكا ، سوى قلعة عثليت التي امتلكها الداوية ، ومدينة يافا التي كانت في حوزة رجل القانون يوحنا ابلين . على ان يوحنا الذي ظل دائماً موضع احترام المسلمين ، مات في ربيع سنة ١٢٦٦ . ولم يكن لابنة جاي هذه المكانة . وكان يأمل في أن يرعى السلطان الهدنة التي عقدها ابوه . وإذ لم تكن المدينة (يافا) في حالة تسمح بالدفاع عن نفسها ، عند ظهور الجيش المصري امامها في ٧ مارس ، سنة ١٢٦٦ ، سقطت في يدي السلطان بعد قتال لم يستغرق سوى اثنتي عشرة ساعة . ولقي عدد كبير من سكانها مصرعهم ، غير انه سمح للحامية بالالتجاء الى عكا ، دون ان تتعرض لأذى . فتقرر تدمير القلعة ، وارسال ما تحويه من خشب ورخام الى القاهرة ، لاستخدامها في المسجد الكبير الجديد الذي كان بيبرس يشيده بها [١] .

أما الهدف التالي لبيبرس ، فكان قلعة الشقيف التي انتزعها الداوية منذ زمن قريب من يوليان سيد صيدا . فاستسلمت الحامية في ١٥ ابريل بعد ان تعرضت القلعة للقذف المتواصل مدة عشرة ايام ، فجعل للنساء والاطفال الحرية في الانتقال الى صور ، أما الرجال فتقرر الاحتفاظ بهم

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, p. 190.
Estoire d'Eracles, II, p. 456.
Abu'l Féda, p. 152.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 50 - 51.
Al - Aini, pp. 226 - 227.

أرقاء . وأصلح بيبرس القلعة ، وشحنها بقوة كبيرة من العساكر [1] . وفي اول مايو ظهر الجيش المملوكي فجأة خارج طرابلس ، غير انه انحرف فجأة صوب الشمال ، لما تبين له ان بها حامية قوية . فعجل الداوية بأنطرطوس وصافيتا بالتوسل الى السلطان بأن يبقي لهم بلادهم [2] . فاحترم بيبرس رغباتهم وأسرع بالهبوط الى وادي نهر الاورنت . وفي ١٤ مايو أضحى أمام انطاكية ، وعندها قسّم قواته ثلاثة أقسام ، توجه جيش للاستيلاء على السويدية ، وبذا يقطع الاتصال بين انطاكية والبحر ، وتحرك الجيش الثاني الى دروب الشام ، لمنع كل مساعدة تصل الى انطاكية من قليقية ، أما الجيش الرئيسي بقيادة بيبرس نفسه ، فانه أخذ يقترب من المدينة ليطوّقها .

سقوط انطاكية سنة ١٢٦٨ :

كان بوهمند امير انطاكية في طرابلس ، وتولى قيادة انطاكية الكندسطبل سيمون مانسل ، الذي تزوج من أرمنية تمت بصلة القرابة للأميرة زوجة بوهمند . ومع ان أسوار انطاكية جرى الاهتمام باصلاحها ، فإن الحامية لم تكن من كثرة العدد ما يكفي لشحن أسوارها الممتدة . على ان الكندسطبل حمله الطيش على ان يقود جماعة من العساكر الى خارج المدينة في محاولة

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, loc. cit.
Estoire d'Eracles, loc. cit.
Al - Aini, pp. 227 - 228.

(٢) انظر : Al - Aini, p. 228.

لمنع مهاجمة المدينة ، غير انه وقع في أسر المماليك . فأمره آسروه بأن يدبر امر استسلام الحامية ، غير ان نوابه داخل الأسوار رفضوا الاستماع اليه . ووقع في اليوم التالي اول هجوم من قبل المماليك على المدينة غير انه جرى رده ، فاستؤنفت المفاوضات من جديد ، ولكنها لم تصب نجاحاً . وفي ١٨ مايو سنة ١٢٦٨ شن المماليك هجوماً عاماً على جميع قطاعات الأسوار . وبعد ان اشتد القتال ، حدثت ثغرة حيث امتدت الأسوار على منحدر جبل سلبيوس ، وتدفق منها المسلمون الى داخل المدينة .

وما تلي سقوط انطاكية من وقوع مذبحة بلغت من القسوة ما صدم المؤرخين المسلمين انفسهم ، فبناء على امر السلطان تقرر اغلاق ابواب المدينة ، حتى لا يهرب احد من السكان . واولئك الذين عثروا عليهم بالشوارع جرى قتلهم على الفور . أما الآخرون الذين لزموا بيوتهم خوفاً وجزعا ، فإنهم لم ينجوا من القتل إلا ليقضوا ما تبقى من ايام حياتهم في الأسر ، على ان ألوفاً من السكان هربوا بأسراتهم ليأووا الى القلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل . فتقرر الابقاء على حياتهم ، أما اشخاصهم فاقتسمها الامراء . وفي ١٩ مايو سنة ١٢٦٨ امر السلطان بجمع الغنائم وتوزيعها . ومع ان رخاء انطاكية ظل عشرات السنوات يتداعى وينهار فإن المدينة ظلت زمناً طويلاً اغنى مدن الفرنج ، وما تكدس بها من الاموال يثير الدهشة . إذ كان بها مقادير كبيرة من الحلى الذهبية والفضية ، وتوافر بها من النقود ما صار يوزع بالطاسات . أما عدد الاسرى فكان بالغ الضخامة، فما من جندي بجيش السلطان لم يحز مملوكاً ، وبلغ الفائض من الوفرة ما جعل ثمن الغلام الصبي ينخفض الى اثنا عشر درهماً ، بينما لم يتجاوز ثمن الجارية خمسة دراهم ، ولم يجز السلطان إلا لعدد قليل من اثرياء السكان

بأن يفتدوا انفسهم . فتقرر إطلاق سراح سيمون مانسل ، فلجأ الى ارمينيا غير ان عدداً كبيراً من موظفي الحكومة والكنيسة لقوا مصرعهم ، او لم يعد احد يسمع عنهم مرة اخرى (١) .

عاشت إمارة انطاكية التي كان اول إمارة اقامها الفرنج في الشرق الفرنجي ، مائة وإحدى وسبعين سنة . فيعتبر تدميرها لطمة خطيرة لهيبة المسيحيين ، وعجّل بانهيار المسيحية في شمال سوريا ، إذ انتهى امر الفرنج ، ولم تصلح احوال المسيحيين الوطنيين بعدهم . ولم يكن ذلك عقاباً لهم على مساندتهم للفرنج ، بل لمن هم اكثر خطورة منهم على الاسلام ، وهم المغول . ولم تنهض انطاكية مطلقاً ، إذ سبق ان فقدت اهميتها التجارية ، فنظراً لأن الحد الفاصل بين الامبراطوريتين المغولية والمملوكية يمتد على نهر الفرات ، لم تعد التجارة القادمة من العراق والشرق الاقصى تجتاز حلب ، بل التزمت بلاد المغول ، وانتهت الى البحر المتوسط عند أياس في قليقية . ولذا لم يحفل الفاتحون المسلمون بازدياد عدد سكان انطاكية مرة اخرى . فلم يعد لها من الأهمية سوى انها اضحت قلعة بالطرف الاسلامي . ولم يجر من جديد بناء كثير من المساكن بداخل اسوار المدينة ، وانتقل موظفو الكنائس الى مواضع تفوقها نشاط وحيوية .

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 190 - 191.
Estoire d'Eracles, II, pp. 456 - 457.
Bar - Hebraeus, p. 448.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 52 - 53.
Al - Aini, pp. 229 - 234.
Abu'l Feda, p. 152.

ولم يمض زمن طويل على سقوط انطاكية ، حتى استقر في دمشق مقر كل من الكنيستين الارثوذكسية واليعقوبية بسوريا (١) .

وإذ ضعفت ارمينيا ، وتدمرت انطاكية ، قرر الداوية انه اضحى مستحيلاً عليهم ان يحافظوا على قلاعهم في جبال الأمانوس ، فجلوا بدون قتال عن بغراس وقلعة لاروش دي روسول التي تقل عنها شأناً . ولم يبق من إمارة انطاكية سوى مدينة اللاذقية التي أعادها المغول الى بوهمند ، فأضحت جيباً معزولاً ، وقلعة القصير الذي انعقدت اواصر الصداقة بين سيدها وبين المسلمين المجاورين ، فسمحوا له بالبقاء بها سبع سنوات اخرى على أنه من اتباع السلطان (٢) .

أخلد بيبرس الى الراحة فترة قصيرة بعد انتصاره في انطاكية . ظهر من الدلائل ما يشير الى ان المغول تجهزوا للقيام بدور ايجابي كبير ، وترددت الشائعات بأن القديس لويس اخذ يعد حملة صليبية ضخمة ،

---

(١) ظلت انطاكية تزخر بعدد كبير من السكان حينما زارها ابن بطوطة سنة ١٣٥٥ . انظر : (Ibn Battutah, Voyages, I, p. 162).

على ان بيبرس سبق ان دمر استحكاماتها. ولما زارها برتراندون دي لا بروكيير سنة ١٤٣٢ ، أشار الى ان اسوارها لا زالت متماسكة ، غير انه لم يكن بداخل الاسوار سوى ثلاثمائة بيت مأهولة بالسكان ، الذين كان معظمهم من التركمان . انظر :

(Bertrandon de la Broquière, Voyage d'Outremer, ed. Schefer, pp. 84 - 85).

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 191.
Estoire d'Eracles, II, p. 457.
Cahen, La Syrie du Nord, p. 717, n. 17.

فلما ارسل الوصي هيو الى السلطان يطلب عقد هدنة ، ردّ عليه بايفاد سفارة الى عكا ، تعرض وقف العداوة بصفة مؤقتة . وكان هيو يأمل في الحصول على بعض الامتيازات ، فحاول ان يهدد السفير محيي الدين ، بأن استعرض قواته في تعبئة القتال ، غير ان محيي الدين اكتفى في اجابته عليه بقوله ، أن كل هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يضارع الأسرى المسيحيين في القاهرة . وطلب الامير بوهمند ان يدخل في عقد الهدنة . وساءه ان السلطان لم يخاطبه في اجابته إلا على أنه كونت ، نظراً لأنه فقد إمارته (انطاكية) ، غير انه قبل في ارتياح مـــا تهيأ له من فترة للراحة . وعلى الرغم من ان المماليك شنوا غارات صغيرة على بـلاد المسيحيين في ربيع سنة ١٢٦٩ ، فان الهدنة ظلت في مجموعهـا مرعية الجانب لمدة سنة [١] .

هيو ملك قبرص وبيت المقدس سنة ١٢٦٨ :

وفي تلك الاثناء حاول الفرنج ان يقوموا بتنظيم احوالهم . إذ حدث في ديسمبر سنة ١٢٦٧ ، ان مات هيو الثاني ملك قبرص ولم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، فخلفه على العرش الوصي هيو لوزجنان ، باسم هيو الثالث وتمّ تتويجه يوم عيد الميلاد (١٢٦٧) . وبتوليه العرش أضحت سلطته على اتباعه بالغة القوة ، فلن ينتهي اجل حكومته فجأة حين يبلغ الملك الحدث سن الرشد . غير انـــه لم يستطع التغلب على دعوى اتباعه بأنهم ليسوا

---

(١) انظر : Muhi ad - Din, in Reinaud, Bibliothèque des Croisades, pp. 313 - 315.

ملزمين بأن يخدموا في جيشه خارج حدود المملكة . فكلما أراد ان يأخذ عساكر الى الساحل الفرنجي ، ارتكن على الرجال الذين حصل عليهم من الضياع الملكية ، وعلى المتطوعين . وفي ٢٩ اكتوبر سنة ١٢٦٨ جرى اعدام كنرادين هوهنشتاوفن في نابولي ، بناء على اوامر شارل كونت انجو ، بعد أن حاول عبثاً ان يسترد منه ارثه في ايطاليا . وأدت وفـــاة كنرادين الى زوال الفرع الاكبر للأسرة الحاكمة في بيت المقدس ، الذي انحـــدر من الملكة مارية الماركيزة . ويلي هذا الفرع في احقية ولاية عرش بيت المقدس، الاسرة الحاكمة في قبرص ، التي تنحدر من اخت غير شقيقة لماريا ، وهي أليس كونتيسة شامبانيا . أما دعوى الملك هيو الثالث في ولاية العرش، فأقرها ضمناً ما حدث من تنصيبه وصيّاً على العرش ، بعد ان جرى اغفال ابن خالته هيو بريين ، الذي تفضل حقوقه في الوراثة ما لدى هيو من حقوق . على ان هيو بريين قـد خرج يلتمس نصيبه في دوقية اثينا اللاتينية ، بأن تزوج من وريثتها . فلم يعد يتحدى ابن خالته (هيو الثالث) . غير انه لا بدّ من تقدير اهمية منافس آخر ، ذلك ان ميليسند لوزجنان ، وهي اخت غـير شقيقة للملكة ماريا ، التي تزوجت بوهمند الرابع امير انطاكية وتعتبر الزوجة الثانية له ، انجبت له ابنتها ماريا التي لا زالت على قيد الحياة . فإذا كان هيو يزعم بأنه ينحدر من زواج الملكة ايزابيلا الذي يرجع الى زمن مبكر عن زواج ماريا ، فـإن ماريا لا يفصلها في درجة القرابة عن الملكة ايزابيلا إلا جيل واحد . فمثلت ماريا امـــام المحكمة العليا ، وطالبت بأن ما يقرر ولاية العرش ، هو درجة القرابة من الملكة ايزابيلا ، التي تعتبر الجدة التي ينحدر منها كنرادين وهيو ، وهي

(ماريا) ذاتها . وقالت بأن للحفيدة السابقة في الحكم على ابن الحفيد . ورد هيو ان جدته الملكة أليس ، سبق الاعتراف بها وصيّة ، نظراً لأنها تعتبر الوريثة التالية للعرش ، ولأن ابنها هنري ملك قبرص ، تقرر الاعتراف به وصياً عقب وفاتها ، ثم تلي هنري في الوصاية ، ارملته ثم هيو نفسه على انهما قيّمان على هيو الثاني ، الملك الصغير . فأضحى هيو يمثل فرع أليس وعارضت ماريا بقولها انه قد وقع خطأ ، إذ ان امها ميليسند كان ينبغي ان تخلف أليس على الوصاية . وبعد جدال لقيت فيه ماريا التأييد من الداوية ، بينما ساند رجال القانون بالشرق الفرنجي دعاوى هيو . ولو انهم رفضوا مساندته ، لأضحى لزاماً عليهم ان يعترفوا بأنهم وقعوا في الخطأ من قبل ، وكان الرأي العام يظاهرهم ، فالواضح ان ملك قبرص الشاب القوي يعتبر افضل المرشحين وأكثر قبولاً من المرأة العانس التي تجاوزت سن الشباب . لم تكن ماريا لتقبل قرار المحكمة ، فأصدرت احتجاجاً رسمياً يوم تتويج هيو ، ثم هرعت الى ايطاليا لترفع قضيتها الى المجلس البابوي . وصادف وصولها الى روما فترة شغور في البابوية . غير ان جريجوري العاشر الذي جرى انتخابه بابا سنة ١٢٧١ ، اظهر عطفه عليها ، وأجاز لها ان ترفع الأمر الى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ . على ان ممثلين من عكا ، ظهروا في المجمع ، واحتجوا ، إذ اعتبروا ان للمحكمة العليا في بيت المقدس وحدها الولاية على وراثة الحكم بالمملكة ، فتقرر اسقاط القضية ، على ان جريجوري العاشر دبر قبل وفاته في سنة ١٢٧٦ بأن تبيع ماريا حقها في الحكم الى شارل كونت انجو . وتمت الصفقة في مارس سنة ١٢٧٧ . إذ حصلت الأميرة على الف قطعة ذهبية ، وعلى مبلغ معين كل سنة ، قدره

اربع آلاف ليرة تورنايه . وأقرّ شارل الثاني ملك نابولي ، المبلغ الذي يؤدي سنوياً . على ان ما تسلمته فعلاً من المال ، ماريا التي لا زالت على قيد الحياة سنة ١٣٠٧ ، يعتبر موضع شك وارتياب [١] .

تتويج هيو سنة ١٢٦٩ :

قام بتتويج هيو في ٢٤ سبتمبر سنة ١٢٦٩ اسقف لد بالنيابة عن البطريرك . وكان اول ما باشره هيو من اعمال ، أنه حاول ان يعيد الوحدة الى مملكته الجديدة . وقد سعى فعلاً قبل تتويجه الى تسوية النزاع القديم بين فيليب مونتفورت والحكومة في عكا . وإذ أذلّ كبرياء فيليب مونتفورت ضياع تبنين ، لم يعد شديد الحرص على ان ينفرد وحده بعمل من الاعمال . فلما اقترح هيو ان تتزوج اخته مرجريت لوزجنان ، التي تعتبر أجمل بنات جيلها ، من يوحنا أكبر أبناء فيليب ، قبل فيليب العرض في غبطة وسرور . فأضحى بوسع هيو ان يمضي الى صور كيما يتوّج في كاتدرائيتها ، التي صارت منذ سقوط بيت المقدس الموضع التقليدي الذي يتوّج فيه ملوك بيت المقدس . ولم يلبث همفري الابن الاصغر لفيليب ان تزوج من ايشيفا ابلين ، البنت الصغرى ليوحنا الثاني سيد بيروت . وهذا الوفاق بين بيت مونتفورت وبيت ابلين ، ازداد يسراً وسهولة ، عند انقراض

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 190 - 193.
Assises, II, pp. 415 - 419.
La Monte, Feudal Monarchy, pp. 77 - 79.
Hill, History of Cyprus, II, pp. 161 - 165.

الجيل القديم من الابليين . إذ مات يوحنا سيد بيروت في سنة ١٢٦٤ ، وتوفي يوحنا كونت يافا في سنة ١٢٦٦ ، ولحق بـه يوحنا سيد أرسوف في سنة ١٢٦٨ . ولم يبق للابليين ، بعــد حملات بيبرس الاخيرة ، من الاقطاعات على الساحل الفرنجي ، والاقطاعات العلمانية بالمملكة عدا صور ، إلا بيروت التي انتقلت الى حوزة ايزابيللا ، ابنة يوحنا ابلين الكبرى . تزوجت ايزابيللا وهي طفلة ، من ملك قبرص الطفل هيو الثـاني ، الذي مات قبل ان يتم عقد الزواج . وكان هيو الثالث يأمل في ان يفيد منها باعتبارها الوارثة الشرعية في اجتذاب فارس لامع الى الشرق . على ان الابليين لا زالوا أقوى أسرة في قبرص . ولم يلبث الملك ان ظفر بعدئذ بولائهم ، بأن تزوج من ايزابيللا اخرى من أسرة ابلين ، ابنة الكندسطبل جاي [١] .

ومع ان الملك سعى الى عقد صلح بين الفئة القليلة الباقية من أتباعه ، فإنه لم يكن من اليسير ان يفوز بالتعاون من قبل الطوائف الدينية العسكرية ، او قومون عكا ، او الايطاليين . فلن تتوقف البندقية وجنوة عما بينهما من منازعات بناء على أمر الملك . وكره فرسان الداوية والفرسان التيوتون ما حدث من الوفاق بين هيو وفيليب مونتفورت . وحقد قومون

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 192 - 193.
ازدادت الاميرة مرجريت سمنة فيما بعد ، وفقدت ابصارها ، لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها حينما تزوجت .
انظر ايضاً : Lignages, p. 462.
وكذا شجرة الانساب الواردة في الملحق الثالث .

عكا ايضاً على كل ما يبذل لمدينة صور من عطف ، ولم يود ان يشهد نهاية الملكية النائية عن الوطن ، التي ازداد في ظلها سلطان الأتباع . ولم يكن بوسع هيو ايضاً ان يستدعي أتباعـــه من جزيرة قبرص ، كيما يبسطوا سلطانه . فباءت بالفشل محاولته لجعل حكمه قوياً [1] .

أمـا الأمور الخارجية فلم تكن بالغة التشجيع ، إذ أن شبح شارل كونت أنجو القى ظلاً قاتمـاً على عـالم البحر المتوسط ، إذ انعقدت في الشرق آمال كبيرة على حملة القديس لويس القادمة ، غير ان شارل حوّلها عن وجهتها سنة ١٢٧٠ حتى تتفق مع مصالحه . على ان وفاة لويس في تونس في تلك السنة ، أراحه من السلطان الاجنبي الوحيد الذي يحترمه . ارتبط شارل بعلاقات ودية مع السلطان بيبرس ، غير أنـــه كان يكنّ العداوة الشخصية للملك هيو ، ولمناوأته شجع دعاوى هيو بريين في عرش قبرص ، وساند مـاريا الانطاكية في دعواها في عرش بيت المقـدس . والواقع ان الحظ الطيب واتى الشرق الفرنجي ، بأن تحولت اطماع شارل الاساسية لمناهضة بيزنطة ، إذ كان من الجلي ان كل حملة صليبية يساندها شارل سوف تتحول لخدمة اغراضه الذاتية [2] .

---

(١) انظر : Grousset, Histoire des Croisades, III, pp. 645 - 646.

بالغ جروسيه في تقدير مواهب هيو في ضوء الاحداث التالية .

انظر ايضاً : Hill, loc. cit. p. 178.

(٢) انظر ما سبق ص ٥٠٢ — ٥٠٣ .

حملة ولدي ملك اراجون الصليبية سنة ١٢٦٩ :

على ان الروح الصليبية لم تخمد جذوتها نهائيـاً في اوربا . ففي اول سبتمبر سنة ١٢٦٩ ، أبحر من برشلونـة جيمس الاول ملك اراجون ، بأسطول قوي لإنقاذ الشرق . ولكن صادفته على الفور عاصفة ، اثارت من الرعب والاضطراب ما حمل الملك والشطر الاكبر من الاسطول على العودة الى الوطن . ولم يواصل الرحلة إلا اسطول صغير ، يقوده ولدان غير شرعيين للملك ، وهما فرناندو سانكيز ، وبدرو فرنانديز ، فبلغا عكا في نهاية ديسمبر سنة ١٢٦٩ ، متلهفين لقتال المسلمين . والمعروف انه حدث في اوائل ديسمبر ان نقض بيبرس الهدنة التي عقدها مع هيو . وظهر في ثلاثة آلاف رجل في الحقول المترامية امام عكا ، بعد ان ترك آخرين وقد اختبأوا في التلال . وأراد ولدا جيمس ان يبادرا على الفور بشن هجوم على العدو ، ولم يثنهما عن عزمهما سوى ما بذله معهما الفرسان الرهبان من كياسة ، إذ ارتابوا ان يقعا في كمين نصبه بيبرس . يضاف الى ذلك ما حدث من تناقص عـدد المسيحيين ، إذ أن الكتيبة الفرنسية التي تولى قيادتها الصنجيل جفري سارجينس حتى وفاته في فصل الربيع ، خرجت مع قائدها الجديد ، اوليفر تيرميس ، والصنجيل الجديد روبرت كريسيك ، في غارة على الجهات الواقعة خلف مونتفورت . ولمح هؤلاء المغيرين اثناء عودتهم القوات الاسلامية ، فأراد اوليفر تيرميس ان يتسللوا في الحدائق دون ان يلحظهم أحد ، عند عودتهم الى عكا ، غير ان الصنجيل روبرت أصرّ على مهاجمة العدو ، ووقع الفرنسيون على الفور في الكمين الذي نصبه بيبرس ولم يبق منهم على قيد الحيـاة إلا عدد بالغ القلة . ولـما تصايح العساكر في داخل عـكا ، يطلبون المسير لإنقاذهم ، منعهم من ذلك ولدا

ملك اراجون اللذان وعيا دروسهما ، ولم يلبثا أن عادا بعدئذ الى أراجون ، دون ان يحققا شيئاً [١] .

ومع ان المساعدة من الغرب لم تكن كافية ، فلا زال الامل معقوداً على قدوم عون من الشرق . إذ ان أباقا ، ايلخان فارس ، كان كأبيه شاماني العقيدة ، شديد العطف على المسيحيين . ومع أن ما حدث من وفاة طقز خاتون زوجة والده المسيحية حرم المسيحيين على اختلاف مذاهبهم من أكبر صديق لهم ، فإنهم لقوا في الاميرة ماريا البيزنطية حامياً جديداً لهم . وصلت ماريا الى بلاط ايلخان فألفت هولاكو قد مات ، غير أنها بادرت على الفور الى الزواج من أباقا ، الذي لم يلبث ان أظهر لها عميق احترامه . أما رعاياه ، الذين اشتهرت عندهم ، باسم ديسبينا خاتون ، فإنهم أجلـّوها لما اشتهرت به من حب الخير والحكمة . وما تردد من أنباء عن صدق نية ايلخان حملت ملك أراجون على ان يشترك مع البابا كليمنت الرابع في إنفاذ جيمس ألاريك بريبجنان في سفارة الى ايلخان سنة ١٢٦٧ ، ليعلن عن قرب قدوم حملة أراجون وحملة الملك لويس الصليبيتين ، وكيما يقترح عقد محالفة عسكرية . غير ان أباقا لم يبذل إلا وعوداً غامضة ، نظراً لانصرافه التـام الى قتال القبيلة الذهبية [٢] . ومن الدليل على عجزه عن

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 183 - 185.
أخطأ هذا المصدر في جعل تاريخ الحملة سنة ١٢٦٧ .
Estoire d'Eracles, II, pp. 457 - 458.
Annales de Terre Sainte, p. 454.

(٢) انظر : D'Ohsson, Histoire des Mongols, III, pp. 539 - 542.
Howorth, op. cit. III, pp. 278 - 280.
Bar - Hebraeus, p. 505.
يشير ابن العبري الى ما اشتهرت به ماريا من صفات .

القيام بما هو أكثر من ذلك ، أنه لم ينهض في السنة التالية (١٢٦٨) لإنقاذ انطاكية من المماليك . ولم يلبث أباقا ان واجه حرباً جديدة مع أبناء عمومته من بيت جغتاي ، الذين أغاروا على أملاكه الشرقية في سنة ١٢٧٠ ، ولم يرتدوا إلا بعد معركة عنيفة دارت قرب هراة . ووجه أباقا كل اهتمامه في السنتين التاليتين لاستئناف المفاوضات مع عمه وسيده الخان الكبير ، قبيلاي في الصين [١] . على ان أباقا كتب في سنة ١٢٧٠ الى الملك لويس ، يتعاهد بأن يبذل مساعدة عسكرية متى ظهرت الحملة الصليبية في فلسطين [١] . غير ان الملك لويس توجه الى تونس حيث لم يستطع المغول ان يساعدوه . على ان المساعدة العملية الوحيدة التي استطاع الايلخان ان يقدمها للمسيحيين ، هي انه بذل الى هيثوم ملك أرمينيا واحداً من أشهر الامراء المماليك ، وهو شمس الدين سنقر الأشقر (الباشق الاحمر) ، الذي سبق ان أسره المغول في حلب . ووافق بيبرس ، مقابل إطلاق سراحه ، على ان يفك أسر ليو ولي عهد هيثوم ، وأن يعقد هدنة مع هيثوم ، بشرط ان يتنازل الأرمن له عن حصون جبال الأمانوس ، وهي دربساك ، وبهسنا ، ورعبان . وتم إبرام المعاهدة في اغسطس سنة ١٢٦٨ . وفي اوائل السنة التالية (١٢٦٩) ، عاد ليو الى ارمينية ، بعد ان أذن له السلطان بأن يحج الى بيت المقدس . وبادر والده هيثوم بالتنازل له عن

---

(١) انظر : D'Ohsson, op. cit. pp. 442 ff.

(٢) انظر : Ibid, pp. 458 - 459.

العرش ، ثم لجأ الى احد الأديرة ، حيث مات في السنة التالية . وأقرّ أباقا تنصيب ليو ملكاً ، فتوجه اليه ليو ، وبذل له يمين الولاء [1] .

مصرع فيليب مونتفورت سنة ١٢٧٠ :

ظل بيبرس ملتزماً الهدوء والسكون طوال صيف سنة ١٢٧٠ حتى لا يضطر الى الدفاع عن مصر ازاء ملك فرنسا . غير انــه كما يضعف الفرنج دبّر اغتيال فيليب مونتفورت الذي يعتبر من اعــلام باروناتهم . أعرب الحشبشية بالشام عن امتنانهم للسلطان لأن مــا قام به من الفتوح خلصتهم مما التزموا به من دفع الجزية للاسبتارية ، كما اشتد انكارهم لما دار من مفاوضات بين الفرنج والمغول ، الذين دمروا معاقلهم في فارس . وبناء على طلب بيبرس ارسلوا احد الفداوية الى صور . وفي صور زعم انه نصراني ، فدلف يوم الاحد ، ١٧ اغسطس ، سنة ١٢٧٠ الى الكنيسة ، حيث كان يؤدي الصلاة بها فيليب وابنه يوحنا ، فانقضّ عليهما فجأة . وتعرّض فيليب لجراح قاتلة قبل ان تصل اليه النجدة ، على أنه بقي على قيد الحياة حتى علم بأنه تمّ القاء القبض على القاتل ، وأن ابنه نجا من القتل . والواقع ان وفــاة فيليب تعتبر ضربة خطيرة للشرق الفرنجي ،

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, p. 191.
Estoire d'Eracles, II, pp. 457, 465.
Bar - Hebraeus, pp. 446 - 449.
Vahram, Rhymed Chronicle, pp. 523 - 524.
Hayton, Flor des Estoires, p. 178.
Cahen, op. cit. p. 718.

فعلى الرغم من ان يوحنا ظل وفياً لصهره الملك هيو ، فانـه افتقر الى ما اشتهر به أبوه من التجربة والهيبة (١) .

على ان وفاة الملك لويس أمـام تونس اراحت السلطان ، الذي كان مستعداً للمضي الى مساعدة امير تونس . وإذ ادرك انه ليس ثمة من الأمور ما يدعوه الى الخوف من شارل كونت أنجو ، سار مرة اخرى في سنة ١٢٧١ لمهاجمة بلاد الفرنج . فظهر في فبراير سنة ١٢٧١ امام صافيتا ، القلعة البيضاء التي يتملكها الداوية . وبعـد ان استماتت الحامية الصغيرة في الدفاع ، أشار عليها مقدم الداوية بالتسليم . ومن بقي على قيد الحياة من رجالهـا سُمح لهم بالالتجاء الى انطرطوس . ثم زحف السلطان على حصن الاسبتارية الضخم ، وهو حصن الاكراد او قلعة الحصن ، التي بلغها في ٣ مارس . وفي اليوم التالي لحقت به كتائب من الحشيشية ، والمنصور امير حمـاه بجيشه . على ان الامطار الغزيرة التي ظلت تهطل بضعة ايام منعته من جلب ادوات الحصار . ولكن المسلمين شقوا لهم طريقاً الى برج باب السور الخارجي ، بعد قصف شديد لم يستمر طويلاً . ثم شقوا طريقهم بعد اسبوعين الى السور الداخلي ، فقتلوا كل من صادفهم من الفرسان به ، وأسروا العساكر الوطنيين . وظل كثير من الجند المدافعين يقاومون عشرة ايام اخرى ، في البرج الكبير الذي يقـع في جنوب السور . ثم اعلنوا التسليم في ٨ ابريل ، فتقرر ارسالهم بأمـان من السلطان الى طرابلس .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 194 - 198.
Annales de Terre Sainte, p. 454.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 80 - 83.

والواقع ان استيلاء بيبرس على حصن الاكراد الذي تحدى الغزاة ومنهم صلاح الدين ، جعل له السيطرة على الطرق المؤدية الى طرابلس . وأتبع بيبرس ذلك ، بالاستيلاء على عكار ، قلعة الاسبتارية جنوبي البقيعة ، التي سقطت في اول مايو ، بعد حصار استمر اسبوعين [١] .

كان بوهمند امير انطاكية في طرابلس ، وإذ خشى ان تلقي طرابلس مصير عاصمته الاخرى ، انطاكية ، ارسل الى بيبرس يلتمس عقد هدنة . ولكن بيبرس سخر منه لافتقاره الى الشجاعة ، وطلب اليه ان يؤدي له كل نفقات حملة المماليك الأخيرة . على انه بقي لدى بوهمند من الشجاعة ما يكفي لرفض هذه الشروط المهينة . وفي تلك الاثناء لم يحرز بيبرس شيئاً من النجاح فيما شنه من هجوم على معقل مرقية الصغير ، الذي جرى تشييده تجاه الساحل بين بانياس وانطرطوس . وكان بارثولوميو سيد هذا المعقل قد توجه الى بلاط المغول يلتمس المساعدة . على ان فشل بيبرس في هجومه على مرقيه اثار فيه من الغضب ما حمله على ان يحرض الحشيشية على اغتيال بارثولوميو ، وهو في طريقه الى بلاط المغول [٢] .

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, pp. 84 - 85.
Al - Aini, pp. 237 - 239.
Abu'l Feda, p. 154.
Gestes des Chiprois, p. 199.
Estoire d'Eracles, II, p. 460.

(٢) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, pp. 86, 200.
Annales de Terre Sainte, p. 455.
Röhricht, « Derniers Temps », in Archives de l'Orient Latin, II, pp. 400 - 403.

وحدث فجأة في نهاية مايو ، ان عرض بيبرس على بوهمند عقد هدنة لمدة عشر سنوات ، لا تتضمن من الشروط سوى احتفاظه بما استولى عليه حديثاً من بلاد . ولما قبل بوهمند عقد الهدنة ، توجه عائداً الى مصر ، ولم يتوقف في سيره إلا لمحاضرة حصن مونتفورت الذي تملكه الفرسان التيوتون ، فاستسلم في ١٢ يونيه ، بعد حصار استمر اسبوعاً واحداً (١) لم يبق بأيدي الفرنج حصون في داخل البلاد . وحوالي ذلك الوقت وجه بيبرس اسطولاً مؤلفاً من سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص ، بعد ان سمع ان الملك هيو غادر قبرص الى عكا . وظهر اسطوله فجأة تجاه ليماسول ، غير انه نظراً لافتقار الملاحين الى المهارة البحرية ، تحطمت احدى عشرة سفينة ، ووقع بحارتها اسرى في ايدي القبارصة (٢) .

قدوم الامير ادوارد ولي عهد انجلترا سنة ١٢٧١ :

وما اظهره بيبرس نحو بوهمند من الاتزان والتعقل ، يرجع الى وصول حملة صليبية جديدة . ذلك ان هنري الثالث ملك انجلترا وعد منذ زمن طويل بالاشتراك في حملة صليبية ، وإذ اضحى رجلاً كهلاً ، اضعفته الحروب

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 199 - 200.
Estoire d'Eracles, loc. cit.

(٢) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, p. 88.
Abu'l Feda, p. 154.
Al - Aini, pp. 229 - 240.
Gestes des Chiprois, p. 199.
Estoire d'Eracles, loc. cit.
Annales de Terre Sainte, loc. cit.

الاهلية ، شجع ابنه وولى عهده ادوارد ان يرتحل عوضاً عنه الى الشرق. كان ادوارد في اوائل الثلاثيات من عمره ، اشتهر بالكفاية والنشاط وشدة التحمل ، ظهرت مواهبه السياسية فعلاً في معالجة المتمردين على والده . عزم على القيام بحملته الصليبية ، بعد ان سمع بسقوط انطاكية ، غير انه حرص عند اعداد الحملة على ان يوليها اهتماماً خاصاً ، وأن يجعل لها طرقاً تسير بمقتضاها . على انه حدث لسوء الحظ ، ان اخذ نبلاء انجلترا الذين سبق ان وافقوا على ان يرافقوا ادوارد ، يعتذرون الواحد بعد الآخر عن التوجه معه في الحملة ، وغادر الامير انجلترا في صيف سنة ١٢٧١ ، ولم يصحبه إلا نحو الف رجل ، فضلاً عن زوجته اليانور قشتالة . ثم تبعه بإمداد ، بعد بضعة شهور ، اخوه ادموند دوق لانكستر ، الذي سبق ترشيحه ملكاً على صقلية . وصحب ادموند ، قوة صغيرة من البريتونيين بقيادة كونت بريتاني ، وسرية من عساكر الاراضي المنخفضة بقيادة تيدالو فيسكونتي ، رئيس اساقفة لييج . كان ادوارد ينوي اللحاق بالملك لويس في تونس ، والإقلاع معاً الى الارض المقدسة ، غير انه لما وصل الى افريقية ، تبين له ان الملك لويس قد مات ، وأن العساكر الفرنسيين يوشكون على الرحيل عائدين الى فرنسا . أمضى ادوارد فصل الشتاء في صقلية في صحبة الملك شارل ، الذي كانت زوجته الاولى خالة لادوارد ، ثم ابحر ادوارد في الربيع التالي الى جزيرة قبرص ، ومنها الى عكا ، التي هبط اليها في ٩ مايو سنة ١٢٧١ ، ولم يلبث ان لحق به بعدئذ الملك هيو ، والامير بوهمند [١] .

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 199 - 200.
Estoire d'Eracles, pp. 460 - 461.
Powicke, King Henry III and the Lord Edward, II, pp. 597 ff.

ارتاع ادوارد لوضع الأمور في الشرق الفرنجي . ومع انه ادرك ان جيشه صغير ، فإنه كان يأمل في ان يوحد المسيحيين في الشرق في قوة ضخمة ، ثم يفيد من مساعدة المغول في القيام بهجوم شديد على بيبرس . على ان اول صدمة صادفها هي ان البنادقة مارسوا تجارة نشطة مع السلطان ، فأمدوه بما احتاجه لأسلحته من خشب وحديد ، بينما بذل الجنويون كل ما لديهم من جهد لأن يشقوا لهم طريقاً لهذه التجارة المثمرة ، فسيطروا فعلاً على تجارة الرقيق بمصر . ولما وجه ادوارد اللوم الى التجار لما يتعرض له مستقبل الشرق المسيحي من خطر بسبب تصرفهم ، أطلعوه على الشهادات التي حصلوا عليها من المحكمة العليا في عكا عن هذا الموضوع . فلم يكن بوسعه ان يمنعهم من ذلك[1] . يضاف الى ذلك انه كان يأمل في ان جميع فرسان قبرص سوف يتبعون ملكهم الى الساحل الفرنجي . ومع ان بعض المقطعين قدم الى عكا ، فإنهم أصروا على انهم ليسوا إلا متطوعين ، ولما طلب اليهم الملك هيو البقاء في سوريا طالما مكث بها ، أصر المتحدث باسمهم ، جيمس ابلين ، وهو ابن عم زوجة الملك ، على انهم ليسوا مرغمين على الخدمة إلا في حالة الدفاع عن جزيرة قبرص . وأضاف في غطرسة ان ليس للملك ان يعتبر من قبيل السابقة ، ما حدث من مضي نبلاء قبرص للقتال على الساحل السوري ، لأنهم لم يفعلوا ذلك عادة إلا بناء على امر الابلين لا الملك . على انه لوّح الى انه لو ان الملك

---

(١) انظر :
Dandolo, p. 380.
Röhricht, « Derniers Temps », p. 622.
Powicke, op. cit. II, pp. 604 - 605.

هيو كان أكثر كياسة واباقة في طلبه ، فقد يتحقق هـذا الطلب . وظل الجدال والنقاش مستمراً الى سنة ١٢٧٣ ، حين وافق القبارصة ، بمـا أظهروه من روح نادرة للوفاق ، على ان يقضوا اربعة شهور على الساحل السوري ، اذا حضر الملك او ولي عهده مع الجيش . على ان ما حدث من اتفاق إنما جاء بعد فوات الوقت لتحقيق غرض ادوارد (١) .

ولم يكن الامير الانجليزي بأكثر توفيقاً في علاقته مع المغول . فلم يكد يبلغ عكا ، حتى أنفذ سفارة الى الايلخان ، تألفت من ثلاثة رجال انجليز ، هم : ريجنالد رسل ، جودفري ويليس ، ويوحنا باركر . وافق أباقا الذي كانت جيوشه الأساسية تقاتل في تركستان على ان يرسل كل ما في وسعه من مساعدة . وفي الوقت ذاته قنع ادوارد بما شنه عبر الحدود من بضع غارات صغيرة . وفي منتصف اكتوبر سنة ١٢٧١ أوفى أباقا بوعده ، بأن سحب من حامياته في بلاد الأناضول عشرة آلاف فارس . فانسابوا الى سوريا عن طريق عين تاب ، وأنزلوا الهزيمة بعساكر التركمان الذين كانوا يدافعون عن حلب . وفرّت الحامية المملوكية بحلب أمامهم الى حمـاه . وظل المغول يواصلون السير ، فتجاوزوا حلب الى معرة النعمان وأفامية . وساد الذعر والخوف بين السكان المسلمين . ولا يصح القول بأن بيبرس الذي كان وقتذاك بدمشق لم يتلق التحذير في الوقت المناسب . إذ كان

---

(١) انظر :

Assises, *I*, pp. 347 - 626.
II, pp. 427 - 434.
Estoire d'Eracles, *II*, pp. 462 - 464.
Hill, History of Cyprus, *II*, pp. 168 - 170.

معه جيش كثيف ، وطلب الأمداد من مصر . ولما شرع في التحرك صوب الشمال ، في ١٢ نوفمبر سنة ١٢٧١ ، انصرف المغول راجعين . إذ لم يكونوا من القوة ما يكفي لمواجهة كل الجيش المملوكي ، كما ان أتباعهم من الترك في بلاد الاناضول جنحوا الى التمرد فانسحبوا الى وراء نهر الفرات بعد ان امتلأت أيديهم بالغنائم (١) .

وبينما كان بيبرس منصرفاً الى قتـال المغول ، قاد ادوارد الفرنج عبر جبال الكرمل وأغاروا على سهل شارون . على ان ما كان عنده من عساكر بلغوا من القلة ما لا يكفي للقيام بمحاولة لاقتحام حصن مملوكي صغير ، قاقون ، يحرس الطريق عبر التلال . فأضحت الحاجة ماسة لغارة مغولية بالغة القوة ، ولحملة صليبية ضخمة ، لاسترداد ما فقده الفرنج من بلاد (٢) .

المدنة بين ادوارد وبيبرس سنة ١٢٧٢ :

وحينما حلّ ربيع سنة ١٢٧٢ ، أدرك الامير ادوارد انه أضاع وقته هباء . فكل ما يستطيع ان يؤديه ، طالما لم تتوافر له قوة ضاربة كبيرة ،

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, *II*, p. 461.
Abu'l Feda, p. 154.
D'Ohsson, op. cit. *III*, pp. 459 - 460.
Powicke, op. cit. *II*, pp. 601 - 602.

(٢) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 200 - 201.
Estoire d'Eracles, *II*, p. 461.

ولم يكن له حلفاء كثيرون ، هو ان يرتب عقد هدنة تكفل البقاء للشرق الفرنجي في الوقت الراهن . وكان بيبرس من ناحيته مستعداً لعقد هدنة . إذ ان ما تبقى من مملكة الفرنج ، وما بلغته من أحوال مثيرة للأسى أضحى تحت رحمة بيبرس ، طالما لم يعترضه مشاكل خارجية . إذ كان اول واجب لا بدّ لجيشه ان يؤديه ، هو درء خطر المغول ، الذي يتحتم وقف تقدمهم بالطرق الدبلوماسية في بلاد الأناضول والاستبس . فإذا شعر بيبرس بالاطمئنان من ناحية تلك الجبهة ، أضحى من اليسير ان يبذل الجهد اللازم لإخضاع آخر ما تبقى في أيدي الفرنج من حصون . وفي نفس الوقت لا بد ان يمنع كل تدخل من الغرب ، ولتحقيق هذا الغرض ، تحتم عليه ان يحافظ على علاقاته الطيبة مع شارل كونت أنجو ، وهو الامير الوحيد الذي يستطيع ان يبذل لعكا مساعدة بالغة الأثر . غير ان شارل جعل نصب عينيه الاستيلاء على القسطنطينية ، ولم يكن لسوريا عنده وقتذاك سوى أهمية ثانوية . لم يكن لديه إلا أفكار غامضة عن إضافة الشرق الفرنجي الى امبراطوريته . ولذا كان يود المحافظة على بقاء الشرق الفرنجي ، على ألا يفعل ما من شأنه ان يزيد في سلطة الملك هيو ، نظراً لأنه كان يأمل بأن يحل مكانه في يوم من الايام . فأعرب عن رغبته في التوسط بين بيبرس وادوارد . وفي ٢٢ مايو سنة ١٢٧٢ ، تمّ إبرام الصلح في قيسارية بين السلطان بيبرس وحكومة عكا . كفل الصلح لمملكة بيت المقدس بعكا ، لمدة عشر سنوات ، وعشرة شهور ، الاحتفاظ بممتلكاتها الحالية ، التي تألفت اساساً من السهل الساحلي الضيق الممتد من عكا الى صيدا ، وأن يكون لها الحق في استخدام طريق الحجاج الى الناصرة ، دون ان

تلقى معارضة . والمعروف ان الهدنة التي انعقدت سنة ١٢٧١ ، كفلت لكونتية طرابلس الامان (١) .

وإذ أضحى معروفاً ان الامير ادوارد يود القدوم مرة اخرى الى الشرق على رأس حملة صليبية كبيرة ، قرر بيبرس التخلص منه ، على الرغم من عقد الهدنة . ففي ١٦ يونيه سنة ١٢٧٢ دلف الى حجرة الامير ، احد الحشيشية الذي تنكر في هيئة مسيحي وطني ، وطعنه بخنجر مسموم . ومع ان الجراح لم تكن قاتلة ، فإن ادوارد ظل بضعة شهور يعاني هذه العلة الخطيرة . وبادر السلطان بالتملص من هذا الحادث بأن بعث الى الامير بالتهنئة على نجاته . ولم يكد ادوارد يتماثل للشفاء ، حتى تجهز للاقلاع الى بلاده ، وقد سبقه في الرحيل معظم رفاقه ، وكان ابوه قد اقتربت منيته . وإذ ساءت صحة ادوارد ، ولم يكن ثمة من الأعمال الاخرى ما يستطيع ان يؤديه ، أبحر من عكا ، في ٢٢ سبتمبر سنة ١٢٧٢ (٢) ، وعاد الى انجلترا فألفى نفسه ملكاً عليها .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 461 - 462.
Annales de Terre Sainte, p. 455.
Makrizi, Sultans, I, II, p. 102.
Al - Aini, p. 247.
Delaville le Roulx, Hospitalliers en Terre Sainte, p. 225.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 201.
Estoire d'Eracles, II, p. 462.
Sannto, p. 225.
Powicke, op. cit. p. 603.

يعتبر بطليموس لوكا اول من اورد الاسطورة التي تشير الى ان اليانور زوجة ادوارد امتصت السم من الجرح الذي أصابه .

البابا جريجوري العاشر يتلقى التقارير عن الحروب الصليبية ١٢٧٢ - ١٢٧٤ :

المعروف ان رئيس اساقفة لييج الذي صحب الامير ادوارد الى فلسطين، ارتحل في الشتاء السابق ، بعد ان بلغته انباء غير متوقعة بأنه جرى انتخابه بابا ، باسم جريجوري العاشر . فلما اضحى بابا لم يفقد مطلقاً اهتمامه بفلسطين ، إذ جعل واجبه الاساسي الاهتمام بما يتخذ من الوسائل لإحياء الروح الصليبية . إذ أن ما بعث به من دعوات للرجال لاتخاذ الصليب والقتال في الشرق ، انتشرت في انحاء اوربا حتى بلغت فنلنده وأيسلنده . والراجح انها وصلت ايضاً الى جرينلاند وساحل اميركا الشمالية [١] . غير انها لم تلق استجابة . وفي تلك الاثناء عكف البابا جريجوري العاشر على ان يجمع من التقارير ما يفسر عداء الرأي العام . اتسمت هذه التقارير بالكياسة واللباقة ، فلم يتعرض تقرير منها للمشكلة الجوهرية ، وهي أنه لم يعد للحرب الصليبية ذاتها قيمة . وما سبق بذله من الوعود بالمكافآت الروحانية لأولئك الذين يقاتلون اليونانيين والبيجنسيين والهوهنشتاوفن ، جعل الحرب المقدسة مجرد اداة للسياسة البابوية الضيقة المعتدية ، بل ان انصار البابوية المخلصين لم يروا ما يدعو للقيام برحلة شاقة الى الشرق ، بينما تهيأت الفرص الكثيرة لنيل كسب روحي ، بالقيام بحملات تقل مشقة وتكاليف .

ومع ان التقارير التي ارسلت الى البابا التزمت الحكمة والتعقل في نقد السياسة البابوية ، فانها كانت من الصراحة ما يكفي لإظهار عيوب

---

(١) انظر : Riant, Les Scandinaves en Terre Sainte, pp. 361 - 364.

الكنيسة . ومن هذه التقارير اربعة تستحق الاهتمام . فالتقرير الاول ، وعنوانه : « Collectio de Scandalis Ecclesiae » . والراجح أن الذي كتبه راهب فرنسسكاني ، اسمه جيلبرت تورناي . وعلى الرغم من إشارته الى ما لحق الحروب الصليبية من ضرر بسبب المنازعات بين الملوك والنبلاء ، فانه جعل اغراضه الاساسية فساد رجال الدين ، وسوء استخدام صكوك الغفران . وبينما كان كبار رجال الكنيسة ينفقون اموالهم في اقتناء الخيول الفائقة والقرود الأليفة ، تولى وكلاؤهم جبـاية الأموال ، للاستعاضة عن الوعود بالاشتراك في الحرب الصليبية . وما من احد من رجال الدين يود ان يسهم في تأدية الضرائب اللازمة للحملات الصليبية ، على الرغم من ان القديس لويس رفض اعفاءهم فأثار بذلك غضبهم . وفي تلك الاثناء تقرر فرض الضرائب على سائر الناس المرة بعد المرة من اجل حملات صليبية لم تحدث مطلقاً (١) .

أمـا التقرير الذي ارسله برونو ، اسقف اولموتز فاتخذ اتجاهاً مختلفاً . فمع ان برونو تحـدث ايضاً عما يجري في الكنيسة من فضائح ، فإنه كان رجلاً سياسياً بارعاً . إذ قال انه ينبغي ان يسود السلام في اوربا ، وأن يجري اصلاح شامل . على ان هذا لا يحققه إلا امبراطور قوي . وألمع الى ان سيده ، اوتوكار ملك بوهيميا يعتبر المرشح الصالح لهذه الوظيفة . وأقرّ ان الحروب الصليبية في الشرق لم يعد لهـا اهميتها ، وأصبحت لا تساير

---

(١) هذا التقرير (Collectio) نشره شترويك في :
Archivium Franciscanum Historicum, vol. XXIV.
انظر : Throop, op. cit. pp. 69 - 104.

روح العصر . فينبغي توجيه الحملات الصليبية لقتال الوثنيين النازلين على الأطراف الشرقية للأمبراطورية . إذ ان الفرسان الرهبان من التيوتون اساءوا استخدام هذا العمل ، بما اشتهروا به من النهم ، والنزوع الى القوة والسلطان . فلو ان هذا العمل وجهه امير كفؤ على نحو سليم ، لحقق مزايا مالية ودينية (١) .

على ان وليم الطرابلسي ، وهو راهب دومنيكاني عاش في عكا ، رفع الى البابا مذكرة ، يغلب عليها صفة الحياد والبناء . ومع أن آماله تضاءلت فيما توجهه اوربا من حرب مقدسة في الشرق ، فإنه اشتد تأثراً بالنبوءات التي تشير الى ان نهاية الاسلام اضحت وشيكة الوقوع ، واعتقد ان المغول سوف يكونون المدمرين له . لقد حان الوقت للقيام بنشاط تبشيري . وباعتباره عضواً في هيئة تبشيرية ، كان يؤمن بتأثير وقوة العظات . وكان اعتقاده يدعو الى ان البعثات التبشيرية ، لا السيف ، كفيلة بالظفر بالشرق . وسانده في رأيه المفكر الكبير روجر بيكون (٢) .

وجاء اوفى تقرير من راهب دومنيكاني آخر ، كان مقدماً لطائفة الدومنيكانيين ، واسمه همبرت (Humbert of Romans) ، وكتابه المعروف

---

(١) نشر هوفلر مذكرة برونو في :
Proceedings of the Bavarian Academy of Science, 1846.
Throop, op. cit. pp. 105 - 114.

(٢) انظر : William of Tripoli, De Statu Saracenorum, passim.
Roger Bacon, Opus Majus, III, pp. 120 - 122.
يوجه روجر بيكون اللوم الى سكان الغرب لأنهم لم يحفلوا بتعلم اللغات الاجنبية ، للافادة منها في عملهم التبشيري .

باسم (Opus Tripartitum) ألفه لما توقعه من انعقاد مجمع عام لمناقشة الحرب الصليبية ، وانشقاق الكنيسة اليونانية ، وإصلاح الكنيسة . لم يؤمن همبرت باحتمال تحول المسلمين الى المسيحية ، على الرغم من ان تحول اليهود الى المسيحية جرى التنبؤ به ، وبأن يعتنق المسيحية الوثنيون في شرق اوربا . وأقرّ همبرت ضرورة توجيه حملة صليبية اخرى الى الشرق . فأشار الى ان الرذائل التي منعت الرجال من الابحار صوب الشرق ، لم تكن سوى مـا غلب عليهم من الكسل ، والشراهة ، والجبن . وأنكر التعلق بأرض الوطن ، الذي منعهم من الرحيل ، ونعى ما للإناث من تأثير في محاولة جعلهم يلزمون وطنهم . على ان اسوأ هذه الرذائل كلها انه لم يكن من بينهم إلا فئـة قليلة تؤمن بالمزايا الروحية الـتي وعد بهـا المحارب الصليبي . ومن المحقق ان هذا الارتياب الذي اورده همبرت في شيء من الأسى والحزن ، قد ذاع وانتشر . إذ ان القصائد الشعبية العديدة جعلته مرضوعها . كما ان كثيرين من شعراء التروبادور اعلنوا صراحة انه لم يعد لله اهمية في الحروب الصليبية . ومـا عرضه همبرت من مقترحات لمحاربة هذا الاعتقاد ، وأثارة الحماس الديني من جديد ، لم تكن مشجعة . فلا فائدة من المضي في التسليم بأن الهزائم والمهانات تعتبر في مصلحة النفس حسبما اعتقد القديس لويس . لقد مضى الوقت لمحاولة حمل الناس على الاعتقاد بأن الحرب الصليبية خير وسيلة للتكفير عن سيئاتهم . وقد يكون في اصلاح رجال الدين الذي تحمّس همبرت في الدفاع عنه ، بعض النفع . على ان نصيحة همبرت ، لم تكن بالغة القيمة ، باعتبارها رائداً عملياً لإصلاح العاطفة العامة . وترتب على ذلـك ان توصياته فيما يتعلق بإدارة الكنيسة تعتبر سابقة لأوانها . فلا بدّ من اعداد منهج للصلوات وأيام الصيام ، والطقوس ، وينبغي دراسة التاريخ ، ولا بـدّ من تأليف هيئة من المستشارين الذين

اشتهروا بالخبرة والتقوى ، وينبغي اعداد جيش دائم ثابت من المحاربين الصليبيين . وفيما يتعلق بالمسائل المالية ، أشار همبرت الى ان ما لجأت اليه البابوية من طرق لابتزاز الاموال لم تلق ابداً القبول من الناس . اعتقد همبرت انه لو باعت الكنيسة جانباً من ثروتها الضخمة ، ومن الحلى التي تكدّست عندها ، فسوف يؤدي ذلك الى نتيجة سليمة من الناحيتين النفسية والمادية - غير انه لا بدّ للأمراء والكنيسة ايضاً ان يقوموا بدورهم (١) .

مجمع ليون سنة ١٢٧٤ :

وإذ تسلح البابا جريجوري العاشر بكل هذه النصيحة التي لا تستطيع ان تكفل له الاطمئنان ، دعا الى عقد مجمع في ليون ، افتتح جلساته في مايو سنة ١٢٧٤ ، وشهده عدد كبير من الاساقفة من الشرق ، يتصدرهم بولص سيجني ، اسقف طرابلس ، كما حضره وليم بوجيه ، الذي تمّ اختياره منذ زمن قريب مقدماً للداوية . غير ان الدعوات الملحة التي جرى ارسالها الى ملوك العالم المسيحي ، لم تلق إلا الاغفال والإهمال . إذ رفض فيليب الثالث ملك فرنسا ان يشهد المجمع ، بل ان ادوارد الاول ملك انجلترا الذي ارتكن اليه البابا جريجوري بصفة خاصة ، اعتذر بمشاغله في بلاده . ولم يظهر في المجمع من الملوك إلا جيمس الاول ملك اراجون ، وهو شيخ متقدم في السن ، كثير اللجاجة ، لم تلق محاولته الاولى في حملته الصليبية الى الشرق سوى الفشل الذريع ، غير انه كان شديد الحرص على ان

---

(١) انظر : Throop, op. cit. p. 147, n. 1, pp. 147 - 213.

اورد ثروب خلاصة وافية لتقرير همبرت .

ينطلق في مغامرة جديدة ، ولكنه لم يلبث ان سئم ما دار من مناقشات في المجمع ، فهرع راجعاً الى احضان محظيته ، برنجاريا . أمـــا المندوبون القادمون من قبل الامبراطور البيزنطي ، ميخائيل ، فإنهم وعدوا بأن تخضع كنيسة القسطنطينية لروما ، نظراً لتخوف ميخائيل من اطماع شارل كونت انجو . غير ان ذلك لم يكن إلا وعداً لم يكن من المستطاع تحقيقه ، ولم يدر عنه شيئاً رعايا الامبراطور . ولم يحرز المجمع من النجاح سوى الاتحاد السابق لأوانه بين الكنيستين . أما اصلاح الكنيسة فـلم يتحقق من اجله شيء ذو قيمة . ومع ان كل شخص كان مستعداً لأن يتحدث عن الحملة الصليبية ، فلم يتقدم احد بعروض عن المساعدة العملية التي تعتبر ضرورية للقيام بها .

ومع ذلك فإن البابا جريجوري العاشر استمر في مثابرته ، بأن سعى لحمل امراء اوربا على تنفيذ ما اصدره المجمع من قرارات جليلة الشأن . ففي سنة ١٢٧٥ وعد فيليب الثالث بالاشتراك في الحملة الصليبية ، وسار على نهجه في اواخر تلـك السنة رودلف هابسبرج ، مقابل الحصول على وعد بأن يتوّجه البابا في روما امبراطوراً . وفي نفس الوقت حاول البابا جريجوري العاشر ان يهيء الارض المقدسة لقدوم الحملة الصليبية . فأمر بإصلاح الحصون وعمارتها ، وإرسال عـــدد كبير من العساكر المأجورة المعروفة بجودة تدريبها . ويبدو انـه استخلص من تجربته الشخصية في الشرق انه لا يأمل في شيء من حكومة الملك هيو . ولذا كان يعطف على دعاوى ماريا انطاكية ، وشجعها على ان تبيع حقوقها في العرش الى شارل كونت انجو ، الذي كان يود ان تزداد مصلحته فعلاً في الشرق الفرنجي ، لا فحسب من اجل رخائه ، بل ايضاً لصرفه عن أطماعه في

بيزنطة [1] . غير ان كل خطط البابا جريجوري العاشر لم تؤد الى نتيجة ، فحينما مات في ١٠ يناير سنة ١٢٧٦ ، لم تتوجه حملة صليبية الى الشرق ، وليس من الراجح ان ترحل اليه حملة من الحملات .

أما هيو ملك قبرص فاشتهر ببصيرة بالغة الواقعية . إذ انه لم ينتظر قدوم حملة صليبية ، ولم يكن راغباً فيها ، وكل ما أراده هو ان يحافظ على الهدنة مع بيبرس . ومع ذلك لم تفد الهدنة كثيراً في استقرار وضعه . ففي سنة ١٢٧٣ فقـــد سيطرته على بيروت أكبر إقطاع له بالساحل السوري . فالمعروف ان حيازة هذا الاقطاع انتقلت بعد وفاة يوحنا الثاني ابلين الى ابنته الكبرى ، ايزابيلا ، ملكة قبرص ، التي ظلت أرملة عذراء منذ سنة ١٢٦٧ ، غير انها لم تستمر عذراء زمناً طويلاً ، فما اشتهرت به من سوء السمعة ، لانعدام طهارتها وعفتها ، ولا سيما ما كان من اتصالها بيوليان سيد صيدا ، أدى الى إصدار مرسوم بابوي أصر على ان تتزوج من جديد . وفي سنة ١٢٧٢ وهبت نفسها مع اقطاعها الى سيد انجليزي اسمه (Hamo l'Estrange) أي هامو الاجنبي ، الذي كان فيما يبدو من رفاق الامير ادوارد . لم يثق هامو في الملك هيو ، فعند وفاته في السنة التالية جعل زوجته وإقطاعها في حماية بيبرس . ولما حاول هيو ان ينقل الارملة الى قبرص ، ليزوجها من رجل يختاره لها ، بادر السلطان بيبرس الى الرجوع الى العهد الذي كتبه له هامو ، وطلب بيبرس إعادة ايزابيلا .

---

(١) انظر : Hefel - Leclerc, op. cit. VI, pp. 67 - 68, 153 ff.
Throop, op. cit. pp. 262 - 282.

ولم يلق الملك هيو تأييداً من المحكمة العليا ، وكان لزاماً عليه ان يعيد ازابيللا الى بيروت ، حيث استقر حرس من المماليك لحمايتها [١] . ولم يسترد الملك هيو سيطرته على الاقطاع إلا بعد مضي زمن طويل على وفاة بيبرس . وتزوجت ازابيللا بعدئذ مرتين قبل وفاتها حوالي سنة ١٢٨٢ ، فانتقلت بيروت الى يد اختها ايشيفا ، زوجة همفري سيد مونتفورت ، الذي كان صديقاً مخلصاً للملك [٢] .

الوصاية على كونتية طرابلس سنة ١٢٧٥ :

أمـا خيبة امل هيو الثانية التي لم يكن يتوقعها فارتبطت بكونتية طرابلس . إذ أن بوهمند السادس، آخر أمراء انطاكية ، توفي سنة ١٢٧٥، بعد ان خلف وراءه ابناً ، بوهمند ، يناهز الرابعة عشرة من عمره ، وابنة

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 462.
Ibn al - Furat in Reinaud, Chroniqueurs Arabes, p. 532.
Powicke, op. cit. p. 606, n. 1.
Hill, op. cit. p. 137, n. 2.
أشار بويك الى ان اسم زوجها كان هامو لا ادموند . ويقر هيل وجهة النظر التي تقضي بأنها كانت على اتصال بيوحنا كونت يافا . غير ان ذلك يثير مشاكل حول تحديد التاريخ ، اذ ان يوحنا كونت يافـا مات سنة ١٢٦٦ . والواضح ان الكونت (J) الذي كانت زوجته اختاً للملك ارميلية ، لا بد انه كان يوليان سيد صيدا ، لا يوحنا الذي كانت زوجته سنة ١٢٦٨ خالة الملك . يضاف الى ذلك ان يوحنا كان رجلاً بالغ الاحترام والتقدير عنـد الناس ، على حين ان يوليان كان سيء السمعة ، مبتذلاً في حياته .

(٢) انظر : Lignages, p. 462.
Ducange - Rey, Familles d'Outremer, pp. 235 - 236.

صغيرة ، اسمها لوسيا . فطالب الملك هيو بالوصاية على العرش ، باعتبـاره الوريث البالغ الرشد من الأسرة الحاكمة في انطاكية ، التـالي في الترتيب لهذين الطفلين . غير ان سبيلا الأرملة اميرة ارمينية بادرت الى تقلد الوصاية ، نظراً لأن تقاليد الأسرة تقضي لها بذلك . فلما وصل هيو الى طرابلس لاثبات دعواه ، اكتشف أن بوهمند السابع الصغير جرى ارساله الى بلاط خاله ليو الثالث ملك ارمينية ، وأن المدينة تولى ادارتهـا باسم سبيللا ، بارثولوميو أسقف انطرطوس ، الذي انتمى فـيما يبدو الى اسرة مانسل الكبيرة بأنطاكية ، فمـا من احد بطرابلس ساند هيو ، لأن الأسقف بارثولوميو ارتفع شأنه وقتذاك عند جميع الناس.كان عدواً لدوداً لأسقف طرابلس ، بولص سيجني ، خال بوهمند السادس ، ولجميع رجال روما الذين أحلهم هو ولوسيين في كونتية طرابلس . وبفضل تأييد النبلاء المحليين ، أمرت سبيللا وبارثولوميو باعدام جماعة من رجال رومـا ، ونفي جماعة اخرى من الكونتية . على ان من قبيل الحظ التعس ان الأسقف بولص ظفر بمساندة الداوية ، وسبق ان التقى بقدمهم في مجمع ليون . فلما قدم بوهمند السابع من ارمينية سنة ١٢٧٧ ليتولى مقاليد الحكومة ، واجه عداوة كريهة من الداوية [١] .

على ان مكانة هيو لم تحرز إلا نصراً ضئيلاً في اللاذقية بأقصى الشمال . إذ أن اللاذقية كانت كل ما تبقى من امارة انطاكية ، ولم يدخلها بيبرس في معاهداته مع طرابلس وأنطاكية ، إذ أن جيوشه كانت تحدق بها من

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 406 - 409, 481.
Gestes des Chiprois, p. 202.

كل جانب ، حين استنجد سكانها مباشرة بالملك هيو ، فاستطاع هيو ان يفاوض السلطان بيبرس في عقد هدنة ، فاستدعى بيبرس عساكره مقابل التعهد بدفع جزية سنوية قدرها عشرون الف دينار واطلاق سراح عشرين اسير من المسلمين [١] .

ولم تلبث مشاكل هيو ان امتدت الى عكا ذاتهـا . ذلك أن قومون عكا كان يمقت دائماً حكمه المباشر ، بينما ازدادت كراهية الداوية له ، إذ سبق لهم ان انكروا مصالحته مع بيت مونتفورت ، وعارضوا في اعتلائه العرش. اما الاسبتارية الذين كان يصح ان يركن الى نيتهم السليمة ، فقد تضاءلت اهميتهم بعد أن اضاعوا مركز قيادتهم في حصن الاكراد . فلم يبق لهم إلا حصن المرقب الضخم الواقع بأعلى التل الذي يطل على بلنيـــاس (بانياس) . وحدث فعلاً في سنة ١٢٦٨ ، ان كتب مقدم الاسبتارية هيو ريفيل ، أنه لم يعد في وسع الطائفة سوى ان تنفق على ثلثمائة فارس في الشرق الفرنجي ، بعد ان كان لديها في الايام السابقة عشرة آلاف فارس . على ان الداوية لا زالوا يتملكون مقر قيادتهم في انطرطوس ، فضلاً عن صيدا وقلعة عثليت الضخمة ، وزاد من قوتهم ما كان لهم من صلة مصرفية مع جميع عالم شرق البحر المتوسط . والمعروف ان توماس بيرارد الذي ظل مقدماً للداوية من سنة ١٢٥٦ حتى سنة ١٢٧٣ ، كان في ايامه الاولى مخلصاً للأوصياء على قبرص ، ومع انه اخذ يكره الملك هيو ، فانـه لم يتحداه صراحة . أما وليم بوجيه الذي خلفه في تقدمة الداوية ، فكان

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, p. 125.
Muhi ad - Din in Michaud, Bibliographie des Croisades, II, p. 685.

من طراز مختلف ، إذ كان يمت بصلة القرابة الى البيت الملكي في فرنسا ، اشتهر بالاعتزاز بنفسه ، والطموح ، والنشاط . كان يقيم في أبوليا ، في املاك ابن عمه شارل انجو ، حين تمّ انتخابه مقدماً للداوية . ثم قدم بعد سنتين الى الشرق وقد وطد العزم على ان يمضي في مساندة مشروعات شارل ، ومن الطبيعي ان يعارض منذ البداية الملك هيو .

الملك هيو يلجأ الى قبرص سنة ١٢٧٦ :

ابتاعت طائفة الداوية في اكتوبر سنة ١٢٧٦ ، قرية اسمها (La Fauconnerie) ، تقع على مسافة بضعة أميال الى الجنوب من عكا ، من سيدها توماس سانت بيرتين ، وحرص الداوية على ألا يحصلوا على موافقة الملك على هذه الصفقة . لم تلق شكاوى هيو سوى الاهمال . وإذ ضاق هيو ذرعاً بالطوائف الدينية العسكرية ، وقومون عكا ، وجاليات التجار ، عزم على ان يغادر مملكته التي أنكرت صنيعه . فحزم فجأة أمتعته ولجأ الى صور ، وقد عزم على ان يبحر منها الى قبرص . على انه غادر عكا دون ان يعين نائباً عنه لحكمها . وابتهج الداوية وحلفاؤهم المقربون ، البنادقة ، بينما جرع البطريرك توماس لينتينو والاسبتارية والفرسان التيوتون فضلاً عن قومون عكا ، والجنويين ، فأرسلوا الى صور مندوبين من قبلهم ، يتوسلون الى هيو ان يبادر على الاقل الى تعيين نائب عنه . غير ان الغضب استبد به اول الامر ، فلم يصغ اليهم ، والراجح انه بناء على توسل يوحنا مونتفورت ، رشح هيو آخر الامر باليان ابلين بن يوحنا سيد ارسوف ليكون نائباً عنه ، وعين قضاة لمحاكم المملكة وأبحر ليلاً بعدئذ مباشرة الى قبرص ،

دون ان يودعه احد . ومن قبرص كتب الى البابا يبرر عمله [١] .

واجه باليان عملاً شاقاً ، إذ نشبت الفتن في شوارع عكا بين التجار المسلمين من بيت لحم الذين يحميهم الداوية ، وبين التجار النساطرة القادمين من الموصل ، الذين اتخذوا من الاسبتارية اولياء لهم . واندلعت العداوات من جديد بين البنادقة والجنويين ، ولم يكن لحكومة ان تبقى إلا بمساعدة البطريرك والاسبتارية [٢] .

أتمت ماريا انطاكية بيع حقوقها في عرش بيت المقدس الى شارل انجو ، وذلك في سنة ١٢٧٧ . فبادر شارل على الفور الى اتخاذ لقب ملك بيت المقدس ، وأرسل روجر سان سفيرينو ، كونت مارسيكو ، في قوة مسلحة ليكون نائباً له عكا . وبفضل مساعدة الداوية والبنادقة استطاع روجر ان يهبط الى عكا ، حيث أبرز الأسانيد التي وقعها شارل ، وماريا ، والبابا يوحنا الحادي والعشرون . فاستبدت الحيرة بباليان ابلين نائب الملك هيو ، إذ لم تكن لديه تعليمات منه ، كما انـه علم ان الداوية والبنادقة استعدوا للوقوف بأسلحتهم الى جانب روجر ، بينما لم يعد كل من البطريرك والاسبتارية بالتدخل لصالحه . ولتجنب إراقة الدماء سلّم القلعـة الى

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 274 - 275.
Gestes des Chiprois, p. 206.

جعل الرواية في تاريخ متأخر .

Delaville le Roulx, op. cit. pp. 210 - 229.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.
Gestes des Chiprois, loc. cit.

الانجويين ، فرفع عليها روجر لواء شارل انجو ، ونادى به ملكاً على بيت المقدس وصقلية ، ثم امر بارونات المملكة بأن يبذلوا يمين الولاء له باعتباره نائباً عن الملك شارل انجو . وتردد البارونات ، لا حباً في الملك ، بل كراهية لإقرار انتقال العرش دون ان يصدر قرار من المحكمة العليا . وللحفاظ على بعض مظاهر الصفة الشرعية ، أنفذوا مندوبين عنهم الى قبرص ليطلبوا من الملك هيو ، ما اذا كان يحلهم من يمين الولاء التي سبق أن بذلوها له ، فرفض هيو ان يرد عليهم . وإذ أضحى مركز روجر وطيداً ، لجأ إلى التهديد بمصادرة ضياع كل من لم يبذل له يمين التبعية ، غير أنه أتاح الفرصة لمراجعة الملك هيو مرة اخرى . ولكن لم تؤد هـذه المحاولة الى نتيجة مثمرة ، وعندئذ خضع البارونات لروجر ، ولم يلبث بوهمند السابع بعدئذ ان اعترف بروجر نائباً شرعياً للملك . وعين روجر طائفة من الفرنسيين من بلاط شارل ، ليكونوا كبار موظفيه ، فأضحى اودو بواليشيان صنجيلاً ، وصار رتشرد نيوبلانز كندسطبلاً ، وأصبح جيمس فيدال مارشالاً [١] .

لقيت هذه التدابير هوى واستجابة عند بيبرس . إذ كان بوسعه ان يثق في مندوب شارل انجو ، بأنه لن يثير حرباً صليبية ، ولن يتآمر مع

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, pp. 478 - 479.
Gestes-des Chiprois, pp. 206 - 207.
Amadi, p. 214.
Sanudo, pp. 227 - 228.
John of Ypres in Martène and Durand, Thesaurus Anecdotorum, vol. III, col. 755.

المغول . وبفضل هذا الاحساس بالاطمئنان ، كان بيبرس مستعداً لأن يهيء للشرق الفرنجي البقاء بضع سنوات اخرى . وفي نفس الوقت يستطيع ان يتخذ خطة لمهاجمة الايلخان . وأدرك اباقا مـــا يتعرض له من الخطر ، فحرص على ان يقيم تحالفاً مع الغرب . ففي سنة ١٢٧٣ ارسل الى عكا خطاباً موجهاً الى ادوارد ملك انجلترا ، يسأله متى تجري حملته الصليبية التالية . حمل هذه الرسالة الى اوربا راهب دومنيكاني ، اسمه داود كان كاهناً لدى البطريرك توماس لينتينو . فأرسل ادوارد رداً ودياً ، غير انه اعرب عن اسفه بأنه لم يقرر هو والبابا متى تتوجه حملة صليبية اخرى الى الشرق . وفي السنة التالية ١٢٧٤ ، ظهر مبعوثون من المغول في مجمـــع ليون ، وتنصر اثنان منهم على يد كاردينال اوستيا ، الذي صار فيما بعد البابا انوسنت الخامس . وما تلقاه المبعوثون من البابا والمجلس البابوي ، من ردود كانت ودية ، على الرغم من غموضها . وقام الايلخان اباقا بمحـــاولة اخرى في خريف سنة ١٢٧٦ . إذ أن الاخوين الكرجيين ، يوحنا وجيمس فاسيلي ، هبطا في ايطاليا لزيارة البابا ، وقد تزودا بأوامر بالمضي الى بلاط كل من فرنسا وانجلترا . وحملا رسالة شخصية من اباقا الى ادوارد الاول ، اشار فيها الى اعتذاره بأن مساعدته لادوارد سنة ١٢٧١ لم تكن بالغة القوة . على انه لم يكن لكلا النشاطين الدبلوماسيين نتيجة . فعلى الرغم من صدق ادوارد في امله في التوجه بحملة صليبية ، فانه لم يكن هو او فيليب الثالث ملك فرنسا مستعداً حتى ذلك الحين للذهاب بحملة صليبية الى الشرق ، إذ ان المجلس البابوي خضع لتأثير معاكس من قِبل شارل انجو ، الذي كره المغول لأنهم اصدقاء اعدائه ، البيزنطيين والجنويين ، كما ان كل سياسته قامت على الوفاق الودي مع بيبرس . وكان البابوات يأملون ، متفائلين ، في ان يدخلوا المغول في حظيرة كنيستهم ، غير انهم

لم يدركوا ان الوعد بالمكافآت في السماء ليس اغراء كافياً للايلخان . بل ان دعاوى ليو الثالث ملك ارمينية ، الذي كان في الوقت ذاته من اتباع الايلخان المخلصين ، ويسير وفقاً لشعائر كنيسة روما ولم تستطع ان تستخلص مساعدة عملية من البابوية(١) .

بيبرس يغزو بلاد الاناضول سنة ١٢٧٧ :

اضحى في استطاعة بيبرس ان ينفذ مشروعاته دون ان يتعرض لتهديد التدخل من قِبل الغرب . ففي ربيع سنة ١٢٧٥ قاد بنفسه غارة على قليقية ، فنهب المدن الواقعة بالسهل ، غير انه لم يستطع التوغل حتى سيس . وبعد سنتين قرر غزو بلاد الاناضول . لم يكن السلطان السلجوقي كيخسرو الثالث وقتذاك إلا طفلاً . أما وزيره ، سليمان برواناه ، حامل اختام السلطان ، فكان صاحب السلطة المطلقة في البلاد ، غير انه عجز عن ضبط الإمارات التي اخذت في الظهور ، وأهمها إمارة القرمانيين . واحتفظ الايلخان بحماية مفككة على سلطنة السلاجقة ، قامت على تنفيذها الحامية المغولية القوية المرابطة بالبلاد . على ان هذه الحامية تعرضت في ١٨ ابريل سنة ١٢٧٧ لهزيمة ساحقة في البستان على ايدي المماليك . ولم تنقض خمسة ايام حتى دخل بيبرس قيصرية مازاكا (قيصرية الروم) ، فبادر سليمان برواناه وزير السلطان السلجوقي والأمير القرماني ، بتهنئة الظافر المنتصر ، بيبرس . فاستشاط أباقا غضباً ، فتولى بنفسه قيادة جيش

---

(١) انظر :

William of Nangis, pp. 540 - 564.
D'Ohsson, op. cit. III, pp. 543 - 549.
Powicke, op. cit. p. 602.
Howorth, op. cit. III, pp. 280 - 281.

مغولي ، في تعبئة حرب ، الى بلاد الاناضول . لم ينتظر بيبرس حتى يقدم الجيش المغولي ، بل انسحب الى سوريا . فعجل أباقا باسترداد سيطرته على سلطنة السلاجقة . وتقرر القاء القبض على الخائن سليمان برواناه واعدامه ، وترددت الشائعات بأنه قد جعل من لحمه شواء جرى تقديمه في المأدبة الرسمية التالية التي اقامها الابلخان [1] .

لم يعش بيبرس طويلاً بعد حملته في بلاد الاناضول . وترددت روايات مختلفة عن وفاته . فوفقاً لبعض المؤرخين ، مات بيبرس متأثراً بالجراح التي أصابته في حملته الاخيرة ، ويشير مؤرخون آخرون الى انه افرط في تناول شراب القمز ، وهو الشراب الذي يهواه الترك والمغول ، ويتخذ من لبن الفرس بعد تخميره . على ان الشائعة البالغة الذيوع والقوة ، هي انه اعدّ قميزاً مسموماً ليقدمه للقاهر بن الناصر داود الايوبي امير الكرك ، الذي لحق بجيشه ، ووجّه اليه إهانة شديدة ، وإذ لم يحفل بتنظيف الكأس ، شرب منها ، فمات في اول يوليه سنة ١٢٧٧ [2] .

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 165.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 144 - 145.
Bar - Hebraeus, pp. 456 - 459.
D'Ohsson, op. cit. pp. 486 - 489.
Howorth, op. cit. III, pp. 252 - 256.

(٢) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, p. 150.
Abu'l Feda, pp. 165 - 166.
Gestes des Chiprois, pp. 208 - 209.
Hayton, Flor des Estoires, p. 193.
Bar - Hebraeus, p. 458.

زال بوفاته اكبر عدو للعـالم المسيحي منذ صلاح الدين . فحينما تولى بيبرس السلطنة ، كانت ممتلكات الفرنج تمتـد على الساحل من غزة الى قليقية ، وما يتبعها من الحصون الداخلية التي تحميها من الشرق . على انه ألزم الفرنج في اثنـاء حكمه الذي يبلغ سبع عشرة سنة ، بالاقتصار على بضع مدن على امتداد الساحل ، امثـال : عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وانطرطوس ، فضلاً عن مدينـة اللاذقية المعزولة ، وقلعتي عثليت والمرقب . ولم يعش بيبرس ليشهد اختفاءها التـام ، غير انه جعل ذلك امراً لا مفر منه . والواقع انـه لم يتوافر له إلا قليل من الصفات التي جعلت صلاح الدين يظفر بالاحترام حـتى من خصومه . اشتهر بيبرس بالقسوة ، والخيانة ، والتجرد من الاخلاص والولاء ، والخشونة في طباعه ، وغلظ الحديث . ومع ان رعاياه لم يكنـّوا له شيئاً من المحبـة ، فانهم أعجبوا به ، لأنه كان جنـدياً لامعاً ، وسياسياً بارعاً ، وإدارياً حكيماً ، التزم السرعة والسرية فيما اتخـذه من قرارات ، وكان نافذ البصيرة في أغراضه وأهدافه . وعلى الرغم من انه جرى عليه الرق ، فانه كان راعياً للفنون والعمارة ، اسهم بقدر كبير في تجميل مدنه ، وفي تجديد عمـارة حصونه . وباعتباره انساناً كان شراً ونقمة ، غير انه يعتبر من اعظم حكام عصره .

الكتاب الرابع

نهاية الشرق الفرنجي

الفصل الاول

تجارة الشرق الفرنجي

الواقع ان ما كان بين المسيحية والاسلام من نزاع صريح طوال تاريخ الشرق الفرنجي طالما حجبه او أخرجه عن مجراه مسائل ذات أهمية اقتصادية . إذ قامت مستعمرات الفرنج في منطقة اشتهرت بخصوبتها ، ومن المحقق انها تحكمت في بعض الطرق التي تعتبر من أهم الطرق التجارية في العالم . على انه حدث في بعض الاحوال ، ان مطامع المستعمرين وحلفائهم المالية والتجارية تعارضت مع الحماس الديني ، وتهيأ من الفرص ما اقتضت حاجاتهم البشرية الأساسية إقامة صداقة مع جيرانهم المسلمين .

لم يكن من وراء توجيه الحملة الصليبية الاولى باعث تجاري . إذ ان المدن الايطالية البحرية ، التي يعتبر تجارها أبرع رجال عصرهم في كسب المال ، راعها اول الامر قيام حركة سوف تقوّض ما قام لهم من علاقات تجارية مع المسلمين في شرق البحر المتوسط . ولم يعرض الايطاليون مساعدتهم إلا حين تحقق للحملة الصليبية الاولى النجاح ، وقامت مستعمرات الفرنج في الشام ، لأنهم أدركوا ان بوسعهم ان يستخدموا المستعمرات الجديدة

لمصلحتهم . أما الحافز الاقتصادي المثير للصليبيين فلم يكن سوى شراهة صغار نبلاء فرنسا والاراضي المنخفضة لاقتناء الاراضي ، ورغبة الفلاحين بتلك البلاد في الفرار من مواطنهم القاسية الفقيرة ، ومن الفيضانات والمجاعات التي جرت في السنوات المتأخرة ، وفي الهجرة الى بلاد تعج بالثروة الاسطورية . لم تكن التفرقة عند كثير من السذج واضحة بين هذا العالم وعالم الآخرة . إذ خلطوا بين بيت المقدس على وجه الارض ، وبين تلك التي في السماء ، وتوقعوا ان يصادفوا مدينة يكسوها الذهب وتفيض باللبن والعسل ، غير ان آمالهم خدعتهم ، ولكنهم لم يتخلصوا من الخداع إلا في بطء . فما اشتهرت به مدن الشرق من الحضارة وارتفاع مستوى الحياة بها ، عرضت من مظاهر الثراء والوفرة ما نقل الحجاج اخبارها الى اصدقائهم بعد عودتهم الى بلادهم . غير انه كلما مضى الزمن ، لم تكن تقارير الحجاج مشجعة . فلم تكن بين الفلاحين في الغرب ، بعد الحملة الصليبية الثانية ، حركة جموع تلتمس مواطن جديدة في البلاد المقدسة ، ومع ان النبلاء المغامرين لا زالوا يمضون الى الشرق التماساً للثراء والمجد ، فقد كان من مشاكل إعداد وتنظيم الحملات الصليبية المتأخرة ، الافتقار الى الباعث الاقتصادي (١) .

---

(١) انظر : Heyd, Histoire de Commerce du Moyen Age.

يعتبر هايد المرجع الاساسي للتاريخ الاقتصادي للحروب الصليبية . وجرت حديثاً مناقشة حول هذا الموضوع ، في المقالة الهامة التي نشرها كاهن بعنوان : (ملاحظات عن تاريخ الحروب الصليبية والشرق اللاتيني) ، انظر :

Cahen : « Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III », in Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasburg, May - June 1951.

يورد كاهن اسباباً للتقليل من الاهمية التجارية للامارات الصليبية .

منتجات الشرق الفرنجي :

الواقع ان اقاليم الفرنج في الشرق اللاتيني لم تكن بطبيعتها غنية ، على ان بها مناطق خصيبة امثال سهول مرج عامر وشارون وأريحا ، والسهل الساحلي الضيق الذي يقع بين جبال لبنان والبحر ، ووادي البقيعة ، وسهل انطاكية . وتعتبر فلسطين بلاداً قاحلة ، غير مثمرة ، اذا قورنت بالاقليم الواقع وراء نهر الاردن ، وحوران ، والبقاع . وترجع قيمة الاقليم الواقع وراء نهر الاردن عند الفرنج ، الى ما ينبت به من قمح وفير ، وإلى تحكمه في الطريق الممتد من دمشق الى مصر [١] . فلولا مساعدة اقليم ما وراء نهر الاردن ، لما تيسر دائماً لمملكة بيت المقدس ان تطعم نفسها . فإذا خاب المحصول ، كان لا بدّ من استيراد القمح من سوريا [٢] . وفي العقود الأخيرة من حياة الشرق الفرنجي ، حينما لم ينزل الفرنج إلا المدن الواقعة على السهل الساحلي الضيق ، تحتم دائماً استيراد القمح .

على انه توافرت كميات المؤن الأخرى . إذ كثرت بالتلال قطعان الغنم والماعز والخنازير . وأحاط بجميع المدن الحدائق وبساتين الخضروات ، وغزرت احراش الزيتون . والراجح ان زيت الزيتون لم يصدر الى الغرب إلا في كميات قليلة ، على حين ان فواكه فلسطين النادرة ، امثال الليمون

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٣٠ — ٣١ . ومع ان موآب لم تضارع حوران في خصوبة الارض ، فان أراضيها أمدّت فلسطين بالمؤن زمن المجاعة ، منذ ايام نعمى وراعوت . (انظر العهد العتيق ، سفر راعوت) .

(٢) حدث ذلك سنة ١١٨٥ . انظر المجلد الثاني ص ٧١٩ — ٧٢٠ .

الحلو ، او الرمان ، كانت تشاهد في بعض الاحوال على موائد الاثرياء في ايطاليا [1] .

ومع ذلك لم يكن بوسع الشرق الفرنجي ان يصدر على نطاق واسع إلا منتجات قليلة ، لم تجلب للبلاد دخلاً يدعو للتقدير . ويعتبر السكر أهم هـذه المنتجات . فحينما وصل الصليبيون الى سوريا ، تبين لهم ان قصب السكر تكثر زراعته في مناطق ساحلية عديدة ، وفي وادي نهر الاردن فواصلوا زراعته ، وتعلموا من السكان الوطنيين عملية استخراج السكر من القصب . وكان بعكا معصرة ضخمة للسكر ، فضلاً عن مصانع السكر في معظم مدن الساحل . وتعتبر صور المركز الرئيسي لصناعة السكر . ومعظم ما كان يستهلك من السكر في اوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر جاء من الشرق الفرنجي [2] .

---

(١) كان رئيس اساقفة صور يملك ٢٠٤٠ شجرة زيتون في قرية واحدة . انظر:

Tafel - Thomas, Vorkunder, p. 299.

Cahen : « Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, II », in Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasburg (April 1951), p. 293.

Rey, Les Colonies Frangues, p. 245.

Heyd, op. cit. pp. 177 - 178.

Burchard of Mount Sion, Description of the Holy Land, (ed. P.P.T.S.) p. 16.

يشير بورخارد الى ان الحدائق التي تقع حول طرابلس تغل لأصحابها في السنة دخـلا قدره ثلثمائة الف بيزنته ذهبية .

(٢) انظر :

Heyd, op. cit. I, pp. 178 - 179, 680 - 686.

Cahen, op. cit. II, p. 293.

Rey, op. cit. pp. 248 - 249.

ويلي السكر في الأهمية في التصدير ، القماش على اختلاف انواعه . إذ توافرت تربية دودة القز حول بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس على حين ان الكتان كان ينمو في سهول فلسطين . كانت المنسوجات الحريرية تباع من اجل التصدير ، وجرت صناعة الحرير الشامي في عكا ، وبيروت ، واللاذقية ، بينما اشتهرت صور بالمنسوجات المعروفة باسم صندل وكان لكتان نابلس شهرة عالمية . ولا زال لصبغ الارجوان الذي عرفت به صور شهرته في ألوان الملابس . على ان الايطاليين استطاعوا ايضاً ان يشتروا المنسوجات الحريرية والكتانية من اسواق سوريا ومصر ، لوفرة الكميات بها ، وانخفاض اسعارها عادة [1] . وكذلك كان شأن الايطاليين فيما يتعلق بالزجاج . أما اليهود الذين اقاموا في سائر المدن ، ولا سيما في صور وانطاكية ، فإن ما صنعوه من الزجاج كان للتصدير ، غير انه كان لزاماً عليهم ان يواجهوا منافسة الزجاج المستورد من مصر . والراجح ان المدابغ لم تنتج من كميات الجلود إلا ما يسد الحاجات المحلية ، بينما كان يجري احياناً تصدير الأواني الفخارية [2] .

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. I, pp. 178 - 179.
II, pp. 612, 696, 699, 705.

كان كتان نابلس خشناً بالقياس الى كتان مصر . (Ibid, p. 632, n. 1)

Rey, op. cit. pp. 214 - 221.

Idrisi, Geography, (Arabic text, ed. Guildermeister), p. 11.

يشير الادريسي الى ان نوعاً خاصاً من القماش الابيض كان يصنع في صور .

(٢) انظر : Heyd, op. cit. I, p. 179.

Rey, op. cit. pp. 211 - 212, 224 - 225.

Assises, II, p. 179.

انظر ايضاً المجلد الثاني ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

وقام بمصر دائماً سوق للاخشاب ، فمنذ الازمنة الغابرة جرى إنشاء الاسطول المصري من الخشب الوارد من غابات جبال لبنان والتلال الواقعة جنوبي انطاكية . واحتاج المصريون ايضاً الى كميات كبيرة من الخشب لأغراض البناء والعمارة . ومما نشب من الحروب بين مصر والامارات الصليبية قلّ ان عطلت هذه التجارة لفترة طويلة [١] . وكان قرب بيروت مناجم للحديد ، غير ان انتاجها لم يكن فيما يبدو من الوفرة ما يكفي للتصدير [٢] .

وجرى ايضاً تصدير مقادير محدودة من الاعشاب الطبية والتوابل ، ويعتبر البلسان اكثرها اهمية . ونظراً لأنه كان يستخدم في اوربا اساساً في طقوس الكنيسة ، صار لما يرد منه من الارض المقدسة مكانة خاصة . ونبت بكميات وفيرة قرب بيت المقدس في القرن الثاني عشر ، على انه يكن من السهل ان يغزر هذا النبات ، نظراً لاحتياجه الى الري المستمر الذي يتكلف نفقات باهظة . فلما استعاد المسلمون بيت المقدس اواخر القرن الثاني عشر ، تضاءلت زراعته ، ولم تلبث ان تقرر اغفالها [٣].

تجارة العبور :

حصل امراء الشرق الفرنجي على موارد بالغة الضخامة من المتاجر التي

---

(١) انظر : Rey, op. cit. pp. 234 - 240.
أشار راي الى الغابات في الشرق الفرنجي .

(٢) انظر : Idrisi, p. 16.
اورد الادريسي ان حديد بيروت كان يرسل عن طريق سوريا .

(٣) انظر : Heyd, op. cit. II, pp. 577 - 578.

اجتازت البلاد . إذ اشتد الطلب في اوربا العصور الوسطى على المتاجر الشرقية ، كالتوابل ، والأصباغ ، وأخشاب العطور ، والحرير ، والخزف ، فضلاً عن المتاجر من البلاد الاسلامية المتاخمة للشرق الفرنجي . على انه لا بد ان تتوقف هذه التجارة على الاحوال السياسية في آسيا . فحينما بدأت الحروب الصليبية ، كان معظم التجارة الشرقية ينقل بطريق البحر، فتجتاز المحيط الهندي ، الى البحر الاحمر ، ثم الى مصر ، بعد ان اجتذبتها بعيداً عن طريقها القديم الى الخليج العربي ، والى بغداد ، ثروة المدن المصرية ، وما اقترن به الحكم الفاطمي من الطمأنينة والأمن . اما الموانىء السورية فلم تستخدم إلا في تصدير السلع التي يغلب عليها الصفة المحلية كالنيلة الواردة من العراق ، والمصنوعات المعدنية من دمشق ، وكل ما تحمله القوافل الى السفن من جنوب بلاد العرب من انواع السلع . وما تلى غزوات الترك في نهاية القرن الحادي عشر من حروب لم يشجع التجارة والصناعة في داخل سوريا . ولم يعد الرخاء في سوريا إلا بعد أن اقام الوحدة بين المسلمين في سوريا ومصر، نور الدين، ثم صلاح الدين . فازدادت المنتجات المحلية ، وأضحى من المستطاع ان تجتاز السلع الواردة من العراق وفارس في اطمئنان الطرق الى حلب او حمص او دمشق ، ومنها الى البحر المتوسط . واستخدم تجار حلب مينائي ، السويدية التي كانوا يبلغونها بعد اجتياز انطاكية ، واللاذقية ، بينما تعتبر انطرطوس وطرابلس مينائي حمص ، أما عكا فكانت ميناء دمشق [١] .

(١) انظر : Heyd, op. cit. I, pp. 168 - 177.

التجار الايطاليون :

ومع ان الايطاليين ساعدوا الصليبيين في فتح كل من هـــذه المدن ، فإن اهتمامهم الأساسي بالتجارة ظل مستمراً في مصر . فما صدر في البندقية في القرن الحادي عشر من قوانين تتعلق بالتجارة ، وردت فيها من الاشارة الى الاسكندرية ما يفوق عادة ذكر عكا ، ولا سيا بعد طرد البنادقة من القسطنطينية . وتدل سجلات سكريبا الجنوي رجل القانون العالمي ، بين سنتي ١١٥٦ ، ١١٦٤ على ان عملاءه الذين اهتموا بالاسكندرية كانوا من الكثرة ما قد يجعلهم ضعف عدد المهتمين بالشرق الفرنجي . والملحوظ ايضاً ان معظم المسافرين في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، المتوجهين من اوربا الى فلسطين كان لزاماً عليهم إما ان يستقلوا سفناً للبنادقة او الجنويين الى القسطنطينية ، ومنها يسيرون براً الى فلسطين ، وإما ان يتخذوا السفن اليونانية التي تلتزم الساحل في سيرها ، الى سوريا ، وإما ان يبحروا مباشرة من جنوب ايطاليا في سفن مملكة صقلية . ويبدو من ذلك انه لم تخرج من موانىء جنوب ايطاليا سفن كثيرة للقيام برحلات منتظمة الى سوريا حتى السنوات المتأخرة من القرن الثـاني عشر(١) . فلم تكن السلع التي اجتازت الموانىء السورية حتى وقتذاك بالغة الضخامة . وإذ لم تتجاوز رسوم الديوان (الجمرك) على هـــذه السلع العابرة عُشر قيمتها ، من اليسير ان ندرك السبب في انه قلّ ان عمرت خزانة الشرق الفرنجي بالمال ، وفي نزوع ملوك بيت المقدس في معظم الاحوال الى القيام

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. III, pp. 330 - 333.
اورد كاهن احصائيات عن السفن وسفرياتها .

بالغارات في الاوقات التي يتطلب فيها الشرف والدبلوماسية منهم ان يحافظوا على السلام [1] .

ومن اليسير ايضاً ان تفهم سر خجل المدن الايطالية البحرية في انها لم تبادر على الفور الى مساعدة الحملة الصليبية . فقد يكون من واجبها المسيحي ان تساعد الفرنج على المسلمين ، غير ان رخاءها بأكمله توقف على المحافظة على العلاقات الطيبة مع المسلمين . فكلما بذلت العون لحملة مسيحية خاطرت بضياع ما كان لها من حقوق تجارية في الاسكندرية . ومع ذلك لولا تعاون المدن الايطالية ، لما استولى الصليبيون على المدن الساحلية . وتدل حقيقة تعاونها على ان المشكلة ليست بسيطة بحال من الاحوال ، إذ بذل الجنويون المساعدة بينما لا زالت الحملة الصليبية الاولى في انطاكية . وأبحر اسطول للبيازنة قبل ان تبلغ الغرب انباء الاستيلاء على بيت المقدس . وما اظهره البيازنة فيما بعد من فتور نحو مملكة بيت المقدس ، كان اكثر ما يرجع الى شجار بلدوين الاول مع رئيس اساقفتهم دايمبرت ، لا الى اعتبارات تجارية . بل ان البنادقة الذين ارتبطوا بأوثق علاقة بمصر ، عرضوا المساعدة على جودفري كونت اللورين قبيل وفاته . ولم تكن هذه السياسة بالغة الخطورة كما يتراءى من اول نظرة ، فلا تعيش تجارة ما لم يفد منها كلا الجانبين . فلم تكن السلطات الاسلامية في مصر بأشد رغبة من الايطاليين ، في ان تنقطع العلاقات التجارية فترة طويلة من الزمن .

---

(١) انظر : Ibid.

ومــا قام به بلدوين الثالث من غارة في سنة ١١٥٧ لم يقصد منها سوى الحصول على المال . انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥٥٠ — ٥٥٢ .

ومع ان هذه السلطات قد يحملها الغضب على ان تغلق ميناء الاسكندرية في وجه السفن المسيحية ، فانها هي ايضاً تعاني من توقف التجارة . ولذا لم تجرِ تماماً مراعاة تنفيـــذ العقوبات . يضاف الى ذلك ان الايطاليين حققوا مزايا عديدة بمـا حازوه من نصيب في الموانىء التي تمّ فتحهـا حديثاً . فلم يشعر الايطاليون ابداً بالطمأنينة في المدن الاسلامية ، بل في القسطنطينية ذاتها . فما يقوم به الرعاع من فتنة يصح ان تدمر مؤسساتهم ، كما ان أهواء بعض الأمراء الأجانب قد تدفعهم الى التدخل في تجارتهم . ومع ان الحجم الفعلي للتجارة التي تجري في الموانىء السورية المسيحية ، تقلّ عن تلك التي تمـارس في القسطنطينية والاسكندرية ، فانهم اهتموا بألا تتوقف تجارتهم . على انـ مشاكلهم الوحيدة نبتت من التنافس بين الايطاليين انفسهم ، لا من العداء مع الحكام المحليين . ولموانىء الفرنج ميزة اخرى تزايدت أهميتها . ذلك ان أهم مشكلة واجهها الايطاليون ، هي ان يحصلوا من اوربا على سلع يفيدون من بيعها في شراء ما يودّون من السلع الشرقية . والمعروف ان أهم سلعـــة كان يصدرها البنادقة حتى السنوات الاولى من القرن العاشر ، هي الرقيق الذي يجلبونه من اوربا الوسطى ، غير ان تحوّل الصقالبة والمجريين الى المسيحية قضى على هـــذه التجارة . وحدث في الشطر الاخير من القرن الثالث عشر ان أحيا الجنويون تجارة الرقيق ، فحملوا من موانىء البحر الاسود الرقيق من الترك والتتـــار ، ليبيعوه الى المماليك في مصر ، غير انه في الفترة الواقعة بين القرنين العاشر والثالث عشر ، لم يرد إلا قدر ضئيل من الرقيق . وتعتبر المعادن والأخشاب أهم السلع التي يصدرها الغرب . ونظراً لأن هذه المواد كانت تستخدم في صناعة الاسلحة ، فمن الطبيعي ألا تقرّ السلطات الكنسية بيعها للمسلمين . على ان الايطاليين تعلموا رويداً رويداً أن الحركة الصليبية ، وبقاء الشرق

الفرنجي ، جذبا الى الشرق أعداداً كبيرة من العساكر ، والدبلوماسيين ، فضلاً عن الحجاج الذين يفوقونهم عدداً. فاذا تولى الايطاليون نقلهم ، فان ما يؤدونه لهم من المال ، في هيئة اجور ونفقات المعيشة على ظهر السفن ، هيأ لأرباب السفن من النقد ما يصح ان ينفقوه في الموانىء السورية على السلع المستوردة من الجهات القاصية الى الشرق . وأخيراً ، على الرغم مما اشتهر بـه التجار الايطاليون من العناد والصلابة ، فانه لا يصح مطلقاً اغفال نوازعهم الدينية برغم ضآلتها . فكم من الرجـال ، حتى في جنوة والبندقية ، آثروا ان يمارسوا تجارتهم في مرفأ مسيحي على ان يباشروها في مرفأ اسلامي . ومن الاعتبارات العملية مـا لجأت اليه الكنيسة من التشدد في إنكار التجارة مع المسلمين ، وإذ كانت الكنيسة بالغة القوة من الناحية السياسية في ايطاليا ، فان عداوتها تؤدي الى ارتباك شديد[١] .

وبلغت التجارة في الشرق الفرنجي ذروة نشاطها اثناء السنوات العشرة السابقة على استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس ، وأثنـاء العشراوات الاولى من القرن الثالث عشر . إذ اتحد العالم الاسلامي وساد به الرخاء ، واكتشف الايطاليون ميزات التجارة في الموانىء المسيحية . وفي تلك الاثناء تعلم النزلاء الفرنج كيف يعقدون الصداقات مع جيرانهم المسلمين . فالحاج المسلم ابن جبير ، الذي ارتحل سنة ١١٨٤ في قافلة تجار مسلمين من دمشق

(١) انظر : Ibid.

وكذا المجلد الثاني ص ٥٤٩ — ٥٥٥ .

الراجح ان كاهن لم يدرك إلا قليلاً ضآلة اهمية الشرق الفرنجي للايطاليين ، اذ ان الدليل التاريخي يوحي بأن ما اظهروه من الاستخفاف بمصير الشرق الفرنجي يقل عما اورده كاهن .

الى عكا ، شرح كيف أن هذه القوافل لم تكن طارئة ، بل كان حدوثها امراً مألوفاً . وأعرب عن تأثره بالتدابير الهينة التي تجري لجباية رسوم الديوان (١) . وتعتبر عكا أنشط موانىء الساحل في التجارة ، وكانت الميناء الطبيعي لدمشق ، فلم تستخدم فحسب لمنتجات مصانع دمشق ، وأراضي حوران الخصيبة ، بل افاد منها ايضاً ، التجار القادمون من اليمن ، الذين سلكوا طريق الحجاج على امتداد حافة ساحل بلاد العرب. كما انها حازت ايضاً الميناء الامين الوحيد في كل فلسطين . فالمسافرون الى الاماكن المقدسة يؤثرون النزول بها لا بيافا ، بمرساها المكشوف ، حيث وقعت حوادث كثيرة ، قبل ان تسقط عكا في ايدي الصليبيين . على ان العيب الوحيد في ميناء عكا ، هو أن الميناء الداخلي بلغ من الصغر انه لم يتسع للسفن الكبيرة في ذلك الوقت ، فكان لزاماً عليها إما أن ترسو خارج حاجز المياه ، فتتعرض للرياح الجنوبية الغربية ، وإما أن تمضي ازاء الساحل الى ميناء صور الذي يفوق ميناء عكا اتساعاً وأمناً (٢) . وتعتبر اللاذقية خير ميناء في شمال سوريا نظراً لأنه صالح لكل مناخ وطقس ، على الرغم من ان السويدية الواقعة على مصب نهر الأورنت كانت اكثر منالاً لأنطاكية وحلب وتستخدم للسفن الصغيرة (٣) .

---

(١) انظر : Ibn Jubayr, (ed. Wright), pp. 306 - 367.

(٢) انظر : Ibn Jubayr, pp. 307 - 308.

اشار ابن جبير الى ان صور تفضل عكا في استقبال السفن الكبيرة .

(٣) أشاد الجغرافيون العرب بميناء اللاذقية ، لما يتمتع به ، بصفة خاصة ، من الجودة والصلاحية . انظر : Idrisi, p. 23.

Yakut, Geographichal Dictionary, ed. Wustenfeld, IV, p. 338.

Dimashki, ed. Mehren, p. 209.

وتورد وثائق مملكة بيت المقدس مقادير المتاجر الشرقية التي اجتازت دور الديون (الجمارك) في الشرق الفرنجي . فبالاضافة الى المنسوجات الحريرية وغيرها من المنسوجات ، اجتازتها التوابل المختلفة ، امثال القرفة ، والحبهان ، والقرنفل ، وجوز الطيب ، والزنجبيل ، والنيلة ، والفوة (صبغ) ، والنشّد ، والعاج[1]. على انه لم يكن للفرنج انفسهم في هذه التجارة إلا نصيب ضئيل . إذ أن المتاجر يجلبها من الداخل الى الساحل ، تجار مسلمون او مسيحيون وطنيون ، وفي شمال سوريا نقلها الى الساحل من انطاكية ايضاً تجار يونانيون وأرمن ، ولقي التجار الزائرون معاملة دمثة . إذ سمح للمسلمين ان يؤدوا شعائرهم الدينية في المدن المسيحية ، والواقع ان شطراً من المسجد الجامع بعكا ، الذي تحول الى كنيسة ، تقرر افراده للشعائر الاسلامية . وكان بعكا من الخانات ما يصح للتجار المسلمين ان ينزلوا بها ، كما أن من الاسرات المسيحية من انزلت المسلمين في دورها . واشترى التجار الايطاليون سلعهم مباشرة من المستوردين المسلمين . وبالاضافة الى الايطاليين ، يبدو انه قدم الى عكا بحراً عدد من المسلمين ، ليشتروا سلعاً من داخل البلاد ، ومن هؤلاء المغاربة القادمون من شمال غربي افريقيا الذين يودون مواصلة السير حتى دمشق او غيرها من المدن الاسلامية الداخلية[2] .

= على حين تضاءل استخدام ميناء السويدية ، إلا في تجارة انطاكية ذاتها . والراجح ان الحطمى اخذ يتراكم في الميناء . يشير ياقوت (جـ ٣ ، ص ٣٨٥ ، طبعة وستنفلد) الذي ترجع كتابته الى ما قبل استيلاء بيبرس على انطاكية، الى السويدية على انها ميناء انطاكية، ويستخدمه الفرنج.

(١) انظر : Assises, II, pp. 174 - 176.
Heyd, op. cit. pp. 563 ff.

(٢) انظر : اوردت وثائق مملكة بيت المقدس مائة سلعة واحدى عشرة سلعة ، تؤدي رسوم الديوان .
Ibn Jubayr, pp. 307 - 309.

الطرق التجارية الخاضعة للمغول :

على ان امتداد الامبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر ، غيّر الطرق التجارية الأساسية القادمة من الشرق الاقصى . فلم يكد المغول يفتحون جوف آسيا ، حتى شجعوا التجار على ان يسلكوا الطريق البري القادم من الصين ، ويجتاز تركستان ، ثم يمضي إما الى شمال بحر قزوين الى الموانىء الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الاسود ، مثل كفتّا ، وإما الى جنوب بحر قزوين ، ويخترق ايران الى اطرابزون على الساحل الجنوبي للبحر الاسود ، او الى أياس في مملكة قليقية بأرمينية . وما أقرّه المغول من الأمن والنظام التام ، جعل هذا الطريق يفضل طريق البحر ، عبر المحيط الهندي الطافح بالأخطار (١) . وفي القرن الثاني عشر درجت السفن الصينية على ان تبحر من غرب سيلان الى موانىء بلاد العرب . ولم يكن ثمة ما يدعوها وقتذاك الى ان تتجاوز في سيرها الشاطىء الشرقي للهند (٢) وترتب على استيلاء المغول على العراق ان جانباً من التجارة الهندية وصل الى الغرب بحراً عن طريق الخليج العربي ، كما ان شطراً منها اجتاز دمشق او حلب الى موانىء الفرنج على ساحل البحر المتوسط . غير ان معظم التجار كانوا يؤثرون البقاء في داخل الممتلكات المغولية ، ومنها يجتازون

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. II, pp. 70 - 73.

(٢) يشير الادريسي الى ان السفن الصليبية مضت في طريقها في القرن الثاني عشر حتى بلغت ديبل الواقعة على مصب نهر السند، غير انها في القرن الثالث عشر لم تتجاوز سومطره في سيرها. وعندئذ تحكمت السفن العربية في تجارة المحيط الهندي ، التي لا زالت مدرّة للربح والرخاء .
انظر : Heyd, op. cit. I, pp. 164 - 165.

طريقاً مباشراً الى البحر المتوسط ، عند اياس ، بينما جرى نقـــل معظم التجارة الهندية براً عن طريق افغانستان وفارس [1] . وعلى الرغم من ان مصر لا زالت تعتبر سوقاً نافقة للمتاجر الشرقية ، فإنها لم تعد تقع على ارخص طريق للتجارة من الشرق الاقصى الى اوربا [2] .

وفي تلك الاثناء اخذت البندقية وجنوة ، وقـد تأخرت عنهما بيزا ، تزيدان باستمرار في تجارتهما ، فاشتد التنافس بينهما . وما حدث من تحول الطرق التجارية زاد في المنافسة بينهما . إذ سيطرت البندقية اول الأمر على البحر الاسود ، نظراً لما كان لها من سيادة على الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . ولذا لم تعارض في قيام دولة المغول . ولمـــا استعاد البيزنطيون عاصمتهم سنة ١٢٦١ بفضل مساعدة جنوة القوية ، استطاع الجنويون ان يبعدوا البنادقة من البحر الاسود ، وأن يحافظوا على احتكار تجارة آسيا الوسطى ، وتجارة الرقيق ، باعتبارها تجارة ثانوية مربحة ، بين سهوب روسيا ومصر . وإذ استندت الحكومة المملوكية على مـــا يرد باستمرار من مقادير الرقيق من قبائل القبجاق ومـــا يجاورها من القبائل التركية ، كان مستحيلا على البنادقة ان يطردوا جنوة من الاسكندرية . ومــع ان ملك ارمينية سمح للبنادقة ان يشاركوا في تجارة المغول التي ترد الى أياس ، فإنه اضحى من الأمور الجوهرية عند البندقية أن تحاول طرد الجنويين من موانىء الفرنج . فأحرز البنادقة نجاحاً باهراً فيما يتعلق

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. pp. 73 ff.

(٢) انظر : Ibid, p. 78.
فرض المصريون ايضاً مكوساً باهظة على المتاجر .

بعكا . أما صور التي لجأ اليها الجنويون ، فإنها تقل عن عكا أهمية في وضعها ، اضحى من سياسة البندقية العامة في عدائها لجنوة ، ان تقاوم المغول ، الذين بفضلهم جنت جنوة أرباحاً طائلة من امبراطوريتهم . وتبعاً لذلك استخدم البنادقة نفوذهم في عكا لحث الحكومة بها على ان تساند المماليك على المغول [١] .

وما حدث من تطور اياس على انها المنفذ الرئيسي لتجارة المغول على البحر المتوسط ، من الطبيعي ان يقلل أهمية موانىء الفرنج . على انه ما اصاب تجارة آسيا من زيادة عامة في ظل المغول ، جعل منها دائماً فائضاً سلك الطرق التجارية القديمة . إذ ان تجاراً من الموصل قاموا بزيارة عكا بانتظام اثناء الشطر الثاني من القرن الثالث عشر . وما نشب من الحروب بين المماليك والمغول لم يعرقل كثيراً مسير القوافل من العراق وإيران الى فلسطين . وظلت عكا حتى سنواتها الأخيرة ، باعتبارها الحاضرة المسيحية ، حافلة بالنشاط التجاري ، على حين ان اللاذقية التي تقع في اقصى الشمال ، كانت تمارس من التجارة القادمة من حلب ، مما جعل تجار حلب بصفة خاصة يتوسلون الى السلطان المملوكي بأن يستولي على الميناء (اللاذقية) ، فلا ينبغي ان يكون هذا الموضع الثمين في ايدي الكفار (المسيحيين) [٢].

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٤٨٦ وما يليها .
Bratianu, Commerce Génois dans le Mer Noir, esp. pp. 79 ff.

(٢) عن اياس التي اطلق عليها الايطاليون Lajazzo ، انظر :
Bratianu, op. cit. pp. 158 - 162.
انظر هايد عن سوريا : Heyd, op. cit. II, pp. 62 - 64.

ثروة البارونات :

على ان هذه التجارة الزاهرة لم تدر إلا ربحاً ضئيلاً للفرنج انفسهم . فباتخاذ الموانىء البحرية ساحة للمعارك بين الجاليات الايطالية المتنافسة ، اضحت التجارة مصدراً لضعف سياسي فعلي . بل انه اذا حافظ الايطاليون على السلام ، فإنه لم يرد من هذه الموانىء قدر كبير من النقد الى حكومة الشرق الفرنجي . فالمعروف ان للملك الحق من الناحية الرسمية في ان يتقاضى عشر المكوس ، غير انه في الواقع باع انصبة ضخمة من هذا العشر الى اتباعه او الى الكنيسة ، او الى الطوائف الدينية العسكرية ، فلم يبق له منه إلا قدر ضئيل . فكان امراء انطاكية وكونتات طرابلس يزيدون قليلاً عليه في الثروة ، لأنهم يقلون عنه في انشاء الاقطاعات النقدية . ومع انه لم تكن للثروات الكبيرة ان تتكوّن بالشرق الفرنجي . فقد كان به من السادة الاقطاعيين من حازوا من الثروة ما يكفي لأن يعيشوا في بذخ امثال الابليين سادة بيروت الذين تملكوا مناجم الحديد الواقعة قربها ، وأسرة مونتفورت سادة صور ، بما حازوا من مصانع السكر . كان سكان الشرق الفرنجي في نظر الرحالة القادمين من الغرب الذين لم يكن لهم سابق خبرة ، ينعمون برخاء لا يتصور ، غير ان ذلك لم يكن إلا مظهراً سطحياً . فإذا كانت المدن تفوق مدن الغرب في النظافة ، وفي جودة العمارة ، وكان بوسع سكانها ان يشتروا الثياب الحريرية ، وأن يستعملوا العطور والتوابل بأثمان لم يكن ليؤديها في غرب اوربا إلا التاجر بالغ الثراء ، فإن هذه الاشياء لم تكن إلا منتجات محلية ، ولذا تعتبر نسبياً

رخيصة [1] .

ليس لدينا إلا معلومات قليلة عن نشاط الطبقات البورجوازية في الشرق اللاتيني . فلم يكن لهذه الطبقات فيما يبدو دور في التجارة الدولية ، بل قصرت نشاطها على اقامة الدكاكين وصناعة السلع اللازمة للاستهلاك المحلي . على انه كان لها بعض السلطان السياسي ، إذ أن قومون عكا الذي تألف من بورجوازية الفرنج كان عاملاً هاماً في الدولة . غير انه فيما يبدو عزل نفسه عن الجماعات الوطنية ، بل عن الارثوذكس ايضاً ، الذين كانوا يعاملون على انهم فئة مستقلة [2] . على أن البورجوازية الفرنجية واليونانية تعاونت سوياً في انطاكية ، حيث كان للقومون نفوذ قوي الأثر . والراجح انه ما حدث من المصاهرة بين الفرنج واليونانيين زاد في انطاكية عن سائر الإمارات ، فلم يكن الفرنج بها من الكثرة مثلما كانوا في عكا او في طرابلس ، التي جرت فيما يبدو على نهج عكا [3] .

---

(١) قدر المؤرخ امادي ان قيمة ما ينتج من اقطاع فيليب مونتفورت في تبنين سنة ١٢٤١، يبلغ ستين الف دينار اسلامي . واستطاع جاي سيد جبيل ان يقرض ليوبولد دوق استريا خمسين الف دينار ، وان يقرض فردريك الثاني ثلاثين الف دينار . انظر :

Amadi, p. 186.

La Monte, Feudal Monarchy, pp. 171 - 174.

انظر ما سبق ص ٢٦٧ ، ٣٢٣ .

(٢) انظر : Cahen, op. cit. III, pp. 335 - 337.

Prawer : « L'Etablissement des Communes du Marché à Saint - Jean d'Acre », in Revue Historique de Droit Français, 1951.

(٣) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 549 ff, 153 ff.

Richard, La Comté de Tripoli, pp. 71 ff.

اما الطبقات العاملة فكان معظمها من اصل وطني ، او اصل مختلط ، وكان من الرقيق أعداد كبيرة ، من المسلمين الذين وقعوا اسرى في الحرب ، تعمل عـــادة في المناجم ، او في تشييد المبـاني العامة ، او في ضياع الملك او النبلاء [1] .

افتقرت الحكومة دائماً الى النقد ، فلا بدّ للبلاد ، حتى في أوقات السلم ان تكون مستعدة لأن تندلع الحرب فجأة ، ونجم على الحرب عادة تخريب مناطق كبيرة من الريف . ولم تكن الموارد المتحصلة من المكوس والضرائب كافية . فإذا حدث ظرف طارىء مفاجىء ، كأن وقع في الأسر ، الملك او شطر كبير من الجيش ، فليس من المستَطاع مواجهتــه إلا بمساعدة خارجية . ومن حسن الحظ أن المساعدة الخارجية كانت عـادة وشيكة القدوم . والى جانب ما يتحصل من اموال بطرق غير سليمة عادة ، بما يشَنّ من الغارات على البلاد الاسلامية من اجل النهب ، كان يرد من اوربا باستمرار الهدايا والمنح . إذ كانت فلسطين هي الارض المقدسة ، ويعتبر الصليبيون والنزلاء عادة جنود المسيح . فكان الزائرون يؤدون ضريبة عند وصولهم اليها ، ولم يكن الحجاج فحسب يحملون معهم الاموال الى البلاد لينفقوها بها ، او ليبذلوها صدقات ، بل ان كثيراً من المشاهد والأديرة بفلسطين منحت اراضي في الغرب ، وما كان يتحصل منها من موارد كان يرسل اليها . واستمدت الطوائف الدينية العسكرية معظم دخلها من احباسها في الغرب ، الى حد انها ظلت بالغة الثراء حتى بعـد ضياع ممتلكاتها في

---

(١) انظر : Rey, Les Colonies Franques, pp. 105 - 108.

سوريا . على ان سائر الأشخاص في الشرق الفرنجي ، ابتداء من الملك فما دونه من المواطنين ، كانوا يتلقون من حين الى آخر هدايا من الغرب من اقاربهم او من الذين يعطفون عليهم . هـذه الاعانات ساعدت الى حد كبير في حفظ توازن مالية الشرق الفرنجي ، وبذا فان ما دهش له الزائرون من الغرب من مظاهر الترف في المدن السورية أسهم في شطر منه مواطنوهم في الغرب (١) .

النقد في الشرق الفرنجي :

يعتبر النقد في الشرق الفرنجي مصدراً آخر للقوة الاقتصادية من العسير تقدير قيمته . فحينما بدأت الحروب الصليبية لم يكن بقرب اوربا نقد ذهبي إلا في صقلية واسبانيا الاسلامية ، إذ كانت الفضة اكثر المعادن النفيسة استعمالاً . ولم يحدث وقتذاك ايضاً ان صكت الإمارات الاسلامية في سوريا نقوداً من الذهب ، على الرغم من ان الخليفتين المتنازعين في بغداد والقاهرة . مارسا هذا الاجراء . على انه لم تكد تستقر الإمارات الصليبية ، حتى شرع ملك بيت المقدس ، وأمير انطاكية ، وكونت طرابلس في ضرب الدنانير من الذهب ، التي كانت تعرف باسم الدنانير الاسلامية Saracenate Besants ، والتي ليست إلا تقليداً للدنانير الفاطمية ، غير انها لم تحو من الذهب إلا ثلثي ما تحويه الدنانير الفاطمية . هذه النقود ، ولا سيما نقود بيت المقدس التي اشتهرت عند المسلمين بالصورية (دنانير صور) لم تلبث ان انتشر تداولها في انحاء الشرق الأدنى . ومن العسير ان نعرف

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 174 ff.

من أين حصل الفرنج على الذهب . فالنهب والفــدية لم ينجم عنهما سوى مقدار صغير غـــير منتظم من الذهب . ويعتبر السودان المصدر الاصلي للذهب وقتذاك ، والراجح ان قدراً من الذهب جلبه الى موانىء الفرنج التجار المغاربة لممارسة التجارة بها . غير انــه لتفسير ظهور النقد ، لا بدّ انه جرت حركة عامة للذهب من البلاد الاسلامية الى البلاد المسيحية . فلا بدّ ان اشتري النزلاء الاوربيون الذهب من المسلمين ، ولا ريب انهم دفعوا فيه ثمناً باهظاً ، مقابل الفضة التي توافرت بأوربا . وما جرى صكه من هذا النقد الذهبي منخفض العيار ، لا بدّ انه ساعد في كل الحركة . فلا بدّ ان انتقلت كميات كبيرة من الذهب الى الغرب ، فالملحوظ انــه اخذ يظهر في الغرب أثناء القرن الثالث عشر نقد ذهبي فائق السبيكة [١].

على ان حق صك النقود من الذهب كان بأيدي حكام الشرق الفرنجي ، فــلا يجوز للجاليات الايطالية او الطوائف الدينية العسكرية ان تعتدي على هذا الاحتكار . وليس للمقطعين إلا ان يضربوا نقوداً من البرونز لسد الحاجات المحلية [٢] .

---

(١) انظر : Cahen, Notes sur l'Histoire des Croisades, III, pp. 337 - 338.

(اورد كاهن مناقشة بالغة الاهمية حول هذا الموضوع) .

Schlumberger, Les Principautés Franques du Levant, pp. 8 - 45.

على ان قيمة الذهب في الدينار الاسلامي في بيت المقـــدس لا تزيد إلا قليلاً عن ثلث الجنيه الاسترليني الذهب ، اما دينار انطاكية فكان ادنى قليلاً في القيمة .

(٢) انظر : La Monte, op. cit. pp. 174 - 175.

وللطوائف الدينية العسكرية مصدر آخر للثروة مستمد من نشاطهم المصرفي . وبفضل ممتلكاتهم الشاسعة في انحاء العالم المسيحي ، اضحى لهم وضع رائع لتمويل الحملات الصليبية . فاشتراك الفرنسيين في الحملة الصليبية لم يتحقق إلا بفضل مساعدة الداوية ، الذين دفعوا مبالغ ضخمة الى الملك لويس السابع في الشرق ، وجرى تسديدها لهم في فرنسا . ولم ينته القرن الثاني عشر حتى اضحى الداوية يمارسون بانتظام عملية إقراض الاموال ، وتقاضوا عن ذلـــك فائدة مرتفعة . ومع انهم لم يكونوا موضع ثقة من الناحية السياسية ، فإن سمعتهم المالية بلغت من الارتفاع ما جعل المسلمين يولونهم الثقة ، ويفيدون من خدماتهم . ومارس الاسبتارية والفرسان التيوتون عمليات من هذا القبيل ، ولكن على نطاق يقل كثيراً عما كان عند الدواية . ولم تجنِ حكومة الشرق الفرنجي بصفة مباشرة شيئاً من هـذا النشاط الذي زاد في قوة الطوائف الدينية العسكرية وفي تمرّدهم ، غير ان هذا النشاط المصرفي أفاد البلاد في مجموعها من الناحية المالية (١) .

المشكلة الاقتصادية للشرق الفرنجي :

لا يزال التاريخ الاقتصادي للشرق الفرنجي بالغ الغموض . فليست

---

(١) انكرت وثائق مملكة بيت المقـدس عملية الصيرفة ، على حين اقرتها وثائق انطاكية .
انظر : Cahen, op. cit. p. 339.
Piquet, Les Banquiers du Moyen Age, passim.
Melville, La Vie des Templiers, pp. 75 - 83.
لم تختلف حملة لويس التاسع عن حملة لويس السابع ، اذ ان الداوية اسهموا الى حد كبير في تمويلها . انظر : (Piquet, pp. 71 - 78).

المعلومات كافية ، كما انه ليس من المستطاع حتى اليوم تفسير تفاصيل كثيرة .
على انه من المستحيل ان نفهم التاريخ السياسي للحروب الصليبية ، ما لم نجعل في اعتبارنا ما للنزلاء والتجار الايطاليين من حاجات تجارية ومالية .
إذ أن هذه الحاجات تسير عادة عكس الباعث العقائدي الذي أثار الحركة الصليبية وأبقى عليها . فالشرق الفرنجي وقع دائماً في الحيرة ، إذ أنه قام نتيجة خليط من الحماس الديني والمغامرة لاقتناء الاراضي . فإذا كان لا بدّ ان يبقى سليماً ، فلا ينبغي ان يظلّ معتمداً على ما يرد اليه بانتظام من الغرب من الرجال والأموال ، فلا بد ان يبرر بقاءه من الناحية الاقتصادية ، ولن يتحقق ذلك إلا اذا كان في علاقات ودية مع جيرانه .
فإذا سادت بينهما المودة والرخاء ، فسوف يزدهر ايضاً الشرق الفرنجي .
على ان السعي للصداقة مع المسلمين يعتبر فيما يبدو خيانة كاملة لمُثُل المحارب الصليبي ، كما ان المسلمين من جانبهم لم يستطيعوا ان يرضوا ببقاء دولة اجنبية دخيلة في بلاد يعتبرونها ملكاً لهم . على ان حيرتهم لم تكن بالغة الأسى ، لأنه ليس للمستعمرين المسيحيين اهمية لتجارتهم مع اوربا ، برغم ما لهم من فائدة في بعض الاحوال . ولذا تعرضت العلاقات الطيبة بينهم دائماً للخطر . اما المشكلة الكبيرة الاخرى التي كان لزاماً على الشرق الفرنجي ان يواجهها ، فتمثلت فيما كان يربطه من علاقات مع المدن التجارية الايطالية ، إذ أن هذه المدن كانت عاملاً لا غنى عنه لبقاء الشرق الفرنجي .
فلولاها لأضحى من المستحيل المحافظة على المواصلات مع الغرب ، وصار مستحيلاً ايضاً تصدير منتجات البلاد ، او السيطرة على شيء من التجارة العابرة القادمة من الشرق الاقصى . على ان الايطاليين بما اشتهروا به من الغطرسة ، والمنازعات ، وما اتسمت به سياستهم من التعالي ، تسببوا في وقوع ضرر لا سبيل الى علاجه ، إذ كانوا يقفون بمعزل عن كل حملة صليبية

جوهرية ، ويعرضون صراحة ما كان من انشقاق في العالم المسيحي ، امدوا المسلمين بالمواد الحربية الجوهرية ، وقد يقومون بالفتنة والقتال ، يحارب كل منهم الآخر في شوارع المدن . ولا بد ان حكام الشرق الفرنجي قد أسفوا لما جلبته هذه التجارة المربحة الى شواطئهم من امثال الخلفاء المتمردين الخطرين . ومع ذلك فإنه لولا هذه التجارة لأضحت سيرة الشرق الفرنجي اكثر إيجازاً وأشد عبوساً . فليس من السهل مطلقاً الفصل بين ما يقترن بالرخاء المادي من دعاوى عدائية وبين الايمان العقائدي . وما من حكومة تستطيع ان تأمل في ان ترضى تماماً أياً من الدعوتين . فليس بوسع الانسان ان يعيش على المذهب العقائدي وحده ، بينما استند الرخاء الى أمور تزيد اتساعاً على ما قد يحتوي عليه شريط ضيق من الارض . ارتكب الصليبيون أخطاء عديدة ، إذ اتسمت سياستهم دائماً بالتردد والتقلب ، غير أنه لا يصح إلقاء اللوم عليهم وحدهم لفشلهم في حل مشكلة ، ليس لها في الواقع حل .

الفصل الثاني

العمارة والفنون في الشرق الافرنجي

هيأ الفرنج بالشرق الفرنجي للتجـارة التي كان ينبغي ان توطد بلدهم وتدعمه بأن تفلت من أيديهم . على انهم احتفظوا بالسيطرة على منتجات بعض الفنون ، وتعتبر منجزاتهم في هذه الناحية رائعة ، إذ لم يكن عدد النزلاء وفيراً ، ولم يكن منهم من الفنانين إلا عدد قليل . يضاف الى ذلك أنهم قدموا الى بلاد كان لهـــا من التقاليد الفنية ما هو أقدم عهداً من تقاليدهم ، كما انهم لم يلقوا بها شيئاً من المواد التي ألفوها . ومع ذلك فانهم أخذوا يبتكرون أسلوباً أشبع رغباتهم وسدّ حاجاتهم .

لم تبق معظم أعمـــالهم الفنية ، إذ ان تاريخ سوريا وفلسطين الحافل بالاضطراب لم يهيء لكل دقيق وقابـل للكسر من الأشياء ان يعيش . أما عمارتهم فكانت أكثر متانة ودواماً ، على الرغم من انه لم يبق منها ، مثلما حدث في معظم البـــلاد في العصور الوسطى ، إلا الآثار الحربية والكنسية . بل ان هذه الآثار لم تسلم صورتها الأصلية من التغيير والتفتت .

ففيما عدا أقدس مشاهد العالم المسيحي ، التي لم يمسها المسلمون بوازع من دينهم ، والتي أصلحها المسيحيون فيما بعد ، فإن ما زال قائماً من الكنائس جرت المحافظة عليها ، لأنه لم يطرأ عليها من التعديل إلا ما يجعلها تصلح لأن تكون مساجد ، بينما هوت كنائس اخرى الى الخراب . أما قلاع الفرنج واستحكاماتهم فإن ما لحق بها من الضرر في الحروب ، كان من الشدة ما أرغم الغزاة المسلمين ، إذ أرادوا الإفادة منها ، ان يعيدوا بناء كثير منها ولا سيما الأسوار الخارجية والأبواب . وما تركه الانسان منها دون ان يمسها في تلك البلاد التي تعرضت للزلازل ، أسهمت الطبيعة في تخريبها . بل حدث حينما سخر علماء الآثار المحدثون علمهم في أعمال عمارتها ، مثلما جرى في حصن الاكراد ، انهم فيما يبدو لم يستطيعوا دائماً ان يفرقوا في وضوح بين ما هو صليبي وما هو مملوكي .

وأول ما احتاجه الصليبيون من العمائر ، كان ما يتعلق بأسباب الدفاع عن انفسهم . فالكنائس والقصور ينبغي ان تنتظر حتى يطمئن الصليبيون في تملك البلاد . إذ كان لا بد من إصلاح أسوار المدن ، وتشييد القلاع لحراسة الحدود ، ولاستخدامها مراكز إدارية آمنة للمناطق بالبلاد . أما استحكامات المدن الرئيسية ، فلم تتطلب من الاصلاح سوى ترميم أجزاء متفرقة منها ، إلا في الحالات القليلة ، التي لم يتيسر للصليبيين الدخول اليها إلا بعد ان أحدثوا ثغرة في الأسوار . فما أقامه البيزنطيون في انطاكية من نظام متين للاستحكامات الدفاعية حوالي نهاية القرن العاشر لم يتعرض إلا لضرر ضئيل . ولم يكن الامراء اللاتين في انطاكية في حاجة الى ان يضيفوا اليها شيئاً . ومن هذا القبيل ، لم تتطلب أسوار بيت المقدس التي شيدها الفاطميون إلا قدر قليل من الاصلاح ، على الرغم من ان الصليبيين

بادروا ، فيما يبدو ، الى ان يُدخلوا على برج داود بعض التغييرات والتحسينات. على انهم لم يلبثوا ان شرعوا في تشييد قلاع بالمدن التي كانت الاستحكامات بها كافية فعلاً . وكل هـذه القلاع جرى تشييدها على حافة المدينة ، كيما يتيسر الدفاع عن كل منها مستقلة عن الاخرى . وأحب سادة هذه القلاع ألا يكون بوسعهم فحسب المضي في المقاومة ، لو سقطت المدينة في يد العدو ، بل يكونون ايضاً في وضع يثير الرعب في البلد ، اذا ثبت عصيانها وتمردها . وأول قلعة يصح التأكد من تاريخها ، هي تلك التي شيدها ريموند كونت تولوز عند جبل الحـاج ، إذ شيدها سنة ١١٠٤ لاتخاذها مقراً لقيادته ، حينما ألقى الحصار على طرابلس . أنشأها ريموند خارج المدينة ، على الرغم من ان طرابلس الاسلامية جرى تشييدها فيما بعد عند قاعدتها . غير ان ما تبقى حتى الآن من قلعة ريموند ، لم يتجاوز السور الغربي منها . أما قلاع امراء الجليل في طبرية وتبنين ، فلا بد ان تشييدها تمّ حوالي ذلك الوقت . على ان اول عهد زاهر لتشييد القلاع بدأ في العقد الثاني من القرن الثاني عشر ، زمن بلدوين الثاني ، واستمر زمن فولك حين قـام من الحصون الرائعة أمثال قلاع موآب ، وهونين ، ثم صهيون في أقصى الشمال ، فضلاً عن المعـاقل الصغيرة في يهودا أمثال الصافية ويبنة (١) .

القلعة البيزنطية :

اكتشف الصليبيون ان العمارة الحربيـة بلغت من النمو والتطور في

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ١٠٠ — ١٠١ ، ٣٦٩ — ٣٧٢ .
Deschamps, La Défense du Royaume de Jerusalem, pp. 5 - 19.
Le Crac des Chevaliers, pp. 43 - 44.

الشرق ما يفوق ما كان حادثاً في الغرب ، حيث لم تأخذ القلعة المشيدة من الحجارة في الظهور إلا وقتذاك . والمعروف ان الرومان درسوا الدفاع الحربي على انه علم ، وإذ أثار البيزنطيين ما كان لزاماً عليهم ان يواجهوه من غزوات اجنبية لا حصر لها ، عمدوا الى تطوير الدفاع الحربي بما يلائم حاجاتهم ، وتعلّم العرب من البيزنطيين . لكن لم تكن مشاكل البيزنطيين تشبه مشاكل الصليبيين ، اذ افترض البيزنطيون ان القوة الضاربة كانت دائماً في متناول ايديهم ، وبوسعهم ان يقيموا حاميات كبيرة . ولقوا عناء شديداً في ان يحسنوا الدفاع عـن مدنهم ، فظلت أسوار القسطنطينية ، بعـــد ان مضى على تشييدها ألف سنة ، قادرة على ان تتحدى مدافع العثمانيين التي كانت تعتبر من المبتكرات ، وأثارت اسوار القسطنطينية إعجاب الصليبيين . على ان القلعة البيزنطية لم تزد على انها معسكر منيع الاستحكامات ، إذ جرى تصميمها لتواجه عدواً تقـــل اسلحته خطورة وعنقاً عن اسلحة البيزنطيين ، إذ ان العرب الذين يعتبرون اخطر منافس للبيزنطيين ، يقلون عنهم رقياً وتقدماً في ادوات الحصار . فأسوار القلعة لم تكن بالغة المتانة . وما قام من ابنية خارج الاستحكامات ، التي كانت ظاهرتها الاساسية على الأقل عبارة عن خندق بالغ الاتساع ، يمنع العدو من جلب الآلات المعروفة بالكبش التي تحطم الاسوار ، او السلالم المتحركة ليسندها الى الاسوار . أمـا الابراج فجرى تشييدها ، على ان تبرز قليلاً عن الاسوار ، وتقع على مسافات منتظمة على امتداد الاسوار ، لا للدفاع عن الاسوار في حد ذاتها ، بـل لأنها تهيء للرماة من رجال الحامية من المجال الفسيح ما ينال خطوط الاعداء . أما البرج الواقع في وسط دائر القلعة ، فلم يجر إعداده لأن يكون المعقل الأخير للدفاع ، بـــل ليكون مستودعاً للأسلحة والمؤن . والواقع انه لم يكن المقصود من القلعة البيزنطية

اتخاذها داراً للإقامة ، باستثناء بعض القلاع الواقعة على طرف ارمينيا ، حيث اقام بارونات الاطراف شبه مستقلين . وليس قائد القلعة إلا جندياً محترفاً ، ترك زوجته وأولاده في موطنه . وأخيراً ، على الرغم من انه جرت الإفادة من وسائل الدفاع الطبيعية ، فإن تعذّر بلوغ مواقع القلعة لم يكن الاعتبار الاول عند تشييدها . إذ كانت القلعة تستخدم أساساً ، ثكنات للجند . فلم يكن من اليسير ارغام العساكر على ان يكابدوا تسلق الجبال والهبوط منها كل مرة يتحركون فيها (١) .

نزع العرب الى ان يتبعوا النماذج البيزنطية ، على الرغم من انهم يقلون عن البيزنطيين اهتماماً في مسائل الدفاع ، نظراً لما اتصفت به جيوشهم اساساً من التعبئة والميل الى المبادرة الى القتال (٢) .

درس الصليبيون أثناء رحيلهم صوب الشرق كل ما صادفوه من العمارة الحربية ، وتعلموا قدراً كبيراً منها . غير ان حاجاتهم الجوهرية كانت مختلفة ، إذ انهم كانوا دائماً مفتقرين الى القوة الضاربة ، وليس بوسعهم ان ينفقوا على حاميات كبيرة . ولذا كان لا بدّ لقلاعهم ان تكون بالغة المتانة ، وأن يزداد الدفاع عنها يسراً . فينبغي اختيار موقعها لما اشتهر به من صفات دفاعية ، فكل منحدر ، وكل تل لا بدّ من انتزاع اكبر

---

(١) انظر : Deschamps, Le Crac, pp. 45 - 57.
Ebersolt, Monuments d'Architecture Byzantine, pp. 101 - 106.
Feddon, Crusaders Castles, pp. 22 - 26.

(٢) انظر : Deschamps, Le Crac, p. 51.
Feddon, op. cit. p. 26.

فائدة منه ، فكما انه قلّ الاستغناء عن الكشافة في حمل الرسائل ، كذلك ينبغي ان يكون كل معقل قادراً على ان يرقب العدو ثم يبعث بالإشارة الى جاره . وكان لا بـد للأسوار ان تكون أشد سمكاً وأكثر طولاً ، حتى تستطيع ان تقاوم ما نتعرّض له من هجوم مباشر ، إذ ان الدفاع عـن المباني الخارجية كان يشغل عدداً كبيراً من الرجال . وينبغي في الوقت نفسه الإفادة من القلعة بأن تكون مقراً لإقامة السيد ، ومركزاً لإدارته . إذ ان الفرنج نقلوا معهم وسائلهم الإقطاعية ، وحكموا أناساً اجانب . فكانت القلعة مقر الحكومة المحليـة . وينبغي ايضاً ان يكون دائرها من الاتساع ما يكفي لتوفير الحماية لقطعان الاغنام والماشية اثناء الغارات التي ألف العدو ان يشنها . والواقع ان ما قامت به القلعة عند الفرنج من دور يفوق في الأهمية ما قامت به عند البيزنطيين والعرب [١] .

القلاع في القرن الثاني عشر :

لم تزد القلعـة في الغرب على انهـا برج من نوع اكتمل تطوره على أيدي النرمان ، ولم يكن كافياً لحاجات الشرق الفرنجي ، إذ كان لزاماً على الصليبيين ان يكونوا روّاداً ، استعاروا من البيزنطيين افكاراً كثيرة ، فمنهم تعلموا استخدام المزاغل ، وأهمية مواضع الابراج على السور ، على

---

(١) انظر : Deschamps, Le Crac, pp. 89 - 103.
Smail, « Crusaders Castles of the Twelfth Century », in Cambridge Historical Journal, vol. X, 2.
يتضمن المقال مناقشة قيمة عن وظيفة القلعة .

الرغم من انهم لم يلبثوا ان ادخلوا عليها شيئاً من التحسين حينما اكتشفوا ان البرج المستدير يفوق البرج المستطيل الذي يؤثره البيزنطيون ، بما يهيؤه للرماة من مجال بالغ الاتساع . فالقلاع الصغيرة التي شيدها الصليبيون في اوائل القرن الثاني عشر امثال قلعة كوكب ، تمّ تشييدها وفقاً للتصميم المألوف عند البيزنطيين ، بما لها من سور يزداد او يقل استطالة ، قد ترصع بالأبراج ، وفي وسطه فضاء شغله البرج . على انه روعي في اختيار المواقع أن تؤدي الى الاستغناء عن المباني الخارجية كثيرة التفاصيل ، كما ان البناء بأسره كان بالغ المتانة . اما البناء البيزنطي فكان عادة متكتلاً ، ففي حصن صهيون ، أتمّ ما اشتهرت به بيزنطة من الخنادق الواسعة ما حدث من شق قناة ضيقة يبلغ عمقها تسعين قدماً في الصخرة الصلبة [١]. وأضاف الفرنج ايضاً ساتراً من الاسياخ الحديدية الذي لم يستخدم في الشرق منذ زمن الرومان ، والمدخل الواطي الذي اخذ العرب يؤثرونه ، على ان البيزنطيين قلّ ان استخدموه ، ولعل ذلك راجع الى انه يعوق ويعطل حركة الادوات الثقيلة التي يودعونها القلاع [٢] .

---

(١) عن حصن كوكب وتصميمه ، انظر :
Deschamps, La Défense, p. 121.

وعن تصميم قلعة الروج ، انظر :
Deschamps, Le Crac, p. 57.

اما القلعتان التوأمتان الشغر وبكاس ، فجرى تدعيمها بخنادق صناعية ، مثلما حدث في صهيون . انظر :
Deschamps, Le Crac, pp. 80 - 81.

(٢) انظر : Deschamps, « Les Entrées des Chateaux des Croisés », in Syria », vol. XIII.

ومن الطبيعي ان كانت القلاع الكبرى اكثر تعقيداً ، فحصن الكرك مثلا لم يكن ليأوي فحسب سيده وأسرته ، بل وسع ايضاً العساكر والكتّاب اللازمين لإدارة الاقليم . وجرت العادة في هذا النوع من القلاع في القرن الثاني عشر ، بأن يقع البرج وما يتبعه من دور الاقامة في اقصى ركن بدائر القلعة ، وأن تزداد سهولة الدفاع عنه . أما الحجرات التي تتخذ مستودعاً والكنيسة ، فاحتلت عادة الفضاء بوسط الدائر ، على حين ان سائر الأبراج المقامة حول الدائر كانت من الاتساع ما يكفي لأن تحوي قاعات ثكنات العساكر والمكاتب . واختلف تصميم القلعة باختلاف الارض التي يجري البناء عليها ، والمنطقة التي تقع بها القلعة . فلا زال البرج صغيراً مستطيلا ، على نمط البرج النرماني ، وليس له عادة إلا مدخل واحد . أما البناء فكان متماسكاً ساذجاً ، غير انه جرت بعض المحاولات لزخرفة دور الاقامة والكنيسة . ومع انه لم يبق ، لسوء الحظ ، شيء من زخارف القلاع في القرن الثاني عشر ، فإن القلاع التي ظلت مسيحية بعد زمن صلاح الدين جرت زخرفتها من جديد في القرن التالي . وأدخل المسلمون تغييراً في القلاع المسيحية التي احتلوها ، وما تبقى أصابه الخراب (١) .

وكلما تقدم القرن الثاني عشر ، حدثت بعض التغييرات في تصميمات القلاع . إذ اضحى من المنطق ، ان يشيد البرج المتوسط الذي يعتبر أمنع

---

(١) انظر : Deschamps, La Défense, pp. 80 - 93, 167 - 175.
اورد دى شاتز وصفاً تفصيلياً لتصميمات قلعة الكرك في موآب وقلعة الصبيبة في بانياس، انظر ايضاً اللوحات .

جانب في القلعة ، في اضعف قطاع بدائر القلعة ، وأضحى البرج عادة مدوّراً لا مستطيلاً ، نظراً لأن السطح المدور كان بالغ الصلابة في مقاومة ما يتعرض له من قذف . وازداد عدد ما تزودت به القلاع من أبواب ، والأبواب الخلفية . ونزع حجم القلعة الى الضخامة ، ولا سيا حين شيّدت الطوائف الدينية العسكرية لها قلاعاً او آلت اليها قلاع من النبلاء العلمانيين ، ولم يكن للنساء مأوى في قلاع هذه الطوائف ، ومع انه يصح ان يكون لكبار الموظفين حجرات أنيقة ، فلم يقم بها نزيل إلا لغرض حربي . وتعتبر الحصون الضخمة ، مثل الكرك او عثليت مدناً عسكرية ، تستطيع ان تأوي عدة آلاف من المقاتلين والخدام اللازمين لهذا الجمع ، غير انه قلّ ان امتلأت عن آخرها . وعزز الاستحكامات عادة ما حدث من استخدام دائر مزدوج ، يتوسطه مركز واحد . فما حازه الاسبتارية من قلاع ضخمة أمثال حصن الاكراد والمرقب ، اشتهرت بدائرها المزدوج . واتخذ الداوية هذا النظام في صافيتا ، غير انه جرت القاعدة بأنهم يؤثرون الدائر الواحد ، فالتزمت قلاعهم الكبرى في القرن الثالث عشر النموذج المبكر ، على انه في كلتا الحالتين كانت أطول قطاعات الأسوار ، ترتفع مباشرة من البحر ، واجتاز شبه الجزيرة التي تصل عثليت بالبر ، دائر مزدوج معقّد . والتزمت قلعة الفرسان التيوتون في مونتفورت ايضاً بالدائر المفرد . ولم تكن فكرة الدائر المزدوج جديدة ، إذ ان الأسوار البرية للقسطنطينية تمّ تشييدها في القرن الخامس بدائر مزدوج ، وفي القرن الثامن أحاط الخليفة المنصور مدينته المدورة بغداد بدائر مزدوج . على ان الاسبتارية يعتبرون اول من استخدموا الدائر المزدوج في قلعة مستقلة ،

على الرغم من انه يصح استعماله لقلعة كبيرة الحجم (١) .

أما التحسينات الاخرى التي جرت في القرن الثالث عشر ، فمنها الحرص الشديد على ان تكون واجهة الاسوار مصقولة حتى يتعذر على السلالم المتحركة ان تستقر عليها ، ومنها التوسع في استخدام سائر الأسياخ الحديدية والمزاغل اللازمة للرماة ، التي أضحت تتخذ عـــادة شكل منحرف الى اسفل ، واتخذت احياناً قاعدة على هيئة ركاب الفرس ، يضاف الى ذلك ازدياد التعقيد في ابواب الدخول . ففي الكرك ، نصادف طريقاً طويلاً مسقوفاً ، تسيطر عليه المزاغل في الاسوار الجانبية ، ثم ثلاثة اركان قائمة الزوايا ، وسائر داخلي من القضبان للباب ، وأربعة ابواب متفرقة . وجرت إقامة الابواب الخلفية في اركان خفية ليس متوقعاً إنشاؤها بها ، ويعتبر البيزنطيون اول من أدخل هذا التصميم (٢) .

ضعف قوة القلاع الدفاعية :

هذه الحصون الضخمة ، بما اتصف به بناؤها من الصلابة ، وبما احتلته من مواقع رائعة على صخور شديدة الانحدار وقمم الجبال ، كانت فيما يبدو

---

(١) انظر : Rey, Architecture des Croisés, pp. 70 ff.
يبالغ راي في التفرقة بين طراز القلاع عند الداوية والاسبتارية .
Feddon, op. cit. pp. 28 - 29.
Deschamps, Le Crac, pp. 279 ff.
يشير دى شانز الى مراحل طراز القلعة وما طرأ عليها من تغييرات . انظر ايضاً :
Melvin, La Vie des Templiers, pp. 136 - 142.
(٢) انظر : Feddon, op. cit. pp. 29 - 30.

بعيدة المنال في أزمنة سابقة على اختراع البارود . إذ أن ارض القلعة جعلت استخدام السلالم امراً متعذراً ، كما انه لم يتيسر جلب ابراج الحصار للسيطرة على الاسوار ما لم يكن في خارجها ارض مستوية ، او لم يكن ثمة خندق . تعذر عادة على المحاصرين أن يعثروا على موضع يكون بالغ القرب من الأسوار فتنصب عليه المجانيق والمقاليع لقذف الصخور ، على ان النقب كان يعتبر اهم الاخطار الفنية ، إذ يحفر المهندسون نفقاً تحت الاسوار ، يسندونه كلما تقدموا بأعمدة من الخشب ، يشعلونها بالحشائش الجافة ، فتؤدي الى تداعي النفق وما يعلوه من البناء . غير أن النقب كان مستحيلاً ، اذا كانت القلعة كالكرك مشيدة على صخرة صلبة . فإذا هوت القلعة ، كان ذلك عادة لأسباب اخرى . وعلى الرغم مما توافر بالقلعة من مستودعات المؤن والصهاريج ، تعتبر المجاعة والعطش من الاخطار السائدة . أما الافتقار الى القوة الضاربة فليس له من معنى في معظم الاحوال سوى انـه لم يتيسر صيانة وسائل الدفاع على الوجه السليم . فلم يكن بوسع الفرسان عادة ان يرسلوا جيشاً لإنقاذ القلعة ، وذلك الإدراك أثار التشاؤم عند رجال الحامية . ففي غمرة انتصارات صلاح الدين المتوالية ، لم تقاوم قلعة صهيون الضخمة ، المعروفة بأنها امتن القلاع في زمنها ، المسلمين إلا لمدة ثلاثة ايام (١) .

على أن اهمية القلاع الصليبية ترتبط بمجال التاريخ الحربي ، لا تاريخ

---

(١) انظر : Oman, History of the Art of War in the Middle Ages, II, pp. 29 ff.
Feddon, op. cit. pp. 34 - 40.

الجمال . لقد نقل الصليبيون العائدون الى اوربا معهم الافكار التي سبق ان لقيت تفسيراً لها هناك . فما كان لرتشرد قلب الاسد من قلاع ، مثل قلعة جايّارد ، دلّ على انه ادخل هذه الافكار الى العالم الغربي ، غير أن للقلاع في الشرق قيمتها الجمالية . فما حوته من كنائس تعتبر من اروع نماذج فن عمارة الكنائس في الشرق الفرنجي ، إذ أن قاعاتها الكبيرة التي تعتبر اجملها تلك التي في حصن الكرك ، يصح مقارنتها بالقاعات القوطية المبكرة في غرب اوربا . اما حجرات الاقامة التي لا زالت باقية لتعرض علينا بعض الافكار عن قصور النبلاء في الشرق الفرنجي ، فإنها تدل على الجمال والذوق . فالحجرة التي تخص المقدم في حصن الكرك والتي تقع الى الجنوب الغربي بأعلى البرج الواقع في الدائر الداخلي بسقفها المعقود البارز، وبأعمدتها المربعة النحيلة ، وبشريطها الزخرفي البسيط الدقيق النحت المؤلف من خمس من اوراق الزهور ، تفوق في الروعة معظم حجرات الحصون الكبيرة ، على انه لا بدّ ان كان في قلاع وقصور الاغنياء بالمدن ما يضارعها ، وتنتمي الى طراز العمارة القوطية بشمال فرنسا في القرن الثالث عشر ، على حين ان ما بالقاعة الكبيرة من زخرفة منحوتة في الحجر تعتبر وثيقة الصلة بما في كنيسة القديس نقولا المعاصرة بريمس من أعمال البناء [١].

تعتبر القلاع اساساً من اعمال المهندسين . اما الكنائس فالمقصود ان تكون اعمالاً فنية . فحينما وصل الصليبيون الى الشرق ، صادفوا به تقليداً قديماً للبناء يناسب البلاد ، إذ كان الخشب من المواد النادرة وكل ما نتج من

(١) انظر : Deschamps, Le Crac, pp. 197 - 224.
Enlart, Les Monuments des Croisés, II, pp. 96 - 99.

الغابات من خشب ، جرى استخدامه في بناء السفن وفي الاسلحة ، فكان لزاماً على المهندسين أن يستغنوا عن عروق الخشب ، فاستخدموا الحجارة في بناء السقوف التي كانت عادة مسطحة كيما تتخذ شرفة في نسيم الاصيل. وجرى استخدام العقود عادة لتسند السقف ، فالعقد المدبب المعروف بقدرته على تحمل الضغوط الثقيلة اضحى فعلاً شائعاً. على ان طراز البناء السوري الوطني كان الطراز البيزنطي العربي ، الذي اكتمل تطوره زمن الخلفاء الأمويين ، غير انه تأثر بما حدث من التطورات المتأخرة زمن العباسيين ، وبفن العمارة الفاطمي وما ارتبط به من مؤثرات من شمال افريقية . شهد البنّاء السوري البيزنطيين اثناء عملهم في الاماكن المقدسة وفي انطاكية ، وقدم في أعداد كبيرة الأرمن الذين اشتهروا ببراعتهم المهنية ، بطرزهم وأنماطهم .

وأول ما شيّده الصليبيون من كنائس في الشرق ، كانت كنيسة القديس بولص في طرسوس الذي تمّ الفراغ من بنائها قبل سنة ١١٠٢ ، ولم تكن سوى بناء خشن غليظ ، على نمط الكنائس الرومانسكية بشمال فرنسا ، غير ان عقودها كانت مدببة . وكانت هذه الكنيسة على شكل مستطيل ، بها جناحان ، ثم البناء الرئيسي للكنيسة ، اصطفت به الأعمدة والساريات على التبادل . وجاءت الأعمدة من بناء عتيق ، وليست تيجان الأعمدة سوى كتل حجرية ساذجة ، هذبت زواياها على هيئة مثلثات ، وهذه الصورة من الزخرفة كانت معروفة في بلاد الراين ، وفي ارمينيا ايضاً ، ولعل الصنّاع الأرمن هم الذين اجروها في كنيسة طرسوس . على

ان هذه الكنيسة في هيئتها الساذجة هيأت الذوق الفني لما حدث من تطور بفن العمارة الصليبي فيما بعد [١] .

عمارة الأماكن المقدسة :

لم يكد النزلاء الفرنج يطمئنون في مستقرهم ، حتى جعلوا أول اهتمامهم موجهاً الى اصلاح الاماكن المقدسة ثم تزويد مدنهم الرئيسية بما يناسبها من الكنائس . على ان اقدس المشاهد الدينية ، وهي كنيسة المهد في بيت لحم ، التي شيّدها قنسطنطين ، وأعاد عمارتها جستنيان ، ظلت في حالة سليمة . وكل ما اضافه اليها الصليبيون من العمارة ، يتمثل في بناء دير ساذج على النمط القوطي ، الراجح أنه شيّد حوالي سنة ١٢٤٠ ، وفي المدخلين الشمالي والجنوبي المؤديين الى باب المغارة ، اللذين جرى بناؤهما حوالي سنة ١١٨٠ على النمط الرومانسكي المتأخر ، بعقد مدبب ، وحلية نباتية على تيجان الاعمدة ، والراجح أنها صناعة سورية . وأقام الصليبيون ايضاً عمائر ديرية حول الكنيسة ، ولكن لم يبق منها شيء [٢] . أما كنيسة القيامة في بيت المقدس ، التي تعتبر اعظم الكنائس تبجيلاً وقداسة ، فإنها فيما يبدو لم تستكمل ما تقتضيه الحاجات . إذ حدث بعد تدمير كنيسة القيامة على يد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، أن اعاد البيزنطيون عمارة القبة التي تحيط بالقبر ذاته ، غير انهم قاموا بجعل الطرف الشرقي للقبة مسطحاً ، وشيدوا في هذا الموضع ثلاثة محاريب . واتصلت بيعة القديسة

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 378 - 379.

(٢) انظر : Enlart, op. cit. II. pp. 66 - 68.

ماريا بالقبة ، وقامت كنائس القديس يوحنا ، والتثليث والقديس يعقوب الى الجنوب منها . وجرى بناء كنيسة الجلجلة من جديد على انها كنيسة مستقلة ، مثلما كانت كنيسة القديسة هيلينا بمغارة الصليب ، وازدانت المباني بالزخارف الفنية من المرمر والفسيفساء ، وقرر الصليبيون أن يجعلوا كل المباني تحت سقف واحد . والواضح أن البناء الرئيسي جرى تشييده بعد الزلزال الذي وقع سنة ١١١٤ ، وقبل سنة ١١٣٠ ، على الرغم من ان بعض اجزاء البناء لم تكن قد انجزت زمن وفاة الملك بلدوين الثاني سنة ١١٣١ ، ولم يدشن كل البناء الجديد إلا في ١٥ يوليه سنة ١١٤٩ ، وهو التاريخ الذي يوافق العيد الخمسيني للاستيلاء على المدينة (بيت المقدس) ، وتمت إضافة برج النواقيس الى البناء حوالي سنة ١١٧٥ .

وكان لا مفر ان يتأثر رسم البناء الجديد بالموقع الذي كان يحده من جهة الجنوب صخرة الجلجلة ، ومن جهة الشرق بالمنحدر المؤدي الى كنيسة القديسة هيلينا ، التي تنخفض عن القبة عدة أقدام . ولذا هدم الصليبيون الجدار الشرقي للقبة البيزنطية ، فدمروا ما به من محاريب معقودة ، وأحلوا مكان المحراب المتوسط ، عقداً ضخماً يؤدي الى كنيسة جديدة . وتألفت هذه الكنيسة من مكان المرتلين تعلوه قبة مقامة على أعمدة قرب الطرف الغربي ، ويحيط به جناح ورواق ، وينحني طرفه الشرقي ، وبه ثلاثة محاريب معقودة ، ويقع بين المحراب المتوسط والمحراب الجنوبي درج يهبط الى كنيسة القديسة هيلينا . ويقع الجناح الجنوبي إزاء كنيسة الجلجلة ، التي جرت إعادة بنائها ، مع الإبقاء على الفسيفساء البيزنطية وأعمدة المدخل . وفيما بين كنيسة الجلجلة ، وما يقع الى الغرب منها من القبة (الروتوندا) ، وكنيسة القديس يوحنا ، تمّ تشييد ردهة حوت جرن

الرسامة ، وقبري جودفري وبلدوين الاول ، ويؤدي طريق من ردهة مدخل الكنيسة ، وهو المدخل الرئيسي الحالي ، الى فناء . وعلى امتداد الجناح الشمالي ، جناح خارجي ، شيد معظمه البيزنطيون ، ويُفضي الى فناء آخر ، يخرج منه دهليز يجتاز كنيسة القديسة مريم ، ويؤدي الى شارع البطريرك ، وأحاط فناء ثالث بكنيسة القديسة هيلينا ، وأحدقت به المباني الجديدة التي قامت لإيواء مقدمي الأديرة الأجسطينية ، الذين أضحوا يتولون امر الكنيسة .

الكنائس في بيت المقدس :

وما تبقى من عمارة الصليبيين بعد استباحة بيت المقدس على أيدي الخوارزمية سنة ١٢٤٤ ، وتوالي الازمنة ، وبعد ما تعرضت له من كارثة حريق سنة ١٨٠٨ ، يـــدل على صلتها الوثيقة بالكنائس الكبيرة للحج الكلوني ، ولا سيما كنيسة القديس سرمين في تولوز ، التي دشنها البابا اربان الثاني عقب مجمع كليرمونت مباشرة . ولم يكن الرواق إلا تذكاراً لأروقة كنيستي كلوني ذاتها والقديس سرمين ، وكل ما حدث من اختلاف لا يتجاوز النسب والأبعاد . وحرص مهندسو كنيسة القيامة على ان تكون الاعمدة من القصر والمتانة ما تتسق مع اعمدة القبة البيزنطية ، التي كان تصميمها يقضي فيما يبدو بقدرتها على مقاومة هزات الزلازل ، وما بها من تفاصيل زخرفية ، باستثناء ما تبقى من الفسيفساء وتيجان الاعمدة البيزنطية ، يصح مقارنتها بما في كثير من الكنائس بجنوب فرنسا ، وجنوبها الغربي ، فالرسوم المنحوتة على الابواب او المنافذ ولا سيما التي تمثل الاشخاص ، تكاد تكون بأجمعها فيما يبدو من أعمال مدرسة تولوز ، على الرغم من انه جرى نحتها محلياً على وجه الترجيح . ويبدو بصفة عامة ان المهندسين والرسامين الذين

أقاموا هذا الأثر كانوا من الفرنسيين ، والراجح انهم كانوا من جنوب غربي فرنسا ، نشأوا على التقليد الكلوني . والمعروف ان المهندس الذي شيد برج الأجراس كان اسمه جوردان وهو اسم جرت العادة باطلاقه على مَن يتنصرون في النهر المقدس (الاردن) ، والراجح انه ولد بفلسطين (١) .

وتعتبر كنيسة القيامة المشهد الوحيد العتيق الذي أدخل فيه الصليبيون تغييرات كبيرة . إذ اصلحوا عدة كنائس صغيرة مثل كنيسة الصعود على جبل الزيتون ، وقبر العذراء في جتسماني . ولم يضيفوا الى قبة الصخرة بعد ان تحولت كنيسة للداوية إلا بعض زخارف من المرمر ، والحديد ، ولم يتعرضوا ايضاً للمسجد الاقصى ، على الرغم من انهم اجروا في اساساته من التعديل ما يجعل منه اصطبلات ومخازن ، وأقاموا حول المسجد مباني لايواء رجال طائفة الداوية ، بينما اضيف جناح في الجهة الجنوبية الغربية ، صار المقر الاثير لملوك بيت المقدس . وما عثروا عليه في معظم المدن التي حلوا بها من الكنائس التي بلغت من الخراب ما لا يفيد فيها الإصلاح او غيره ، تركوها في ايدي ارباب المذاهب الاصلية الذين كانت فعلاً في ايديهم . ومع انهم حازوا بعض الاديرة القديمة ، فإنهم في الجملة آثروا ان يشيدوا لأنفسهم عمائر . فتارة استخدموا المواقع والأساسات السابقة مثلما حدث في باسيليكا جبل صهيون ، وتارة لم يحدثوا إلا تغييراً طفيفاً في اتجاه الموقع القديم مثلما جرى في كنيسة جتسماني . على انهم في اكثر الاحيان

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 144 - 180.
Duckworth, The Church of the Holy Sepulchre, pp. 203 - 258.
Harvey, Church of the Holy Sepulchre, pp. IX - X.

اختاروا المواقع بأنفسهم ، او اعادوا بنـاء الكنائس بأكملها على المواقع التقليدية [١] .

وفيما عدا كنائس الداوية التي اتخذت شكلاً مستديراً ، كان المستطيل هو الرسم الذي لا يتغير لكنيسة صغيرة ، ويقع في طرفها الشرقي محراب معقود يدخل احياناً في الجدار الخارجي . امتاز البناء بالصلابة والمتانة ، إذ كان عقداً واحداً مدبباً ، تقاطع فوقـه ذراعا صليب ، يستند اليهما سقف مسطح مشيد من الحجارة . هذا النوع من الكنائس جرى تشييده في كل قلعة ، حتى في تلك الحصون المعزولة كالتي تقع على تلال الوعيرة قرب خرائب البتراء القديمة [٢] .

أما الكنائس التي تزيد ضخامة ، فإنها كانت ايضاً مستطيلة الشكل ، ذات اجنحة جانبية على امتداد طول البناء ، ويفصلها عن صحن الكنيسة اعمدة او ساريات حجرية ، وبالكنيسة عادة ثلاثة محاريب تختفي عن خارجها في كثافـة الجدار . على انـه كان للكاثدرائية الكبيرة في صور ،

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 207 - 211, 214 - 221, 233 - 236, 243 - 245, 247 - 249.

(٢) لم يبق من الكنيسة في الوعيرة سوى المحراب، كما لم يتبق إلا اثر ضئيل لزخارف الطلاء، وليس ثمة شيء سواها من علامات الزخرفة . وما جرى استخدامه في بنائها من حجارة لأصغر فيما يبدو من تلك التي كانت مستخدمة في مباني الصليبيين . ويبدو انه كان بها مدخل صغير ، وكذا قبو تحت الارض . اما كنيسة الكرك فكانت اكبر حجماً ، بها اربع نوافذ . ومع انه يقال بأنه كان بها زخارف جصية، فإنه لم يبق منها الآن شيء. ولم تكن كنيسة الداوية فيعثليت مستديرة، انما كانت ذات اثني عشر ضلعاً ، وتنتمي الى القرن الثالث عشر .

ولكنيسة او لكنيستين اخريين اجنحة قصيرة متعامدة مع صحن الكنيسة ، واستند السقف على ذراعي الصليب ، غير انه لم تكن لها اهمية معمارية . وفي كاتدرائية انطرطوس تمّ تشييد حجرة الثياب الكهنوتية ، ومذبح التقدمة في الزاويتين بالجنوب الشرقي والشمال الشرقي . ولبعض الكنائس امثال كنيسة القديسة حنه في بيت المقدس ، وكذا كاتدرائية قيسارية ، قباب منصوبة على اعمدة تطل على الفضاء الذي يقع امام حرم الكنيسة ، ولكن السقف كان عادة مستوياً او مدوراً . أما الاجنحة الجانبية فكانت سقوفها دون اختلاف ، عقوداً من اقبية متلاقية ، ولصحن الكنيسة اما عقد من الاقبية المتلاقية ، او عقد طويل مدبب . فإذا كانت الاجنحة تقل في ارتفاعها عن سائر الكنيسة ، جرى فتح مناور في جدار الكنيسة الذي يرتفع عن الجناح كيما تجعل الضوء يصل الى صحن الكنيسة . واشتهرت النوافذ ، حتى تلك التي تقع في الطرف الشرقي ، بأنها صغيرة ، كيما تحجب ما اشتهرت به شمس سوريا من ضوء شديد . وكانت كل العقود مدببة ، فيما عد حالات استثنائية قليلة . كما ان تشييد الابراج كان امراً نادراً . إذ كان لكنيسة الدير على جبل الطور برجان ، يقع كل منهما على جانب المدخل الغربي ، وحوى كل منهما بيعة ذات محراب صغير على مستوى سطح الارض . وحدث في بعض الاحوال ان التصق برج النواقيس بالكنيسة ولكن ليس على انه جزء مستقل بذاته (١) .

(١) انظر : Enlart, op. cit. passim.

استند رنسيمان الى درايته الشخصية بالمباني .

زخارف الكنيسة :

غلبت البساطة على زخرفة القرن الثاني عشر ، إذ جرى عادة استخدام الأعمدة المأخوذة من المباني القديمة ، فاختلفت تيجان الاعمدة . فبعضها كان عتيقاً ، وبعضها جرت محاكاته على النمطين البيزنطي والعربي من التيجان الكورنثية التي تشابكت فيها الاضلاع ، والتي شيدها بناءون وطنيون او الفرنج الذين راعوا التصميمات المحلية ، وبعضها اتخذ الطراز الرومانسكي المعروف بالغرب [١] .

وكان لبعض الكنائس ، مثل كنيسة قرية العنب ، زخارف جصية على الطراز البيزنطي [٢] ، كما ان الفسيفساء كانت بكنيسة صهيون بالغرفة التي تناول فيها المسيح الفصح مع تلاميذه (العلية) وفي بيعة الرقاد (Dormition) [٣]. ونجوز ان الفنانين البيزنطيين أجروا بهذه الكنائس من العمارة ما أجروه فعلاً في كنيسة المهد في بيت لحم ، وقد بعث الامبراطور مانويل [٤] بهم

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 70 - 73.

(٢) انظر ما يلي ص ٣٨١ .

(٣) شاهد دانيال هيجومين الفسيفساء ، في السينا كل في سنة ١١٠٦ . انظر :
(Daniel the Higumene, in Khitrowo, Itineraires Russes, p. 36).
ويصف يوحنا فورتزبرج ، حوالي سنة ١١٦٠ ، الصور الفسيفسائية للرسل بها ، وما ارتبط بها من نقش باللغة اللاتينية يصف حلول الروح القدس ، فضلا عن الفسيفساء في كنيسة الرقاد ذاتهـا ، مع نقش مكتوب باللغة اللاتينية ، غير انه استخدم المصطلحات اليونانية . انظر يوحنا فورتزبرج (P. P. T. S. pp. 42 - 43) .

(٤) انظر ما يلي ص ٦٤٦ .

وبما يلزمهم من مواد . على ان زخارف الصور كانت نادرة ، فما كان حول العقود من زخارف منحوتة كانت عادة على هيئة شريط متعرج ، او نجمة مكررة ، مدببة الزوايا الاربع ، ولم يبقَ من الاشكال المنحوتة إلا عدد ضئيل. اما سنوح العقود (Voussoirs) فكانت عادة موسّدة . ومن الزخارف ما اتخذ مجردشكل وردة [١] .

على ان ما كان لكنائس القرن الثاني عشر من تأثير عام ، اتسم في بعض الاحوال بالثقل والكثافة بالقياس الى البناء المعاصر في الغرب ، ويرجع هذا الى ضرورة تجنب استخدام الخشب ، والاحتراز من وقوع الزلازل ؛ على ان النتيجة انها كانت عادة دقيقة في أبعادها . ولا شك ان الصليبيين صحبوا معهم مهندسيهم ، الذين تشبعوا بالاشكال المعروفة في فرنسا ولا سيما في بروفانس وتولوز ، على انه من الجلي انهم التمسوا النصيحة من البنائين المحليين . فما أقاموه من عقود مدببة إنما تعلموها في الشرق ، إذ ان الامثلة الاولى المعروفة منها في الغرب ، هي التي قامت في الكنيستين اللتين أمرت بتشييدهما حوالي سنة ١١١٥ إيدا كونتيسة اللورين ووالدة اول ملكين لبيت المقدس (جودفري وبلدوين الاول) من الفرنج . إذ ان ابنها الاكبر يوستاس بولونيا ، كان قد عاد حديثاً من فلسطين . ومن العسير ألا نعتقد ان المهندسين العائدين أشاعوا التصميم الجديد في الغرب ، حيث جرى تطويره كيما يناسب الحاجات المعمارية المحلية [٢] .

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 93 ff.

(٢) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 3 - 4, 67 - 68.

فما كان في كنيستي ايدا في واست، وسانت فلمر في بولونيا، من الزخارف، تعيد الى الخاطر=

من المستحيل وضع قواعد عامة عن اصول تفاصيل مختلف فنون العمارة والزخرفة . فقبة كنيسة القديسة حنه في بيت المقدس شديدة الشبه بما شيده المهندسون الفرنسيون من قباب في بريجورد . على ان نفس نمط هـذه القبة المقامة على أعمدة دون ان تستند الى رقبة يصح العثور عليه في الشرق [1] . وبلغ التشابه بين النحت الرومانسكي والنحت البيزنطي والارمني ، انه يتعذر التفرقة بينهما . والراجح ان الصور المنحوتة ، وتيجان الاعمدة بالغة الغرابة ، كانت من صناعة الفنانين الفرنج ، أما التصميمات التقليدية لزخارف اوراق النباتات الشوكية او اوراق الكروم ، فإنه جرى استنباطها محلياً . ويبدو ان طراز الأشرطة المتعرجه في تيجان الاعمدة امتد من الجنوب صوب الشمال ، حتى في اوربا ، أما تيجان الاعمدة التي على هيئة ناب الكلب فكان طرازها معروفاً فعلاً في الشرق . ويظهر ، مثلما يظهر سنوح الاعمدة الموسّدة ، على مدخل القاهرة الكبير ، المعروف باسم باب الفتوح زمن الفاطميين ، الذي شيده مهندسون من الارمن قدموا

= في جلاء العمارة العربية . فالعقود المدببة كانت مستخدمة حوالي ذلك التاريخ في كلوني . وما قام به المهندسون الارمن من دور في ذيوع العقود المدببة يقتضي التفكير . انظر :

Baltrusaitis, Le Problème de l'Ogive d'Armenie, pp. 45 ff. esp. pp. 68 - 76.

Clapham, Romanesque Architecture, pp. 107 - 112.

أشار كلابهام الى جهود الارمن في فن العمارة في الشرق الفرنجي .

(١) انظر : Clapham, loc. cit.

لم يكن لقبة كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية هذه الرقبة ، وهذا الطراز كان نادراً في العمارة الفارسية .

من الرها ، وهي المدينة التي يعتبر البيزنطيون منذ بضع عشرات السنوات مسئولين عن كثير من المنشآت الحديثة بها [١] .

الفسيفساء والجصيات :

تدل النماذج الباقية من الفنون التصويرية على ان التأثير البيزنطي كان من بالغ القوة ما يدعو الى الارتياب فيما اذا كان الفنان الفرنجي مارس عمله في الشرق . فمن المحقق ان الفسيفساء في بيت لحم وضع تصميمها وأجراها فنانان من القسطنطينية ، اسماهما باسيل وإفرايم ، على الرغم من انهما عملا متعاونين مع السلطات اللاتينية المحلية ، إذ أن القديسين الغربيين والشرقيين كانوا سواء ، إذ جرى الحرص على تصويرهم ، كما ان النقوش وردت باللغتين اللاتينية واليونانية . والراجح أن صورة المسيح بالفسيفساء في كنيسة اللاتين بالمكان المعروف بالجلجلة كان من صناعتهما [٢] . اما الصور

---

(١) انظر : Clapham, op. cit. pp. 110, 112 - 113.
لم يؤد كلاهما قبول المقارنات الارمنية الوثيقة الصلة بالعمائر ، نظراً لما ساوره من الشكوك حول تحديد التاريخ . غير ان زخرفة الكنائس في ارمينية الكبرى يصح تحديد تاريخها في شيء من الدقة . انظر :
Der Nersessian, Armenia and the Byzantine Empire, pp. 84 - 109.
يبين صعوبة تتبع اصول الانماط الزخرفية .

(٢) انظر : Church of the Nativity at Bethlehem, (ed. Schultz), pp. 31 - 37, 65 - 66.
(حسب وصف يوحنا فوقاس) .
Enlart, op. cit. I, p. 159.
II, pp. 65 - 66.
Dalton, Byzantine Art and Archaeology, pp. 414 - 415.

الجصية بقرية العنب ، والتي تعرضت للدمار في سرعة فإنها بيزنطية في نمطها ، ومع أن اختيار الموضوعات ينم عن الصفة الشرقية ، فإن النقوش كانت لاتينية [١] . ومن المحقق ان فنانين يونانيين مارسوا عملهم في فلسطين حوالي سنة ١١٧٠ في رعاية الامبراطور مانويل ، وكانوا مسئولين عن الصور الجصية في ديري قلمون والقديس يوثيميوس الارثوذكسيين . ولا شك ان رجال الدين اللاتين بقرية العنب شغلوا انفسهم بزخرفة كنيستهم [٢] . اما الكنيسة الصغيرة في اميون التي لا تبعد كثيراً عن طرابلس ، فإن عمارتها دعت الى اعتبارها من الآثار الصليبية ، غير أن تطويبها للقديس فوقاس اليوناني ، ونقوشها اليونانية ، وصورها الجصية البيزنطية ، كل ذلك يدل على انها كانت دائماً مشهداً ارثوذكسياً . وتبيّن صعوبة التفرقة القاطعة بين الطرازين المحلي والفرنجي [٣] . وأفادت كنائس فرنجية عديدة من المنح التي حصل عليها كبار رجالها من الامبراطور البيزنطي بالقسطنطينية . وينهي الينا رئيس الاساقفة العظيم وليم الصوري أن الامبراطور مانويل غمره بالهدايا القيمة لكاتدرائيته [٤] . كما أن جشة اشارد اسقف الناصرة

= انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٦٣٢ — ٦٣٣ ، حاشية ١ .

على ان صورة المسيح بالفسيفساء ، نقلها من عقد الكنيسة اللاتينية بالجلجلة هارفي وجعلها اول صورة في كتابه ، ولم يكتب عنها إلا النزر اليسير، ولعلها صناعة بيزنطية ترجع الى القرن السابق .

(١) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 323 - 324.

(٢) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٦٣٣ ، حاشية ١ .

(٣) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 35 - 37.

(٤) انظر : William of Tyre. XXII, 4, p. 1068.

الذي قام بزيارة القسطنطينية لاجراء مفاوضات عن زواج الملك بلدوين الثالث ، ثم مات بها ، عادت مثقلة بالهدايا [١] . ظل الاتصال مستمراً بين الشرق الفرنجي وبيزنطة طوال القرن الثاني عشر ، ولا سيا زمن الامبراطور مانويل ، ولا بدّ ان كان لبيزنطة تأثير فني قوي ، استمر الى القرن التالي . فما اورده ويلبراند اولدينبورج من وصف لقصر اسرة ابلين في بيروت ، بما حفل به من الفسيفساء والرخام ، يوحي بالصناعة البيزنطية ، والمعروف ان يوحنا ابلين الكبير سيد بيروت كان ابناً لأميرة بيزنطية [٢] .

على ان القصر ببيروت يعتبر من قبيل الاستثناء ، إذ ان فن العمارة في الشرق الفرنجي كان اكثر التزاماً في القرن الثالث عشر بالتقاليد الفرنسية عما كان في القرن الثاني عشر . وإذ اقتصرت بلاد الفرنج على المدن الساحلية ، لم يكن للصناع الوطنيين والتقاليد المحلية فيما يبدو سوى دور صغير . وتعتبر كاتدرائية البشارة في الناصرة ، آخر ما تمّ تشييده من الكنائس الهامة قبل فتوح صلاح الدين . وتحطم البناء على يد بيبرس ، غير ان ما تبقى من الصورة المنحوتة المشهورة ، تعتبر فرنسية خالصة . على ان الباب الخارجي الكبير ، وتحمل معظم الابواب حلية وزخرفة ، كان فيما يبدو شديد الشبه بأبواب كاتدرائيات فرنسية كثيرة في ذلك العصر ، وكان كل البناء على وجه التحديد أقرب الى الطراز الفرنسي منه

---

(١) انظر : Ibid, XVIII, 22, p. 857.

(٢) انظر : Wilbrand of Oldenburg in Laurent, Peregrinatores Medii Aevi Quattuor, pp. 166 ff.

انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥٠٧ .

الى الطراز المحلي السابق [1] . امـا أهم كنيسة شيّدت في القرن الثالث عشر ، وهي كنيسة القديس اندرياس في عكا ، فكانت عبارة عن بنـــاء قوطي جميل مرتفع ، ولا زال باقيـاً منه بعض الآثار ، غير ان أوصاف ورسوم الرحالة المتقدمين تؤكد جميعها ما كانت عليه الكنيسة من ارتفاع . فاشتهرت أجنحتها الجانبية بالارتفاع ، وبأن الضوء ينفـذ اليها من نوافذ مرتفعة ضيقة حادة التدبيب ، ويجري تحت النوافذ حول الجدران الخارجية بهو من العقود الدقيقة . وليس بوسعنا ان نشير كيف تجري إضاءة صحن الكنيسة او الطرف الشرقي منها . غير انه يقع بأعلى الباب الغربي ثلاث مناور كبيرة ، ومن فوقها ثلاثة مناور صغيرة مستديرة . وكل ما تبقى الآن من الكنيسة هو شرفة المدخل ، التي جرى نقلهـا من الطرف الغربي فيما يبدو على ظهور الإبل الى القاهرة بعـد الاستيلاء على عكا ، وتمّ تركيبها لتكون مدخلاً الى الجـــامع الذي تمّ تشييده تخليداً لذكرى السلطان الأشرف الذي فتح عكا . وامتازت أبعادها بالارتفاع والدقـة ، إذ كانت عبارة عن ثلاثة اكتاف مربعة تحيـــلة بينها عمودان مربعان اكثر دقة وكلها تحمل منحنى قوسي العقد من كل جانب ، ويتسق المنحنى مع الاكتاف المربعة . وفي فضاء العقد ، عقـد على هيئة اوراق نبات البرسيم ، تخترقه مناور صغيرة مستديرة . وليس الطراز سوى الطراز القوطي المبكر المعروف في جنوب فرنسا [2] .

ويدل مبنى حصن الاكراد الذي يرجع الى القرن الثالث عشر على

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. pp. 298 - 310.

(٢) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 15 - 23.

نفس الذوق والميل الى الارتفاع الشديد . إذ ان حجرة مقدم الحصن المكشوفة للهواء ، وقاعة المآدب الكبيرة تعتبران غربيتين في الروح . وكان لقاعة المآدب شرفة تحاكي في أبعادها شرفة كنيسة القديس اندرياس في عكا ، على الرغم من ان أكتافها تقل عنها دقة وجمالاً ، غير انه كان بوسط عقدها نافذة من خشب الورد ، دقيقة الصنع ، بينما كان بشرفة مدخل كنيسة القديس اندرياس منور صغير مستدير(١) .

ومن سوء الحظ انه لم يبق إلا عدد ضئيل من آثار القرن الثالث عشر ، على انه في الجملة أخذ طراز الشرق الفرنجي يقترب من الطراز القوطي الفرنسي في جزيرة قبرص الخاضعة لحكم أسرة لوزجنان ، وابتعد عن الطراز الذي نشأ في موطنه الاصلي في القرن السابق . وما تبقى من أثر في الناصرة يوحي ان الفن الصليبي حافظ على الاتصال بحركة الفن القوطي في الغرب . على ان فتوح صلاح الدين أغوت عدداً كبيراً من الصناع الوطنيين على ان يجربوا حظهم عند المسلمين ، كما ان انهيار بيزنطة في أوائل القرن التالي لا بد انه اضعف التأثير البيزنطي ، ونقلت الحملة الصليبية الثالثة معها الى الشرق عدداً كبيراً من الفنانين الغربيين . وما وقع في نفس الوقت من العداء بين الكنيستين اللاتينية والارثوذكسية ، دعا فيما يبدو الى ازدياد حدة التفرقة بين طرازيهما .

كتاب المزامير والملكة ميليسند :

لم يبقَ إلا مخطوطة واحدة مزينة بالصور ترجع الى القرن الثاني عشر ،

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 134 - 137.

والمعروف انها جاءت من الشرق الفرنجي ، وهذه المخطوطة هي كتاب المزامير المعروف بأنه كتاب الملكة ميليسند . ومن المحقق انه قد حازته امرأة ، وإذ أشار الى وفاة بلدوين الثاني والملكة سورفيا ، ولم يذكر وفاة الملك فولك ، جرى الافتراض انه تملكته ميليسند ، وأنه تمت كتابته قبل وفاة الملك فولك . ومع ذلك فإنه يجوز ايضاً انه كتب لأخت ميليسند، وهي يوفيتا رئيسة دير بيتاني ، وفي تلك الحالة ، إذا لم يكن للإشارة عن فولك صلة من الصلات ، يصبح جعل تاريخه في أية سنة من حياة يوفيتا ، أي حوالي سنة ١١٨٠ . وكتب المتن ناسخ لاتيني بارع ، على ان عنوانات القطع المزخرفة تغلب عليها الصفة اللاتينية لا البيزنطية ، بينما كانت الرسوم التي تملأ الورقة بيزنطية ، على النمط السائد في الاقاليم الشرقية للأمبراطورية . وظهر توقيع المصور واسمه باسيل ، والراجح انه نفس باسيل الذي كان مسؤولاً عن اعمال الفسيفساء في بيت لحم في سنة ١١٦٩ . وتحاكى الصور من بعض الوجوه كتاب دروس الكنيسة اليومية (التلاوات) في سوريا، الذي زينه يوسف الملطي زمن الاسقف يوحنا ، الذي ليس إلا الاسقف الذي تولى كنيسة ملطية من سنة ١١٩٣ الى سنة ١٢٢٠ . والراجح ايضاً ان الفنان الذي زين كتاب ميليسند عن المزامير كان سوريا ، تدرّب في مدرسة بيزنطية ، والراجح ان الكتاب جرى نسخه ليوفيتا رئيسة الدير حوالي خاتمه حياتها الطويلة [١] .

---

(١) انظر : Boase, « The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem », in Journal of the Warburg Institue, vol. II, pp. 14 - 15.
Dalton, Byzantine Art and Archaeology, pp. 471 - 473.

ومن المخطوطات مجموعة طريفة تعتبر عادة من اعمال الصقليين ، والتي اثبت البحث الحديث على انها كتبت في عكا حوالي زمن مكوث القديس لويس بها ، من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٢٥٤ . والملحوظ انها بيزنطية في نمطها . وقد سبق للقديس لويس ان عقد صفقات كثيرة مع الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني بالقسطنطينية ، وقــد يكون من بين التحف التي حازها ، المخطوطات التي جرى انفاذها اليه في عكا ، والتي استوحاها الفنانون الذين يعملون بها . ومن المستحيل ان نقول مـا اذا كانت المدرسة ظلت باقية بعد عودة الملك لويس الى فرنسا [١] .

الفنون الصغرى :

لم يحتفظ من الفنون الصغرى إلا النزر القليل ، ومن المستحيل ان نذكر ما كان مصنوعاً منها محلياً او مستورداً من الشرق او من الغرب . ولا شك ان الأثاث والاشياء التي يجري استخدامها يومياً ، جاء من المصانع

= يعتقد دالتون ان الرسوم التي تملأ الصفحة لتنتمي الى الاقاليم البيزنطية، وانها وضعت لكتاب آخر . كما ان عناوين القطع زينها فنان آخر ، ولعلها كانت رومانسكية غربية ، وإنما وقعت تحت مؤثرات شرقية (مثال ذلك رسم القديس يوحنا الانجيلي بلحية). على ان الرسام الثاني كان اكثر دقة وبراعة من الرسام الاول، غير ان ألوانه أضعف . ويظن دالتون (East Christian Art, p. 309.) ان الفنان الاول قد يكون ارمنياً . انظر :

Buchtal, « The Painting of Syrian Jacobites », in Syria, vol. XX, pp. 136 ff. esp. 138.

(١) كل حكم على هــذه المجموعة من المخطوطات لا بد ان ينتظر صدور كتاب الدكتور هـ. بشتال .

القائمة بالبقعة ذاتهـــا . والراجح ان سلع الحلى والزينة تمّ استيرادها من الخارج ، من القسطنطينية او من المدن الاسلامية الكبيرة ، او جلبها الزائرون القادمون من فرنسا او ايطاليا . فما تمّ العثور عليه في القرن التاسع عشر في اساسات مبـاني الأديرة في بيت لحم من مجموعة تحف شملت حوضين من النحاس الاصفر ، كانت فيما يبدو تنتمي الى المدرسة الموسانية في القرن الثاني عشر ، وقد حُفرت عليهما مجموعة من الصور التي تمثل حياة القديس توماس الرسول ، وكذا شمعدانين من الفضة يبدو انهما من صناعة بيزنطية ترجع الى أواخر القرن الثـــاني عشر ، فضلاً عن شمعدان يفوق السابقين ضخامة ، وصولجان الاسقف من صناعة التكفيت في ليموج في القرن الثالث عشر (١) . ومـا أقامه الصليبيون في قبة الصخرة من حاجز من القضبان المتشابكة ربما كان مصنوعاً محلياً ، مع انه شديد الشبه بالمصنوعات الحديدية بفرنسا (٢) .

اما الشمعدانات المتشعبة المحلاة والمصنوعة من الحديد فقد جرت صناعتها فيما يبدو محليـاً ، غير انها اتخذت مـا كان سائداً في غرب اوربا من التصميات (٣) . لم يتبق شيء معروف من الفخار او الزجاج . وجرى ضرب النقود ، وصناعة الاختام محلياً ، وإذ كان المقصود من النقود انها تستخدم في الشرق ، اتخذت النماذج الاسلامية المحلية ، بل ان نقوشها كانت باللغة العربية . واتسمت اختام القرن الثاني عشر بالبساطة والغلظ ، اما اختام

(١) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 172 - 201.
(٢) انظر : Ibid, II, pp. 310 - 311.
(٣) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 175 - 179.

القرن الثالث عشر فإنها كانت اكثر جمالاً ودقة [١] . وما هو محفوظ الآن في بيت المقدس من وعاء من البلور للمخلفات الدينية ، مركّب في قطعة من الفضة على هيئة الركاب ، ومطعم بالجواهر ، وحوى بداخله صندوقاً صغيراً منحوتاً من الخشب ، يعتبر فيما يبدو من الصناعة المحلية ، على الرغم من أن المصنوعات البلورية والفضية جاءت فيما يبدو من اوربا الوسطى [٢]. ولم يتبق من مصنوعات العاج سوى اللوحتين دقيقتي الحفر ، اللتين تستخدمان غطاءين لكتاب المزامير الذي يخص الملكة ميليسند ، وشملت اللوحة الاولى زخارف بارزة تروي قصة داود ، وفي زواياها رسوم تمثل الصراع بين الخير والشر ، أما اللوحة الاخرى فشملت افعال لرحمة ، وفي زواياها رسوم حيوانات خرافية . على ان علم الصور المقدسة يرجع الى الغرب لا الى بيزنطة ، مع ان الملابس الملكية بيزنطية الصنع ، وأن الحيوانات مغربية ، وأن الزخرفة ارمنية في وحيها وإلهامها ، وليس من الراجح فيما يبدو انه كان يعيش في بيت المقدس صانع عاج من هذا الطراز الرفيع الشأن . ولعل اللوحتين كانتا هدية من جهة اخرى [٣] .

---

(١) انظر : Schlumberger, Sigillographie de l'Orient Latin, esp. introduction by Blanchet.

(٢) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 197 - 198.

(٣) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 199 - 200.
Dalton, Byzantine Art and Archaeology, pp. 221 - 223.
East Christian Art, p. 218.
يشير دالتون الى الخصائص الشرقية ، ويعتقد إن الذي حفر اللوحتين كان صانعاً محلياً .
انظر : Boase, loc. cit.

على ان ضآلة الدليل ينبغي ألا تفسر على ان يقصد به ، انه لم يصنع إلا شيء قليل . فإذا ازدهر فن العمارة ، فالراجح ان تزدهر ايضاً سائر الفنون ، وتعرض نفس الانعكاس للحياة في الشرق الفرنجي . وما اتصف به القرن الثاني عشر من عمارة انتقائية ، ليست إلا من عمارة النزلاء الذي كانوا مستعدين لأن يوائموا انفسهم مع البلاد التي جاءوا اليها ، على الرغم من قدوم الامداد باستمرار من الغرب لتعزيزهم وتدعيمهم . غير ان ما وقع من هزائم في نهاية القرن الثاني عشر قضى على التوازن القديم ، فلم يبق على قيد الحياة في القرن الثالث عشر إلا عدد قليل من الاسرات الكبيرة القديمة في الشرق الفرنجي . واحتل مكانها الطوائف الدينية العسكرية ، التي كان دائماً يجري تجنيدها من الغرب ، ولا تكن إلا شعوراً ضئيلاً نحو التقاليد المحلية . اضحت العناصر المحلية في المدن معزولة ، فتطلعت عكا صوب الغرب . اضحت الثروة بأيدي الايطاليين ، بينما استقرت السلطة والقوة في ايدي الامراء القادمين من الغرب او نوابهم . وازداد نزوح التجار والنبلاء الى جزيرة قبرص ، حيث اخذت مدنية قوطية جديدة في النهوض . ومع انه لا زال يسمع من بيزنطة والشرق بعض الاصداء ، فإنها اخذت تزداد خفوتاً . إذ ان بيزنطة اضحت في الخسوف ، وما كان للعرب من حضارة ازالها المغول ، واتسمت حضارة المماليك الجديدة في مصر بالعداوة التي تنزع للاعتداء . وقد يستمر البناء في انطاكية ، غير ان النهب والزلزال والتداعي قد دمر كل دليل . وما حدث في اقصى الجنوب من محاولة الشرق الفرنجي لبناء طراز خاص به ، لقيت الدمار في ساحة حطين . وما اتصف به الشرق الفرنجي في القرن الثاني عشر من عمل متواضع صلب كان بداية لم تؤد الى شيء . اما الشرق الفرنجي في القرن الثالث عشر فلم يكن إلا اقليماً نائياً من اقاليم العالم القوطي بالبحر المتوسط .

الفصل الثالث

سقوط عكا

لما ورد نبأ وفـاة بيبرس ، ابتهج الناس في الشرق الفرنجي . إذ ان اكبر أبنائه واسمه بركة ، الذي خلفه في دست السلطنة ، كان شاباً ضعيفاً ، استنفد عهده في محاولة ضبط الأمراء المماليك ، وكان هـذا الامر من الضخامة ما لا يقوى عليه . ففي اغسطس سنة ١٢٧٩ اعلن الثورة الامير قلاوون قائد القوات بالشام ، وزحف على القاهرة ، فتنازل بركة عن العرش لأخيه الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وتولى قلاوون مقـاليد الحكومة . ولم تنقضِ اربعة شهور حتى نزع قلاوون الطفل من السلطنة ، ونصّب نفسه سلطاناً . على ان نائب دمشق ، سنقر الاشقر ، رفض الاعتراف بسلطنة قلاوون ، وأعلن نفسه سلطاناً بدمشق في ابريل التالي (١٢٨٠) ، غير انه لم يكن بوسعه ان يصمد في موقفه إزاء المصريين . إذ انه بعد ان دارت معركة في موضع قرب دمشق في يونيه سنة ١٢٨٠ ، انسحب سنقر الاشقر الى شمـال سوريا ، ولم يلبث ان تصالح مع قلاوون الذي

حاز بذلك كل تراث بيبرس [١] .

ولم يفد الفرنج من فترة الراحـة التي تهيأت لهم . ولم يجد نفعاً مـا حاوله الايلخان اباقا ، وتابعه ليو الثالث ملك ارمينية من اجراء محالفة ، وإثارة حرب صليبية . فلم يساندهما إلا فرسان الاسبتارية . اما شارل انجو المعروف بكراهيته لبيزنطة وحلفائها من الجنويين ، فإنه أمر نائبه بعكا ، روجر سان سفيرينو بأن يحافظ على التحالف مع البنادقة ، والداوية ، والبلاط المملوكي . وإذ حرص البابا على أن يصرف شارل انجو عن شن هجوم على القسطنطينية ، بعد ان وعده الامبراطور ميخائيل بأن تخضع له الكنيسة البيزنطيـة ، شجع شارل انجو في خططه بسوريا . ومع ان ادوارد الاول ملك انجلترا اظهر تعاطفه مع المغول ، فإنه كان بالغ البعد في انجلترا ، ولم يتوافر له من الوقت والمال ما يكفي لإعداد حملة صليبية جديدة [٢] .

وإذ جـاز لبوهمند السابع في الشرق الفرنجي ان يتعاون مع خـاله الأرمني ، فإنه لم يكن في علاقات طيبة مع الداوية ، وحدث سنة ١٢٧٧ ان وقع شجار بينه وبين اشد اتباعه مراساً ، وهو جاي الثاني امبرياكو ، سيد جبيل . إذ أن جاي وهو ابن عم بوهمند وصديقه الحميم ، سبق ان حصل على وعد بأن يتزوج اخوه يوحنا من وريثة اسرة أليان المحلية .

---

(١) انظر : Abu'l Feda, pp. 157 - 158.
Makrizi, Sultans, I, II, p. 171, II, I, 26.
d'Ohsson, Histoire des Mongols, pp. 519 - 522.

(٢) انظر : Hayton, Flor des Histoires, pp. 180 - 181.

غير ان بارثولوميو اسقف انطرطوس كان يود ان يجعل الارث لابن اخته ، وظفر بموافقة بوهمند . ولم يسع جـاي عندئذ إلا أن يختطف الفتاة ، ويزوّجها من اخيه يوحنا . وإذ خشي جاي انتقام بوهمند ، فرّ الى الداوية . وردّ بوهمند بـــأن دمّر عمائر الداوية في طرابلس ، وقطع اشجار غابة كانوا يملكونها في مونتروك (أبو حلقة) قرب طرابلس. فبادر مقدم الداوية ، وليم بوجيه على الفور بقيادة فرسان الطائفة لمهاجمـة طرابلس ، فقام بمظاهرة خارج اسوارها ، ولما انسحب أشعل النار في قلعة البترون ، غير ان مـا قام بـه من محاولة لاقتحام نيفين أدت الى أسر اثني عشر من فرسانه ، كان بوهمند ألقى بهم في الحبس في الوقت المناسب . ولـما تحرّك الداوية راجعين الى عكا ، نهض بوهمند لمهاجمة جبيل ، على ان جاي الذي خلف له وليم بوجيه كتيبة من الداوية ، توجه للقاء بوهمند ، فدارت معركة ضارية على مسافـــة بضعة اميال شمالي البترون . واشترك في القتال من كل من الجانبين نحـو مائتي فارس ، غير ان القتال اشتد وازداد عنفاً . وتعرّض بوهمند لهزيمة ساحقة ، ومن الفرسان الذين فقدهم بوهمند في المعركة ابن عمه ، وصهر جاي ، باليـــان سيد صيدا الذي يعتبر آخر من تبقى من اسرة جارنييه الكبيرة [١] .

الحرب الاهلية في طرابلس سنة ١٢٨٢ :

وقبل بوهمند عقد هدنة لمدة سنة بعد ان حلت به الهزيمة ، غير ان

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 481.
Gestes des Chiprois, pp. 207, 210 - 213.

جاي والداوية هاجموه من جديد سنة ١٢٧٨ . وحلت الهزيمة مرة اخرى ببوهمند ، على ان عاصفة شتت اثنتي عشرة سفينة للداوية حاولت ان تشق طريقها الى ميناء طرابلس . ومـــا ارسله بوهمند عندئذ من سفن عددها خمس عشرة سفينة لمهاجمة قلعة صيدا التابعة للداوية ، نجحت في إلحـاق الضرر بها قبل ان يتدخل مقدم الاسبتارية ، نقولا لورجان ، فعجل بوهمند بالمسير الى طرابلس ، ووافق على عقد هدنة جديدة . ولكن جاي سيد جبيل لا زال يهدّد ويتوعد ، إذ عزم على ان يستولي على طرابلس ذاتها . ففي يناير سنة ١٢٨٢ استطاع ان يتسلل مع اخوته وبعض اصدقائه الى أحياء الداوية في طرابلس . غير انه سبق ان وقع سوء تفاهم ، وكان قائد الداوية ريديكير متغيباً ، وارتاب جاي في حدوث خيانة ، فاشتد ذعره ولما حاول ان يلجأ الى دار الاسبتارية ، تلقى بوهمند اخطاراً بذلك من بعض الاشخاص ، فهرب المتآمرون الى برج بالاسبتار ، حيث حاصرهم جند بوهمند . على انه حدث بعد بضع ساعات ان وافقوا بناء على طلب الاسبتارية على ان يستسلموا بشرط الإبقاء على حياتهم ، غير ان بوهمند نقض عهده ، فأمر بسمل عيون رفاق جاي ، بينما تقرر نقل جاي الى نيفين ، مع اخويه يوحنا وبلدوين وابن عمه وليم ، فجرى إنزالهم بخندق ، ودفن اجسادهم حتى اعناقهم ، وظلوا على هذه الصورة حتى هلكوا جوعاً .

وارتاع جميع أتباع بوهمند ، لمـا تعرض له العصاة من مصير رهيب . يضاف الى ذلك ان اسرة امبرياكو كانت تتذكر اصلها الجنوي ، وكان من المتآمرين كثير من الجنويين . وإذ كان الجنويون اصدقاء مخلصين للأرمن ومن دعاة التحالف مع المغول ، ابتعد بوهمند عن سياستهم . وفي تلك الأثناء تجهز يوخنا مونتفورت الصديق الحمـيم للجنويين للتحرك من صور

للانتقام لأصدقائه ، غير ان بوهمند سبقه في الوصول الى جبيل . ولم يبتهج لكل هذا الحادث سوى البيازنة الذين كرهوا الجنويين .

ولم تكن الأمور السياسية بأحسن حالاً في أقصى الجنوب ، إذ ان حكومة روجر سان سفيرينو في عكا لم تكن مقبولة من النبلاء المحليين . ففي سنة ١٢٧٧ ، حاول وليم بوجيه ان يجتذب الى جانبه يوحنا مونتفورت ، ونجح في التوفيق بين يوحنا والبنادقة ، الذين اضحى مسموحاً لهم بالعودة الى احيائهم السابقة في صور . غير ان يوحنا التزم الابتعاد عن حكومة عكا . وفي سنة ١٢٧٩ هبط الملك هيو فجأة الى صور ، أملاً في ان يحمل النبلاء على الالتفاف حوله . فسانده يوحنا ، ولم ينهض احد غيره لنصرته وتأييده . على ان فترة الشهور الاربعة التي يصح له قانوناً بمقتضاها ان يحضر اتباعه القبارصة من وراء البحار ، قد انقضت دون ان يجري فيها شيء من النشاط . فلما عاد فرسانه الى قبرص ، لم يسع الملك إلا ان يقتفي أثرهم . ووجه اللوم الى الداوية لما اصابه من فشل ، بحجة ان وليم بوجيه هو الذي جعل عكا على ولائها لروجر سان سفيرينو . وللانتقام من الداوية صادر ممتلكاتهم في قبرص ، ومن بينها قلعتهم في جاستريا . ورفع الداوية شكواهم الى البابا ، الذي كتب الى هيو يأمره بإعادة املاك الداوية ، غير انه تجاهل امر البابا . ومع ان هيو أقرّ ، فيما يبدو ، التحالف مع المغول لا لسبب سوى ان روجر سان سفيرينو يعارض هذا التحالف ، فإنه لم يكن في وضع يسمح له بأن يتخذ اجراء على البر السوري [1] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 207.
Annales dē Terre Sainte, p. 457.

كان إلايلخان اباقا حريصاً على ان يقاتل المماليك ، قبل ان يستطيع قلاون توطيد مركزه . وإذ لا زال سنقر نائب دمشق السابق يتحدى المصريين في شمال سوريا ، عبر نهر الفرات جيش مغولي في نهاية سبتمبر سنة ١٢٨٠ ، فاحتل عين تاب ويغراس ودربساك . وفي ٢٠ اكتوبر دخل حلب ، حيث نهب الاسواق وأشعل الحريق في المساجد . فهرب الى دمشق المسلمون من سكان تلك المناطق وقد استبدّ بهم الخوف والجزع . وحدث في نفس الوقت ان قام المغول بغارة مثمرة على البقيعة بعد ان توغلوا في سيرهم ، حتى كادوا يبلغون حصن الاكراد ، ثم أنزلوا قرب مرقية اثناء عودتهم ، الهزيمة بجيش اسلامي ، قدم لوقف زحفهم . على ان المغول لم يكونوا من القوة ما يكفي للابقاء على حلب في ايديهم . فلما حشد قلاون قواته في دمشق ، ارتدوا الى ما وراء نهر الفرات . واكتفى السلطان قلاون بإنفاذ قوة لإنزال العقاب بالاسبتارية الذين دحروها امام حصن المرقب (١) .

وحوالي ذلك الوقت ، ظهر في عكا سفير مغولي ، قدم لينهي الى الفرنج ان إلايلخان اقترح ان يرسل الى سوريا في الربيع التالي ، جيشاً مؤلفاً من مائة الف رجل ، وليلتمس منهم ان يمدوه بالرجال والذخائر . فبعث الاسبتارية بالرسالة الى ادوارد ملك انجلترا ، ولم يلقَ سفير المغول استجابة

---

(١) انظر :
Makrizi, Sultans, II, I, p. 26.
Abu'l Feda, p. 158.
Bar - Hebraeus, p. 463.
Gestes des Chiprois, pp. 206 - 208.

في عكا . على ان نبأ الغارة المقبلة للمغول أزعج قلاون ، فعقد صلحاً مع سنقر في يونيه سنة ١٢٨١ ، بأن جعل انطاكية وأفامية إقطاعاً له . وأرسل الى عكا يعرض عقد هدنة مع الطوائف الدينية العسكرية لمدة عشر سنوات . اما الهدنة التي سبق عقدها مع حكومة عكا سنة ١٢٧٢ فلا زال باقياً على نهاية اجلها سنة واحدة . على ان بعض الأمراء في السفارة المصرية الموفدة الى عكا ، اخطروا الفرنج بألا يعقدوا صلحاً مع قلاون ، إذ أنه لن يلبث ان يهوي من السلطنة . فلما سمع بهذا روجر سان سفيرينو ، بادر على الفور بالكتابة الى السلطان يحذره ، فاستطاع ان يلقي القبض على المتآمرين في الوقت المناسب . وفي تلك الاثناء وافقت الطوائف الدينية العسكرية بعكا على الهدنة التي تمّ ابرامها في ٣ مايو . وعقد بوهمند هدنة مماثلة مع قلاون في ١٦ يوليه ، وكان ذلك انتصاراً دبلوماسياً لقلاون . إذ أن توحيد الفرنج لجهدهم على احد جناحي جيشه ، ولو لم تقدم امداد من الغرب ، كان لا بدّ ان يعرقل حملته لقتال المغول [1] .

معركة حمص سنة ١٢٨١ :

في سبتمبر سنة ١٢٨١ توجه الى سوريا جيشان مغوليان ، الاول يقوده إلا يلخان أباقا ذاته ، وتولى أثناء سيره البطيء إخضاع الحصون الاسلامية الواقعة على امتداد حد الفرات ، أما الجيش المغولي الثاني الذي قاده شقيقه

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, II, I, pp. 28 - 34.
Röhricht, p. 374.

منجو تيمور ، فإنه بادر اول الامر بالاتصال بليو الثالث ملك ارمينيا ، ثم هبط الى وادي نهر الاورنت بعد ان اجتاز عين تاب وحلب . وكان قلاون قد توجّه فعلاً الى دمشق ، حيث حشد قواته ، ثم هرع صوب الشمال . ونأى الفرنج عن النزاع ، باستثناء الاسبتارية في حصن المرقب ، الذين رفضوا اعتبار انفسهم ملزمين بالهدنة التي عقدها الاسبتارية في عكا . فركبت فئة قليلة منهم للحاق بملك ارمينية . وفي ٣٠ اكتوبر سنة ١٢٨١ التقى الجيشان المملوكي والمغولي خارج حمص . وتولى منجو تيمور قيادة قلب الجيش المغولي ، واتخذ أمراء مغول آخرون مواقفهم في ميسرته ، على حين أنه كان على ميمنته عساكر الكرج المساعدة ، وليو ملك ارمينية والاسبتارية . وقاد المنصور صاحب حماه ميمنة الجيش الاسلامي ، وتولى قلاون نفسه قيادة المصريين في قلب الجيش ، والى جانبه جيش دمشق بقيادة الامير لاجين ، وكان على ميسرة الجيش المملوكي سنقر ، الذي سبق ان تمرد على قلاون ، في عساكر من شمال الشام والتركمان .

ولما دارت المعركة ، لم يلبث المسيحيون في ميمنة الجيش المغولي ان هزموا سنقر ، الذي ظلوا يطاردونه حتى معسكره في حمص ، فانقطع بذلك اتصالهم بقلب الجيش المغولي . وفي تلك الاثناء ، ظلت ميسرة المغول صامدة في القتال ، بينما اصاب منجو تيمور الجراح حينما شن المماليك هجوماً على قلب الجيش المغولي . فاشتدت ثائرته ، وأمر بالارتداد السريع . اضحى ملك ارمينيا ورفاقه معزولين ، وكان لزاماً عليهم ان يقاتلوا ليشقوا لهم طريقاً للعودة صوب الشمال ، فتكبدوا خسائر فادحة . غير ان قلاون فقد من الرجال الذين بلغوا من كثرة العدد ما جعله عاجزاً عن مطاردة ليو ، واجتاز المغول نهر الفرات دون ان يتكبدوا خسائر اخرى .

اضحى نهر الفرات حداً فاصلاً بين الامبراطوريتين المغولية والمملوكية ، ولم يخاطر قلاون بالمضي لإنزال العقاب بالأرمن .

وشهد وقعة حمص مقدم الاسبتارية الانجليزي يوسف شونسي الذي كان يزور الشرق ، فكتب بعدئذ الى ادوارد ملك انجلترا يصف له المعركة . إذ روى ان الملك هيو والامير بوهمند لم يستطيعا اللحاق بالمغول في الوقت المناسب . والراجح انه أراد ان يحميهما من غضب ملك انجلترا ، الذي يعتبر الوحيد من بين ملوك الغرب ، الذي لا زال مهتماً بالحرب المقدسة ، وشديد التأييد للتحالف مع المغول . غير ان بصيرة ادوارد النافذة لم يكن لها ما يحاكيها في الشرق ، إذ لم يفعل الملك هيو شيئاً ، وعقد بوهمند هدنة مع المسلمين ، بينما ارتحل روبرت سان سفيرينو نائب شارل انجو ، ليلتقي بقلاوون ، وليهنئه على ما أحرزه من انتصار [١] .

انهيار مملكة شارل انجو سنة ١٢٨٢ :

حدث في مساء ٣٠ مارس سنة ١٢٨٢ ، ان نهض الصقليون فجأة

---

(١) انظر :

Makrizi, Sultans, II, I, pp. 35 - 37.
Abu'l Feda, pp. 158 - 160.
Bar - Hebraeus, pp. 464 - 465.
Hayton, Flor des Estoires, pp. 182 - 184.
Gestes des Chiprois, p. 210.
Letter of Joseph of Chauncy and King Edward's Reply, (ed. Sanders), P. P. T. S. vol. V.
Röhricht, Regesta, p. 375.
D'Ohsson, op. cit. pp. 525 - 534.

وقتلوا كل من صادفوه بالجزيرة من الفرنسيين ، بعد ان ضاقوا ذرعاً بغطرسة شارل انجو وعساكره . وكان لمذبحة صقلية من الآثار البعيدة المدى ، ما لم يتصوره اهل الجزيرة الذين استبدّ بهم الغضب . فما أقامه شارل من امبراطورية كبيرة في البحر المتوسط لم تستند الى أساس . ولم تجدِ نفعاً ما قام به شارل وأخلافه من محاولات ، في العشروات التالية من هذا القرن ، لاسترداد صقلية من أيدي أمراء أراجون ، الذين جرى انتخابهم ليتولوا عرشها . ولم تعد مملكة الانجويين في نابولي قوة عالمية . اما البابوية التي كفلت للانجويين مملكتهم بصقلية ، فتعرضت المذلة والهوان ، وأصابها الخراب المالي في محاولاتها استعادة اتباعها . فجرى التخلي عن المشروعات الانجوية في البلقان ، وفيما هو أبعد من البلقان جهة الشرق . إذ تنفس الامبراطور البيزنطي بالقسطنطينية الصعداء ، فلم يعد يثير غضب قومه ، بما كان يعرضه من خضوع كنيستهم لروما ، اذا حالت روما دون أطماع شارل[1] .
وفي الشرق الفرنجي ، اكتشف روجر سان سفيرينو انه أضحى فجأة وحيداً دون سند . استدعاه سيده (شارل انجو) للعودة الى ايطاليا ، فغادر عكا في نهاية السنة ، بعد ان عهد بوظيفته ، نائب الملك ، الى صنجيله اودو بواليشيان[2] .

---

(١) انظر : Amari, La Guerra del Vespro Siciliano.
لا زال يعتبر خير مرجع لتاريخ مذبحة صقلية التي وقعت اثناء صلاة العشاء ، وما تلاها من الحروب .

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 214.
Sanudo, Chronique de Romanie in Mas Latrie, Nouvelles Preuves, I, pp. 39 - 40.
تزوج اودو من لوسيا جوفان ارملة يوحنا ابلين سيد ارسوف .

كان انهيار سلطان شارل انجو صدمة للمماليك في مصر ، على انه يعتبر ايضاً خلاصاً لهم من وطأته ، إذ ان كلا من بيبرس وقلاون كان يخشى شارل انجو ويحترمه ، ولذا امتنع كل منهما عن مهاجمة ولايته الجديدة في الشرق الفرنجي . فما من احد بعدئذ يحول دون مهاجمة السلطان لأملاك شارل ، طالما جرى منع الفرنج من التحالف مع المغول . ففي يونيه سنة ١٢٨٣ ، حين انتهى اجل الهدنة التي انعقدت في قيسارية ، عرض قلاون على اودو بوالشيان ان يجدّدها لمدة عشر سنوات اخرى ، فقبل اودو العرض عن طيب خاطر ، غير انه لم يكن مطمئناً الى سلطته ، ولذا وقع على الهدنة من جانب الفرنج قومون عكا والداوية في عثليت وصيدا . وكفلت الهدنة للفرنج امتلاكهم للبلاد الممتدة من درج صور ، شمالي عكا ، الى جبل الكرمل وعثليت فضلاً عن صيدا ، غير انه تقرر استبعاد صور وبيروت من عقد الهدنة ، وجرى الابقاء على الحق الذي يجيز الحج بالمجان الى الناصرة (١) .

وابتهج اودو للمحافظة على الصلح ، إذ كان الملك هيو يوشك ان يحاول مرة اخرى استرداد مملكته على البر السوري . لقد ماتت منذ زمن قريب ايزابيللا سيدة بيروت ، فانتقلت مدينتها (بيروت) الى اختها ايشيفا ، زوجة همفري مونتفورت الأخ الأصغر لسيد صور . ولإدراك هيو انه يستطيع الوثوق في بيت مونتفورت ، أبحر من قبرص في نهاية شهر يوليه ، مع ولديه هنري وبوهمند . كان ينوي النزول في عكا ، غير ان الرياح دفعته

---

(١) انظر : Makriz, Sultans, II, I, pp. 60, 179 - 185, 224 - 230.
Hill : History of Cyprus, II, p. 176.

الى بيروت التي بلغها في اول اغسطس ، فلقي استقبالاً حافلاً . ثم ابحر بعد بضعة ايام الى صور ، بينما ارسل عساكره براً ، فساروا ازاء الساحل ، وفي أثناء الطريق تعرّضوا لمغيرين من المسلمين فأنزلوا بهم الأذى ، وأيقن الملك هيو ان الداوية بصيدا هم الذين حرضوا المسلمين عليهم . فلما هبط الى صور لم تكن النبوءات في صالحه ، إذ هوى لواؤه في البحر ، ولما خرج رجال الدين (الاكليروس) في موكب لاستقباله ، أفلت من ايديهم الصليب الكبير الذي يحملونه ، فهشم جمجمة طبيب البلاط ، وكان يهودياً . ظلّ هيو ينتظر في صور ، ولكن ما من احد من عكا تحرك للترحيب به هناك . إذ ان قومون عكا والداوية آثروا حكومة اودو بوليشيان التي لم تقحم نفسها في امورهم . ولن يمكث مع هيو نبلاؤه القبارصة ما يزيد على اربعة شهور ، وهي الفترة التي يجيزها القانون لبقائهم . وفي ٣ نوفمبر ، وقبل انتهاء المدة المقررة ، مات ابنه بوهمند الذي كان أكثر ما يأمل فيه من الخير من أبنائه ، بل ان أشد ما ساءه هو وفاة صديقه وصهره يوحنا مونتفورت . وإذ لم ينجب ذريه ، سمح الملك هيو بأن تنتقل صور الى شقيقه ووارثه همفري سيد بيروت ، غيرانه اضاف نصاً في الوثيقة بأن بوسعه ، متى شاء ، ان يشتري المدينة (صور) ويعيدها للتاج مقابل مائة وخمسين بيزنت . غير ان همفري ذاته مات في شهر فبراير التالي ، فتزوجت ارملته بعد فترة مقبولة من جاي اصغر ابناء هيو ، فنقلت اليه بيروت . أما صور فإنها بقيت في الوقت الراهن خاضعة لمرجريت ارملة يوحنا [١] .

---

(١) نظر : Gestes dee Chiprois, pp. 214 - 216.
Amadi, pp. 214 - 215.

على ان الملك هيو بقي في صور ، حتى بعد ان ارتحل نبلاؤه ، وفي صور مات هيو في ٤ مارس سنة ١٢٨٤ ، بعد أن بذل قصارى جهده لاستعادة سلطانه في الشرق الفرنجي . والواقع ان صفاته وخلاله كانت من العوامل التي عطلته ، فبرغم ما اشتهر بـه من طلاقة الوجه والجاذبية ، كان حاد المزاج ، تعوزه اللباقة والكياسة . غير ان اكثر ما يرجع اليه فشله ، ما كان من عداء تجار عكا والطوائف الدينية العسكرية ، الذين كانوا يؤثرون ان يكون الملك غائباً ، مقيماً بعيداً عنهم ، فلا يتدخل في شئونهم (١) .

وخلف هيو على العرش ابنه الاكبر يوحنـا ، وهو شاب وسيم بالغ الرقة ، ينـاهز من العمر سبع عشرة سنة . وتمّ تتويجه في نيقوسيا في ١١ مايو سنة ١٢٨٤ ملكاً على قبرص ، ثم تلى ذلك مباشرة ان عبر البحر الى صور حيث جرى تتويجه ملكاً على بيت المقدس . غير انه لم يعترف بسلطته في بلاد البر السوري ، سوى صور وبيروت . على انـه لم يحكم إلا سنة واحدة ، إذ مات في قبرص في ٢٠ مايو سنة ١٢٨٥ . وورث الملك من بعده اخوه هنري الذي لم يتجاوز عمره اربع عشرة سنة ، فتمّ تتويجه ملكاً على قبرص في ٢٤ يونيه سنة ١٢٨٥ ، ولم يتجاسر في الوقت الراهن على ان يجتاز البحر الى سوريا (٢) .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 216 - 217.
Amadi, p. 216.
Hill, op. cit. p. 178.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 217.
Amadi, loc. cit.
Hill, op. cit. p. 179, n. 2.

سقوط حصن المرقب سنة ١٢٨٥ :

أخذ قلاون يتجهز في سوريا لشنّ هجوم على اولئك الفرنج الذين لم يدخلوا في الهدنة التي انعقدت سنة ١٢٨٣ ، فبادرت السيدتان الارملتان ايشيفا ومرجريت ، اللتان تحكمان بيروت وصور ، الى ان تطلبا من قلاون عقد هدنة ، فاستجاب لهما[١] . على ان السلطان كان يهدف الى الاستيلاء على قلعة المرقب الكبيرة التابعة للاسبتارية ، بعد ان دأبت حاميتها على ان تتحالف مع المغول . ففي ١٧ ابريل سنة ١٢٨٥ ، ظهر السلطان بجيش كثيف على سفح الجبل الذي تقع بأعلاه القلعة ، وقد جلب معه من المناجيق التي بلغت من الوفرة ما لم يسبق ان شهدها احد . وتولى رجاله جرّ هذه المجانيق على جانب التل ، ثم شرعوا في دكّ اسوار القلعة . على ان القلعة توافرت عدّتها ، وتميزت مناجيقها بما احتلته من أوضاع ، فتعرّض للدمار عدد كبير من مناجيق العدو ، وظلّ المسلمون نحو شهر دون ان يحرزوا شيئاً من التقدم . ونجح مهندسو السلطان آخر الامر في إحداث نقب تحت برج الأمل ، الذي يبرز عن السور في نهاية الزاوية الشمالية ، وملأوا هذا النقب بأخشاب سريعة الالتهاب . وفي ٢٣ مايو سنة ١٢٨٥ أشعلوا النار في النقب ، فأخذ البرج يهوي . وأوقف انهيار البرج هجوم المسلمين ، فجرى ردّهم على أعقابهم . على ان رجال الحامية اكتشفوا ان النقب امتدّ بعيداً تحت استحكاماتهم ، وإذ أدركوا انهم خسروا كل شيء ، لم يسعهم إلا الاستسلام . فتقرر السماح لمن كان بداخل القلعة من قادة

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, II, II, pp. 212 - 213.

الاسبتارية وعددهم خمسة وعشرون ، ان يخرجوا بكل أمتعتهم ، على ظهور خيولهم وفي سلاحهم الكامل ؛ اما بقية الحامية ففي وسع رجالها ان ينسحبوا دون ان يحملوا معهم شيئاً ، فلجأوا الى انطرطوس ، ومنها الى طرابلس ، ودخل قلاون القلعة في موكب في ٢٥ مايو سنة ١٢٨٥ [١].

ارتاع سكان عكا لضياع حصن المرقب ، وحوالي ذلك الوقت علموا ان شارل أنجو قد مات . وبلغ من انغماس ابنه شارل الثاني ملك نابولي في الحرب بصقلية ، انه لم يحفل بالشرق الفرنجي ، إذ اخذت الحرب رويداً رويداً تشغل غرب اوربا ، وحان الوقت لحاكم يكون بالغ القرب من الاحداث الجارية بالشرق اللاتيني . وبناء على نصيحة الاسبتارية أرسل هنري الثاني من قبرص مبعوثاً اسمه يوليان الاصفر الى عكا ليجري مفاوضات حول الاعتراف به ملكاً على بيت المقدس . لم يعترض قومون عكا ، وأعرب فرسان الاسبتارية والتيوتون عن عطف الطائفتين ، ووافق الداوية بعد شيء من التردد على ان يساندوه ، غير ان اودو بواليشيان رفض ان يتخلى عن نيابته عن ملك صقلية ، ولقي اودو المساندة من الكتيبة الفرنسية التي لا زال ينفق عليها ملك فرنسا .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 217 - 218.
Amadi, loc. cit.
Makrizi, Sultans, II, I, pp. 80, 86.
Abu'l Feda, p. 161.
Reinaud, Bibliothèque des Croisades, pp. 548 - 552.
اورد رينو ترجمة لحياة السلطان قلاون .

وهبط هنري الثاني الى عكا في ٤ يونيه سنة ١٢٨٦ ، فاستقبله قومون عكا بالفرح والسرور ، على الرغم من ان مقدمي الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة رأوا انه من بالغ الحكمة ان يتغيبوا عن استقباله ، إذ قالوا ان مهنتهم الدينية تحتم عليهم ان يلتزموا الحياد . وتوجه هنري في موكب رسمي الى كنيسة الصليب المقدس ، فأعلن بها انه سوف يقيم بالقلعة مثلما فعل الملوك السابقون . غير ان اودو بواليشيان رفض ان يغادر القلعة التي شحنها بالعساكر الفرنسية . فتوجّه اسقف فاماجستا ورئيس دير المعبد (Templum Domini) بعكا للتفاوض معه ، ولما لم يود ان يستمع اليهما ، اعلنا احتجاجاً قانونياً . اما الملك الذي كان يقيم بصفة مؤقتة في قصر سيد صور الراحل ، فإنه صرح ثلاث مرات بأن بوسع الفرنسيين ان يغادروا القلعة آمنين ، بما يحملونه من أمتعة ، ولن يتعرض احد لهم بالأذى . وفي تلك الاثناء اخذ سكان المدينة يضيقون ذرعاً بأودو بواليشيان ، وتجهّزوا لمهاجمته . وعندئذ أقنع مقدمو الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة ، اودو ان يسلم اليهم القلعة ، بعد ان عرفوا اين تتجه الريح ، ثم بذلوها لهنري ، فدخلها في موكب رسمي في ٢٩ يونيه [١] .

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 218 - 220.
Amadi, pp. 216 - 217.
Sanudo, p. 229.
Machaeras, (ed. Dawkins), p. 42.
Mas Latrie, Documents, III, pp. 671 - 673.

آخر الاحتفالات في الشرق الفرنجي سنة ١٢٨٦ :

حدث بعد مضي ستة أسابيع ، اي في ١٥ اغسطس ، ان قام بتتويج هنري في صور ، رئيس الاساقفة بو"ناكورسو جلوريا ، بالنيابة عن البطريرك . ثم عاد رجال البلاط الى عكا بعد الاحتفال ، فأقاموا مهرجاناً استمر اسبوعين . إذ جرت الألعاب ، وتداريب الفروسية ، وفي القاعة الكبرى للاسبتارية جرى تمثيل بعض المشاهد ، منها منـــاظر من قصة المائدة المستديرة ، بفرسانها لانسلوت وتريستام وبالاميديس ، وقاموا ايضاً بتمثيل قصة ملكة فيميني ، المستمدة من قصة طروادة . ولم يحدث في الشرق الفرنجي ، منذ قرن من الزمان ، ما يفوق هذا المهرجان بهاء ومرحاً وروعة . إذ ان الملك الطفل سحر بوسامته كل الناس ، لأنه لم يكن معروفاً حتى وقتذاك انه مصاب بالصرع ، وكان يسانده وينصحه خالاه فيليب وبلدوين ابلين اللذان ظفرا بالاحترام العميق . وبناء على نصيحتهما ، لم يمكث الملك طويلاً في عكا ، بل عاد الى قبرص بعد بضعة اسابيع ، وبعـــد ان جعل خاله بلدوين ابلين نائباً عنـــه ، إذ ادرك خالاه ان الملك المقيم بعكا لا يرضى عنه الناس [١] .

ولا بدّ ان السلطان قلاون بالقاهرة ابتسم عند سماعه بإفراج الفرنج التافهة . أما ايلخان المغول في تبريز فإنه تراءى له ان الوقت قـد حان

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, p. 221.
Annales de Terre Sainte, p. 548.
Amadi, p. 217.

للقيام بعمل بالغ الجدية . مات اباقا في اول ابريل سنة ١٢٨٢ ، وخلفه على الحكم اخوه تكودار ، الذي تنصر في طفولته على المذهب النسطوري ، واتخذ اسم نقولا . غير ان اهواءه كانت مع المسلمين ، فـلم يكد يتولى العرش حـتى أعلن تحوّله للاسلام ، واتخذ اسم احمد ، وتلقب بالسلطان . وفي نفس الوقت ارسل الى القاهرة يطلب عقد معاهدة صداقة مع قلاون غير ان سياسته ازعجت شيوخ المغول في بلاطه ، الذين بادروا على الفور برفع شكواهم الى الخـان الكبير قبيلاي . فأعلن ارغون ابن اباقا بموافقة قبيلاي ، الثورة بخراسان حيث كان يتولى إدارتها ، فلحقت به الهزيمة اول الأمر ، غير ان قادة احمد لم يلبثوا ان تخلوا عنه ، فلقي احمد مصرعه في ١٠ اغسطس سنة ١٢٨٤ في مؤامرة تمّ تدبيرها في القصر ، فبادر ارغون الى اعتلاء العرش [١] . كان ارغون كأبيه يدين بالفلسفة الانتقائية ، ومع ان عواطفه كانت نحو البوذية ، فإن وزيره سعد الدولة كان يهودياً ، وكان يابهالّا جاثليق النساطرة أعز صديق له . وهذا الرجل الشهير كان ينتمي الى اصل تركي ، من الانجوت ، ولد في اقليم شانسي الصيني على ضفاف نهر هوانجهو . جاء مع مواطنه رابان سوما نحو الغرب يراودهما الأمل الكاذب في تأدية الحج الى بيت المقدس . وبينما كان بالعراق سنة ١٢٨١ ، تصادف شغور الجاثليقية ، فتقرر انتخابه ليشغل هذا المنصب . كان له تأثير شديد

---

(١) انظر : Howorth, History of the Mongols, III, pp. 295 - 310.
Abu'l Feda, p. 160.

أشار المؤرخون العرب الى احمد ، وتجاهله المؤرخون الغربيون .

Bar - Hebraeus, pp. 467 - 471.

اسهب ابن العبري في الحديث عنه .

على الايلخان الجديد ارغون ، الذي تطلع الى تخليص مـا للعالم المسيحي من اماكن مقدسة من ايدي المسلمين ، غير انه قال دائماً انه لن يفعل ذلك إلا اذا بذل له المساعدة الملوك المسيحيون بالغرب [1] .

سفارة رابان سوما سنة ١٢٨٧ :

في سنة ١٢٨٥ كتب ارغون الى البابا هونوريوس الرابع يقترح القيام بإجراء مشترك ، غير انه لم يتلق اجابه [2] . ثم قرر بعد مضي سنتين ان يوفد سفارة الى الغرب ، فاختار سفيراً له ، رابان سوما صديق مار يابهالًا ، وبدا السفير رحيله في اوائل سنة ١٢٨٧ ، وقـد وضع تقريراً قيماً عن بعثته . أبحر من اطرابزون فبلغ القسطنطينية حوالي عيد القيامة . ولقي استقبالاً ودّياً حافلاً من الامبراطور اندرونيقوس ، ثم قام بزيارة كنيسة القديسة صوفية ، وسائر المشاهد الكبيرة بالعاصمة (القسطنطينية) . كان اندرونيقوس فعلاً في علاقات طيبة مع المغول ، وكان مستعداً لأن يبذل لهم من المساعدة ما تسمح به موارده الضئيلة . وتوجه سوما من القسطنطينية الى نابولي ، فبلغها في نهاية شهر يونيه . وبينما كان في نابولي ، شهد معركة بحرية في الميناء بين اسطولي اراجون ونابولي . كان ذلـك اول دليل على ان غرب اوربا منصرف الى مخاصماته . فواصل سيره الى روما ، وتبين له

(١) انظر : Budge, The Monks of Kublai Khan, introduction, pp. 42 - 61, 72 - 75.

(٢) انظر نص رسالة ارغون في :
Chabot : « Relations du roi Argoun avec l'Occident », in Revue de l'Orient Latin, vol. II, p. 571.

ان البابا هونوريوس الرابع قد مات قبيل قدومه ، ولم تجتمع حتى وقتذاك هيئة الكرادلة لاختيار خلف له . فاستقبله الاثني عشر كاردينالاً المقيمون بروما ، فاكتشف انهم جهال ضعاف لا ترجى منهم مساعدة . إذ لم يعلموا شيئاً عن انتشار المسيحية بين المغول ، وصدمهم ان سوما يخدم سيداً وثنياً . ولما حاول ان يناقشهم في الأمور السياسية ، صاروا يستجوبونه حول ايمانه وعقيدته ، وانتقدوا انحرافات ايمانه عن عقيدتهم . وكاد آخر الأمر يفقد اعصابه . فقال انه قدم ليؤدي احترامه للبابا ، ويرسم الخطط للمستقبل ، لا ليعقد مناظرة عن العقيدة . ثم توجه فرحاً مسروراً الى جنوه ، بعد ان أدى الشعائر الدينية في الكنائس الرئيسية بروما . واستقبله الجنويون في احتفال كبير ، إذ ان التحالف مع المغول كان امراً بالغ الاهمية عندهم ، فأولوا اقتراحات السفير ما هي جديرة به من الاهتمام .

وفي نهاية اغسطس عبر رابان سوما الى فرنسا ، فبلغ باريس في زمن مبكر من شهر سبتمبر ، ولقي بها من الاستقبال كل ما كان يبتغيه . إذ رافقه حرس خاص الى العاصمة ، ولما اضحى في حضرة الملك الشاب ، فيليب الرابع ، بذل له ما يليق بالملك من تشاريف ، إذ نهض الملك من العرش ليحييه وأصغى في احترام عميق الى رسالته ، فخرج من حضرة الملك بوعد بأن إذا شاء الله ، فسوف يتولى فيليب نفسه قيادة جيش لتخليص بيت المقدس . وابتهج السفير لما شاهده في باريس . إذ ان الجامعة التي كانت وقتذاك في ذروة مجدها في العصور الوسطى ، كانت اكثر ما أثرت فيه . ورافقه الملك في زيارة كنيسة سانت شابيل فشهد المخلفات

المقدسة التي اشتراها القديس لويس من القسطنطينية . ولما ازمع مغادرة باريس ، عيّن الملك سفيراً له اسمه جوبرت هيلفيل ليصحب رابان سوما في عودته الى بلاط الايلخان ، وليعد معه تفاصيل التحالف مع المغول .

ثم تلى ذلك أن اضحى رابان سَوْما في ضيافة ادوارد الاول ملك انجلترا ، الذي كان وقتذاك في بوردو ، عاصمة املاكه الفرنسية . وصادف في ادوارد الذي سبق ان حارب في الشرق ، وطالما دافع عن التحالف مع المغول ، استجابة فطنة عملية لمقترحاته . أدهشه الملك بأنه أكفأ سياسي التقى به في الغرب ، وخصه الملك بالمجاملة ، حين سأله ان يؤدي القداس في البلاط الانجليزي . على ان الملك ادوارد راوغ حين تقرر وضع جدول زمني ، فلم يكن بوسع ادوارد او فيليب ملك فرنسا ان يقول متى يكون مستعداً على وجه الدقة للقيام بالحملة الصليبية . عاد سَوْما الى روما ، قلق الفكر . وإذ توقف في جنوة حتى موعد عيد الميلاد ، تصادف ان التقى بالمندوب الكاردينال ، يوحنا توسكلوم ، فأنهى اليه بمخاوفه ، إذ كان المماليك يستعدون في تلك اللحظة لاستئصال شأفة آخر ما تبقى للمسيحيين من إمارات في سوريا ، وما من احد في الغرب سوف يعير التهديد شيئاً من الاهتمام .

وفي فبراير سنة ١٢٨٨ تمّ اختيار نقولا الرابع بابا ، وكان من اول اعماله انه استقبل السفير المغولي ، فقامت بينهما احسن العلاقات الشخصية ، إذ خاطب رابان سَوْما البابا على انه رأس اساقفة العالم المسيحي ، وبعث البابا نقولا ببركاته الى جاثليق النساطرة واعترف به بطريركاً في الشرق . وفي اثناء اسبوع الآلام ، احتفل السفير بالقداس امام جميع الكرادلة ، وتناول العشاء الرباني من يد البابا ذاته . وغادر روما وبصحبته جوبرت

هليفيل في ربيع سنة ١٢٨٨ ، يحمل من البابا الهدايا ، وكثير منها من المخلفات الدينية القيمة ، للأيلخان والجاثليق ، ورسائل اليها ، والى اميرتين مسيحيتين في البلاط المغولي ، والى دنيس اسقف اليعاقبة ، في تبريز . غير ان الرسائل تتسم بالغموض ، فلم يعد البابا باتخاذ اجراء محدد في زمن معين (١) .

والواقع ان رابان سَوْما ادرك آخر الامر ان لدى ملوك الغرب من الامور ما يشغلهم . إذ أن شبح شارل انجو الكريه اتحد مع مااتصفت به البابوية قديماً من الميل الى الانتقام ، لمنع القيام بحملة صليبية . فالمعروف ان البابا سبق ان بذل صقلية للأنجويين ، على ان الصقليين لم يلبثوا ان انقلبوا على الأنجويين ، فكان لزاماً على البابوية وفرنسا ، بما يزعمانه من كرامة ومكانة ، ان تقاتلا الدولتين البحريتين الكبيرتين في البحر المتوسط ، جنوة وأراجون ، لاسترداد الجزيرة (صقلية) . ولم يكن كل من نقولا وفيليب مستعداً للتفكير في حملة صليبية إلا بعد تسوية مسألة صقلية . وأدرك ادوارد ملك انجلترا الخطر ، ففي سنة ١٢٨٦ سعى الى عقد هدنة بين فرنسا وأراجون ، غير انها كانت هدنة قلقة محفوفة بالخطر ، طالما كان القتال مستمراً في ايطاليا وعلى البحر . يضاف الى ذلك ان لدى ادوارد مشاكله الخاصة ، إذ كان يتوقَ الى انقاذ الارض المقدسة ، غير انه ادرك ان ما هو اكثر اهمية من المصالح وأدعى الى التعجيل بها ، هو الاستيلاء على ويلز ومحاولة فتح اسكتلندا ، إذ تحول نظره صوب

---

(١) انظر : Budge, op. cit. pp. 164 - 197.
اورد ترجمة لتقرير سوما عن اسفاره في اوربا .

الشمال بعد وفاة اسكندر التالث ملك اسكتلندا سنة ١٢٨٦ ، نظراً لأنه كان يدبر امر السيطرة على المملكة المجاورة ، عن طريق ولية عهدها ، مرجريت النرويجية . ولا بد للشرق ان ينتظر ، ولم يكن للرأي العام من القوة ما يفرضها على الملوك . ودلّت أبحاث البابا جريجوري العاشر على أن الروح الصليبية اوشكت على الفناء(١) .

الايلخان ارغون يلح في ارسال حملة صليبية سنة ١٢٨٩ :

لم يصدق ارغون ان المسيحيين في الغرب ، بما اشتهروا به من التظاهر الديني بالتعلق بالارض المقدسة ، يظهرون هذا الاستخفاف بما يحيق بـه مصيرها من خطر . استقبل رابان سوما عنـــد عودته الى الوطن بكل مظاهر التشريف ، وأظهر مودته لجوبرت هيلفيل . غير ان ارغون أراد من الدقة والتحديد ما لم يكن بوسع جوبرت ان يبذله . فأنفذ عقب عيد القيامة سنة ١٢٨٩ رسولاً آخر ، وهو جنوي اسمه بوسكارد جيزولف ، أقام في بلاده زمناً طويلاً ، وزوده برسائل الى البابا ، وملكي فرنسا وأنجلترا. ولا زالت رسالته الى فيليب باقية ، إذ كتبت باللغة المغوليـــة بحروف اويغورية . فباسم الخان الكبير قبيلاي ، يعلن ارغون الى ملك فرنسا ، انه بعون الله يعرض بأنه سوف يتوجه الى سوريا في الشهر الاخير من فصل الشتاء من سنة الفهد ، أي في يناير سنة ١٢٩١ ، وإنـــه سوف يصل الى

(١) انظر : Grousset, Histoire des Croisapes, III, pp. 711 - 721.
اورد جروسيه وصفاً عاماً للموقف وقتذاك .
Lévis - Mirepoix, Philippe le Bel, pp. 22 ff.
يشير الى تأثير الحرب الصقلية على السياسة العامة . انظر ايضاً ما سبق ص ٥٧٩ وما يليها .

دمشق حوالي منتصف اول شهور الربيع ، فبراير سنة ١٢٩١ . فإذا ارسل الملك قرات اضافية ، واستولى المغول على بيت المقدس ، فسوف يجعلها له . أمـا اذا لم يتعاون ، فسوف تتبدد الحملة . وأضاف بوسكارد الى الرسالة حاشية كتبها باللغة الفرنسية ، تنطوي على تحيات لبقة موجهة الى الملك الفرنسي ، ويضيف بوسكارد ان ارغون سوف يصحب معه الملكين المسيحيين ببلاد الكرج ونحو عشرين او ثلاثين الف من الفرسان ، وسوف يتكفل بمـا يكفي رجال الغرب من مؤن . ولا بد ان رسالة مماثلة ، لا زالت مفقودة ، قد وجهت الى الملك ادوارد ، اضاف اليها البابا حاشية تتضمن توصيته وتشجيعه . لم يصل الينـا رد فيليب ، على حين ان رد ادوارد لا زال معروفاً ، إذ تضمن بذل التهنئة لايلخان على حملته لصالح المسيحيين، ويُزجى اليه التحيات الودية . غير انه لم يرد فيه شيء عن التاريخ الفعلي، ولم ينطو على وعود . انما جرت الاشارة الى التجاء الايلخان الى البابا ، الذي لن يفعل شيئاً ، إلا بتعاون الملكين (١) . وفي تلك الاثنـاء اصدر فرنجي آخر ، مجهول الاسم ، رسالة يبين فيها انه من اليسير ان تهبط قوة من الغرب الى البر عند اياس في ارمينيا ، التي يعتبر ملكها اكثر الناس ميلاً الى المساعدة ، ومن ثم تستطيع هذه القوة ان تلتقي بالمغول . غير أنه لم يحفل احد بنصيحته (٢) .

---

(١) انظر : Chabot, op. cit. pp. 593 - 594, 604 - 616.
اورد شابو نصوص الرسالتين .

(٢) انظر : Kohler : « Deux Projets de Croisade en Terre Sainte », text and introduction, Mélanges pour servir à l'Histoire de l'Orient Latin, pp. 516 ff.

وعلى الرغم من ان بوسكارد رجع بإجابات لا تبشر بشيء ، فان ارغون ارسله من جديد مع اثنين من المغول المسيحيين ، وهما اندرياس زاكان ، وسهادين ، فتوجهوا اول الامر الى روما حيث استقبلهم البابا نقولا ، ثم مضوا لزيارة ملك انجلترا بعد ان تزودوا برسائل عاجلة من البابا ، الذي يبدو انه اعتبر ادوارد يفوق فيليب ملك فرنسا في الميل الى الحرب الصليبية ، فوصلوا اليه في زمن مبكر من سنة ١٢٩١ . غير ان ادوارد كان منغمساً في امور اسكتلندا بعد وفاة مرجريت في السنة السابقة ، وعاد الرسل الى روما وقد اشتد بهم الضيق ، فمكثوا بها فصل الصيف . ولكن الوقت قد فات عندئذ ، إذ أن مصير الشرق الفرنجي قد تقرر ، كما ان الإيلخان ارغون قد مات [١] .

فلو ان التحالف مع المغول قد تحقق ، وأخلص الغرب في انجازه ، فانه كاد يكون من المحقق ان يطول أجل الشرق الفرنجي ، وأن يتجرد المماليك من القوة ، او يتمّ تدميرهم ، وأن تعيش ايلخانية فارس دولة صديقة للمسيحيين والغرب . على ان ما حدث فعلاً ، هو ان الامبراطورية المملوكية ظلت قائمة نحو ثلاثة قرون ، وتحوّل مغول فارس الى المعسكر الاسلامي ، ولما يمضِ على وفاة ارغون إلا اربع سنوات . ولم يكن فرنج الشرق الادنى وحدهم هم الذين ضاعوا بسبب اهمال الغرب ، بل شاركهم في ذلك الجماهير التعسة التي تنتمي الى العالم المسيحي الشرقي . وهذا الاهمال يرجع اساساً الى الحرب الصقلية ، التي نبعت من حقد البابوية والاستعمار الفرنسي .

---

(١) انظر : Chabot, op. cit. pp. 617 - 619.

وفي تلك الاثناء لم يبدُ من الشرق الفرنجي إلا ازدياد الضعف وانعدام تقدير المسؤولية . فلم يكد الملك هنري يعود الى قبرص بعد ان شهد المهرجانات في عكا ، حتى اندلعت الحرب على الساحل السوري بين البيازنة والجنويين . إذ ان الجنويين ارسلوا في ربيع سنة ١٢٨٧ اسطولاً بقيادة اميري البحر توماس سبينولا وأورلاندو أشيري الى شرق البحر المتوسط . وبينما توجه سبينولا لزيارة الاسكندرية كيما يظفر بالحياد الودّي من قبل السلطان ، اخذ أشيري يذرع الساحل السوري من أقصاه الى أقصاه ، يغرق او يأسر كل ما يصادفه من سفن البيازنة او الفرنج المنحدرين من اصل بيزاني . ولم يمنع بيع الملاحين الذين وقعوا في الأسر إلا تدخُّل الداوية ، ثم لجأ أشيري الى صور ليعدّ هجوماً على ميناء عكا . وأشرك البنادقة اسطولهم المحلي مع البيازنة لحماية الميناء ، غير ان أشيري انتصر تجاه حاجز الامواج في ٣١ مايو سنة ١٢٨٧ ، على انه لم يستطع ان ينفذ الى داخل الميناء . ولما أبحر سبينولا من الاسكندرية ، استطاع الجنويون ان يفرضوا الحصار على كل الساحل . ولكن مقدمي الداوية والاسبتارية ومن معهما من ممثلي النبلاء المحليين ، نجحوا آخر الامر في اقناع الجنويين بأن يبحروا عائدين الى صور ، وأن يفسحوا الطريق لحركة الشحن [١] .

سقوط اللاذقية سنة ١٢٨٧ :

على ان الميناء الوحيد الذي نجا من هذا النضال تعرّض فعلاً لمصير بالغ

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 220 - 230.
Annales Januenses, p. 317.

السوء . ذلك ان تجار حلب جأروا للسلطان بالشكوى منذ زمن ، بأنهم لم يرتاحوا لأن يرسلوا متاجرهم الى الميناء المسيحي باللاذقية ، الذي يعتبر آخر ما تبقى من إمارة انطاكية ، فتهيأت الفرصة للسلطان قلاون في ذلك الربيع ، إذ ان الزلزال الذي وقع في ٢٢ مارس سنة ١٢٨٧ ألحق ضرراً بأسوار المدينة (اللاذقية) . وإذ ادعى قلاون ان اللاذقية ، باعتبارها جزءاً من إمارة انطاكية القديمة لم تدخل في الهدنة المعقودة مع طرابلس ، أرسل الامير حسام الدين طرنطاي ليتسلمها . فسقطت المدينة في يديه في سهولة ويسر ، غير ان المدافعين عنها انسحبوا الى حصن يقع على فوهة الميناء ويتصل بالبر بجسر . فوسع طرنطاي الجسر وجعله عريضاً ، ولم يلبث ان حمل الحامية على الاستسلام في ٢٠ ابريل سنة ١٢٨٧ ولم تجر محاولة للنهوض لمساعدتها (١) .

ولم يعش طويلاً بعد ضياعها ، سيدها السابق بوهمند السابع ، إذ مات في ١٩ اكتوبر سنة ١٢٨٧ ، دون ان يكون له ذرية . إنما كانت وريثته اخته لوسيا ، التي سبق ان تزوجت من مارجو توسي امير البحر السابق لدى شارل انجو ، والذي يعيش في ابوليا . ولم يكن لنبلاء وسكان طرابلس رغبة خاصة في ان يستدعوا الى الشرق اميرة تكاد تكون مجهولة عندهم ، فضلاً عن ارتباطها بالانجويين الكريهين ، فعرضوا الكونتية عوضاً عنها على الارملة سبيللا اميرة ارمينيا ، ولم تكد سبيللا تتلقى العرض حتى كتبت

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, p. 230.
Abu'l Feda, p. 162.
Makrizi in Reinaud, op. cit. pp. 561 - 562.

الى صديقها القديم بارثولوميو اسقف انطرطوس تدعوه الى ان يكون نائباً عنها . غير ان رسالتها جرى الاستيلاء عليها أثناء الطريق وقدم اليها نبلاء الكونتية (طرابلس) فأخطروها بـــأن الاسقف ليس مقبولاً . غير انها رفضت النزول على رأيهم ، فانسحب النبلاء بعد لقـاء حافـل بالغضب والسخط ، وأخذوا يستشيرون كبار التجار ، فأعلنوا سوياً خلع الاسرة عن العرش ، وإقامة قومون تكون له منذئذ سلطة السيادة . وكان رئيس القومون بارثولوميو ايمبرياكو ، الذي كان ابوه بلدوين من ألد اعداء بوهمند السادس ، كما ان اخاه وليم تعرّض مـع ابن عمه سيد جبيل لميتة قاسية على يد بوهمند السادس .

لجأت الاميرة سبيللا الى اخيها في ارمينية ، غير انه حدث في زمن مبكر من سنة ١٢٨٩ ان قدمت الى عكا لوسيا مع زوجها ، لتتوجه منها الى طرابلس ، لتتسلم إرثها . فلقيت استقبالاً حافـلاً من الاسبتارية الحلفاء القدامى للأسرة ، فرافقوها حتى ينفين ، المدينة الواقعة على طرف الكونتية ، وبها اصدرت إعلانـاً يتضمن حقوقها ، ورد القومون بإذاعة قائمة طويلة عن الظلامات والشكاوى ازاء ما ارتكبه من قسوة وجبروت ، اخوها ، ووالدها ، وجدها . فلن يقبلوا بحال من الاحوال هذه الاسرة . فاستعاضوا عنها ، بأن جعلوا انفسهم تحت حمـاية جمهورية جنوة . وتوجه رسول الى جنوة فأخطر دوج جنوه ، الذي بادر بإرسال امير البحر بنيتو زكريا في خمس سفن لإجراء مفاوضات مع القومون . وفي تلـــك الاثناء سار الى طرابلس مقدمو الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة وبصحبتهم نائب البنادقة في عكا للدفاع عن حق وريثة الكونتية ، فأما مقدم الاسبتارية فحمله على ذلك ما كان من صداقة طائفته القديمة مع اسرتها ، على حين ان مقدمي

الداوية والتيوتون لم يقدما إلا لمساندة البندقية على جنوة . غير انه جرى اخطارهم انه لا بدّ للوسيا ان تعترف بالقومون حكومة للكونتية .

لوسيا كونتيسة طرابلس سنة ١٢٨٨ :

لما وصل زكريا ، أصرّ على عقد معاهدة تمنح الجنويين شوارع عديدة اخرى في طرابلس ، وتجعل لهم الحق في ان يكون لهم طاغية (بودشتا) يتولى حكم جاليتهم ، على انه كفل للقومون ما له من حريات وامتيازات . غير ان سكان طرابلس اخذوا يعجبون ، ما اذا كانت جنوة سوف تكون صديقاً لا يحفل بمصلحتهم . إذ أن بارثولوميو امبرياكو ، الذي سبق ان ظفر بالسيطرة على جبيل بأن زوّج ابنته اجنيس لابن عمه الصغير ، بطرس ، بن جاي الثاني ، اشتد شغفه ونهمه ليفوز بالكونتية لنفسه . فأنفذ رسالة الى القاهرة ليتعرف ما اذا كان قلاون سوف يسانده اذا اعلن نفسه كونتاً على طرابلس . غير ان طموحه اثار الريبة ، ونزع الرأي العام في طرابلس الى مساندة قضية لوسيا . وكتب القومون ، دون ان يخطر الجنويين ، الى لوسيا في عكا يعرض الاعتراف بها ، اذا اقرت وضعه . غير ان لوسيا في دهاء ومكر اخطرت زكريا الذي كان في اياس يعقد معاهدة تجارية مع ملك ارمينيا . فهرع الى عكا للقائها ، فوافقت على ان تعترف بامتيازات كل من القومون وجنوة ، ووفقاً لهذه الشروط تقرر الاعتراف بها كونتيسة على طرابلس[1] .

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 231 - 234.
Amadi, pp. 217 - 218.
Sanudo, p. 229.
Annales Januenses, pp. 322 - 326.

لم يرضِ الاتفاق كلا من البنادقة وبارثولوميو ايمبرياكو . إذ أنه كان فعلا على اتصال بالسلطان قلاون . على انه ليس معروفاً عندئذ ما اذا كان بارثولوميو او البنادقة بعكا هم الذين ارسلوا الى القاهرة مبعوثين من قِبَل الفرنج ليطلبا من السلطان ان يتدخل . ومع ان كاتب مقدم الداوية يعرف اسمي المبعوثين ، فإنه لم يشأ ان يكشف عنهما . وقام المبعوثان بتحذير السلطان بأنه اذا سيطرت جنوة على طرابلس ، فسوف تفرض سلطانها على كل شرق البحر المتوسط ، وسوف تصير تجارة الاسكندرية تحت رحمتها[١] .

وابتهج السلطان قلاون لأنه تلقى دعوة للتدخل ، إذ بررت له نقض الهدنة التي سبق ان عقدها مع طرابلس . ففي فبراير سنة ١٢٨٩ تحرّك بكل الجيش المصري الى سوريا ، دون ان يميط اللثام عن هدفه . غير ان احد امرائه ، وهو بدر الدين بكتاش الفخري ، الذي كان يتقاضى مالاً من الداوية ، ارسل الى مقدم الداوية وليم بوجيه يخطره ان قلاون يقصد طرابلس . فعجّل وليم بإنذار المدينة ، وطلب اليها ان تتحد وأن تلتفت الى تقوية اسباب دفاعها . على انه ما من احد من سكان المدينة كان يصدقه ، إذ ساءت سمعته عند الناس لولعه بالتآمر السياسي ، وارتاب الناس في انه اخترع هذه القصة ليبتغي من ورائها ربحاً خاصاً ، إذ كان يأمل في ان تجري دعوته للتوسط بين المتخاصمين . فلم يتحقق شيء ،

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 234.
Abu'l.Mahasin in Reinaud, op. cit. p. 561.
يشير ابو المحاسن الى ان بارثولوميو حذر قلاون .

ومضت الاحزاب في مشاجراتها الى ان اجتاز جيش السلطان الضخم ، حوالي نهاية مارس ، البقيعة واحتشد امام اسوار المدينة [١] .

ولم يحفل النــــاس بالخطر إلا آخر الامر ، إذ جعل القومون ونبلاء المدينة سواء للكونتيسة لوسيا مطلق السلطة في داخل المدينة . وأرسل الداوية قوة بقيادة مارشالهم جفري فنداك ، وتولى قيــادة قوة الاسبتارية مارشالهم ماثيو كليرمونت ، وتوجهت الكتيبة الفرنسية من عكا بقيـــادة يوحنا جرايللي ، وكان بالميناء اربع سفن جنوية ، وسفينتان للبنادقة ، فضلاً عن سفن صغيرة اخرى ، كان لبيزا بعضها . وأرسل الملك هنري من قبرص ، أخاه الأصغر امالريك ، الذي نصبه منذ زمن قريب كندسطبلاً لبيت المقدس ، في جماعة من الفرسان ، وأربع سفن . وفي تلك الاثنـــاء هرب الى قبرص عدد كبير من غير المحاربين بعد ان اجتازوا البحر .

سقوط طرابلس سنة ١٢٨٩ :

كانت طرابلس العصور الوسطى تقع على البحر ، على طرف شبه الجزيرة التي تقوم عليها في الوقت الحاضر ضاحية الميناء . ولم تكن متصلة بقلعة تل الحجاج ، التي لم تبذل فيما يبدو محاولة للدفاع عنها . اما المدينة ذاتها فكانت منيعة الاستحكامات الدفاعية . ومع ذلك فإنه على الرغم من انه

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 34 - 35.
وإذ كان بكتاش الفخري امير سلاح ، أشار اليه مؤلف الجستا على انه صلاح . انظر ايضاً :
Abu'l Feda, p. 159.

صار للمسيحيين السيطرة على البحر ، فإن ما كان للمسلمين من التفوّق في عـــدد الجيش ، ومن توافر أدوات الحصار ، دلّ على انه لا سبيل الى مقاومتهم . فلما انهار برج الاسقف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي للأسوار البرية ، وبرج الاسبتارية الذي يقع بين برج الاسقف والبحر ، بعد ان تعرّضا للقصف الشديد ، قرر البنادقة انه من المستحيل المضي في الدفاع . فبادروا بشحن سفنهم بكل أمتعتهم ، ثم أقلعوا الى خارج الميناء . ومـــا ارتكبه البنادقة من خطأ أزعج الجنويين ، إذ ارتاب امير البحر الجنوي زكريا في ان البنادقة يحاولون سرقة بعض سفنه . على انه ايضاً استدعى رجاله ، وغادروا المدينة بكل ما استطاعوا ان ينقذوه من المتاجر . على ان رحيلهم أثار الفوضى بين المسيحيين ، وفي صبيحة ذلك اليوم ، ٢٠ ابريل سنة ١٢٨٩ ، أمر السلطان بشنّ هجوم عام ، فتدفقت جموع المماليك الى داخل المدينة بعـــد ان اجتازت السور الذي يقع الى الجنوب الشرقي ، والذي تعرّض للانهيار .

وناضل سكان المدينة ، وقـد استبد بهم الذعر ، في سبيل الوصول الى السفن الراسية بالميناء . اما الكونتيسة لوسيا وأملريك امير قبرص ومارشالا الطائفتين الداوية والاسبتارية ، فإنهم أبحروا سالمين الى قبرص . ولقي مصرعه كل من بطرس مونكادا قـائد الداوية ، وبارثولوميو امبرياكو . وتعرّض للقتل على الفور كل رجـــل يصادفه المسلمون ، بينما جرى سبي النساء والاطفال . وحاول عدد من اللاجئين ان يجذفوا بقواربهم لاجتياز البحر الى جزيرة القديس توماس الصغيرة التي تواجه الميناء . غير ان فرسان المماليك خاضوا بجيادهم المياه الضحلة ، وسبحوا اليها ، فوقع بالجزيرة نفس مناظر القتل المريعة ، ولما حاول المؤرخ ابو الفدا صاحب حماه ان يزور

الجزيرة بعد بضعة ايام ، حمله على الرجوع ما انبعث من الجثث العفنة من رائحة كريهة [1] .

ولما انتهى القتل والسلب ، أمر السلطان قلاون بتدمير المدينة ومساواتها بالأرض ، حتى لا يحاول الفرنج الاستيلاء عليها من جديد ، بفضل سيطرتهم على البحر . وأصدر الاوامر بوضع اساس لمدينة جديدة في سفح تل الحجاج ، على مسافة اميال الى الداخل [2] .

ومضت العساكر المملوكية فاحتلت البترون ونيفين ، ولم تجر محاولة للدفاع عنهما ، وعرض بطرس امبرياكو سيد جبيل على السلطان اذعانه وخضوعه ، فسمح له السلطان بأن يحتفظ بمدينته لمدة عشر سنوات اخرى في ظل مراقبة بالغة الصرامة [3] .

كان سقوط طرابلس صدمة عنيفة لسكان عكا ، إذ أنهم ظلوا يعتقدون طوال السنوات القليلة الاخيرة ، أنه طالما لم يكونوا معتدين ، لم يكن لدى السلطان فعلاً اعتراض على ان يستمر بقاء المدن المسيحية على امتداد

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 235 - 237.
Amadi, p. 218.
Annales Januenses, loc. cit.
Auria, Annales in M. G. H. Scriptores, vol. XVIII, p. 324.
Makrizi, Sultans, II, I, pp. 101 - 103.

(٢) انظر : Abu'l Feda, pp. 16 - 23.
Gestes des Chiprois, pp. 237 - 238.

(٣) انظر : Makrizi, Sultans, II, I, pp. 103 - 104.
Sanudo, p. 230.
Grousset, op. cit. p. 745, n. 3.

الساحل . إذ يصح ان يهاجم قلاعهم التي تعتبر مصدر خطر قوي له ، ويصح ان ينفر من الطوائف الدينية العسكرية ، التي كان من واجباتها القتال من اجل ايمانها ، على الرغم من ان المسلمين والمسيحيين سواء ، استخدموهم على انهم ممولون لهم . غير ان التجار وأرباب الحوانيت بالميناء لم يبتغوا إلا السلام ، اما البارونات المحليون في الشرق الفرنجي الذين هووا حياة الترف ، فمن الواضح انهم لم يودوا ما تنطوي عليه الحرب الصليبية من ارتباك واضطراب . كما ان عكا وأمثالها من الموانىء هيأت اسباب الراحة للمسلمين والمسيحيين سواء في ممارسة التجارة . وأظهر سكانها صادق النية في رفضهم التحالف مع المغول . وما حدث من الاعتداء على طرابلس ، دون ان تسبقه إثارة ، اثبت لهم كيف ان تقديراتهم كانت كاذبة ، وكان لزاماً عليهم ان يدركوا ان هذا المصير ينتظر عكا .

وصل الى عكا ، الملك هنري بعد ان مضت ثلاثة ايام على سقوط طرابلس . فصادف بها رسولاً من قبل قلاون ، يحمل شكوى من سيده بأن هنري والطوائف الدينية العسكرية ، نقضوا الهدنة ، بأن نهضوا لمساعدة طرابلس . فردّ هنري بأن الهدنة لا تنطبق إلا على مملكة بيت المقدس ، فلو ان طرابلس كانت داخلة في الهدنة ، لما اقدم السلطان على الاعتداء عليها . وقبل المسلمون هذا العذر ، وتجددت الهدنة لمدة عشر سنوات اخرى وعشرة شهور ، وعشرة ايام ، على ان تدخل فيها مملكتا بيت المقدس وقبرص . وبادر ملك ارمينية وسيدة صور الى احتذاء هذا المثال (١).

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 238.

غير ان هنري لم يعد يثق في عهد السلطان . ولم يكن بوسعه ان يغامر، فيستنجد بالمغول ، لأن من المحقق ان السلطان سوف يعتبر ذلك انتهاكاً للهدنة . غير انه قبل ان يعود الى قبرص في سبتمبر سنة ١٢٨٩ ، وبعد ان خلف اخاه نائباً عنه في عكا ، ارسل يوحنا جرايللي الى اوربا ليثبت في اذهان ملوك الغرب كيف اضحى الموقف بالغ الخطورة[١] .

انزعج ملوك الغرب ايضاً لما حلّ بطرابلس من مصير . غير ان مسألة صقلية لا زالت تملأ عقول سائر الملوك ما عدا ادوارد ملك انجلترا ، إذ ان مشكلته الاسكتلندية بلغت حد الأزمة . استقبل البابا نقولا الرابع ، يوحنا جرايللي بعاطفة صادقة ، وكتب في اسى وحزن شديدين الى ملوك الغرب ، يلتمس منهم إرسال المساعدة . غير ان البابا نفسه تورط في مسألة صقلية ، وليس بوسعه إلا ان يكتب الرسائل ، ويحث رجال الدين على الدعوة الى حرب صليبية . على ان الامراء والسادة الذين توسل اليهم آثروا الانتظار حتى يتحرك الملك ادوارد . فالمعروف انه سبق ان وعد بالاشتراك في حملة صليبية ، وأنه كان له تجربة في الشرق[٢] . على ان ادوارد لم يتحرك . امـا جمهورية جنوة التي ألحق ضياع طرابلس خسارة فادحة بها ، فانها شنّت حملات انتقامية ، بأن استولت على سفينة مصرية تجارية كبيرة في ميـاه جنوب الأناضول ، وأغارت على مينـاء التينة

---

(١) انظر : Raynaldus, 1288, p. 43, 1289, p. 72.

(٢) انظر : Röhricht, « Derniers Jours », p. 529. Powicke, op. cit. pp. 229 ff.
يعالج بويك اتجاه ادوارد وميله .

بالدلتا ، المجرد من اسباب الدفاع . ولما أغلق قلاون ميناء الاسكندرية في وجه الجنويين ، بادروا بعقد الصلح . فلما وصلت رُسلهم الى القاهرة ، التقوا بسفارتين من قبل الامبراطور البيزنطي والامبراطور الالماني ، تقفان على خدمة السلطان (١) .

محاربون صليبيون من شمال ايطاليا سنة ١٢٩٠ :

لم يلقَ نداء البابا استجابة إلا في شمال ايطاليا ، ولكن لم يردّ عليه البارونات ، بل استجاب له رعاع الفلاحين والمتعطلون من سكان المدن الصغيرة في لومبارديا وتوسكانيا ، الذين تطلّعوا الى مغامرة تعود عليهم بشيء من الجزاء والخلاص ، وتصيبهم فيما يبدو بقدر من الغنيمة . لم يكن البابا راضياً عنهم ، غير انه قبل مساعدتهم ، فجعلهم تحت قيادة اسقف طرابلس ، الذي قدم الى روما لاجئاً . وكان يأمل بأنهم لن يرتكبوا حماقة ، بعد ان خضعوا لسيطرة رجل كنيسة يستطيع ان يكبح جماحهم ، فضلاً عن سابق درايته بالشرق . اما البنادقة الذين لم يحزنوا لما فقدته جنوة من قاعدة في طرابلس ، والذين احسّوا بشعور مختلف حول عكا ، حيث كانت لهم السيطرة التجارية ، فانهم بذلوا عشرين سفينة بقيادة نقولا تييبولو ابن الدوج ، يساعده بناء على طلب البابا ، يوحنا جرايللي ، وروسللي . وحاز كل من هؤلاء القادة الثلاثة الف قطعة من الذهب من خزانة البابوية . غير انهم افتقروا الى المؤن . فلما أبحر الاسطول صوب الشرق ، انحاز

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. I, pp. 416 - 418.

اليـه خمس سفن ارسلها جيمس ملك ارلجون ، الذي حرص على بذل المساعدة [1] .

أعادت الهدنة المعقودة بين الملك هنري والسلطان قلاوون بعض الثقة في عكا ، إذ جرى استئناف التجارة من جديد . ففي صيف سنة ١٢٩٠ اخذ تجار دمشق يعيدون ارسال قوافلهم الى الساحل ، وتوافر المحصول في تلك السنة في الجليل ، وتزاحم الفلاحون المسلمون بمنتجاتهم على اسواق عكا ، ولم تكن المدينة من الحيوية والنشاط مثلما كانت عليه في تلك السنة . على ان الصليبيين الايطاليين قد وصلوا في اغسطس ، إبان هذا الرخاء ، فأثاروا الارتباك للسلطات منذ ان وطأت اقدامهم الساحل ، إذ اشتهروا بالفجور والسكر والإخلال بالأمن . فلم يكن لقائدهم عليهم سلطان ، بعد ان عجز عن دفع رواتبهم . وإذ اعتقدوا انهم جـاءوا لقتال الكفار ، اخذوا يهاجمون التجار والفلاحين المسلمين الذين يأنسون للهدوء والسلام ، وحدث ذات يوم ، حوالي نهاية شهر اغسطس ان اندلعت الفتنة ، قـال جماعة من الناس ان الثورة بدأت في خان ، حيث اجتمع بهـا المسلمون والمسيحيون ، وأشار آخرون الى ان تاجراً مسلماً اغتصب سيدة مسيحية ، واستغاث زوجها بالجيران للانتقام له . فانطلق الصليبيون الرعاع فجـأة يجوبون شوارع المدينة ، ثم خرجوا الى الضواحي ، وأخذوا يذبحون كل

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, p. 238.
Dandolo, p. 402.
Sanudo, p. 429.
Amadi, pp. 218 - 219.

من صادفهم من المسلمين . وإذ اعتقدوا ان كل ذي لحية مسلم ، هلك ايضاً عدد كبير من المسيحيين المحليين . واستبدّ الرعب ببارونات المدينة وفرسان الطوائف الدينية العسكرية ، على ان كل ما استطاعوا ان يفعلوه لم يتجاوز انقـاذ عدد قليل من المسلمين ، الذين نقلوهم الى حيث يتوافر لهم الأمن بالقلعة ، فضلاً عن القاء القبض على بعض المحرضين المعروفين (١) .

على ان انباء المذبحة لم تلبث ان بلغت السلطان ، فأضحى لغضبه ما يبرره ، إذ قرر أن الوقت قد حان لاستئصال الفرنج من ارض سوريا . وعجّلت حكومة عكا فبعثت اليه باعتذاراتها ودواعي اسفها ، غير ان رسله قدموا الى عكا وأصروا على انــه لا بــدّ من تسليم الرجال الذين ارتكبوا الجرائم ، الى السلطان كيما ينزل بهم العقاب . فدعا الكندسطبل امالريك الى عقد مجلس . وفي هــذا المجلس ، نهض مقدم الداوية ، وبذل النصح بأن كل المذنبين المسيحيين المعتقلين وقتئذ في سجون عكا ، لا بد من تسليمهم لممثلي السلطان على انهم هم الذين ارتكبوا الجريمة . غير ان الرأي العام لا يجيز ارسال مسيحيين ليلقوا مصرعهم على ايدي الكفار ، فلم يلق رسل السلطان مــا يرضيهم ، بل حدث العكس إذ جرت محاولة فاترة لإثبات ان بعض تجار المسلمين متهمون بأنهم بدأوا الفتنة ، ولإلقاء اللوم عليهم (٢) .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, loc. cit.
Amadi, p. 19.
Bustron, p. 118.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 109.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 239 - 240.
Amadi, loc. cit.

لم يكن لدى قلاون من اجابة سوى الالتجاء الى السلاح . ومـا دار من مناظرة بين الفقهاء أقنعته أنه لا غبار عليه من الناحية الشرعية اذا نقض الهدنة . أبقى قلاون خططه في طي الكتمان . وبينما كان يعبىء الجيش المصري ، صدرت الاوامر الى الجيش السوري بقيـادة ركن الدين طقسو نائب دمشق ، بالمسير الى ساحل فلسطين ، قرب قيسارية ، وبإعداد ادوات الحصار . تردد الخبر بأن الحملة تقصد جهة في افريقية [١] . على ان الامير فخر الدين بكتاش انذر مرة اخرى وليم بوجيه والداوية بنوايا السلطان الحقيقية . فـأذاع وليم الانذار ، غير أن مـا من احد ، مثلما حدث في طرابلس ، اراد ان يصدقه . فبعث من تلقاء نفسه رسولاً الى القاهرة ، فعرض قلاون انه يبقى على المدينة مقابل ان يبذل له من دوكات البنادقة ما يضارع عدد سكان المدينة . فلما تقدم وليم بهـذا العرض الى المحكمة العليا ، قررت رفضه في سخرية . وجرى اتهام وليم بالخيانة ، وتعرض عند مغادرة قاعة المحكمة للإهانة من قبل الرعاع [٢] .

وفاة السلطان قلاون سنة ١٢٩٠ :

ازداد ارتياح سكان عكا في نهاية السنة ، حينما وردت الانباء من القاهرة بأن قلاون قضى نحبه . لقـد تخلى قلاون عن كل محاولة لإخفاء ما نواه

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 240.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 109.
Muhi ad - Din in Reinaud, op. cit. pp. 567 - 568.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, loc. cit.
Ludolf of Suchem, (trans. Stewart), P. P. T. S. vol. XII, p. 56.

من الزحف على عكا . ففي رسالة بعث بها الى ملك ارمينية ، أشار الى انه اقسم بألا يترك في المدينة مسيحياً على قيد الحياة . وفي ٤ نوفمبر سنة ١٢٩٠ ، خرج من القاهرة على رأس جيشه ، غير انـه لم يكد يشرع في المسير حتى خرّ مريضاً ، ولم تنقض ستة ايام حتى مات في مرجة الطين ، على مسافة خمسة اميال من عاصمته . على انـه ، وهو على فراش الموت ، جعل ابنـه الأشرف خليل يعـد بأنه سوف يواصل الحملة . كان قلاون سلطاناً عظيماً ، يضارع بيبرس في قسوته وتجرده من الرحمة ، غير انـه يفوقه في الاحساس بالولاء والشرف [١] .

على ان قلاون يختلف عن بيبرس في أنه خلّف وراءه ابناً عظيم القدر، يليه على السلطنة . ومع انه اعقب وفاته ما يجري عادة من مؤامرات بالبلاط ، فإن الاشرف لم يؤخذ على غرة ، إذ استطاع ان يلقي القبض على مدبّر المؤامرة ، الامير طرنطاي ، وأن يوطـد مركزه على العرش . على انـه انقضى من السنة ما يجعل الوقت متأخراً للزحف على عـكا . فتأجلت الحملة الى الربيع [٢] .

وأفادت حكومة عكا من فترة الهدوء ، فأنفذت من جديد سفارة الى

---

(١) انظر : Makrizi. Sultans, II, I, pp. 110 - 112.
Abu'l Feda, p. 163.
Gestes des Chiprois, pp. 240 - 241.
Amadi, p. 219.

(٢) انظر : Abu'l Feda, loc. cit.
Gestes des Chiprois, p. 241.

القاهرة ، ترأسها احد اعيان عكا ، واسمه فيليب ماينبيف ، الذي يعتبر من الثقاة في دراسة اللغـة العربية . وصحبه الى القاهرة فارس من الداوية ، بارثولوميو بيزان ، وآخر من الاسبتارية ، وكاتب اسمـه جورج . ورفض السلطان الجديد ان يلقـاهم ، فأودعوا السجن حيث لم يبقوا طويلاً على قيد الحياة (١) .

شرع الجيش الاسلامي في التحرك في مارس سنة ١٢٩١ ، واكتملت استعدادات الأشرف ، فأضحت بالغة الدقة . إذ تمّ جمع آلات الحصار من جميع ممتلكاته . وبلغت أمتعة الجيش عند خروجه من حماه ، من الثقل مـا جعله يستغرق شهراً ، تعرض فيه لطقس ممطر ، وخاض تربة تراكم فيها الطين ، للمسير من حصن الاكراد حيث توقف فترة من الزمن لينقل عرّادة ضخمة اسمها المنصورة ، الى عكا . وما يقرب من مائة من الآلات الاخرى ، تمّ تشييدها في دمشق ومصر . وكان مع الجيش ايضاً عرّادة كبيرة اخرى اسمها الغاضبة ، ومناجيق اشتهرت بالثيران السوداء ، كانت أخف وزناً ، ولكنها من طراز بالغ القوة والتأثير . وفي ٦ مارس سنة ١٢٩١ غادر الأشرف القاهرة قاصداً دمشق ، حيث اودع حريمه وعياله . ثم وصل أمام عكا ، في ٥ ابريل ، بكل قواته الكثيفة . وتحدث الناس أن جيشه تألف من ستين الف فارس ، ومائة وستين الف راجل . ومع ان هذه الارقام لا تخلو

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 241 - 243.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 120.

من مبالغة ، فإن جيشه فاق كل ما استطاع المسيحيون ان يحشدوه من القوات [1].

الدفاع عن عكا سنة ١٢٩١ :

مـــا ورد من انباء عن استعدادات السلطان حملت سكان عكا آخر الأمر على ان يدركوا مصيرهم . إذ جرى توجيه استغاثات عاجلة الى اوربا أثناء فصل الشتاء ، غير انها لم تؤد إلا الى نتيجة ضئيلة ، فقد وصل في الخريف السابق جماعة قليلة من الفرسان ، جاءوا متفرقين . ومن بينهم كان اوتو جراندسن السويسري ، في جماعـــة من الانجليز ارسلهم ادوارد الاول ملك انجلترا . وحشد الداوية والاسبتارية كل من في متناول ايديهم من رجالهم . أما مقدم طائفة فرسان التيوتون ، بورشارد شفاندن ، فإنـه ترك أثراً سيئاً بأنـه اختار هذه اللحظة الحرجة ، فاستقال من منصبه ، على ان خلفه في تقدمة التيوتون ، كنراد فويختفانجن ، استدعى من اوربا جماعة من رفاقه . وأرسل هنري ملك قبرص عساكر قبارصة ، وعهد الى اخيه امالريك بأن يتولى قيادة الدفاع عن عكا ، ووعد بأنه سوف يقتفي أثرهم بالامداد . وتقرر تجنيد كل قادر على حمـل السلاح من سكان عكا ، ليقوم بدوره في الدفاع [2] . ومع ذلك فـإن الاعداد كانت قليلة ، إذ

(١) انظر : Al - Jazari, (ed. Sauvaget), pp. 4 - 5.
Makrizi, loc. cit.
Abu'l Feda, p. 163.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 241.
Röhricht, Geschichte, pp. 1008 ff.

ان كل سكان عكا من المدنيين يتراوح عددهم بين ثلاثين الف وأربعين الف نسمة . يضاف الى ذلك انه كان بعكا نحو اقــل من الف فارس او سرجندارية خيــالة ، وحوالي اربعة عشر الف راجل ، ومنهم الحجاج الايطاليون . أما استحكامات المدينة فكانت سليمة وقوية ، وقد اصدر الملك هنري الأوامر حديثاً بتعزيز قوتهــا ومتانتها . فأضحى خط مؤلف من سورين مزدوجين يحمي شبه الجزيرة التي تقوم عليها المدينة وضاحيتها الشمالية مونتموسارت ، كما انه لم يفصل عكا عن مونتموسارت إلا سور واحد ، تقع القلعة عليه ، قرب التقائه بالسورين المزدوجين . وانتصب اثني عشر برجاً على إبعــاد متساوية على امتداد السورين الداخلي والخارجي . والمعروف ان كثيراً من هذه الابراج جرى تشييدها على نفقة بعض اعلام الحجاج ، فالبرج الانجليزي شيده ادوارد الاول ، بينما اقامت كونتيسة بلوا البرج الذي يليه . وعلى الزاوية حيث تتوقف الاسوار عــن المضي نحو الشمال ، فتنحرف من خليج عكا ، وتتجه صوب الغرب نحو البحر ، قــام على السور الخارجي ، برج كبير يقع مقابل البرج الملعون على السور الداخلي وقد عمره منذ زمن قريب الملك هنري الثاني . وقباله برج الملك هنري شيد الملك هيو برجاً على مدخل الحصن (١) . وهذه الزاوية بأكملها تعتبر اضعف جانب في خطوط الدفاع . ولذا تقرر ان يتولى الدفاع عنها عساكر

---

(١) انظر ما سبق ص ٥٤ ، والخريطة في ص ٦٩٩ .
Rey, Colonies Franques, pp. 451 ff.
المعروف ان أليس بريتاني، كونتيسة بلوا ، زارت عكا في سنة ١٢٨٧ ، وماتت بها . انظر:
Annales de Terre Sainte, pp. 459 - 460.
Sanudo, p. 229.

الملك بقيادة اخيه امليك ، وعن يمينه اتخذ مواقعهم الفرسان الفرنسيون والانجليز بقيادة يوحنا جرايللي ، وأوتو جراندسن ، ثم تليهم قوات البنادقة والبيازنة ، فضلاً عن جند قومون عكا . وعلى يسار امليك ، اقام على كل اسوار مونتموسارت الاسبتارية ، ثم يليهم الداوية ، يتولى مقـدم كل منهما قيادة طائفته . أما الفرسان التيوتون فعززوا الكتيبة الملكية عند البرج الملعون . ومن جانب المسلمين ، اتخذ جيش حماه الذي كان برفقته المؤرخ ابو الفداء ، موضعه عند البحر ، تجاه الداوية ، وامتد الجيش المصري من نهـاية سور مونتموسارت حتى خليج عكا . وجرى نصب خيمة السلطان على مسافة ليست بعيدة من شاطىء البحر ، قبالة برج المندوب البابوي [١] .

ولما انتهى كل شيء وضاع ، حدث فيما بعد من الغضب والأسى مـا ادى الى توجيه الاتهامات ، فرمى المؤرخون المسيحيون جزافـاً الحامية بالجبن [٢] . ولكن الواقع انه في ذروة اللحظة التي يتقرر فيها مصيرهم ،

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 164.
Gestes des Chiprois, p. 243.

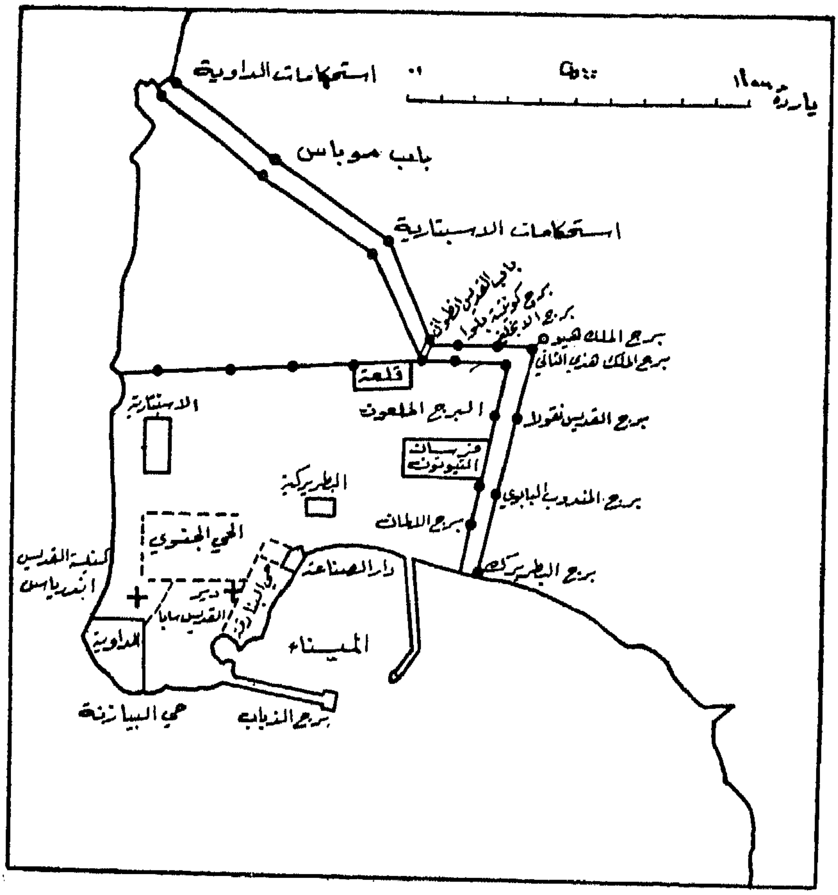
(٢) فيما يلي تواريخ الفرنج الاساسية التي عالجت سقوط عكا :

أ — التـاريخ المعروف باسم Gestes des Chiprois ، الذي ألفه كاتب معروف باسم « جندي من داوية صور » . كان كاتباً لمقدم الداوية ، ويعتبر شاهد عيان . ومع انه كان يعجب بمقدم الداوية ، فانه لم يكن ينتمي الى الطائفة . وفي الجملة اشتهر في كتابته بالاتزان والانصاف . (انظر ما يلي ، الملحق الاول بهذا المجلد) .

ب — مارينو سانودو الكبير ، الذي لم يشهد سقوط عكا ، ولكنه صنف كتابه على اساس ما ورد في المصدر السابق .

جـ — التاريخ المعروف باسم :

De Exidio Urbis Acchonis, (in Martène and Durand, Amplissima Collectio, vol. V).



استحكامات الداوية
باب موباس
استحكامات الاسبتارية
باب القديس لعازر
برج كونتيسة بلوا
برج الانجليز
برج الملك هيو
برج الملك هنري الثاني
قلعة
الاسبتارية
البرج الملعون
برج القديس نقولا
فرسان التيوتون
البطريركية
برج المندوب البابوي
برج اللمان
الحي الجنوي
كنيسة القديس اندرياس
دير القديس سابا
حي البنادقة
دار الصناعة
برج البطريرك
الداوية
الميناء
حي البيازنة
برج الذباب

عكا سنة ١٢٩١

أظهر المدافعون من الولاء والشجاعة ما افتقدوه لسوء الحظ في السنوات الاخيرة . فيصح أن بعض الرجال الصالحين للقتال هربوا في شحنات النساء والشيوخ والأطفال الذين حملتهم السفن الى قبرص عند بدء الحصار ، ويجوز ان يكون من التجار الايطاليين من حملتهم اثرتهم على القلق على أمتعتهم ، فالواقع ان جنوة لم تشترك في القتال . إذ سبق للبنادقة ان طردوها فعلاً من عكا ، فعقدت جنوة معاهدة مع السلطان . على ان البنادقة والبيازنة استبسلوا في القتال . ويعتبر البيازنة مسئولين عن انشاء مقلاع (عرادة) ضخم فاق أثره كل ما كان لدى المسيحيين من آلات .

بـدأ الحصار في ٦ ابريل سنة ١٢٩١ ، فصارت منجنيقات السلطان وعراداته تقذف يومـاً بعد يوم الأحجار الضخمة ، او القـدور المليئة بالمتفجرات على اسوار المدينة ، او تلقيها من فوق الاسوار الى داخل المدينة ، وأمطر رماته بسهامهم المدافعين فوق ابهاء الابراج وأفاريزها ، بينما تجهز مهندسوه للتحرك لنقب مواطن الضعف في الاستحكامات . وتردد القول

= وهو لمؤلف مجهول كان معاصراً ولم يكن شاهد عيان ، وكان يلقى من غير حساب التهم بالجبن والخيانة .

د — كتاب Thaddeus of Naples, Historia de Desolacione Civitatis Accchonis, (ed. Riant).

وهو حافل بالاهانات والتهم .

يضاف الى هذه التواريخ ، تقرير وضعه راهب يوناني اسمه ارسيليوس :

(Quoted by Bartholomew of Neocastro, ed. Paludino, in Muratori, Rerum Italicarum Scriptores, XIII, III, p. 132).

يتهم الفرنج بالفجور والكسل ، غير انه لا يرميهم بالجبن . وكل المصادر على وجـه التقريب أشادت بالملك هنري .

بأن السلطان أعد لكل برج الف مهندس . على انـه لا زال للمسيحيين السيطرة على البحر ، فظلت المؤن ترد بانتظام من قبرص ، غير انهم افتقروا الى الاسلحة ، وأخذوا يدركون انه ليس لديهم من العساكر مـا يكفي للدفاع عن الاسوار ، إزاء الأعداد الضخمة عند العدو ، ولكن لم يتطرق القـــول الى التسليم ، إذ جهزوا احـــدى سفنهم بعرادة ، ألحقت ضرراً بليغاً بمعسكر السلطان . وفي ليلة ١٥ ابريل سنة ١٢٩١ ، وبينما القمر يتلألأ في كبد السماء ، قام الداوية ، يساندهم اوتو جراندسن ، بشن هجوم مباشر على معسكر جيش حماه ، فأخذوا المسلمين على غرة . غير ان عدداً كبيراً من الداوية تعثرت اقدامهم في حبال الخيام عند الاصيل حيث اخـذ الضوء يخبو ، فهووا الى الارض ووقعوا في الاسر ، وارتـد الآخرون على اعقابهم الى داخل المدينة بعد ان تكبدوا خسائر فادحة . وما قام به الاسبتارية من هجوم بعد بضع ليال في الظلام الدامس لم يلق إلا الفشل الذريع ، نظراً لأن المسلمين بادروا على الفور ، فأوقدوا المشاعل، وأشعلوا النيران . وقد تبين بعد الهزيمة الثانية ان الهجومين كلف المسيحيين ضحايا ضخمة ، من قوتهم البشرية . غير ان التخلي عن المبـادرة بالهجوم انزل ضرراً بالروح المعنوية عند المسيحيين ، إذ تولّد بينهم شعور اليأس، وأضحى الوقت في جانب المسلمين .

وفي ٤ مايو سنة ١٢٩١ ، اي بعد ان مضى نحو شهر على بدء الحصار ، وصل الملك هنري قادماً من قبرص بكل مـــا استطاع ان يحشده من العساكر ، الذين لم يتجاوز عددهم مـائة فارس وألفي راجل ، أقلّتهم اربعون سفينة . ورافق الملك ، رئيس اساقفة نيقوسيا يوحنا توركو انكونا ، والراجح انه لم يمنعه من الإسراع في القدوم سوى ما حلّ به من المرض .

وجرى استقباله بكل مظاهر الفرح والسرور ، فلم يكد يهبط الى الارض حتى تولى القيادة وأثار قوة جديدة في الدفاع . غير انه لم يلبث ان اتضح الامر بأن هذه الأمداد كانت من القلة ما يمنع التغيير في النتيجة .

آخر محاولة للمفاوضات سنة ١٢٩١ :

وفي محاولة اخيرة لإعادة السلام ، أنفذ الملك هنري فارسين من الداوية ، وهما : وليم كافران ، ووليم فيلبيه ، الى السلطان ، يسألانه لماذا نقض الهدنة ، ويعدان بإنصاف كل شكوى . فاستقبلهما السلطان الاشرف خارج خيمته ، غير انه قبل ان يسلماه رسالتهما ، سألهما في إيجاز ما اذا كانا قد أحضرا مفاتيح المدينة . فلما أنكرا ، قال لهما ان ذلك هو الموضع الذي يطلبه ، ولا يهمّه مصير سكان المدينة ؛ غير انه تقديراً منه لشجاعة الملك بقدومه للقتال ، وهو لا زال حدثاً ، فضلاً عن مرضه ، سوف يبقي على حياتهم اذا استسلموا له . ولم يكد الرسولان يجيبان بأنهما سوف يعتبران خائنين اذا وعدا بالإذعان ، حتى قذفت عرادة من الاسوار حجراً سقط قرب الجماعة . فاستشاط الاشرف غضباً ، وسلّ سيفه ليقتل الرسولين ، ولكن الامير الشجاعي منعه من ذلك ، بأن قال لا يصح ان تدنس سيفك بدماء الخنازير ، ثم سمح للفارسين بالعودة الى ملكهما .

كان مهندسو السلطان قد بدأوا فعلاً في نقب الأبراج . وفي ٨ مايو سنة ١٢٩١ ، قرر رجال الملك ان البرج الذي أقامه الملك هيو لم يعد قادراً على الصمود ، فأشعلوا النار به وتركوه ينهار . وفي خلال الاسبوع التالي ، تمّ تقويض البرج الانجليزي ، وبرج كونتيسة ملوا ، وأخذ في الانهيار الأسوار القائمة عند باب القديس انطوان ، وعند برج القديس نقولا . اما

البرج الجديد المعروف باسم برج هيو الثالث ، فظلّ يقاوم حتى ١٥ مايو ، حين انهار شطر من سوره الخارجي . وفي صبيحة اليوم التالي شقّ المماليك طريقهم الى داخــل الخرائب ، وأجبروا المدافعين على التقهقر الى الخط الداخلي من الأسوار . ووقع في ذلك اليوم هجوم مركّز على باب القديس انطوان ، ولم يمنع العدو من دخول المدينة إلا بسالة الداوية والاسبتارية . فمارشال الاسبتارية ماثيو كليرمونت ، رفع شأنه ما أظهره من البسالة .

وفي أثناء اليوم التالي شدّد المسلمون سيطرتهم على السور الخارجي ، وأصدر السلطان الأوامر بشن هجوم عام في صبيحة يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١ . وجرى الهجوم على طول امتداد الأسوار ، ابتداء من باب القديس انطوان الى برج البطريرك عند خليج عكا ، غير ان الهجوم الرئيسي للمسلمين كان موجها الى البرج الملعون الواقع في زاوية الحصن . وقذف السلطان بكل قواه في المعركة . فلم تكف المنجنيقان عن القدف . أما سهام الرماة فتكاد تكون كتلة صلبة عند سقوطها الى داخل المدينة ، واندفعت كتائب العسكر ، الواحدة بعد الاخرى بقيادة امراء يلبسون عمائم بيضاء لمهاجمة استحكامات المدينة ، كان الضجيج يثير الخوف والجزع ، إذ صار المهاجمون يهتفون بصيحات الحرب ، وكان يحثهم ما انطلق من اصوات من الطبول والكوسات والشبابات التي يحملها ثلثمائة جمل .

ولم يمض وقت طويل ، حتى شق المماليك طريقهم الى البرج الملعون ، وأجبروا حاميته من فرسان سوريا وقبرص على التراجــع صوب الغرب نحــو باب القديس انطوان . فنهض لمساعدتهم الداوية والاسبتارية فظلوا يقاتلون معاً كأنما لم يقع بين الطائفتين تنافس حاد مدة قرنين من الزمن .

واستمات ماثيو كلير مونت في محاولة القيام بهجوم معاكس لاسترداد البرج ، ومع ان مقدمي الطائفتين اقتفيا أثره ، فإنهما باءا بالفشل . وعلى امتداد السور الشرقي للمدينة ، لم تستمر مقاومة يوحنا جرايللي وأوتو جراندسن إلا بضع ساعات . واستطاع العدو ، بعد استيلائه على البرج الملعون ، ان يجتاز الاسوار المنهارة ، وأن يتملك باب القديس نقولا . فضاع بذلك كل البرج في زاوية الحصن ، واستقر المسلمون بداخل المدينة .

الفرار من عكا سنة ١٢٩١ :

دار قتال عنيف في شوارع المدينة ، غير انه لم يكن ثمة ما يصح القيام به لإنقاذ عكا . إذ تعرض مقدم الداوية ، وليم بوجيه ، لإصابة قاتلة عند قيامه بهجوم معاكس غير مثمر ، على البرج الملعون . فحمله اتباعه الى دار الداوية حيث قضى نحبه . كان ماثيو كليرمونت بصحبته ، غير انه عاد الى المعركة ، وظل يقاتل حتى لقى مصرعه . أما مقدم الاسبتارية يوحنا فيلييه فأصابته الجراح ، فحملوه الى الميناء ، وأنزلوه ، برغم اعتراضه ، الى سفينته . وسبق أن ابحر الملك الشاب (هنري) وأخوه املريك الى قبرص ، وتعرض الملك هنري فيما بعد للاتهام بالجبن ، لتخليه عن المدينة ، غير انه لم يكن بوسعه ان يفعل شيئاً ، ومن واجبه لمملكته ان يتجنب الوقوع في الأسر . وفي القطاع الشرقي ، أصيب يوحنا جرايللي بجراح ، على أن اوتو جراندسن تولى القيادة ، فحشد من سفن البنادقة كل ما استطاع أن يعثر عليه ، ونقل اليها يوحنا جرايللي وسائر من استطاع ان ينقذهم من العساكر ، وكان هو آخر من لحق بهم . وشاعت الفوضى المريعة على ارصفة الميناء ، إذ أن العساكر وسكان المدينة ، ومنهم نساء وأطفال ، تزاحموا على القوارب التي تسيّرها المجاديف ، يلتمسون الوصول الى السفن

الراسية قبالة الشاطىء . أما البطريرك الكهل ، نقولا هنابا ، الذي أصابه جرح طفيف ، فنقله خدامه المخلصون الى زورق صغير، غير ان حب الخير حمله على ان يسمح بأن يصعد الى زورقه اللاجنون الذين بلغوا من كثرة العدد ان هوى الزورق بحمولته الى جوف البحر ، فغرق بجميع من فيه . على ان جماعة من الرجال حملتهم بديهتهم الحاضرة على ان يختطفوا قارباً ، وتقاضوا اجوراً باهظة من التجار والنساء الذين استبد بهم اليأس على رصيف الميناء . فالمغامر الكاتلاني ، روجر فلور الذي استبسل في القتال أثناء الحصار باعتباره من الداوية ، قاد سفينة كبيرة للداوية ، وحقق ثروة ضخمة بما ابتزه من اموال من نبيلات عكا[1] .

على ان السفن كانت من القلة مـا اعجزها عن انقاذ كل اللاجئين ولم

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 43 - 54.
Sanudo, pp. 230 - 231.
Amadi, pp. 220 - 225.
De Exidio, cols. 760 - 782.
Thaddeus, pp. 18 - 23.
Ludolf of Suchem, (P. P. T. S. pp. 54 - 61).
Al - Jazari, p. 5.
Makrizi, Sultans, II, I, pp. 125 - 126.
Abu'l Feda, pp. 164 - 165.
Abu'l Mahassin in Reinaud, op. cit. pp. 569 - 572.
Schlumberger, Byzance et Croisades, pp. 207 - 279.
اورد شلمبرجر وصفاً مسهباً شيقاً ، غير انه لم يشر الى المراجع والمصادر .
Muntaner, Cronica, (ed. Coroleu), p. 378.
يشير الى سلوك روجر فلور .

يلبث العساكر المسلمون ان شقوا طريقهم الى داخل المدينة ، يقتلون كل من يصادفهم ، من الشيوخ ، والنساء ، والأطفال ، سواء . أما الفئة القليلة من السكان الذين واتاهم الحظ الطيب ، بأن لزموا بيوتهم ، فتقرر نقلهم احياء وبيعهم ارقاء . غير ان لم يبق منهم على قيد الحياة إلا عدد قليل . فما من احد يستطيع ان يذكر عدد اولئك الذين هلكوا . وحاولت الطوائف الدينية العسكرية وأسرات التجار الكبيرة ان تضع فيما بعد قوائم بمن بقى على قيد الحياة ، غير ان مصير معظم افرادهم ليس معروفاً . وتحدث الرحالة الذين زاروا الشرق بعد سقوط عكا ، بأنهم شاهدوا بعض الداوية الذين ارتدوا عن دينهم يعيشون في بؤس وشقاء في القاهرة ، وأشاروا الى جماعة اخرى من الداوية تمارس قطع الاشجار في الغابات قرب البحر الميت . وتقرر اطلاق سراح بعض الاسرى فعادوا الى اوربا بعد ان ظلوا في الاسر تسع او عشر سنوات . أما الارقاء الذين كانوا فرساناً ، فإنهم لقوا هم وذريتهم من سادتهم قدراً من الاحترام . على ان عدداً كبيراً من النساء والاطفال اختفوا الى الأبد في حريم امراء المماليك . وبلغت الاعداد من الوفرة ، ان هبط ثمن الفتاة في سوق الرقيق بدمشق الى درهم ، على ان عدد من تعرّض للقتل من المسيحيين لا زال كبيراً [١] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 254 - 255.
Makrizi, op. cit. p. 126.
Bartholomew Cotton, p. 221.
اورد بارثولوميو رسالة السلطان الاشرف الى هيثوم ملك ارمينية .
انظر ايضاً : Röhricht, Geschichte, p. 1021, n. 3.

ولم تحل ليلة ١٨ مايو سنة ١٢٩١ حتى اضحى في قبضة السلطان كل مدينة عكا ، فيما عدا دار الداوية الضخمة البارزة في داخل البحر ، في الجهة الشمالية الغربية من المدينة ، وقد لجأ اليها من بقى على قيد الحياة من الداوية ، فضلاً عن عدد من السكان من كلا الجنسين . وظلت اسوارها الضخمة تتحدى العدو عدة ايام ، وخف لمساعدتها السفن ، بعد ان انزلت اللاجئين في قبرص . على ان السلطان الاشرف عرض بعد نحو اسبوع ، على مارشال الداوية ، بطرس سيفري انه اذا سلم له الحصن فإنه يسمح له بأن يبحر الى قبرص، مع كل الناس المقيمين بداخل الحصن ، بكل امتعتهم . وقبل بطرس الشروط ، وجرى الاذن لأمير مملوكي في مائة من المماليك ان يدخلوا الحصن ، ليشرفوا على التدابير ، بينما ارتفع لواء السلطان فوق البرج . غير انه انفلت زمام المماليك فأخذوا يضايقون ويهاجمون النساء والصبيان المسيحيين ، فاشتدت ثائرة فرسان الداوية ، فانقضُّوا على المسلمين وذبحوهم ، ونزعوا لواء العدو ، وتجهزوا للمقاومة حتى الموت . ولما حل الليل ، بعث بطرس سيفري اموال الداوية مع قائد الطائفة ، ثيبالد جودين ، وفئة قليلة من غير المحاربين ، في زورق أقلّهم الى قلعة صيدا . وفي اليوم التالي عرض السلطان الاشرف ، مثلما فعل من قبل ، نفس الشروط المشرفة بعد ان شهد مناعة القلعة ، وشجاعة حاميتها النادرة . وتوجه بطرس في جماعة من رفاقه ، بعد الحصول على امان السلطان ، للمناقشة في تسليم الحصن . غير انهم ما كادوا يصلون خيمة السلطان ، حتى تمّ القاء القبض عليهم ، وتكبيلهم ، والمبادرة الى اعدامهم . ولما شهد المدافعون فوق الاسوار ما حدث ، اغلقوا باب الحصن ، ومضوا في القتال . غير انهم لم يستطيعوا ان يمنعوا المهندسين المسلمين من الزحف الى الاسوار ، وحفر نقب كبير بأسفلها . وفي ٨ مايو اخذ ينهار جانب البناء الذي يطل على البر . ولم

يتردد الاشرف في ان يقذف بألفين من المماليك في هذه الثغرة التي ازدادت اتساعاً . على ان الثقل كان من الشدة مـا لم تحتمله اساسات الحصن التي اخذت تتداعى . فبينما كانوا يشقون طريقهم الى داخل الحصن ، انهار كل البناء فهلك المدافعون والمهاجمون معاً في خرائبه [1] .

تدمير عكا سنة ١٢٩١ :

ولم تكد عكا تصير في قبضة السلطان ، حتى شرع في تدميرها ، وفقاً لخطة موضوعة . إذ عزم على ألا تكون مرة اخرى رأس حربة لما يقوم به المسيحيون من اعتداء على سوريا ، فتقرر استباحة دورها وأسواقها ، ثم إشعال الحريق بهـا . وجرى تدمير استحكامات دور الطوائف الدينية العسكرية ، والأبراج والقلاع المنيعة ، وأمر بترك أسوار المدينة لما تتعرض له من التداعي والانهيار . ولما اجتاز عكا بعد اربعين سنة ، الحاج الالماني ، لودولف سوكيم ، لم يشهد سوى فئة قليلة من الفلاحين الاشقياء يعيشون في خرائب ما كانت تعتبر ذات يوم حاضرة رائعة للشرق الفرنجي . ولم تبقَ إلا كنيسة او كنيستان ، لم يكتمل تدميرهما . امـا المدخل الجميل لكنيسة القديس اندرياس فقد سبق انتزاعه لاستخدامه في زخرفة المسجد

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 255 - 256.
Bartholomew Cotton, p. 432.
Ludolf of Suchem, loc. cit.
Sanudo, p. 231.
Bar - Hebraeus, p. 493.

يجعل ابن العبري سقوط عكا في سنة ١٢٩٢ .

الذي جرى تشييده بالقاهرة تكريماً للسلطان المظفر . ولم يتعرض لسوء قبر جوردان السكسوني الدومنيكاني الذي يقع داخل الجدر المنهارة لكنيسة القديس دومنيك ، وذلك بعد أن القى عليه المسلمون نظرة فاحصة ، وتبين لهم أن جثمانه لم يتعرض للفساد (١) .

وما تبقى من مدن الفرنج لم تلبث ان شاركت عكا في مصيرها . ففي ١٩ مايو ، وبعد ان اصبح معظم عكا في يدي السلطان الاشرف ، ارسل الى صور جيشاً . والمعروف ان صور تعتبر أمنع مدينة على الساحل ، كانت عسيرة المنال على كل عدو يفتقر الى السيادة على البحر . ففي الماضي استعصت اسوارها على صلاح الدين مرتين . وحدث قبل بضعة شهور أن الاميرة مرجريت التي كانت بحوزتها صور ، تنازلت عنها الى ابن اختها ، امالريك شقيق الملك . غير ان حاميتها كانت قليلة العدد ، فلم يكد العدو يقترب منها ، حتى فقد اعصابه آدم كافران ، نائب امالريك في صور ، فأبحر الى قبرص ، بعد أن تخلى عن المدينة دون قتال (٢) . وعزم الداوية

---

(١) انظر : Enlart, Monuments des Croisés, II, pp. 9 - 11.
Etienne de Lusignan, Histoire de Chypre, fol. 90.
Ludolph of Suchem, (P. P. T. S. p. 61).

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 254.
Sanudo, loc. cit.
Al - Jazari, p. 6.
Abu'l Feda, p. 164.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 126.
Gestes, p. 237.
يشير الى ان مرجريت لا زالت سيدة صور في سنة ١٢٨٩ ، على الرغم من ان هذا المصدر يتحدث عن امالريك على انه سيد صور سنة ١٢٨٨ . انظر ايضاً :
Hill, op. cit. p. 182, n. 5.

على ان يقاوموا في صيدا . إذ كان بها ثيبالد جودين بما حمله من اموال الداوية ، وقد اختاره من بقي من فرسانهم على قيد الحياة ، مقدماً لهم خلفاً لوليم بوجيه . ظلوا يعيشون في هدوء وسلام لمدة شهر ، ثم قدم اليهم جيش مملوكي ضخم بقيادة الامير الشجاعي . وكان فرسان الداوية من القلة ما يمنعهم من المحافظة على المدينة (صيدا) ، ولذا لجأوا مع عدد كبير من أعلام السكان ، الى قلعة البحر ، المشيدة على جزيرة صخرية على مسافة مائة ياردة من الشاطيء ، وقد تجددت عمارة استحكاماتها منذ زمن قريب . وبادر ثيبالد على الفور الى الاقلاع الى قبرص لتجنيد العساكر لبذل المساعدة للقلعة . غير انه لم يفعل شيئاً عند وصوله الى الجزيرة ، إما لجبن منه ، وإما لما استحوذ عليه من اليأس . واستبسل الداوية بالقلعة في القتال ، غير انه لما شرع المهندسون في تشييد جسر في عرض البحر ، فقد الداوية الامل ، وأبحروا مساحلين الى انطرطوس ، ودخل الشجاعي ، في ١٤ يوليه ، القلعة وأمر بتدميرها [١] .

ولم يمض اسبوع حتى ظهر الشجاعي امام بيروت . وكان سكانها يأملون في ان المعاهدة التي انعقدت بين سيدتها ايشيفا وبين السلطان سوف تحفظهم من كل اعتداء . فلما أصدر الامير الشجاعي الاوامر الى

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 256 - 257.
Annales de Terre Sainte, p. 460.
Al - Jazari, p. 7.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 131.
Abu'l Feda, loc. cit.

قادة الحامية بالقدوم عليه ، وبذل مظاهر الاحترام ، بادروا في لهفة الى الاذعان له ، غير انهم لم يلبثوا ان وقعوا في الأسر . وإذ لم يعد للحامية قادة ، لم يفكر رجالها في الدفاع ، فهرعوا الى سفنهم ولاذوا بالفرار بعد ان حملوا معهم المخلفات الدينية في الكاثدرائية . ودخل المماليك بيروت في ٣١ يوليه سنة ١٢٩١ ، وتقرر هدم أسوارها وتحطيم قلاع أسرة ابلين ، وتحولت الكاثدرائية الى مسجد [١] .

ولم يلبث السلطان بعدئذ ان احتل حيفا دون ان يصادف مقاومة ، في ٣١ يوليه ، فأشعل رجاله الحريق في الأديرة الواقعة على جبل الكرمل ، وقتلوا رهبانها . ولم تبقَ سوى قلعتي انطرطوس وعثليت ، غير ان لم تكن الحامية بكل منها من القوة ما يكفي لمواجهة الحصار . فجلت عن انطرطوس في ٣ اغسطس ، ومن عثليت في ١٤ اغسطس سنة ١٢٩١ . ولم يعد بحوزة الداوية سوى الحصن الواقع بجزيرة ارواد التي تقع على مسافة ميلين من الساحل ، قبالة انطرطوس . فظلوا محافظين على موقعهم اثنتي عشرة سنة اخرى ، ولم يغادروا الجزيرة إلا سنة ١٣٠٣ ، بعد ان اصبح مستقبل كل الطائفة (الداوية) موضع شك [٢] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 257 - 258.
Al - Jazari, loc. cit.
Makrizi, loc. cit.
Abu'l Feda, loc. cit.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 259.
Annales de Terre Sainte, loc. cit.
Al - Jazari, p. 8.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 126.
Abu'l Feda, loc. cit.

نهاية الشرق الفرنجي سنة ١٢٩١ :

وظلت جيوش السلطان تذرع بلاد الساحل من أقصاه الى أقصاه بضعة شهور ، تحرص على ان تدمر كل ما تعتبره ذا قيمة للفرنج ، اذا حاولوا مرة اخرى النزول الى البر . إذ تقرر اجتثاث اشجار الحدائق ، وتعطيل أدوات الري . ولم يسلم من القلاع من التحطيم ، إلا تلك التي تقع في ظهير الساحل ، أمثال جبل الحاج في طرابلس ، والمرقب الرابض بأعلى الجبل بطرابلس . وعلى امتداد البحر سادت الوحشة والخراب ، إذ ان الفلاحين الذين كانوا في وقت من الاوقات يعملون في مزارع خصيبة ، شهدوا ما أصاب أبنية الضياع من الدمار ، فالتمسوا لهم ملاذاً في الجبال . أما من كان منهم ينتمي الى اصول الفرنج فبادروا الى الامتزاج والاندماج بالسكان الوطنيين ، فما سبق ان اتصف الاسلام به من التسامح قد ولى ، إذ لم يبدِ المنتصرون شيئاً من الرحمة نحو الكفار ، نظراً لما ولدته الحروب الدينية الطويلة فيهم من المرارة [١] .

ولم يكن المسيحيون الذين فرّوا الى قبرص بأحسن حظاً . إذ ظلوا جيلاً من الزمان يعانون الحياة التعسة على انهم لاجئون ليس مرغوباً فيهم ، إذ تضاءل العطف عليهم كلما مضت السنوات . إذ أضحوا يذكرون القبارصة بالكارثة المروّعة ، ولم يكن القبارصة في حاجة الى من يذكرهم . وظلت عقائل الجزيرة مدة قرن ، يرتدين عند خروجهن من دورهن ، العباءات السوداء التي تغطيهن من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وكان ذلك رمز الحداد على زوال الشرق الفرنجي [٢] .

---

(١) انظر ما يلي ، الكتاب الخامس ، الفصل الثاني .

(٢) انظر :
Sanudo, p. 232.
Cobham, Cypria, pp. 17 - 22.

الكتاب الخامس

الخـــاتمة

الفصل الاول

أواخر الحملات الصليبية

الواقع أن الحركة الصليبية اخذت في الخروج من مجال السياسة العملية ، بعد سقوط عكا وطرد الفرنج من سوريا . إذ حدث بعد فتوح صلاح الدين، قبل قرن من الزمان ، أن المسيحيين ظلوا يحتفظون بالحصون الضخمة على الساحل السوري ، في صور ، وطرابلس ، وأنطاكية . فكان للجيش القادم للانقاذ قواعد ، يستطيع منها ان يباشر العمليات الحربية . على ان هذه القواعد قد ضاعت . وليس لجزيرة ارواد التي لا ماء بها قيمة او اهمية ، ولذا كان لا بـد للحملات ان يجري تنظيمها وإمدادها بالمؤن من جزيرة قـبرص في عرض البحر . ولم يبق من الممتلكات المسيحية ، سوى مملكة ارمينية في قليقية . ولم يكن المسير من قليقية الى سوريا امراً هينـاً ، ولم يكن الارمن موضع ثقة ، ومن هنـا يعتبر ضياع بيت المقدس سنة ١١٨٧ صدمة عنيفة للعالم المسيحي ، إذ أن المملكة انهارت فجأة . غير ان كل فرد كان يعلم سنة ١٢٩١ ان الشرق الفرنجي اخذ يتفتت ويتداعى .

ومع ان اختفاءه اثار الحزن والغضب ، فإنه لم يكن موضع دهشة ، إذ أن غرب اوربا شغله وقتذاك ما وقع في بلاده من مشاكل ومنازعات . فلم يعد بـه جذوة الحماس التي تدفع امراءه وسادته للمسير صوب الشرق ، مثلما حدث ايام الحملة الصليبية الثالثة ، بل انـه ليس باستطاعة غرب اوربا ان يوجه الى الشرق حملة شعوب مثل الحملة الصليبية الاولى . إذ أن شعوب الغرب اخذت تنعم بما استجد من اسباب الراحة والرخاء . فلن يستجيبوا مطلقاً لما قد يقوم به امثال بطرس الناسك من دعوى مستندة الى النبوءات ، بنفس التقوى الساذجة الجاهلة التي اشتهر بها اجدادهم قبل قرنين من الزمن . إذ لم يقتنعوا بما انطوت عليه الامتيازات المبذولة من وعود ، وصدمهم ما حدث من استخدام الحرب المقدسة لتحقيق اغراض سياسية . كما ان اعداد حملة حربية ضخمة ، كان بعيد الاحتمال ، بعـد ان اضحت الامبراطورية البيزنطية الضخمة طيفـاً . ومع ان نهاية الشرق الفرنجي تعتبر امراً محزناً ، فإنها لم تثر رد فعل عنيف .

الافتقار الى الحلفاء :

على ان البابا نقولا الرابع وحده هو الذي سعى لأن يقرن أساه بالعمل . غير انه ما من احد من الرجال يستطيع ان يتوجه اليه . فما كان للبابوية من مكانة جردها من قوتها مـا اصابها من فشل في الحرب الصقلية . ولم يعد الملوك يعبأون بتنفيذ امر البابا . فأمبراطور الغرب الذي حطم البابا ما كان له من سلطة عالمية قـد انغمس في امور المانيا ، فإذا خرج من المانيا ، فللقيام بعد لأي بحملة الى ايطاليا . وبرغم مـا اشتهر به فيليب الرابع ملك فرنسا من الكفاية والنشاط ، فإنه انفق طاقته في بناء السلطة

الملكية ، بعد ان خلص مملكته من الحرب الصقلية ، وكان لادوارد ملك انجلترا ما يستغرق كل اهتمامه في اسكتلندا . يضاف الى ذلك ان انجلترا وفرنسا كانتا تتحركان نحو التنافس الحـــاد الذي لم يلبث ان ادى الى حرب المائة عام . أما الملك الذي حاز اقوى اسطول في البحر المتوسط وهو جيمس الثـاني ملك أراجون ، فكان هو وأخوه فردريك المطالب بعرش صقلية ، في قتال مـــع تابع البابا ، شارل الثاني ملك نابولي الذي توافرت عنده الرغبة ، من الناحية النظرية ، في ان يسهم في اعداد حملة صليبية ، غير انه كان لزاماً عليه قبل كل شيء ان يطرد الارجونيين من صقلية . وفي اقصى شرق اوربا ، انصرف الامبراطور البيزنطي لدرء خطر الترك من جهـة ، وخطر مملكتي البلقان الحديثتين ، بلغاريا والصرب ، من جهة اخرى . يضاف الى ذلك مـــا صار للانجويين في نابولي من دعاوى الاباطرة اللاتين بعد ان تجردوا من ممتلكاتهم . ولذا لم يأمل وليهم البابا في ان يظفر بقدر كبير من عطف البيزنطيين . اما المدن التجارية بإيطاليا فإنه بلغ من شدة انصرافها الى تطويع سياستها لتلائم الاحوال والظروف المتغيرة ، انه لم يكن بوسعها ان تبذل من الوعود مـا يسبب لها الحيرة والإرتباك . على ان ملكي قبرص وأرمينيا كانا اشدّ الملوك اهتماماً بالمشكلة نظراً لأن مملكتيهما اضحتا في خط المواجهة ، ولا بـدّ لأيتها ان تصير قاعدة لكل حملة صليبية جديدة . غير انهما كانا شديدي الحرص على ألا يثيرا غضب السلطان . إذ كان لزاماً على ملك ارمينيا ان يناضل الترك والمصريين معاً ، كما تحتم على ملك قبرص ان يحل مشكلة اللاجئين . يضاف الى ذلك ان كلتا الاسرتين الملكيتين ، اللتين وثقت المصاهرة ما بينهما من علاقات ، لم تلبثا ان وقعتا في منازعات أسرية وحروب اهلية . ومع ان ارغون ايلخان فارس لا زال حليفاً قوياً ، فإنه قد استبدّ به اليأس ، بعد

ان فشل في اثارة الغرب للقيام بعمل من الاعمال ، قبل سقوط عكا . ولذا فلن يفعل شيئاً بعدئذ . وحدث سنة ١٢٩٥ ، عقب وفاة ارغون ، ان اعتنق الايلخان غازان الإسلام ، واعتبره الديانة الرسمية للايلخانية ، وتخلص من ولائه للخان الكبير في الشرق . وكان غازان صديقاً للمسيحيين، نظراً لأنه قام على تربيته وتنشئته ديسبينا خاتون ، زوجة الايلخان اباقا الجميلة ، التي لقيت التبجيل والتقدير في كل الشرق . على ان اعتناقه للاسلام لم يقلل بحال من الاحوال من كراهيته للمصريين والترك . ولكن لم يعد المغول يوفدون سفارات الى رومـا ، ولا امل في ان تصير فارس دولة مسيحية . واذا كان من المحقق ان البابا ارسل من قِبله الى بكين مبعوثاً ، الراهب يوحنا رئيس دير جبل كورفينو ، الذي ظفر بصداقة قبيلاي ، فالواقع أن الخان الكبير لم يعد يحفل بأمور الشرق الادنى [١] .

أما الطوائف الدينية العسكرية ، التي نشأت اصلاً للقتال في الارض المقدسة من اجل العالم المسيحي ، فلا زال ذلك واجبها الأساسي . على ان طائفة الفرسان التيوتون غادروا الشرق بعد سقوط عكا (سنة ١٢٩١) ، وتوجهوا الى أملاكهم على بحر البلطيق [٢] . بينما اتخـذ كل من الداوية

---

(١) انظر : Baluze, Vitae Paparum Avenionensium, (ed. Mollat), III, p. 156.
Atiya, The Crusade in the Late Middle Ages, pp. 34 - 36, 248 - 252.
Hill, History of Cyprus, II, pp. 103 ff.
Browne, Literary History of Persia, III, p. 40.

(٢) الواقع ان الفرسان التيوتون نقـلوا مقرهم الى البندقية سنة ١٢٩١ ، ثم تحولوا الى ماريلبورج في بروسيا سنة ١٣٠٩ . وعن تاريخهم بعدئذ انظر ما كتبه بوزويل في :
Cambridge Medieval History, vol. VII, pp. 248 ff.

والاسبتارية مقراً لهم في جزيرة قبرص . وإذ عجزت الطائفتان عن مباشرة واجباتها على النحو السليم في قبرص، تدخلتا في السياسات المحلية . والراجح ان البابا كان يقدرهما ، لما قد تبذلانه من مساعدة لما يصح توجيهه من حملة صليبية . على أن ما كان لهما من أحباس ضخمة في جميع أنحاء اوربا أثارت من الغيرة والحسد مـا قد يؤدي الى نتائج وخيمة ما لم تثبتا مبرراتها . وليس بوسع الداوية والاسبتارية ان يتعاهدا حملة صليبية مـا لم يتلقيا مساعدة (١) .

لقد فشل البابا نقولا في إثارة الغرب بعـد سقوط طرابلس . كما انه كان بالغ العجز ، بعـد الكارثة الكبرى التي حلت بعكا . لم يبذل له مستشاروه شيئاً من المساعدة . إذ ان شارل الثاني ملك نابولي أيّد الاقتراح الذي سبق عرضه منذ بضع سنوات ، والذي يقضي بأنـه للقضاء على التنافس بين الطوائف الدينية الحربية لا بد من اندماجها ، غير انه اعتقد انه من المستحيل في الوقت الراهن القيام بعمل حربي في الشرق ، ولكنه أيّد فرض حصار اقتصادي على مصر وسوريا ، فمن اليسير إجراء هـذا الحصار ، الذي يلحق ضرراً بليغاً بالسلطان . والواقع انه يتعذر تحقيق ذلك من الناحيـة العملية ، فلن تشترك فيه المدن التجارية الايطالية او البروفنسالية ، او الأرجونية ، إذ ان رخاءها يتوقف على التجارة الشرقية ، التي يجتاز قدر كبير منها ممتلكات السلطان (٢) . والواقع انه اذا توقفت هذه

---

(١) انظر ما يلي ص ٧٢٨ وما يليها .

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 35 - 36.

التجارة ، فلن يكون بوسع هذه المدن التجارية الإبقاء على أساطيلها ، وبذا يتيسر للمسلمين ان يسيطروا على البحر المتوسط . ومن سوء الحظ ان الاسلحة تؤلف أهم سلعة يصدرها المسيحيون مقابل ما يحوزونه من المتاجر الشرقية ، ولكن ما الاهمية التي تنجم عن حرمان اوربا مما يجلبه هذا النشاط التجاري من فوائد ؟ فقد تحتج الكنيسة على ما يجري من تبادل هذه السلع المنكورة ، غير ان المصالح التجارية أضحت وقتذاك أقوى من الكنيسة . وتوفي البابا نقولا الرابع سنة ١٢٩٠ ، بعد ان خاب أمله في كل جهوده [١] .

وما من احد من أخلافه حقق ما هو خير من ذلك من النتائج . على انه اذا كانت الحملة الصليبية افتقرت الى الرجال ، فإن احساس العالم المسيحي بالخجل ولّد موجة جديدة من الدعاية . لم يعد الدعاة مبشرين جوابين مثلما حدث في الماضي ، بل أضحوا رجالاً مثقفين ، ألفوا الكتب والعجالات ، كيما يبينوا الحاجة الى حملة مقدسة ، انفرد كل مؤلف بخطة لتسيير الحملة . ففي سنة ١٢٩١ أصدر راهب فرنسيسكاني اسمه فيدنتشيو بادوا ، درج البابا فيما مضى على إيفاده في السفارات الدبلوماسية ، وطاف بأنحاء شاسعة في الشرق ، عجالة بعنوان كتاب عن استعادة الارض المقدسة (Liber de Recuperatione Terra Sancte) أهداه الى البابا نقولا الرابع . وتشتمل هذه العجالة على دراسة قيمة عن تاريخ البلاد المقدسة ، فضلاً عن مناقشة حول نوع الجيش المطلوب لاستردادها ، والطرق البديلة التي يصح

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. p. 45.

ان يسلكها الجيش . وغلب على هـذه العجالة الصفة الاخبارية ، واتسمت بحسن التدليل . على ان فيدنتشيو افترض ان الجيش سوف يتيسر إعداده ، وقدّر ان لقائد الجيش الاختيار النهائي للطريق الذي يسلكه (١) . وفي السنة التالية ، سنة ١٢٩٢ ، نشر الراهب ثاديوس نابولي تقريراً عن سقوط عكا . ويعتبر قصة حية ، موشاة بمـا جرى الاسراف في توجيهه من تهم الجبن الى كل من كان فعلاً حاضراً في عكا . والواقع ان ما اتسمت بـه لغة ثاديوس من العنف كان امراً مقصوداً ، إذ كان يرمي الى ان يلحق بالغرب من العار ما يحمله على القيام بحملة صليبية ، وختم كتابه بما وجهه من نداء حار الى البابا والامراء والمؤمنين للنهوض لتخليص البلاد المقدسة التي تعتبر تراث المسيحيين (٢) .

ريمون لُلْ :

من المحقق ان كتاب ثاديوس قـد تأثر به الداعي الذي تلاه ، وهو جنوي اسمه جلفانو ليفانتي ، كان طبيباً بالبلاط البابوي . على ان كتابه الذي اصدره سنة ١٢٩٤ ، وأهـداه الى فيليب الرابع ملك فرنسا ، لم يكن إلا خليطاً من الأقيسة المستمدة من لعبة الشطرنج ، ومن عظات الزهد ،

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 36 - 43.

نشر رسالة فيد نتشيو جولو بوفلش في :

Bibliotheca Bio - Bibliografica della Terra Sancta, II, pp. 9 ff.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 31 - 34.

Hystoria de Desolatione.

قام على نشره رّيان .

وكان خلواً من كل اتجاه عملي[1] . على ان المبشر الاسباني الكبير ، ريمون لل ، يفوق في الأهميـــة كلا من ثاديوس وجلفانو . ولد لل في ميوريقا سنة ١٢٣٢ ، وتقرر اعدامه رجماً بالحجارة في بوجيه بشمال افريقية سنة ١٣١٥ . ومع ان شهرته بلغت الذروة باعتباره من الزهاد ، فانه كان في الوقت ذاته يعتبر من رجال السياسة العمليين . إذ كان واسع المعرفة باللغـــة العربية ، وطاف بكثير من الأقاليم الاسلامية ، وفي سنة ١٢٩٥ أتحف البـــابا بمذكرة عن الاجراء المطلوب لقتـــال المسلمين ، ثم اصدر في سنة ١٣٠٥ كتابه المعروف باسم (Liber de Fine) الذي حوى بالتفصيل افكاره ، وعرض منهجاً يصح ممارسته من الناحية العملية . إذ ينبغي على المبشرين الذين نالوا حظاً كبيراً من التعليم ان يبذلوا كل جهـــد للظفر بالمسلمين وسائر الكنائس المسيحية المنشقة والملحـــدة ، على انه لا بد في الوقت ذاته من اعداد حملة مسلحة . وينبغي ان يتولى قيادتها ملك محارب (Rex Bellator) ، وأن تتوحد الطوائف الدينية الحربية تحت قيادته في طائفة واحدة ، تعتبر العمود الفقري للجيش . ويقترح لل أن من واجب الحملة الصليبية طرد المسلمين من اسبانيا ، ثم تعبر الى افريقية وتتحرك على امتداد الساحل الى تونس ، ثم الى مصر . على انه أوصى فيما بعـــد بحملة بحرية ، بأن اقترح انه لا بد من الاستيلاء على مالطة ورودس بما لهما من مرفأين فائقين ، واتخاذهما قاعدتين . ويبدو انه فيما بعـــد آثر ان تنتزع الحمـــلة البرية القسطنطينية من اليونانيين ، ثم تمضي في سيرهـــا عبر بلاد الأناضول . وتوافرت عنده نصيحة ملموسة عن تنظيم الجيش والاسطول ،

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 71 - 72.

وعن كميات المؤن الغذائية والمواد الحربية ، فضلاً عن التعليمات التي يتزوّد بها المبشرون الذين يرافقون الجيش . ومع ان الكتاب انطوى على حشو كثير ، وبه متناقضات في بعض الاحوال ، فانه من تأليف رجل معروف بذكائه النادر ، وخبرته الواسعة ، على الرغم من ان اتجاهه من المسيحيين الشرقيين اتسم بالتعصب الكريه [1] .

على انه حينما ألّف ريمون لل كتابه ، تراءى كأن حملة صليبية تلوح فعلاً في الأفق . إذ سبق لفيليب ملك فرنسا ان اعرب عن رغبتـه في إعداد حملة ، كما انه جرى في البلاط البابوي وفي باريس ، إعداد ودراسة الخطط اللازمة لتسييرها . والواقع ان الباعث الحقيقي لفيليب الذي يقضي بأن ينتزع من الكنيسة الاموال بهذا العذر العجيب ، لم يكن حتى وقتذاك ظاهراً للعيان . إذ أنه خرج منـذ زمن قريب منتصراً من شجاره مع البـابا بونيفاس الثـامن ، الذي اكتشف ان الخطة التي دمّرت اسرة هوهنشتاوفن ليست مجدية مع الملكيات الجديدة في الغرب . فالبابا كليمنت الخامس الذي وقع الاختيار عليه في سنة ١٣٠٥ ، كان فرنسياً ، استقر في افينيون ، على طرف ممتلكات ملك فرنسا ، وأظهر الانصياع الدائم للملك ، وبادر الى ان يجمع المذكرات ليسترشد بها الملك ، ويهتدي بها [2] .

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 74 - 94.
اورد عطية مناقشة مستفيضة عن حياة لل ومؤلفاته المرتبطة بالحرب الصليبية .

(٢) انظر : Atiya, op. cit. p. 48.

اقتراحات للقيام بحملة صليبية :

لم يعرض على فيليب إلا أهم هـذه المذكرات . إذ تقدم اليه بطرس ديبوا ، من رجال القانون الفرنسيين ، بعجالة ، يوجه شطر منها الى امراء اوربا ، بأن طلب اليهم الاشتراك في الحركة بزعامة ملك فرنسا ، وبأن جعل توصيات خاصة تتعلق بالطريق الذي ينبغي اتخـاذه ، والوسائل اللازمة لتمويل الحملة . فلا بد من سحق الداوية ، وانتزاع أملاكهم ، وينبغي فرض ضريبة التركات على رجال الدين . وأضاف ديبوا بعض مقترحات عامة حول النزوع الى السماح للقسس بالزواج ، وتحويل الأديرة الى مدارس للبنات . أما الشطر الآخر من العجالة فلم يكن سوى نصيحة خاصة الى الملك ، ينهي اليه كيف يتسنى له السيطرة على الكنيسة بأن يجعل في مناصب الكرادلة مَن يؤيدونه ، ويحثه على ان يقيم امبراطورية شرقية يتولاها احد أبنائه [١] . ولم يلبث وليم نوجاريت كبير المستشارين الدبلوماسيين عند فيليب ، ان ارسل سنة ١٣١٠ الى البابا مذكرة عن الحملة الصليبية . ومـا حوته هـذه المذكرة من مقترحات استراتيجية كان ضئيلاً ، إذ جعلت تركيزها الاساسي على التمويل . فلا بد للكنيسة ان تبـذل كل الاموال ، وكان تدمير الداوية اول نقطة في البرنامج [٢] . والتمس البابا ، في الوقت ذاته ، النصيحة . إذ طلب الى الامير الارمني هيثوم او هايتون

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 48 - 52.
Hill, op. cit. II, p. 239.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 53 - 55.

كوريكوس ، الذي لجأ الى فرنسا ، وأضحى مقدم دير في برايمو نسترانت ، قرب بواتييه ، ان يبعث بآرائه . وصدر في سنة ١٣٠٧ كتابه المعروف باسم (Flos Historiorum Terre Orientis) ، الذي اشتدّ على الفور الإقبال على شرائه . وشمل هذا الكتاب خلاصة موجزة لتاريخ الشرق الأدنى، مع مناقشة وثيقة الدراية عن حالة الامبراطورية المملوكية . أوصى هايتون بتوجيه حملة مزدوجة ، تسير بحراً ، وتتخذ من قبرص وأرمينية قاعدتين لها ، وأيّد التعاون مع الارمن ، والتحالف الوثيق مع المغول [١] . على ان آراء مماثلة عبّر عنها فيما بعد وليم آدم الدبلوماسي البابوي ، الذي طاف في أرجاء شاسعة في الشرق ، ومضى في اسفاره حتى بلغ الهند . إذ أضاف اقتراحاً يقضي بأنه ينبغي ان يكون للمسيحيين اسطول في المحيط الهندي ، كيما يقطع تجـارة مصر الشرقية . وفكر ايضاً في انه لا بد للاتين ان يستردّوا القسطنطينية [٢] . وصنف وليم ديورانت اسقف مينـده ، رسالة سنة ١٣١٢ ، أوصى فيها باستخدام الطريق البحري ، وأكّد تأليف حملة ، وأشار بصفة خاصة الى مراعاة سلوك أفرادها [٣] . اما امير البحر الجنوي

---

(١) جرى نشر كتاب هايتون في :

Recueil des Historiens des Croisades.
Documents Armeniens, vol. II.

انظر : Atiya, op. cit. pp. 62 - 64.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 64 - 67.

صدر كتاب آدم على انه ملحق لكتاب هايتون في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٣) انظر : Atiya, op. cit. pp. 67 - 71.

الشيخ ، بنيتو زكريا ، الذي سبق ان كان بودشتا طرابلس ، فانه أثبت آراءه عن القوات البحرية المطلوبة (١) .

على ان ما يفوق هذه الاقتراحات من الناحية العملية كانت تلك التي وضعها ثلاثة من الأعلام الذين لا بد ان يشتركوا في كل حملة صليبية . ففي سنة ١٣٠٧ ، كان في أفينيون ، مقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، فطلب اليهما البابا كليمنت ان يبديا آراءهما . فبادر مقدم الداوية جيمس مولاي على الفور الى ارسال تقرير ، أوصى فيه بأن تتولى عشر سفن كبيرة اول الامر تطهير البحار ، ثم يتلوها ارسال جيش يتراوح عدده على الأقل بين اثني عشر الف وخمسة عشر الف فارس ، وبين اربعين وخمسين الف راجل . ولن يلقى ملوك الغرب صعوبة في تجنيد هذه الأعداد ، وينبغي حمل الجمهوريات الايطالية على ان تتعاهد بنقلهم . لم يقر النزول في قليقية ، إذ ينبغي ان يحتشد رجال الحملة في قبرص ، وأن يهبطوا على الساحل السوري (٢) . وحدث بعد اربع سنوات ، عند انعقاد مجمع فيينا ، ان كتب فولك فيلاريت ، مقدم الاسبتارية ، الى فيليب ملك فرنسا ، ينهي اليه ما سبق لطائفته أن أعدته ، وما تستطيع ان تجريه من استعدادات للحملة الصليبية (٣) . وفي نفس الوقت تقدم هنري الثاني ملك قبرص بآرائه الى المجمع ، إذ كان يودّ فرض حصار اقتصادي على الامبراطورية

---

(١) انظر : Ibid, pp. 60 - 61.

Mas Latrie, Documents, II, p. 129.

(٢) انظر : Baluze, op. cit. II, pp. 145 ff.

(٣) انظر : Delaville Le Roulx, France en Orient, II, pp. 3 - 6.

المملوكية . على انه ، لأسباب وجيهة ، لم يثق في الجمهوريات الايطالية ، وأصرّ على انه ينبغي على الحملة الصليبية ألا تركن اليهم في نقلها بحراً . أيّد فكرة شنّ هجوم على مصر ذاتها ، باعتبارها أسهل بلاد السلطان منالاً (١) .

وعلى الرغم من كل هذه المذكرات وهذا الحماس ، استبدّت الدهشة وخيبة الامل بكل انسان ، ما عدا الملك فيليب ، حينما لم توجه الحملة الصليبية . حقق فيليب غرضه في العثور على مبرر للحصول على المال من الكنيسة ، ولم يلبث ان اظهر آراءه الحقيقية ، بما شنه من هجوم على منظمة كبيرة تعتبر مساعدتها جوهرية لكل حملة صليبية (٢) .

الاسبتارية يحتلون جزيرة رودس سنة ١٣٠٨ :

الواقع ان ضياع الشرق الفرنجي جعل الطوائف الدينية العسكرية في حالة قلق واضطراب . على ان الفرسان التيوتون حلّوا مشكلتهم بأن ركزوا كل جهودهم في فتح بلاد البلطيق (٣) . أما الداوية والاسبتارية فانهم تعرضوا في قبرص للقيود ، ولم يلقوا شيئاً من التقدير الذي يأملونه . وإذ كان الاسبتارية أكثر تعقلاً وحكمة من الداوية ، أخذوا يبحثون عن وطن آخر . إذ قدم الى قبرص ، سنة ١٣٠٦ قرصان جنوي اسمه فينولو دي فينولي سبق ان حصل من الامبراطور البيزنطي اندرونيقوس على عقد

---

(١) انظر : Mas Latrie, Documents, II, pp. 118 - 125.
Atiya, op. cit. pp. 58 - 60.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 53, 73.

(٣) انظر ما سبق ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .

باستئجار جزيرتي كوس وليروس ، فعرض على مقدم الاسبتارية ، فولك فيلاريت ، بأن يقوم مع الاسبتارية بفتح جميع جزر ارخبيل الدوديكانيز ، واقتسامها معاً ، على ان يحتفظ لنفسه بالثلث . وبينما أقلع فولك الى اوربا ليحصل على موافقة البـــابا على الخطة ، رسا على جزيرة رودس اسطول صغير للاسبتارية ، يساندده بعض السفن الجنوية ، وشرع في تؤدة يخضع الجزيرة . استبسلت الحامية اليونانية بالجزيرة في القتـــال ، ولم تسقط قلعة فيليرمو الكبيرة في أيدي الغزاة في نوفمبر سنة ١٣٠٦ إلا بالخيانة ، بينما ظلت مدينة رودس ذاتها تقاوم لمدة سنتين أخريين . وحدث آخر الامر ، في صيف سنة ١٣٠٨ ان سفينة تقلُّ أمداداً للحامية مرسلة من القسطنطينية ، ساقتها العواصف الى جزيرة قبرص ، وقعت في فاماجستا في قبضة فارس قبرصي ، اسمه فيليب الاصفر ، فسار بها بمن فيها من الركاب الى المحاصرين . ووافق قائدها وهو من رودس كيما ينجو بحياتــه على إجراء المفاوضات حول تسليم المدينة (رودس) ، التي فتحت أبوابهـــا للاسبتارية في ١٥ اغسطس سنة ١٣٠٨ . فبادر الاسبتارية على الفور بإقامة مقرهم في الجزيرة (رودس) ، وجعلوا من المدينة بمينائها الرائع أمنع حصن في شرق البحر المتوسط . وإذ تحقق الفتح على حساب اليونانيين المسيحيين ، لقي ترحيباً كبيراً في الغرب ، باعتبار انه انتصار صليبي . والواقع ان فتح رودس وهب الاسبتارية قوة جديدة ، وهيأ لهم الوسيلة التي تحملهم على المضي الى تحقيق الامل المنشود . على انه كان لزاماً على سكان رودس ان ينتظروا ما يزيد على ستة قرون ، حتى يستردوا حريتهم [١] .

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 319 - 323.
Delaville Le Roulx, Hospitaliers en Terre Sainte, pp. 273 - 280.
Amadi, pp. 254 - 259.

أما الداوية فكانوا يقلون عن الاسبتارية في المغامرة وفي الحظ ، انما فاقواهم فيما كانوا يثيرونه دائماً من العداوة ، وكانوا اكثر ثراء منهم . فالمعروف انهم ظلوا زمناً طويلاً اكبر صيرفي ، ومقرض للمال في الشرق، وأحرزوا نجاحاً كبيراً في مهنة لا توحي بالاحترام . وجرى دائماً نعت سياستهم بأنها تقوم على الأثرة وانعدام المسئولية . وعلى الرغم مما اشتهر به فرسانهم من البسالة في القتال في اوقات الحرب ، فإن نشاطهم المالي أدى الى ان يكونوا على اتصال وثيق بالمسلمين ، إذ اتخذ كثير منهم اصدقاء من المسلمين ، واهتموا بالديانة والدراسات الاسلامية . ترددت الشائعات ان الداوية يدرسون وراء اسوار قلعتهم فلسفة غريبة ويمعنون في طقوس جرى نعتها بالهرطقة . وكان للمبتدئين (المريدين) فيما يقال شعائر منافية للدين والأخلاق ، وكثر الهمس عما يصحب ممارسة الرذائل المنافية للطبيعة من شعائر العربدة . ولم يكن من الحكمة استبعاد هذه الشائعات واعتبارها اختراعاً من قِبل الاعداء لا يستند الى اساس سليم ، والراجح أنه توافر بهذه الشائعات من المادة ما يكفي لتقرير الخط الذي يجري عليه الاقتناع بمهاجمة الداوية [1] .

---

(١) وردت مناقشة منطقية عن سوء سمعة الداوية في :

Martin : The Trial of the Templars, pp. 18 - 24, 46 - 59.

على ان فضيحة محاكمتهم المجردة من العدالة ، جعلت المؤرخين ينزعون الى انه لا غبار عليهم، والواضح ان الشكوك والريب حول عاداتهم لم تكن كلها مجردة من الاسباب . وما يتعلق بهم من وثائق ومصادر نشرها :

Lizerand, Le Dossier de l'Affaire des Templiers.

Melvin, La Vie des Templiers, pp. 246 ff.

نزعت الآنسة ميلفين الى تبرير تصرفات الداوية .

محاكمة الداوية سنة ١٣٠٨ :

ولما توجه جيمس مولاي الى فرنسا سنة ١٣٠٦ ليدرس مع البابا كليمنت الحملة الصليبية التي جرى وضع خطتها ، سمع ان التهم قد وجهت الى طائفته (الداوية) ، فطلب اجراء تحقيق عام ، فتردد البابا . أدرك أن الملك فيليب عزم على سحق الطائفة ، فلم يجرؤ على إثارة غضبه . على ان فيليب امر فجأة ، في اكتوبر سنة ١٣٠٧ ، بإلقاء القبض على جميع من كان بفرنسا من رجال الداوية ، وبمحاكمتهم عن الإلحاد بمقتضى التهم التي صاغها فارسان اشتهرا بسوء السمعة ، وسبق طردهما من الطائفة . وأدلى المتهمون بما لديهم من بيانات بعد ان تعرضوا للتعذيب . ومع أن فئة قليلة منهم أصرّت على إنكار كل شيء ، فان الغالبية اعربت عن ارتياحها للاعتراف بكل ما يطلب منها . وفي الربيع التالي اصدر البابا ، بناء على طلب الملك فيليب الاوامر الى كل امير ، يحوز الداوية ممتلكات ببلاده ، بالقاء القبض عليهم ، والشروع في اجراء محاكمات من هذا القبيل . فاستجاب له بعد تردد سائر ملوك اوربا ، باستثناء ملك البرتغال دنيس ، الذي ليس له مصلحة في هذا الاجراء الاليم . وتقررت مصادرة املاك الداوية في كل مكان ، وجرى دفع فرسانهم الى الظهور أمام المحاكم . لم يحدث دائماً استخدام التعذيب ، على انه تقرر وضع صيغة ثابتة لاستجوابهم . فكان المتهمون يعلمون ما يتوقع منهم من الاعتراف ، فاعترف عدد كبير منهم(١).

---

(١) انظر : Martin, op. cit. pp. 28 - 64.
Melvin, op. cit. pp. 249 - 257.

على ان ما كان له أهمية خاصة عند البابا ، هو ان لا بـد لحكومة قبرص ان تتعاون ، نظراً لأن الداوية اتخذوا مقرهم بالجزيرة . ولكن كان الملك عليها وقتذاك ، أملريك شقيق هنري الثاني ، الذي سبق ان أطاح بالملك من سلطانه لفترة طارئة ، بفضل مساعدة الداوية . وصل الى قبرص في مايو سنة ١٣٠٨ ، المقدم هايتون قادماً من افينيون ، يحمل رسالة من البابا تنطوي على الامر بإلقاء القبض على الفور على الفرسان الداوية ، بعد ان تبين انهم ليسوا مؤمنين . وأرجأ امالريك تنفيذ الامر ، فتوافر لفرسان الداوية بقيادة مارشالهم ايميه اوزيلمييه من الوقت ما يكفي للاستعداد للدفاع عن انفسهم . على انهم استسلموا في اول يوليه سنة ١٣٠٨ ، بعد ان لجأوا الى استخدام السلاح فترة قصيرة . وتقرر نقل اموالهم ، باستثناء شطر كبير منها أتقنوا إخفاءه فلم يتيسر كشفه ، من ليماسول ، الى دار امالريك في نيقوسيا ، بينما جرى جعل الفرسان تحت الحراسة ، في خيروخيتيا اول الامر ، ثم في يورماسويه ، ثم فيما بعد في ليفكارا ، التي ظلوا بهـا ثلاث سنوات . وفي مايو سنة ١٣١٠ ، أي بعد ان عاد هنري الثاني الى العرش ، تقرر آخر الامر تقديم الداوية بقبرص الى المحاكمة بناء على إصرار البابا وإلحاحه . تعرض عدد كبير منهم في فرنسا للقتل حرقاً ، بينما ألقي بهم في جميع انحاء اوربا في السجون ، او جرى الابقاء عليهم في حالة بؤس وفقر . ولم يكن لدى الملك هنري الثاني ما يدعوه الى ان يكنّ المحبة لفرسان الداوية ، الذين خانوا قضيته منذ بضع سنوات ، على انه هيأ لهم محاكمة عادلة . جرى اتهام ستة وسبعين فارساً منهم ، أنكروا جميعاً التهم الموجهة اليهم . وأقسم شهود بارزون على انهم أبرياء ، وأعلن واحد من بين الفئة القليلة من الشهود المعادين للداوية ، أنه لم يقدم إلا ليبدي ارتيابه فيهم ، بعد ان تلقى تقرير البابا عن جرائمهم . على انهم جميعاً ظفروا بالبراءة .

ولما بلغت افينيون أنباء براءتهم ، استشاط البابا غضباً فكتب الى الملك هنري يطلب إعـــادة المحاكمة ، وأرسل ممثلاً شخصياً ، اسمه دومنيك باليسترينا ، ليتأكد ان العدالة أخذت مجراها . غير ان نتيجة المحاكمة لم يجر تسجيلها . وسبق للبابا كليمنت ان امر بأنه اذا انطوت البراءة الاخرى على خطر من الاخطار ، فينبغي على دومنيك ان يطلب مساعدة مقدمي الدومنيكان والفرنسيسكان ، للنظر في ان التعذيب قد وقع . وتقرر انفاذ المندوب البابوي في الشرق ، بطرس اسقف روديز ، الى قبرص لتعزيز جهود دومنيك . ويبـــدو ان الملك احتفظ عندئذ بقراره ، فأبقى المتهمين في الحبس ، إذ لا زالوا في حبسهم في سنة ١٣١٣ ، حينما تلا بطرس اسقف روديز على الأساقفة وكبار رجال الدين بالجزيرة قرارات البـابا الصادرة في ١٢ مارس سنة ١٣١٢ التي تقضي بقمع طائفة الداوية وتسليم كل مـا لها من ثروة وأملاك للاسبتارية ، بعد ان تسترد السلطات المدنية ما بذلته من نفقات على المحاكمات المختلفة . وأدرك الملوك في جميع أنحاء اوربا أن هذه النفقات كانت باهظة ، فلم يحصل الاسبتارية إلا على جانب صغير من الأملاك الحقيقية . ولم يطلق ابداً سراح قادة الداوية في قبرص . على انهم كانوا اكثر حظاً ، إذ ان مقدمهم مات حرقاً في باريس ، في مارس سنة ١٣١٤ ، بعد سنوات تعرّض فيها للاعتقال والتنكيل والاعترافات العديدة ، وإعلان تخليه عن عقائدهم (١) .

أضحت مملكة قبرص ، بعد استئصال الداوية ، وهجرة الاسبتارية الى رودس ، الحكومة المسيحية الوحيدة التي اشتدّ اهتمامها بالارض المقدسة .

---

(١) انظر : Hill, op. cit. II, pp. 232 - 236, 270 - 274.

والمعروف ان ملك قبرص يعتبر من الناحية الاسمية ملك بيت المقدس ، وظلّ الملوك لأجيال عديدة مقبلة ، يحرصون بعد ان يتمّ الاحتفال بتتويجهم ملوكاً على قبرص في نيقوسيا ، على ان يتلقوا تاج بيت المقدس في فاماجستا ، التي تعتبر أقرب مدينة لملكهم الضائع . يضاف الى ذلك أن الساحل السوري كان بالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية ، لجزيرة قبرص . إذ ان كل عدو على هذا الساحل ينزع الى الاعتداء ، سوف يهدد حياتها . ومن الحظ الطيب ان السلطان بلغ من تخوّفه من قدوم حملة صليبية جديدة انه لم يستخدم موانىء الساحل السوري ، بل كان يؤثر ان تظل مهجورة . ومع ذلك فان قبرص تعرضت لتهديد مستمر من قِبل مصر . وإذ اعتقد الملك هنري أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، ارسل سنة ١٢٩٢ خمس عشرة سفينة تساندها عشر سفن من لدى البابا ، فأغارت على الاسكندرية . كانت محاولة فاشلة ، لم تؤدّ إلا الى عزم السلطان الأشرف خليل على فتح قبرص . فحينما أمر بعمارة مائة سفينة ، كان يهتف : « قبرص ، قبرص ، قبرص » . غير انه كان لديه خطط اخرى تفوق قبرص أهمية ؛ فلا بد اولاً من سحق المغول والاستيلاء على بغداد . وارتاع أمراؤه لطموحه ، فقتلوه في ٣١ ديسمبر سنة ١٢٩٣ . والواقع أن اغتياله كان مكافأة حقيرة لهذا الامير الشاب قوي العزيمة ، الذي أتم رسالة صلاح الدين ، وطرد آخر من تبقى من الفرنج من سوريا [١] .

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 61 - 62.
Thaddeus, p. 43.
Sanudo, p. 283.
Wiet, L'Egypte Arabe, p. 461.

المغول يغيرون من جديد على سوريا سنة ١٢٩٩ - ١٣٠٨ :

كان السلطان الاشرف مصيباً حين تذكر المغول . ففي سنة ١٢٩٩ ، وفي اثناء حكم السلطان الناصر محمد قلاون الذي لم يكن متصلاً بل تعرض كثيراً للانقطاع ، اغار على سوريا حاكم المغول غازان ، الذي سبق أن استبدل بلقب ايلخان لقب سلطان ، فأنزل بقوة المماليك الدفاعية الهزيمة في سلامية ، قرب حمص في ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٩٩ . ثم اذعنت له دمشق في يناير سنة ١٣٠٠ ، واعترفت بسيادته . وفي الشهر التالي (فبراير) عاد الى فارس ، بعد ان اعلن انه لن يلبث ان يعود لفتح مصر.

ومع ان غازان اعتنق الاسلام ، فان ذلك لم يمنعه من الترحيب بحلفاء مسيحيين . فبادر ريمون "لل" بالتوجّه الى سوريا حينما سمع بنبأ غزوها ، غير انه وصل متأخراً فلم يجتمع بغازان بها . ثم عاد ريمون "لل" الى قبرص ، وطلب الى الملك ان يساعده على المضيّ في بعثة تبشيرية الى الأمراء المسلمين . ولكن الملك هنري أغفل طلبه ، إذ انه لم يوافق على أن خير وسيلة لكسب صداقة الكفار ، هي ان يكشف لهم عن أخطائهم . على انه قد يكون للاتصال الدبلوماسي فائدة ، ولكن لم يجرِ شيء من هذا القبيل ، وضاعت الفرصة حينما تعرّض الجيش المغولي للهزيمة في سنة ١٣٠٣ في مرج الصفر . ثم حدث سنة ١٣٠٨ ، اي بعد خمس سنوات ، أن أغار غازان من جديد على سوريا ، وتوغل فيها حتى بلغ بيت المقدس ذاتها . وترددت الشائعات بأنه سوف يسلم المدينة المقدسة عن طيب خاطر الى المسيحيين ، لو أن دولة مسيحية عرضت التحالف معه . وعلى الرغم من ان البابا وفيليب ملك فرنسا كانا يجهران وقتذاك بالاعلان عن حملتها الصليبية المرتقبة ، فإنه لم تجرِ من الغرب بادرة للمفاوضات مع المغول ،

بينما أضحت قبرص بالغة الضعف بفضل المنازعات بين الملك هنري وأخيه ، وكيفما كان الامر ، فقد يلقى غازان ، المسلم الصادق ، صعوبة في الوفاء بهذا الوعد [١] . وبوفاة غازان سنة ١٣١٦ تضاءلت فرص تحالف المغول مع المسيحيين . إذ أن ابن اخيه أبا سعيد الذي خلفه على السلطنة ، نزع الى الوفاق مع مصر ، ويعتبر آخر سلاطين المغول الكبار في فارس ، إذ أخذت الايلخانية السابقة في التفكك بعد وفاته سنة ١٣٣٥ [٢] .

الواقع ان مملكة قبرص لم تتعرض حتى وقتذاك لخطر مباشر ، على الرغم من عزلتها الظاهرة . فالسلطان ، حتى اذا لم يعد المغول يشغلونه ، لم يكن عنده من القوة البحرية ما يكفي للمغامرة بتوجيه حملة الى قبرص ، ولم يودّ أن يسيء الى الجمهوريات الايطالية ، نظراً لما تدرّه عليه تجارتهم من ارباح وفيرة . ومع انه انتزع جزيرة ارواد سنة ١٣٠٢ من الداوية ، فإنه ما لم تصبح قبرص قاعدة لحملة صليبية جديدة ، كان يؤثر ألا يتعرض لها بسوء . أما حكومة قبرص فإنها من جانبها حاولت بقدر ما تسمح الاعتبارات الشخصية والأسرية ، أن تحافظ على العلاقات الوثيقة مع الملوك

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 296 - 306.
Hill, op. cit. II, pp. 212 - 215.
Atiya, op. cit. pp. 90 - 91.
Felix Fabri, (trans. Stewart, P. P. T. S. vol. X, pp. 372 - 378).
كتب فيلكس فابري بعد قرنين ، فأورد رواية اسطورية عن امبراطور التتار الصالح (كاسانوس) الذي كان ، حسبما يشير ، مسيحياً ، وعرض اعادة بيت القدس الى المسيحيين .

(٢) انظر : Browne, op. cit. III, pp. 51 - 61.

الأرمن في قليقية ، وملكي ارجون وصقلية ، اللذين يفرض اسطولاهما مـا يبتغيان من احترام [1] .

حدثت فترة هدوء ، بعد ان انقضى كل ما استوحاه فيليب ملك فرنسا من حديث عن الحملة الصليبية . ولكن فيليب السادس بعث الحديث من جديد حوالي سنة ١٣٣٠ ، على ان نواياه تفوق في الصدق والاخلاص نوايا عمه ، فضلاً عن انهـا لقيت التشجيع من البابا يوحنا الثـاني والعشرين . فجرى ايضاً تقديم مذكرات للبلاطين الفرنسي والبابوي . إذ أن جـاي فيجيفانو ، طبيب ملكة فرنسا وضع تقريراً عمـا يلزم من الأسلحة [2] . على ان خطة تزيد اسهاباً وتفصيلاً ارسلها الى ملك فرنسا بوركارد ، وهو من رجال الكنيسة ، وقد سبق ان سعى في قليقية لضمّ الكنيسة الارمنية الى روما . وعلى الرغم من وفرة اقتراحات بوركارد ، فإنها لم تكن بالغة النفع ، لأن ما أظهره من العداء والكراهية نحو المسيحيين الانفصاليين والملحدين يفوق كراهيته للمسلمين ، فاعتبر الاستيلاء على الصرب الارثوذكسية وعلى بيزنطة جانباً جوهرياً لكل حملة صليبية ، ولكن لم توضع خططه للاختبار . إذ ان ملك فرنسا انغمس فيما نشب من حرب المائة عـام مع انجلترا ، قبل توجيه أية حملة صليبية [3] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 309.

يشير جستا الى ان ارواد سقطت سنة ١٣٠٣ . بينما يورد سانودو تاريخ سقوطها في سنة ١٣٠٢ . انظر : Sanudo, p. 242.

Hill, op. cit. pp. 215 - 216.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. p. 96.

(٣) انظر : Ibid, pp. 96 - 113.

وفي تلك الأثناء ، أعدّ المؤرخ مارينو سانودو مشروعاً ازداد اتساماً بالناحية العملية ، ولم يتطلب حملة عسكرية ضخمة . والمعروف ان سانودو ينتمي الى بيت دوقات ناكسوس ، وتجري في عروقه الدماء اليونانية ، وكان جاد الملاحظة ، ومن رواد المشتغلين بالاحصاء . وشمل كتابه (أسرار الصليب المقـدس Secreta Fidelium Crucis) ، الذي صدر حوالي سنة ١٣٢١ ، تاريخ الحروب الصليبية ، وبرغم ما خالطه من أغراض الدعاية ، فإنه اهتمّ اساساً بمناقشة تفصيلية للوضع الاقتصادي في شرق البحر المتوسط . رأى سانودو ان اشدّ مـا يضعف مصر ، هو فرض الحصار الاقتصادي عليها ، غير انه أدرك انه ليس من المستطاع وقف التجارة الشرقية فجأة . فلا بدّ من التماس طرق وموارد بديلة . واتسم تحليـله بالعمق ، واشتهرت اقتراحاته بأنها كانت بعيدة النظر فضلاً عن شمولها . على ان هذه المقترحات لن تتحقق لسوء الحظ إلا اذا تعاونت جميع الدول الاوربية معاً ، وهو امر لم يكن من المستطاع وقتئذ تحقيقه (١) .

بطرس الاول يتولى عرش قبرص سنة ١٣٥٩ :

الواقع انـــه لم يبقَ إلا محاولة اخيرة لاستخلاص البلاد المقدسة من ايدي المسلمين . ففي سنة ١٣٥٩ تولى بطرس الاول عرش قبرص . ويعتبر

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 114 - 127.
Hill, op. cit. III, p. 1144.

لم ينشر مشروع سانودو إلا في : Bongars, Gesta Dei per Francos, vol. II.

اول ملك منذ زمن القديس لويس ملك فرنسا ، سيطرت عليه الرغبة ، وتوقد فيه الحماس لكي ينشب الحرب المقدسة . ففي أثناء شبابه أنشأ طائفة جديدة من الفرسان ، أطلق عليها فرسان السيف ، جعل هدفها المسلم به استرجاع بيت المقدس ، وتحدى سخط ابيه الملك هيو الرابع ، بأن حاول الرحيل الى الغرب ليظفر بمجندين لحملته الصليبية . أما اول الحروب التي أنشبها ، وهو ملك ، فكانت مع الترك في بلاد الاناضول حيث حصل على مغرز قدم باستحواذه على حصن كوريكوس من الارمن . وفي سنة ١٣٦٢ شرع في القيام بجولة عامة في العالم المسيحي ، لتدعيم اهدافه الاساسية . فقام بزيارة رودس حيث حاز وعوداً من الاسبتارية بالمساعدة ، ثم أبحر الى البندقية ، حيث اقام الى بداية السنة الجديدة ١٣٦٣ . وأظهر البنادقة من الناحية الرسمية عواطفهم نحو خططه . ثم توجه الى جنوه بعد زيارة ميلان . وانكبّ في جنوه على تسوية ما وقع من الاختلافات بين مملكته والجمهورية ، على انه لم يظفر إلا بتأييد غامض من الجنويين . ووصل الى افينيون في ٢٩ مارس سنة ١٣٦٣ ، بعد ان مضت بضعة شهور على ولاية اربان الخامس للبابوية . وكان اول ما قام به من اعمال ان دافع عن حقه في اعتلاء العرش ازاء هيو امير الجليل ، ابن اخيه الاكبر الراحل ، وتقرر تعويض هيو بمعاش سنوي ، قدره خمسون الف بيزنتة . وبينما كان في افينيون ، قدم لزيارة المدينة يوحنا الثاني ملك فرنسا فوعد بالتعاون الحار معه . ووعد الملكان في ابريل بالاشتراك في حملة صليبية مع عدد كبير من نبلاء فرنسا وقبرص . وفي نفس الوقت دعا البابا الى الحرب المقدسة ، وعين الكاردينال تاليران مندوباً عنه . ثم طاف بطرس بالفلاندر وبرابانت وبلاد الراين . وفي اغسطس توجه الى باريس ليلتقي بالملك يوحنا

مرة اخرى . فقررا بأنه لا بدّ للحملة الصليبية ان تتوجه في شهر مارس القادم . ثم سار بطرس من باريس الى روان وكاين ، وأبحر الى انجلترا . امضى نحو شهر في لندن ، حيث انعقدت في سميثفيلد حلبة كبيرة للمباراة في الفروسية تكريماً له . فأهداه الملك ادوارد سفينة رائعة ، اسمها كاثرين وأعطاه اموالاً لتغطية نفقاته التي صرفها حديثاً ، على انه جرى لسوء الحظ ان سلبه امواله قطاع الطرق ، وهو في طريق العودة الى الساحل . ورجع الى باريس ليمضي بهـا عيد الميلاد ، ثم توجه جنوباً الى اكيتانيا ليلتقي بالأمير الاسود في بوردو . على انه حزن حينما علم في بوردو بوفاة الكاردينال تاليران ، في يناير سنة ١٣٦٤ ، ثم وفاة الملك يوحنا في مايو ، فذهب لتشييع جنازة الملك يوحنا في سان دنيه ، ولشهود تتويج خلفه ، شارل الخامس في ريمس ، ثم مضى الى المانيا ، فعرض فرسان وسكان مدينتي ايسلنجن وايرفورت ان يشتركوا في الحملة الصليبية ، على ان حاكم طرف فرانكونيا ، ورودلف الثاني دوق سكسونيا اخطراه ان لا بدّ لقرارهما ان يتوقف على الامبراطور ، على الرغم من استقبالهما له بكل مظاهر التشريف . وعندئذ توجـه في صحبة رودلف الى براهة ، حيث يقيم الامبراطور شارل . وإذ أظهر شارل حماسه ، دعـا بطرس لمرافقته الى كراكاو ليشهد مؤتمراً او شك ان يعقده مع ملك بـلاد المجر وبولنده . فتقرر توجيه منشور الى جميع امراء الامبراطورية ، يدعوهم الى الاشتراك في الحرب المقدسة . وعاد بطرس الى البندقية في نوفمبر سنة ١٣٦٤ ، بعد ان قـام بزيارة فيينا ، حيث وعده رودلف الرابع دوق استريا بمساعدة اضافية . ولقي بطرس في البندقية اعلا مظاهر الترحيب ، نظراً لما بذلته عساكره منذ زمن قريب من مساعدة للبنادقة في قمـع فتنه في جزيرة

كريت . وأقـــام بالبندقية الى نهاية شهر يونيه سنة ١٣٦٥ . وعقد أثناء مقامه بها معاهدة مع جنوه لتسوية جميع الاختلافات البارزة [١] .

الملك بطرس يعد الخطط لحملته الصليبية سنة ١٣٦٥ :

وفي تلك الاثناء دأب البابا اربان ، دون كلل ، على الكتابة الى امراء اوربا ، يحثهم على الاشتراك في الحملة ، ولقيت جهوده مساندة قـوية من المندوب البابوي الجديد في الشرق ، بطرس سالينياك دى توما ، البطريرك الاسمى للقسطنطينية ، وهو رجل قوي الشخصية ، شديد المعارضة المنشقين والملحدين والمسلمين ، على ان ما اتصف به من التفاني والاخلاص ، جعله موضع الاحترام حتى من اولئك الذين اضطهدهم . واشترك معه في النشاط ، تلميذه فيليب مزيير ، صديق الملك بطرس الحميم ، والذي سبق ان عيّنه رئيس ديوان الانشاء في قبرص . ولكن كل ما بذلاه من جهد لم ينجم عنه من أعداد العساكر ما كان الملك بطرس يتوقعه ، وما سبق ان ُوعد به . فلم تقدم عساكر المانيــة ، ولم يأتِ احد من كبار النبلاء في فرنسا وانجلترا ، او البــلاد المجاورة ، باستثناء من جاء من أعيه أمثال كونت جنيفا ، ووليم روجر ، وفيكونت تيرين ، وإيرل هيرفورد . على ان عـــدداً كبيراً من صغار الفرسان قد جاؤوا ، بل ان منهم من قدم من جهات نائية مثل اسكتلنده ، فاجتمع في البندقية قبـل ان يغادرها الملك بطرس ، جيش

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 330 - 337.
Hill, op. cit. pp. 324 - 327.

ضخم بالغ الخطورة . وما اسهم به البنادقة في هذا الجيش كان كبير النفع ، غير ان الجنويين تقاعسوا [1] .

وتقرر ان تحتشد الحملة الصليبية في اغسطس سنة ١٣٦٥ في جزيرة رودس ، ولكن وجهتها المقبلة ظلت في طي الكتمان . إذ ان ما قد يفضي به تاجر بندقي للمسلمين من أنباء ينجم عنه خطر بالغ الشدة . وصل الملك بطرس الى رودس في وقت مبكر من شهر اغسطس ، وفي ٢٥ اغسطس أبحر الى الميناء كل الاسطول القبرصي الذي تألف من ثماني ومائة سفينة ، ما بين سفن كبيرة (شينيات) ، وسفن نقل ، وسفن تجارية ، وزوارق خفيفة . فاذا جرت إضافة السفن الضخمة التي اشتركت بها البندقية ، والتي بذلها الاسبتارية ، أضحى مجموع سفن الاسطول خمس وستين ومائة سفينة . وأقلّت هذه السفن حمولة كاملة من الرجال ، مع عدد كبير من الافراس ومقادير وافرة من المؤن والأسلحة ، فلم ينهض منذ الحملة الصليبية الثالثة للحرب المقدسة ، من الحملات ما يفوق نسبياً تلك التي أعدّها الملك بطرس . ومع انه خاب الرجاء في ان يشترك فيها كبار الأمراء من الغرب ، فانه يقابل ذلك ميزة ان الملك بطرس يعتبر القائد الذي لا نزاع فيه . ففي اكتوبر كتب الملك بطرس الى الملكة اليانور اراجون ، ان كل شيء أضحى جاهزاً ، وفي نفس الوقت ، اصدر امراً الى رعاياه في سوريا ينذرهم بالعودة الى الوطن ، ويمنعهم من ممارسة التجارة بها . وأراد من وراء ذلك ان يعتقد الناس أن سوريا هي هدفه [2] .

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 337 - 341.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 341 - 344.
Hill, op. cit. II, pp. 329 - 331.

وفي ٤ اكتوبر ألقى البطريرك بطرس من السفينة الملكيـة موعظة مثـــيرة على الملاحين المحتشدين ، فهتفوا : « يعيش ، يعيش بطرس ملك بيت المقـدس وقبرص ، رغم أنف العرب الكفرة » . وأقلع الاسطول في ذلك المساء ، ولمـا أضحت جميع السفن في عرض البحر ، جرى الاعلان انها تقصد الاسكندرية بمصر .

الحملة تهاجم الاسكندرية سنة ١٣٦٥ :

وإذ تقرر مهاجمة السلطان ، كان اول مـا يتبادر الى الذهن اختيار الاسكندرية هدفاً للحملة . فمن العسير من الناحيـة العملية ، محاولة غزو سوريا او فلسطين ، ما لم يكن ثمة قاعدة على الساحل ، والمعروف ان الموانىء على الساحل ، باستثناء ميناء طرابلس ، قـد حرص المصريون على تخريبها . على ان تجربة سابقة دلّت على انه متى فقـــد سلطان مصر دمياط ، أضحى مستعداً لأن ينزل عن بيت المقدس مقابل استردادها . ولكن الاسكندرية لأثمن مكافأة من دمياط ، ففي وسع غزاتها ان يصيبوا صفقة أوفر ربحاً وثمرة ، وسوف تكون ايضاً قاعدة بالغـة القيمة للمضي في الزحف . فمن المحقق انه توافرت بهـــا المؤن ، كما ان الترع والقنوات جعلت من السهل الدفاع عنها من جهة البر . وسوف يؤدّي ضياعها الى تعرُّض ممتلكات السلطان الى نوع من الحصـار الاقتصادي . وليس من الراجح ايضاً ان السلطان كان يتوقع الهجوم على مدينة كان للتجار المسلمين بهـا مصالح ضخمة ، يضاف الى ذلك ان الغزاة أحسنوا اختيار الوقت الملائم . إذ ان السلطان الذي كان يتولى الحكم وقتـذاك ، وهو الأشرف شعبان بن قلاون ، كان صبياً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكانت

السلطة في يدي الامير يلبغا ، الذي تعرّض لكراهية زمـلائه الأمراء وسائر الناس . امـا والي الاسكندرية ، خليل بن عرام فكان متغيباً ، إذ توجه الى مكة ليؤدي فريضة الحج . وناب عنه في حكم الاسكندرية امير صغير ، اسمه جنغره ، وكانت حامية المدينة ضئيلة العدد ، ليست كافيـة للدفاع عنها . على حين ان أسوار الاسكندرية من جهة اخرى كانت بالغة المنـاعة ، فلو انه تمّ الاستيلاء على مرفأيها وشبه جزيرة فاروس الواقعة بينهما ، فما زالت الاستحكامات الضخمة تمتد على واجهة الميناء .

وصل الاسطول قبالة الاسكندرية أثناء مساء يوم ٩ اكتوبر سنة ١٣٦٥ . وإذ ظن سكان المدينة اول الأمر انه لم يكن سوى اسطول تجاري كبير ، تجهزوا للخروج لعقد الصفقات التجارية . ولم تظهر نوايا الاسطول إلا في صبيحة اليوم التالي حينما دخلت السفن الى الميناء الغربي ، لا الميناء الشرقي الذي لا يؤذن للسفن المسيحية ان تلج غيره . فبادر نائب الوالي ، جنغره يحشد رجاله على حافة الشاطىء لمنع النزول الى البر . غـير ان الفرسان المسيحيين شقوا طريقهم الى الشاطىء برغم مـا اظهره بعض العساكر المغاربـة من البسالة والاقدام . وبينما تدفق التجار الوطنيون من المدينة مجتازين الابواب المطلة على الـبر ، احتمى جنغره وراء الاسوار ، فحشد حاميته الصغيرة للدفاع عن القطاع المواجه لموضع الهبوط الى البر . وعزم الملك بطرس على ان يتريث في هجومه ، إذ أراد ان ينزل في تؤدة كل رجاله وأفراسه الى شبه جزيرة فاروس . ولكنه لمـا استشار قادته ، اكتشف ان كثيرين منهم لم يوافقوا على اختيار الاسكندرية هدفاً للحملة . إذ أشاروا الى ان عددهم كان من القلة ما يمنعهم من الاستيلاء على حصن الاسكندرية بالغ الضخامة ، او من الزحف منها الى القاهرة . وأعربوا عن

رغبتهم في الاقــلاع الى مكان آخر ، على انهم لن يمكثوا إلا اذا جرى الاستيلاء عنوة على المدينة على الفور ، قبل ان ينفذ السلطان جيشاً لنجدتها . وكان لزامـاً على بطرس ان يذعن لرغباتهم ، فبدأ الهجوم على الفور ، فجرى توجيهه على السور الغربي ، كما توقع جنغره ، غير انه لما لقى المهاجمون مقاومة ، تحركوا الى القطاع المواجه للمرفأ الشرقي . وفي داخل الاسوار ، يجتاز الطريق الذي يصل بين القطاعين ، دار الديوان (الجمرك) الضخمة ، وإذ خشي متولي الديوان مـا يقع من اعمال اللصوصية ، أقام متاريس على ابواب الديوان . ولم يكن بوسع جنغره ان يوجه رجـاله في الوقت المنـاسب لمواجهة الهجوم الجديد . وإذ اعتقد ان المدينـة قـد سقطت ، اخذوا يتخلون عن مواقعهم ، ويجتازون الشوارع ليلوذوا بالفرار الى الابواب الجنوبية إلتماساً للنجاة . ولم يحل منتصف نهـار يوم الجمعة ١٠ اكتوبر ، حتى استقر الصليبيون بداخل المدينة ، وظل القتال دائراً بالشوارع . وحدث أثناء ليـلة الجمعة ان شنّ المسلمون هجوماً عنيفاً من احد الابواب الجنوبية ، كان المسيحيون في غمرة سرورهم قـد احرقوه ، غـير انهم ارتدوا على اعقابهم ، فأضحت الاسكندرية في قبضة الصليبيين بعد ظهر يوم السبب ١١ اكتوبر سنة ١٣٦٥ .

نهب الاسكندرية سنة ١٣٦٥ :

واحتفل الصليبيون بانتصارهم بما ارتكبوه من وحشية لا مثيل لها . وما وقع من الحرب المقدسة التي استمرت نحو مائتي وخمسين عاماً لم تعلم الصليبيين شيئاً عن الانسانية . فمـا أجروه من المذابح لم يضارعها سوى تلك التي حدثت في بيت المقدس ، سنة ١٠٩٩ ، وفي القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، فـلم يبلغ المسلمون هذه القسوة والوحشية عنـد استيلائهم على

انطاكية او عكا . والمعروف ان ثروة الاسكندرية كانت بالغة الشهرة ، واشتدّ هوس الظافرين حين شهدوا هـذه الغنيمة الوفيرة ، فلم يبقوا على احد . إذ أن ما قاساه السكان الوطنيون من المسيحيين واليهود لم يقل عما تعرض له المسلمون من القسوة ، بل ان التجار الاوربيين المقيمين بالمدينة شهدوا ما تعرضت له محلاتهم ومستودعاتهم من النهب دون شفقة أو رحمة . وأغار الغزاة على المساجد والمقابر ، فسلبوا او دمروا ما بهـا من حلى ، وتعرضت الكنائس ايضاً للنهب ، على الرغم من ان سيدة قبطية مقعدة باسلة سعت لإنقـاذ شيء من كنوز مذهبهـا الديني على حساب تضحيتها بثروتها الخاصة . ودخل المغيرون المنازل ، وكل من لم يبادر من اهلها الى تسليم ما يقتنيه ، تعرّض مع اسرته للقتل . وجرى حمل نحو خمسة آلاف اسير من المسيحيين واليهود ، فضلاً عن المسلمين ، لبيعهم رقيقاً . وما أصابه المغيرون من النهب والسلب ، حمله قطار طويل من الافراس والحمير والإبل الى السفن الراسية بالميناء ، ثم تقرر اعدامها بعد ان أدت عملها . وعبقت كل المدينة بالرائحة الكريهة الصادرة من جثث البشر والحيوان .

وحاول الملك بطرس عبثاً ان يعيد الأمن الى نصابه ، إذ كان يأمل في الاحتفاظ بالمدينـة . وإذ احرق الصليبيون ابوابها دمّر الجسر الواقع على القناة الكبيرة ، الذي يجتازه الطريق المؤدي الى القاهرة . على ان الصليبيين لم يفكروا وقتئذ إلا في أن يحملوا الى بلادهم بكل مـا تهيأ لهم من سرعة ما حصلوا عليه من الغنائم . على ان جيشاً كان قادماً من القاهرة ، ولم يودّ الصليبيون ان يغامروا بالاشتباك معه في معركة ، بل أن شقيق الملك بطرس اخبره أنه ليس بوسعهم الاحتفاظ بالمدينة ، بينما أشار الفيكونت تيرين ومعظم الفرسان الانجليز والفرنسيين الى انهم لن

يبقوا بعدئذ في المدينــة . وضاعت سدى احتجاجات بطرس والمندوب البابوي . ولم يحلّ يوم الخميس ١٦ اكتوبر سنة ١٣٦٥ حتى لم يبق بالمدينة سوى عدد قليل من العساكر القبارصة ، بينما عادت بقية الحملة الى السفن ، استعداداً للرحيل . ولما اصبحت العساكر المصرية على وشك الوصول الى ضواحي الاسكندرية ، استقل بطرس سفينته ، وأصدر الامر بالجلاء عن المدينة . وبلغت حمولة السفن من الثقل انه كان لا بدّ من إلقــاء مقادير كبيرة من القطع الضخمة من الغنيمة الى البحر . وظلّ الغطاسون المصريون شهوراً يستخلصون التحف الثمينة من مياه خليج ابي قير الضحلة [١] .

وإذ اطمأن بطرس والمندوب البابوي الى مـا اودعوه من غنائم في قبرص ، راودهما الامل في ان ينهض الصليبيون مرة اخرى لمرافقة بطرس في حملة جديدة . غير أنــه لم يكد الصليبيون يبلغون فاماجستا ، حــتى شرعوا في إعــداد التدابير للرحيل الى الغرب ، الى اوطانهم . وتجهّــز المندوب البابوي لاقتفاء اثرهم ، كيما يظفر بمجندين آخرين ليحلوا مكانهم ، غير أنه تعرض للمرض الذي أودى به ، قبل ان يغادر جزيرة قبرص . وأقام الملك بطرس قداس الشكر ، عند عودته الى نيقوسيا ، غير ان

---

(١) وصف حملة الاسكندرية بإسهاب في ملحمة نثرية :
William of Machaut, (ed. Mas Latrie, esp. pp. 61 ff).
ومع ان ماشو لم يقم مطلقاً بزيارة الشرق ، فانه يصح الوثوق في روايته ، باستثناء مــا ورد فيها عن تاريخ ميلاد الملك بطرس ووفاته . انظر مــا اورده الدكتور عطية بالتفصيل عن هــذه الحملة في :
Atiya, op. cit. pp. 345 - 369.
Hill, op. cit. II, pp. 331 - 334.

قلبه كان كسيراً جريحاً . فانطوى تقريره الى البابا عما احرزه من انتصار، وما اصابه ايضاً من خيبة أمل مريرة [١] .

على ان انبـاء نهب الاسكندرية لقيت في الغرب استقبالاً مضطربـاً مختلطاً ، إذ جرى اول الامر التهليل له ، باعتباره انتصاراً حربياً وإذلالاً للمسلمين . فابتهج البـابا ، غير انه رأى انه لا بدّ لبطرس من أمـداد مباشرة لتحلّ مكان الذين تخلوا عنه . فوعد شارل ملك فرنسا بإرسال جيش ، من اشهر فرسانه برتراند دى جويسلين الذي وعد بالاشتراك في الحملة ، وأماديوس كونت سافوى المعروف في القصص باسم الفارس الاخضر، الذي كان يستعد للرحيل الى الشرق ، فقرر أن يبحر الى جزيرة قبرص . وحدث عندئذ ان اعلن البنادقة ان بطرس عقد صلحـاً مع السلطان ، فاستدعى الملك شارل جيشه ، وتوجه جويسلين للقتال في اسبانيا ، بينما مضى اماديوس الى القسطنطينية [٢] .

واختلف البنادقة عن البابا في انهم لم يرتاحوا لمـا اسفرت عنه الحملة الصليبية من نتيجـة ، إذ كانوا يأملون في توطيد مركزهم التجـاري في الشرق الادنى . ولكن حدث عكس ذلك ، فما كان لهم من املاك كثيرة في الاسكندرية تعرضت للدمار ، فضلاً عن توقف كل تجارتهم مع مصر ، إذ أن نهب الاسكندرية كاد يدمرهم باعتبارهم دولة تجارية ، فيبتهج لذلك الجنويون الذين ظفروا بالمكافأة لامتناعهم عن الاشتراك في الحملة . ولم يلبث

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. p. 369.

(٢) انظر : Ibid, p. 370.
Hill, op. cit. II, pp. 335 - 336.

جميع الغرب ان تأثر بنتائج الحملة الصليبية ، إذ تصاعدت اثمان التوابل والمنسوجات الحريرية وسائر المتاجر الشرقية ، التي اضحى الناس في الغرب يألفونها ، نظراً لأن كمياتها قد نفدت ، ولم يرد غيرها [١] .

الواقع ان بطرس شرع في اجراء المفاوضات مع مصر ، غير ان كلا الجانبين بلغت بهما المرارة والعداوة ، انهما لم يرغبا في الصلح . ومع ان ما تعرّض له الامير يلبغا من كراهية في مصر قيدت حركته ، فإنه ظل يراوغ لكسب الوقت ، حتى يتيسر له بناء اسطول لغزو قبرص . على ان بطرس تغالى في طلباته مقابل التخلي عن البلاد المقدسة ، فأعقبها بما شنه من غارات على الساحل السوري . غير ان هوسه بالحرب الصليبية اخذ يزعج رعاياه ، الذين خشوا فيما بعد استنفاد موارد الجزيرة في قضية لا أمل فيها . فلما أعدّ احد فرسان بطرس الذي تشاجر معه ، امر اغتياله سنة ١٣٦٩ لم ينهض احد ، حتى اخوته ، لإنقاذه . وفي السنة التالية لوفاته انعقدت معاهدة مع السلطان ، فتمّ تبادل الأسرى ، وتوصلت قبرص ومصر الى صلح قلق [٢] .

تعتبر مذبحة الاسكندرية نهاية لتلك الحملات الصليبية التي جعلت هدفها المباشر استرجاع الارض المقدسة ، وما هو موضع شك ما اذا كانت الحملة

---

(١) انظر : Machaut, pp. 115 - 116.
Heyd : Histoire du Commerce du Levant, II, pp. 52 - 55.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 371 - 376.
Hill, op. cit. II, pp. 345 - 367.
Heyd, op. cit. pp. 55 - 57.

في صالح العالم المسيحي ، حتى لو كان جميع الصليبيين تعلقوا بها مثلما تعلق الملك بطرس ، فحينما جرت الحملة ، كانت مصر وقتذاك في سلام مع الفرنج لما يزيد على نصف قرن ، إذ اخذ المماليك يفقدون ما اتصفوا به في وقت مبكر من التعصب ، وتحسنت معاملتهم لرعاياهم المسيحيين ، وأضحى الحجاج احراراً في التوجه الى الاماكن المقدسة ، وراجت التجارة بين الشرق والغرب . وأما ما حدث بعد المذبحة ، فإن كل ما لدى المسلمين من مرارة ، انبعثت من جديد . إذ تعرّض المسيحيون الوطنيون لمرحلة جديدة من الاضطهاد ، برغم انهم لم يرتكبوا جرماً ، فنزل الدمار بكنائسهم ، بل ان كنيسة القيامة اغلقت ابوابها ثلاث سنوات . وما حدث من انقطاع التجارة ألحق ضرراً بليغاً في العالم الذي لم ينتعش حتى وقتذاك مما انزله به الوباء الاسود من خراب . أما مملكة قبرص التي سبق للمماليك ان ابدوا استعدادهم للتساهل في الابقاء عليها ، فإنها اضحت عدواً يجب استئصاله . وظلت مصر تنتظر ستين سنة للأخذ بالثأر . فما حلّ بجزيرة قبرص سنة ١٤٢٦ من تخريب مريع لم يكن إلا عقاباً مباشراً لما سبق ان تعرّضت له الاسكندرية من النهب [١] .

انهيار مملكة ارمينية الصغرى سنة ١٣٧٥ :

على ان المملكة المسيحية الاخرى في الشرق الادنى لقيت مصيرها في زمن سابق . فعلى الرغم من ان الأرمن بقليقية لم يشتركوا في حملة بطرس الصليبية ، فإن الاسرة الحاكمة بقليقية اضحت من الفرنج ، كما انه كان

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 377 - 378.

لعدد كبير من النبلاء علاقات وثيقة بقبرص . أقرّت كنيسة الأرمن سلطان كنيسة روما عليها . واشتد المصريون في ضغطهم على الأرمن طوال القرن الرابع عشر ، إذ كانوا على حق في ارتيابهم فيهم بأنهم اصدقاء الفرنج والمغول ، فضلاً عن حسدهم لهم على الثروة التي تجتاز بلادهم بالطرق التجارية التي تصل البحر عند أياس . غير ان انهيار الايلخانية المغولية حرم الأرمن من اكبر سند لهم ، كما ان معظم بلادهم اضافها الاتراك سنة ١٣٣٧ الى ممتلكاتهم ، وأتمّ اخضاع البلاد سنة ١٣٧٥ الغزاة المسلمون من المماليك وحلفائهم الاتراك ، بينما كان القبارصة منغمسين في حرب مريرة مع جنوه . وهرب ليو السادس آخر ملوك الأرمن الى الغرب ومات بالمنفى في باريس ، وبذا اختفى استقلال الأرمن (١) .

الواقع ان حملة صليبية كالتي اعدّها الملك بطرس تعتبر من الاخطاء التاريخية ، لا تتفق مع زمانها . فليس بوسع العالم المسيحي ان يتحمل هذا الترف . إذ كان لزاماً عليه ان يواجه خطراً يتهدده من الشمال . فالذين وضعوا خطط الحملة الصليبية الاولى شهدوا في جلاء ان تخليص الارض المقدسة توقف على المحافظة على سلطان المسيحيين في بلاد الأناضول . غير ان ما من احد من رجال السياسة في الغرب ، منذ وفاة البابا ايربان الثاني ، توافر له من الحكمة والتعقل ما يجعله يدرك ان الاحتفاظ ببلاد

---

(١) انظر : Tournebize, Histoire Politique et Religieuse de l'Armenie, pp. 644 ff. esp. pp. 654 - 655, 715 - 730.

اما تاريخ زوال مملكة ارمينية ، فيستند اساساً الى تاريخ يوحنا دارديل الفرنسسكاني ، المنشور في : R. H. C. Documents Armeniens, vol. II.

الأناضول يعتمد على بيزنطة على ان التحركات الصليبية في القرن الثاني عشر حيّرت الامبراطور البيزنطي ، إذ زادت المشاكل التي كان لا بدّ لبيزنطة ان تواجهها كما انها لم تهيء للأمبراطور من وقت الفراغ ما يجعله ينصرف الى إخضاع المغيرين من الترك ، فكاد يكون من المستحيل على الامبراطور ان يؤدي واجبه ، فما اتخذه الترك من نهج في الغزو بالالتجاء الى تدمير الزراعة وطرق المواصلات ، جعل إعادة فتح الأناضول عملا شاقاً ، على حين ان الاطماع المتباينة للأباطرة امثال مانويل وأندرونيقوس كومنينوس لم تؤد إلا الى ازدياد تبديد النشاط والجهد . فكارثة مانزيكرت سنة ١٠٧١ هيأت للترك ان ينفذوا الى بلاد الأناضول ، وكفلت معركة ميريوكيفالوم سنة ١١٧٦ لهم البقاء بها . غير ان الحملة الصليبية الرابعة وما نجم عنها من تدمير شامل للنظام الامبراطوري البيزنطي ، هي التي هيأت للترك الفرصة لأن يتوغلوا في الأناضول . وتهيأت للعالم المسيحي ، أثناء القرن الثالث عشر ، آخر فرصة للقاء الترك . إذ المعروف ان سلطانهم في بلاد الأناضول ظل يرتكن حتى وقتذاك الى سلطنة السلاجقة في قونية . ولكن غزوات المغول التي بدأت سنة ١٢٤٢ ، قوّضت الدولة السلجوقية ثم دمرتها نهائياً . وأدرك الأباطرة البيزنطيون بالمنفى في نيقية ما ينتظرهم من فرصة ، غير ان انغماسهم في مشاكلهم الاوربية ، وتطلعهم لاستعادة حاضرة امبراطوريتهم (القسطنطينية) ، برغم عداوة الغرب اللاتيني ، كل ذلك عطّل جهودهم ، بينما افتقر اللاتين الى بعد النظر والخبرة ، كيما يفهموا الوضع . ولم يكد البيزنطيون يستقرون من جديد في القسطنطينية ، حتى ضاعت الفرصة ، إذ كان لزاماً على الأباطرة من اسرة باليولوجوس ان يناهضوا الممالك الناشئة الفتية في شبه جزيرة البلقان ، وأن يقاوموا طلبات الجمهوريات الايطالية ، وأن يناضلوا ما يتعرضون له من خطر

استرداد اللاتين ملكهم ، الذي ظل فعلاً قائماً الى ان عطّلت مذبحة صقلية شارل انجو عن المضي في تحقيق اطماعه . فإذا انقضى القرن الثالث عشر، كان الوقت قد فات . إذ اختفى السلاجقة ، ولكن حل مكانهم إمارات عديدة بالغة النشاط والطموح ، وزاد في قوتها هجرة القبائل التركية التي كانت خاضعة للمغول ، ويحتاج طردهم الى جهد مشترك طويل الامد . ومن اكبر هؤلاء الأمراء الترك ، قرمان الكبير الذي امتدت ممتلكاته في داخل البلاد من فيلادلفيا الى جبال طوروس الشرقية ، واستقر امراء آخرون في أضاليا وأيدين (ترال) ، وفي مانيسه (مغنيسيه) . أما الساحل الشمالي لبلاد الاناضول فلا زال في حوزة بيزنطة وأمبراطورية اطرابزون البيزنطية . واحتل التركمان البلاد الواقعة جنوب اطرابزون ، وقامت في الشمال الغربي إمارة جديدة فتية بزعامة امير مغامر اسمه عثمان [1] .

الاستيلاء على ازمير سنة ١٣٤٤ :

اضحى اللاتين يزدادون ادراكاً لأهمية بلاد الاناضول ، على الرغم من ان نظرتهم اليها على انها قاعدة للاعتداء عليهم كانت تقل عن اعتبارها منطقة احتاجوا أن يكون لهم بها قواعد يسيطرون منها على البحر المتوسط ، إذ أن احتلال الاسبتارية لجزيرة رودس يرجع الى حد كبير الى الحظ والصدفة ، ومع ذلك فإنه يمثل اتجاهاً جديداً . والمعروف ان الجمهوريات

---

(١) انظر : Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire, pp. 15 - 34.
Köprülü, Les Origines de l'Empire Ottoman, pp. 34 - 79.
Wittek, The Rise of the Ottoman Empire, pp. 33 - 51.

الايطالية اهتمت منذ زمن طويل بجزائر بحر إيجه . فكان من الطبيعي ان يمتد اهتمامهم، واهتمام العالم اللاتيني بأكمله الى البر المواجه لهذه الجزائر. فلما قام عمر امير ايدين ، الذي تملك ازمير التي تعتبر مرفأ بالغ الروعة ، بإنشاء اسطول لممارسة القرصنة في مياه بحر إيجه ، بادر البنادقة وفرسان الاسبتارية في رودس باتخاذ اجراء لمناهضته ، ففي سنة ١٣٤٤ ، توجّه لمهاجمة ازمير اسطول اسهمت فيه البندقية وتوابعها بعشرين سفينة ، وبذل الفرسان ست سفن ، كما قدم كل من البابا وملك قبرص اربع سفن . وتولى قيادة الاسطول هنري أستي ، بطريرك القسطنطينية . وتعرّض امير ايدين للهزيمة في معركة بحرية ، قبالة مدخل خليج ازمير ، في يوم عيد الصعود . على انه بناء على طلب البابا ، رفض الحلفاء المسيحيون دعوة من مارتن زكريا حاكم خيوس السابق من قبل جنوه ، الذي سبق ان اشترك في الحملة ، كيما يعيدوا اليه جزيرته التي استولى عليها البيزنطيون من جديد ، بل اتجروا الى ازمير فسقطت المدينة بأيديهم في ٢٤ اكتوبر بعد قتال قصير ، ولكن القلعة ظلت صامدة . والواقع أن هذا الانتصار السهل يرجع اساساً الى ان الامير عمر لم يكن مستعداً ، فضلاً عن تخوفه الكريه من رفاقه الأمراء ، إذ أنه لم يقدم بجيشه لإنقاذ المدينة إلا بعد فوات الوقت. غير ان الظافرين جرى اغراؤهم فحاولوا غزو الجهات الداخلية ، فتعرضوا لهزيمة ساحقة على مسافة بضعة اميال من المدينة (أزمير) . وإذ فشل الترك في استعادة ازمير ، انعقدت معاهدة في سنة ١٣٥٠ ، عهدت بالمدينة الى الاسبتارية على ان تبقى القلعة بأيدي الترك . وظلت ازمير بأيدي الاسبتارية الى سنة ١٤٠٢ ، حين اقتحمها تيمور [١] .

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 290 - 300.

وبينما لا زال مصير ازمير في الميزان ، أعرب نبيل فرنسي ، هو همبرت الثاني ، امير فيينا ، عن رغبته في التوجه بحملة صليبية الى الشرق . ومع انه كان رجلاً ضعيفاً تافهاً ، فإنه كان صادق التقوى ، مجرّداً من الطموح الشخصي . وتقرر بعد مفاوضات مع البابا ، ان يتوجه لتعزيز جهد المسيحيين في ازمير . فخرجْ من مرسيليا في جماعة من الفرسان والقسس ، في مـايو سنة ١٣٤٥ ، ولحقت به أثناء رحيله صوب الشرق عساكر من شمال ايطاليا . فبلغ ازمير سنة ١٣٤٦ بعد مغامرات لا طائل تحتها ، وأنزل جيشه الهزيمة بالترك في معركة وقعت خارج الأسوار ، على انه لم يمكث طويلاً ، ففي صيف سنة ١٣٤٧ . عاد الى فرنسا ، ولم تحقق حملته شيئاً ، وكل ما لحملته من أهمية هي ان الكنيسة اضحت مستعدة لأن تعتبر الحملة الى بـــلاد الأناضول حملة صليبية [١] .

وحدث في سنة ١٣٦١ ان حصل بطرس ملك قبرص ، الذي انتزع منذ زمن قريب كوريكوس من الأرمن ، على مساعدة الاسبتارية فيما شنه من هجوم على ميناء اضاليا التركي . فسقط في ايديهم في ٢٤ اغسطس بعد قتال قصير ، فبادر الامراء المجاورون ، في عـلايا ، ومونوفجات الى بذل الولاء له ، لاعتقادهم ان لصداقته أهمية ازاء عدوّهم الاكبر ، قرمان الكبير . ولم يلبثوا ان سحبوا تبعيتهم ، وقاموا بمحاولات مختلفة لاستعادة علايا ، التي ظلت ، برغم ذلك ، بأيدي القبارصة لمدة ستين سنة [٢] .

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 300 - 318.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 323 - 330.
Hill, op. cit. II, pp. 318 - 324.

نمو السلطنة العثمانية :

على انه كان لا بدّ لأوربا ان تلتفت في تلك الاثناء الى الشمال . إذ ان العشراوات الاولى من القرن الرابع عشر شهدت نمواً مثيراً للدهشة في قوة الإمارة التركية التي أنشأها عثمان بن ارطغرل ، والتي اطلق عليه العثمانلي نسبة اليه . إذ لم يكن عثمان سنة ١٣٠٠ سوى زعيم صغير ، تقع بلاده في جنوب بثينيا . فلما مات سنة ١٣٢٦ كان سيد بروسه ومعظم البلاد الواقعة بين ادريميتيوم ، ودوريليوم ، وبحر مرمرة . ويرجع توسعه من جهة الى ما اشتهر به من دبلوماسية بارعة مرنه نحو رفاقه الامراء ، على ان اكثر ما يرجع من جهة اخرى الى ضعف بيزنطة . ذلك ان الامبراطور اندرونيقوس الثاني قد تسرع في سنة ١٣٠٢ فاستأجر لخدمته جماعة من الكاتلانيين ، يقودها روجر فلور ، وهو من فرسان الداوية السابقين ، أقام ثروته على سلوكه المشين أثناء نهب عكا . وأبدى روجر بسالة في حربه ازاء الترك ، على انــه كان أشد ضراوة في نضاله مع سيده الامبراطور البيزنطي . ومع انه لقي مصرعه سنة ١٣٠٦ ، فإن جماعة الكاتلانيين ظلت باقية في البلاد البيزنطية حتى سنة ١٣١٥ ، تبث عداءها للأمبراطورية . وفي أثنــاء حروبها جلبت الى اوربا كتيبة تركية سبق ان استخدمها الأباطرة في آسيا (١) . ولم تلبث الحرب الاهلية ان نشبت ، عقب رحيل جماعـــة الكاتلانيين ، في الامبراطورية البيزنطية بين اندرونيقوس الثاني

(١) انظر : Vasiliev, History of the Byzantine Empire, pp. 605 - 608.
اورد المؤرخ المعاصر مونتانر Muntaner وصفاً حياً لجماعة الكاتلانيين .

وحفيده اندرونيقوس الثالث ، ولم تنته إلا عند وفاة اندرونيقوس الثاني سنة ١٣٢٨ . واستخدم الجانبان جنوداً مرتزقة من الترك . وفي تلك الاثناء واصل اورخان بن عثمان سياسة ابيه . إذ فرض سيادة غامضة على الامراء الذين يتاخمون بلاده من جهة الجنوب ، وواصل فتح بثينيا ، فاستولى على نيقية سنة ١٣٢٩ ، وعلى نيقوميديا سنة ١٣٣٧ [١] . ثم اندلعت الحرب الاهلية في الامبراطورية البيزنطية من جديد ، سنة ١٣٤١ ، بين يوحنا الخامس وصهره يوحنا كانتا كوزينوس ، بينما شدّ انتباه جميع شعوب البلقان ما صار لملك الصرب ، ستيفن دوشان ، من قوة نامية [٢] .

وفي سنة ١٣٥٤ وجه اورخان الذي اتخذ لقب سلطان العساكر فعبرت الدردنيل واستولت على مدينة جاليبولي . ثم أرسل بعد سنتين عدة آلاف من رجاله عبر المضايق فأنزلهم في تراقيا . وفي السنة التالية اضحى بوسعه ان يتوغل في الداخل وأن يستولي على حصن أدرنه الضخم ، الذي اضحى حاضرته الثانية . وحينما مات سنة ١٣٥٩ ، كادت كل تراقيا ان تكون في قبضة يده ، وانعزلت القسطنطينية عن املاكها الاوربية . كان ابنه وخليفته على السلطنة ، مراد الاول ، من الكفاية مما جعله يواصل جهد أسلافه . وكان اول ما قام به من اعمال ان انشأ فرقة الينى شرية من الارقاء من

---

(١) انظر : Vasiliev, op. cit. pp. 608 - 609.
Gibbons, op. cit. pp. 54 - 70.

(٢) انظر : Vasiliev, op. cit. pp. 609 - 613.

اطفال المسيحيين الذين تحولوا قسراً الى الاسلام ، وقــد جرى إرسالهم جزية للسلطان [1] .

على ان توسع الاتراك العثمانيين لم يجر دون ان يكون ملحوظاً في الغرب . على ان القارة الاوربية لم تتعرض حتى وقتذاك لخطر كبير من قبلهم ، إذ كان بوسع الامبراطورية الصربية الضخمة ان توقف كل تقدم من جهة العثمانيين . ولكن الواضح فيما يبدو ان تعرض لتهديدهم القسطنطينية وما كان للايطاليين بها من مصالح تجارية . ومع ذلك فإن اليونانيين يعتبرون مسيحيين منشقين . وجرت سياسة الكنيسة الغربية على الإصرار على خضوعهم لكنيسة روما ، قبل إثارة أي موضوع حول إرسال نجدة اليهم . هذه الصورة من التشهير كان لا بـد ان يكون مصيرها الفشل . فـلم يكن الاعتقاد الديني وحده ، بل كان الكبرياء القومي ، وذكرى الإهانات الغابرة ، هو الذي جعل من المستحيل عند الشعب اليوناني ان يقبل سيادة الكنيسة اللاتينية ، حتى لو كان اباطرتهم مستعدين للإنصياع والرضى [2] .

حملة كونت سافوي الصليبية سنة ١٣٦٦ :

حدث سنة ١٣٦٦ ان وعد اماديوس السادس كونت سافوي بالاشتراك في حملة صليبية . كان البابا اربان السادس منصرفاً الى الدعوة الى حمـلة

---

(١) انظر : Gibbons, op. cit. pp. 100 - 103, 110 - 121.

(٢) انظر : Vasiliev, op. cit. pp. 670 - 672.

صليبية ، بالنيابة عن بطرس ملك قبرص . ووطن اماديوس العزم على المضي الى الارض المقدسة . غير انـــه كان ابن عم شقيق للأمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس وكان يود ان يساعده . فأذن له الامبراطور بـأن يستهل حملته بقتال الترك ، بشرط ان يكفل خضوع الكنيسة اليونانية . وبـذل البنادقة قصارى جهـدهم لوقف حملته الصليبية ، لتخوفهم من تدخلها في سياستهم التجارية . وأكثر ما كانوا يودون هو ألا ينحاز كونت سافوي الى بطرس ملك قبرص ، ولذا شعروا بالارتياح لما حملته شائعاتهم عن معاهدة بطرس مع السلطان على ان يوطد عزمه على تركيز جهوده على بيزنطة . فحشد نخبة مختارة من الفرسان . غير انه صادف منذ البداية عقبات حول المال . بلغت الحملة مضيق الدردنيل في اغسطس سنة ١٣٦٦ ، فألقت على الفور الحصار على جاليبولي التي سقطت في ٢٣ اغسطس . على ان اماديوس واصل السير بحراً الى القسطنطينية بـدلاً من الهبوط في تواقيـا ، لمحاولة تطهير الاقليم من الاتراك . وتبين له في القسطنطينية ان الامبراطور البيزنطي وقع غدراً في اسر ملك بلغاريا ، شيشمان الثالث ، ولذا وجـه اماديوس كل جهده لإنقاذ ابن عمه ، ولم يتحقق تخليصه إلا بعد ان هاجم امادیوس ميناء فارنا البلغاري . ولما تمّ انقاذ الامبراطور يوحنا ، اكتشف امادیوس انه انفق كل ما لديه من المال ، فضلاً عن المال الذي ابتزّه من السكان المحليين ، والذي اقترضه من الامبراطورة ، فكان لزاماً عليه ان يعود الى وطنه . غير انه قبل عودته حمل الامبراطور على ان يَعِدَ بأن تخضع كنيسته لروما ، ولما قدم فيلوثيوس بطريرك القسطنطينية برفقـة فارس يوناني الى سفينة اماديوس ، ليخطره ان اليونانيين سوف يخلعون الامبراطور من العرش اذا

وافق على طلبه ، اختطفها ونقلها معه الى ايطاليا . وعاد اماديوس الى الى وطنه في سنة ١٣٦٧ ، وتكاد تكون حملته الصليبية عديمة القيمة ، إذ أن الاتراك استولوا من جديد على جاليبولي عقب رحيله [١] .

وفي زمن مراد بادر الاتراك العثمانيون الى زيادة سلطانهم ، إذ ألزم مراد الامراء بغرب الاناضول بالخضوع له ، ومضى في زحفه في اوربا . فأضحت بلغاريا إمارة تابعة له ، ولم تلبث ان اضيفت الى املاكه ، وذلك عقب الانتصار الذي احرزه على الصربيين على نهر ماريتزا ، في سنة ١٣٧١ . ودارت سنة ١٣٨٩ معركة حاسمة في قوصوة بين الصربيين والأتراك . ومع ان مراد اغتاله احد الصربيين قبل نشوب المعركة ، فإن عساكره الذين فاقوا اعداءهم في العدد ، احرزوا انتصاراً تاماً . فأضحى الاتراك سادة شبه جزيرة البلقان [٢] .

وعلى الرغم من ان النشاط الصليبي في الغرب تحول في سنة ١٣٩٠ ، بالحملة الفاجعة التي قادها لويس الثاني دوق بوربون لمهاجمة مهدية قرب تونس [٣] ، فقد كان من الجلي انه لا بد من وقف زحف الاتراك العثمانيين ، من اجل سلامة اوربا المسيحية . فلما أضاف السلطان بايزيد في سنة ١٣٩٠ الى بلاده ، مدينة فيدين البلغارية الواقعة على نهر الدانوب ، التي سبق

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 379 - 397.

(٢) انظر : Vasiliev, op. cit. p. 624.
Gibbons, op. cit. pp. 174 - 178.

(٣) انظر : Atiya, op. cit. pp. 398 - 434.
اورد عطية وصفاً مسهباً لحملة لويس دوق بوربون .

لأميرها ان اعترف بسيادة المجريين ، استنجد سيجسموند لوكسيمبرج ملك المجريين ، وشقيق الامبراطور ونزل ، بزملائـه الملوك . فأصدر كل من بابا رومـا بونيفاس التاسع ، وبابا افينيون بنيدكت الثالث عشر ، مرسوماً يوصى فيه بإثارة حرب صليبية ، بينما كتب داعية الحرب الصليبية الكهل ، فيليب مزيير ، رسالة مفتوحة الى رتشرد الثاني ملك انجلترا يطلب اليه التعاون مع شارل السادس ملك فرنسا في إعداد الحملة الصليبية المقبلة . وبفضل صلات سيجسموند الالمانية ، استطاع ان يلقى مساندة وتأييداً في المانيا . إذ أن اميري فالاشيا وترانسلفانيا بلغ من تخوفهما من الزحف التركي ما حملهما على الانحياز اليـه ، على الرغم من كراهيتهما الشديدة للمجريين . اما في الغرب فقد اعرب دوقات برجنديا وأورليان ولانكستر عن رغبتهم في بذل المساعدة . وفي مارس سنة ١٣٩٥ وصل الى البندقية سفارة مجرية برئاسة نقولا كانيزاي ، رئيس أساقفة جرّان لتظفر من الدوق بوعد بنقل العساكر على سفن البنادقة . ثم مضى السفراء الى ليون ، حيث لقوا ترحيباً كبيراً من فيليب الجسور دوق برجنديا ، الذي وعدهم بالمساعدة الحارّة . ثم توجهوا بعد ان قاموا بزيارة ديجون لتقديم فروض الاحترام لمرجريت دوقة الفلاندر، الى بوردو ليجتمعوا بخال ملك انجلترا ، يوحنا دوق لانكستر ، الذي تعهـد بإعداد فرقة انجليزية . وارتحلوا من بوردوا الى باريس . وكان شارل السادس ملك فرنسا يعاني نوبة جنون ، غير ان اوصياءه عرضوا بأن يشجعوا النبلاء الفرنسيين على الاشتراك في الحملة الصليبية . فأخذ يحتشد جيش دولي ضخم لنجدة العـالم المسيحي . ولتمويل هـذا الجيش فرض دوق برجنديا ضرائب خاصة تحصّل منهـا مبلغ ضخم قدره سبعمائة الف فرنك ذهب . وأضاف اليه النبلاء الفرنسيون منفردين ما اسهموا به من اموال ، فبذل جاي السادس ، كونت لاتريموي

اربعة وعشرين الف فرنك ، ووافق النبلاء الفرنسيون والبرجنديون على ان يتولى قيادتهم اكبر ابناء دوق برجنديا ، وهو يوحنا كونت نيفر وهو شاب نشط في الرابعة والعشرين من عمره [1] .

حملة نيكوبوليس الصليبية سنة ١٣٩٦ :

بينا هرع السفراء المجريون راجعين الى بودا ، لينهوا الى الملك سيجسموند ما أحرزوه من نجـــاح ، ولينصحوه بالمضي في استعداداته ، اصدر دوق برجنديا قرارات حافلة بالحذر والحرص ، عن نظام وسلوك العساكر الفرنسية والبرجندية . إذ جرت دعوتهم للاجتماع في ديجون في ٢٠ ابريل سنة ١٣٩٦ ، وسوف يتولى القيادة يوحنا كونت نيفر ، غير انه نظراً لحداثة سنه تألف مجلس شورى من فيليب ابن دوق بار ، وجـاي لاتريموي ، وأخيه وليم ، وأمير البحر يوحنا سيد فيينا ، وأودار سيد شاسّيرون . وفي نهـــاية الشهر (ابريل) تحرك جيش مؤلف من عشرة آلاف رجل للمسير الى بودا مجتازاً المانيا . وفي اثناء الطريق ، انحاز اليه ستة آلاف من الالمان بقيادة كونت بلاتين ، روبيرت بن روبيرت الثاني كونت فيتنباخ ، وإبيرارد كونت كاتسنيلـنبوجن ، وسار في اعقابهم عشرة آلاف محارب انجليزي بقيادة ايرل هنتنجدون ، وهو أخ غير شقيق للملك رتشرد [2] .

ووصلت الجيوش الغربية الى بودا حوالي نهاية شهر يوليه ، فصادفوا بها

---

(١) انظر : Atiya, Crusade of Nicopolis, pp. 1 - 34.
اورد فيه رواية مدعمة بالمراجع والمصادر .

(٢) انظر : Atiya, Crusade of Nicopolis, pp. 41 - 48, 67 - 68, 184 nn.

الملك سيجسموند منتظراً في جيش يبلغ حوالي ستين الف رجل . وانحاز اليه تابعه ميركيا فويفود (حاكم) والاشيا في عشرة آلاف رجل ايضاً. وقدم من بولنده ، وبوهيميا ، وإيطاليا ، واسبانيا حوالي ثلاثة عشر الف من المغامرين . هذا الجيش المتحد الذي يناهز في العدد مائة الف عسكري يعتبر اضخم ما احتشد من الجيوش حتى وقتذاك لقتال المسلمين . وفي تلك الأثناء ، نفذ الى البحر الاسود اسطول يسيّره فرسان الاسبتارية بقيادة مقدمهم فيليبرت نايّاك ، والبنادقة ، والجنويون ، فرسا قبالة مصب نهر الدانوب .

ولم يكن السلطان العثماني بايزيد من جانبه متواكلا ، فحينما بلغته الانباء بأن الحملة الصليبية احتشدت في بلاد المجرد ، كان يحاصر القسطنطينية . فبادر بايزيد على الفور الى استدعاء كل من في متناول يده من العساكر ، وتوجه بهم صوب الشمال الى نهر الدانوب ، وجرى تقدير عدد جيشه بما يزيد على مائة الف رجل .

على ان فرسان الغرب لم يتعلموا شيئاً من تجربة استمرّت ثلاثة قرون . فحينما جرت مناقشة خطة الحملة في بودا ، نصح الملك سيجسموند باتخاذ خطة الدفاع . إذ كان يعلم ما عليه خصمه من قوة ، فاعتقد انه لمن الخير ان يستدرجوا الاتراك الى داخل بلاد المجر ، ثم يهاجمونهم من مواقع سبق اعدادها وتجهيزها . ولم يختلف الملك سيجسموند عن الاباطرة البيزنطيين أثناء الحملات الصليبية المتقدمة ، إذ انه اعتقد ان سلامة العالم المسيحي تتوقف على المحافظة على مملكته ، غير ان حلفاءه كانوا كالمحاربين الصليبيين الاوائل يرون اتخاذ خطة هجوم كبير ، فسوف يجري التغلب على الاتراك وتتقدم الجيوش المسيحية منتصرة في الاناضول ، الى سوريا وإلى المدينة المقدسة ذاتها . وكان العساكر من العنف ما حمل سيجسموند على الإذعان.

ففي زمن مبكر من شهر اغسطس ، التزم الجيش المتحد في سيره الشاطىء الأيسر لنهر الدانوب ، حتى بلغ اورسوفا ، عند الباب الحديدي ، ومنها عبر الى بلاد السلطان .

وانقضت ثمانية ايام في نقل الجيش في الزوارق عبر النهر . ثم سار العساكر ازاء الشاطىء الجنوبي ، حتى مدينة فيدين . وكان سيد فيدين اميراً بلغارياً اسمه يوحنا سراخيمير ، وكان من اتباع السلطان ، الذي لم يجعل بالمدينة إلا حامية تركية صغيرة . فلما وصل المسيحيون الى المدينة ، انحاز اليهم يوحنا سراخيمير وفتح لهم الأبواب . ودارت مذبحة في الاتراك . أما المدينة التالية الواقعة على النهر فكانت راهوفا ، وهي معقل منيع ، يحيط به خندق وسوران ، وينزل بـه حامية تركية ضخمة . فاندفع على الفور لمهاجمتها الفرسان الفرنسيون المعروفون بشدّة عنفهم وتهورهم ، وتولى قيادتهم فيليب ارنوا كونت ايه ، ويوحنا لى مينجر المعروف باسم المارشال بوسيكوه وتعرضوا للإبادة لو لم يبادر سيجسموند بجلب العساكر المجرية . ولم يكن بوسع الحامية ان تظل على مقاومتها زمناً طويلاً ازاء الجيش المسيحي بأكمله ، فتم اقتحامها ، وتعرض للقتل بالسيف جميع سكانها . ومنهم عدد كبير من المسيحيين البلغاريين ، ولم يبقوا إلا على الف رجل من كبار الاغنياء ، احتفظوا بهم للحصول على الفدية .

وتحرّك الجيش من راهوفا الى نيكوبوليس التي تعتبر أهم معقل للأتراك على نهر الدانوب ، تقع في الموضع الذي يصل فيه الطريق القادم من وسط بلغاريا الى النهر . وتمّ تشييد هذا الحصن بجوار النهر على تل توج منحدراته شديدة الهبوط خطان من الاسوار المنيعة . ولم يجلب الصليبيون معهم ادوات الحصار ، إذ لم يدرك الغربيون الحاجة اليها ، ولم يستعد سيجسموند

إلا لاتخاذ خطة الدفاع . وإذ ثبت انه لا فائدة للسلالم التي نصبها الفرنسيون في عجلة ، ولا للنقوب التي حفرها المهندسون المجريون ، ترقب الجيش استسلام المدينة حتى لا تهلك جوعاً . وساندهم في ذلك قدوم اسطول للاسبتارية اقلع بالدانوب قبالة اسوار المدينة في ١٠ سبتمبر . غـــير ان المؤن كانت وفيرة في نيكوبوليس . أما والي المدينة التركي ، دوغان بك ، الذي عـلم بمصير مواطنيه في فيدين وراهوفا ، فلم تكن عنده النية لتسليمها .

على ان الإرجاء والتمهل كان قاتلاً للروح المعنوية عند الجيش المسيحي . إذ ان فرسان الغرب صاروا يلهون انفسهم بلعب القمار وشرب الخمر ، وكل مظاهر الفجور والفسق . وإذ تجاسر بعض العساكر على الاشارة الى ان الأتراك أعداء أشداء ، أمر المارشال بوسيكوه بصلم آذانهم ، عقاباً لهم على روح الانهزامية . وقعت المشاجرات بين مختلف كتائب الجيش ، بينما أخذ أتباع سيجسموند الترانسلفانيون ، وحلفاؤه الولاشيون يتحدثون عن التخلي عن الجيش .

وإذ أمضت الحملة الصليبية اسبوعين امام نيكوبوليس ، جاءت الأنباء بأن الأتراك اخذوا يقتربون من المدينة . إذ تحرك جيش السلطان على عجل من تراقيا ، كان خفيف التسليح ، فاق فرسانه خيـــالة الفرنج في سرعة الحركة ، واشتهر رماته بروعة التدريب ، وتأصل عنـــده اكتمال النظام ، والطاعة التـــامة لقيادة السلطان وحده ، الذي اشتهر بالكفاية النادرة . سبق ان ارسل بعض العساكر لتسبقه ، فحلّت بهم الهزيمة في احد دروب البلقان على أيدي كتيبة فرنسية يقودها سيد كوسى . على ان حقد وغيرة المارشال بوسيكوه الذي اتهم كوسى بمحـــاولة سلب شرف الانتصار من يوحنا كونت نيفر ، منع كل محـــاولة اخرى لوقف الزحف التركي . وفي

تلك الأثنـــاء قرر الفرسان ان يقتلوا الأسرى الذين وقعوا في أيديهم في راهوفا .

معركة نيكوبوليس سنة ١٣٩٦ :

وفي يوم الاثنين ٢٥ سبتمبر سنة ١٣٩٦ ، أضحت مقدمة الجيش التركي ، ظاهرة للعيان ، فعسكرت في التلال على مسافة ثلاثة اميال من المسيحيين . وفي صبيحة اليوم التالي وقبل شروق الشمس ، قـــام سيجسموند بزيارة زملائه من القادة ، وتوسّل اليهم ان يبقوا على التزام خطة الدفاع . ومع انه لم يخطرهم صراحة انه لا يثق في عساكره من الترانسلفانيين والوالاشيين ، فانه لم يلقَ التأييد إلا من كوسى ويوحنا سيد فيينا ، بينما عزم القـادة الآخرون على المبادرة على الفور الى ان ينشبوا المعركة ، ولم يسع سيجسموند إلا ان يذعن في ضعف . فجعل جيشه في ثلاثة اقسام : احتلّ عساكره المجريون قلب الجيش ، بينما اتخـذ الوالاشيون مواقعهم في الميسرة ، وكان الترانسلفانيون في الميمنة . وتألفت مقـدمة الجيش من جميع القادمين من الغرب بقيادة يوحنا كونت نيفر .

ولما بزغ النهار ، لم يتراءى من الجيش التركي سوى الخيالة الخفيفة الذين لم يكونوا نظاميين ، على منحدر التل . ومن ورائهم اتخـذ الرجالة الترك مواقعهم ، وفصيلة من الرماة ، يحميهم حاجز مصنوع من أعمدة مدببة من الخشب . أمـا القوة الرئيسية من الخيالة السباهية ، التي يقودها السلطان نفسه ، فإنها كانت مختفية في قمة التل . وكان على ميسرة السلطان فرقة من الخيـالة الصربيين بقيادة الامير ستيفن لازاروفيتش الذي يعتـبر من أتباع السلطان المخلصين .

دلت المعركة ، وفقاً للخطة الحربية السابقة ، على ان الصليبيين لم يتعلموا شيئاً في كل الازمنة . فلم ينتظر فرسان الغرب بالمقدمة كيما يخطروا سيجسموند بخططهم . فما تشبعوا به من حماس صادق بالغ الارتفاع حملهم على ان يهاجموا التل ، فشتتوا امامهم فرسان الترك . وبينما كان الاتراك يجمعون شملهم من جديد وراء الرجالة ، أعاق الفرسان عن الحركة اعمدة الحاجز ، فبادروا الى الترجل عن افراسهم ، وواصلوا الهجوم على اقدامهم ، فنزعوا الأعمدة كلما تقدموا . كان ذلك حافزاً لهم على الهجوم ، حتى تشتت ايضاً شمل الرجالة الترك . ومع ان بعض الترك استطاعوا ان ينسحبوا الى ما وراء الخيالة الذين اجتمعوا من جديد ، فإن عدداً كبيراً منهم تعرضوا للقتل او جرى قذفهم الى السهل . على انه حينما اسرع الصليبيون ، في نشوة ظفرهم وبرغم ما عانوه من تعب وإرهاق ، بالمسير ، وبلغوا قمة التل ، اضحوا وجهاً لوجه مع فرسان السلطان السباهية والصربيين . فأخذهم على غرة هجوم هذه القوات الجديدة النشطة . وإذ كانوا مترجلين ، وحلّ بهم التعب ، واشتد ظمأهم ، وأرهقهم ما يحملون من اسلحة ثقيلة ، لم يلبث نظامهم أن اضطرب ، وتحول انتصارهم الى هزيمة . ولم ينج من القتل إلا عدد قليل من الفرسان . ومن الذين هلكوا ، وليم لاتريموي ، وابنه فيليب ، ويوحنا كادزوه امير البحر في الفلاندر ، ومقدم الفرسان التيوتون . اما يوحنا سيد فيينا وأمير البحر في فرنسا فإنه وقع وقد امسك بلواء نوتردام الكبير ، الذي كان موكولاً له امر المحافظة عليه . ولم ينج يوحنا كونت نيفر إلا لأن خدامه هتفوا باسمه وأقنعوه بالإذعان . وممن وقع معه في الاسر ، كونتات ايه ، ولامارش ، وجاي لي تريموي ، والجيراند كوسي ، والمارشال بوسيكوه .

ولما ترجل الفرسان عن جيادهم ، اندفعت الأفراس راجعة وحدها الى المعسكر . وقررت الكتيبتان الوالاشية والترانسلفانية على الفور انهما قد خسرتا المعركة ، وعجلتا بالانسحاب ، فاستولتا على كل ما عثرتا عليه من الزوارق ، كيما تعبرا النهر . غير ان سيجسموند امر عساكره بالتقدم لنجدة فرسان الغرب . فقتلوا اثناء سيرهم الى أعلى التل ، كثيراً من الرجالة الترك الذين اضطرب نظامهم ، غير انهم لما اقتربوا من ساحة المعركة أدركوا انهم جاءوا متأخرين ، فحمل عليهم خيالة السلطان وطردوهم الى ضفاف النهر بعد ان كبدوهم خسائر فادحة .

ولما تبدد جيش سيجسموند ، اقتنع بالتخلي عن القتال ، فلجأ الى إحدى سفن البندقية في النهر ، فنقلته الى القسطنطينية ، ومنها الى بلاده عن طريق بحر ايجه والبحر الادرياتي ، إذ كان يخشى ان يرتحل براً ، لارتيابه في التعرّض للخيانة من قبل الولاشيين . أما عساكره وفئة قليلة ممن بقي على قيد الحياة من الصليبيين الغربيين ، فإنهم بذلوا كل ما بوسعهم من جهد لالتماس الطريق الى بلادهم ، بعد ان ازعجهم السكان الوطنيون المعادون لهم ، والحيوانات المتوحشة ، فضلاً عن شدائد فصل الشتاء الذي بدأ مبكراً ، فواصل كونت بلاتين السير الى قلعة والده في اسمال ، ومات بعد بضعة ايام . ولم يوات الحظ الطيب سوى عدد قليل من رفاقه اللاجئين[1] .

انتصار السلطان بايزيد سنة ١٣٩٦ :

احرز بايزيد انتصاراً باهراً ، غير ان خسائره كانت فادحة . وفي سورة

---

(١) انظر : Atiya, Crusade of Nicopolis, pp. 50 - 99.

غضب ، وقد تذكر ايضاً مـا ارتكبه الصليبيون من مذابح ، امر بقتل اسراه ، الذين يناهز عددهم ثلاثة آلاف اسير ، صبراً ولم يبق إلا على حياة عدد قليل من النبلاء كيما يتقاضى عنهم فدية ضخمة . وتولى التعرّف عليهم فارس فرنسي ، اسمه جيمس هيللي ، يلم باللغة التركية ، ثم تقرر السماح له بالرحيل الى الغرب ليدبر ما يتحصل من الاموال . على انـه لم تصل الى السلطان في بروسه سفارة من الغرب إلا في يونيه من السنة التالية ، فسلمته ما طلبه من مقادير ضخمة من المال . إذ ان عدداً كبيراً من المعروفين في العالم المسيحي بشدة العاطفة ارسلوا ما اسهموا به من اموال ، غير ان الجانب الاكبر ادّاه الملك سيجسموند ودوق برجنديا ، اللذان بذلا ما يزيد على مليون فرنـك ، ومن جرى إطلاق سراحهم من الاسرى ، لم يبلغوا اوطانهم إلا حوالي نهاية سنة ١٣٩٧ [١] .

تعتبر حملة نيكوبوليس الصليبية أضخم وآخر الحملات الصليبية الكبيرة . إذ ان طابع تاريخها المثير للأسى ، احتذى في دقـة مؤلمة نهج الحملات الصليبية التي تعرضت في الماضي لكوارث فاجعـة ، وكل مـا بينها من اختلاف أن ساحة المعركة أضحت في اوربا ، لا في آسيا . وما وقع فيها من أخطاء وحماقات كانت واحدة . وما اتسمت به من حمـاس تبدّد فيما وقع من مشاجرات وحقد وقلق . وكل ما تعلمه الغرب من هـذا الفشل الذريع الاخير ، هو انه لم يعد للحرب المقدسة وجود من الناحية العملية .

---

(١) انظر : Atiya, Crusade of Nicopolis, pp. 102 - 111.

لن تقوم حملات صليبية اخرى ، غير ان السلطان ظلّ يهدد جوف العالم المسيحي ، إذ بلغ نهر الدانوب ، وشواطىء البحر الادرياتي . ومع ان القسطنطينية لا زالت بأيدي المسيحيين ، فإنها أضحت معزولة ، ولم يبق عليها إلا انه لم يتوافر للسلطان من المدفعية القوية ما يكفي لدكّ أسوارها الضخمة ، ولم يكن لديه من السفن ما يكفي لقطع طرق مواصلاتها بحراً . اما فرسان الاسبتارية في رودس ، والسادة الايطاليون الذين يتملكون ارخبيل بحر إيجه ، فإنهم أضحوا على الحدود ، بينما تعتبر قبرص معقلاً نائياً . كما أن ملك المجريين ، وسيدي والاشيا ومولدافيا ، وزعماء ألبانيا ، التمسوا المساعدة للدفاع عن حدودهم . وعكفت الجمهوريات الايطالية على تقدير خير ما يتخذ من سياسة للمحافظة على مصالحها التجارية . واشتدّ إحساس البابا بما يهدد العالم المسيحي من خطر . غير ان دول الغرب لم تعد تبدي شيئاً من الاهتمام . إذ ان آخر تجربة لها كانت بالغة المرارة ، كما ان الحماس الذي أثارها لن ينبعث من جديد بعد ما حلّ بها من كارثة . بل ان البابا نفسه ظلّ يتآمر في بلاد المجر لعزل سيجسموند ، وإحلال لاديسلاس ملك نابولي مكانه ، بصرف النظر عما قد تنزله الحرب الاهلية من ضرر بأسباب الدفاع في اوربا الوسطى[١] . وإذ أضحى ملك فرنسا سيداً على جنوة من سنة ١٣٩٦ حتى ١٤٠٩ ، بلغ من شدة انزعاجه على مصير المستعمرة الجنوية ، بيرا ، المواجهة للقسطنطينية ، انه ارسل المارشال بوسيكوه في الف ومائة رجل الى البوسفور ، في سنة ١٣٩٩ .

---

(١) انظر : Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, pp. 463 - 464.
Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, VI, 2, pp. 1253 - 1254.

على ان قدوم القوات الفرنسية منع ما قد يقوم به الترك من محاولة لمهاجمة المدينة الامبراطورية (القسطنطينية) . غير ان المارشال بوسيكوه لم يلبث ان انسحب ، لأنه ما من احد كان مستعداً لأن يؤدي له او لرجاله النفقات [1] . ثم ارتحل الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني الى الغرب يحدوه الأمل في الحصول على مساعدة . وانزعج الايطاليون لما شهدوا كيف أضحى وريث القياصرة فقيراً ، فبذل له دوق ميلان من الهدايا الرائعة ما يجعل حالته بالغة الملاءمة لمكانته ومنصبه . ولقي الامبراطور استقبالاً حافلاً في باريس ولندن ، غير انه لم يتلقَّ مساعدة مادية . اما البابوية فلم تحفل به ، إذ ان مانويل كان من الأمانة ما يمنعه من الوعد بأن تخضع كنيسته لروما ، لعلمه أن قومه لن يقبلوا ذلك . على انه هرع راجعاً الى عاصمته سنة ١٤٠٢ ، وقد أطربته الأنباء التي تنذر فيما يبدو بتداعي الامبراطورية العثمانية [2] .

تيمورلنك (الاعرج) :

ولد تيمور الأعرج في سنة ١٣٣٦ ليكون اميراً صغيراً ، ينحدر من اسرة تركية مغولية قرب سمرقند . اضحى سنة ١٣٦٩ سيداً على جميع البلاد التي كان يحكمها فرع جغتاي من المغول . ومنذئذ أخذ يمد ممتلكاته بما شنه من حروب لا تعرف الرحمة او الشفقة ، والتزم اول الأمر

---

(١) انظر : Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, pp. 465 - 466.
Vasiliev, op. cit. pp. 632 - 633.

(٢) انظر : Ibid, pp. 631 - 634.

التؤدة والبطء ، ثم قوي عزمه واشتدت حركته . ففي الفترة الواقعة بين سنتي ١٣٨١ ، ١٣٨٦ أغار على بلاد الايلخانية المغولية في فارس ، فاستولى سنة ١٣٨٦ على تبريز وتفليس . وظلّ منصرفاً في السنوات الاربع التالية الى ما يجري على حدوده الشمالية . وفي سنة ١٣٩٢ استولى على بغداد . وتوجه أثناء السنوات التالية بحملات الى روسيا لقتال مغول القبيلة الذهبية ، ومضى في توغله حتى بلغ موسكو ، ثم ظهر في شرق الأناضول سنة ١٣٩٥ فدانت له ارزنجان وسيواس . وفي سنة ١٣٩٨ فتح شمال الهند بحملة رائعة ، زاد من أثرها وقوتها ما اجراه من مذابح رهيبة . ثم تحوّل من جديد سنة ١٤٠٠ صوب الغرب ، فانساب في سوريا ، وأنزل الهزيمة بالجيوش المملوكية في حلب اولاً ، ثم في دمشق ، واحتل واستباح كل المدن الكبيرة بالاقليم . وفي سنة ١٤٠١ انزل العقاب بثورة نشبت في بغداد ، بأن امر بأن يحل الدمار التام بالمدينة ، التي لم تكد تنتعش من أثر فتح هولاكو ، الذي وقع قبل قرن ونصف قرن . وعاد تيمور الى الأناضول سنة ١٤٠٢ ، وقد وطد العزم على قهر السلطان العثماني ، الذي لم يبق سواد من الامراء المسلمين دون ان ينزل به الهوان . ودارت المعركة الحاسمة في انقرة في ٢٠ يوليه سنة ١٤٠٢ ، وحلّت الهزيمة الساحقة بالسلطان بايزيد ، الذي وقع اسيراً ، ومات في اسره بعد بضعة شهور . وفي تلك الاثناء توالى سقوط المدن العثمانية بالأناضول في يدي الغازي ، الذي طرد فرسان الاسبتارية من ازمير في ديسمبر سنة ١٤٠٢ (١) .

---

(١) عن حياة تيمور ، انظر :
Bouvat, L'Empire Mongol, 2ᵐᵉ phase, passim, esp. pp. 58 - 63.

كان الامبراطور مانويل الثاني يأمل في ان ما حلّ بالسلطان بايزيد من كارثة ، قد ينهي التهديد العثماني ، غير انه لم يكن من القوة ما يكفي لأن يتخذ اجراء بدون مساعدة . التزمت الجمهوريات الايطالية جانب الحذر ، إذ بادر الجنويون الى عقد معاهدة مع تيمور للمحافظة على تجارتهم الاسيوية ، على ان تخوفهم على تجارتهم بالبلقان ، وقلقهم على المستقبل ، حملهم على ان يساعدوا في المحافظة على القوة العثمانية ، بأن نقلوا على زوارقهم بقايا جيش بايزيد الى اوربا . اما البنادقة فالتزموا الاعتزال[1]. وكان لحذرهم ما يبرره . والواقع ان غزاة تيمور منعت السلطان من شن هجوم مباشر على القسطنطينية ، وأبقت على بيزنطية لمدة نصف قرن آخر. فلو ان كل اوربا بادرت الى التدخل ، لاستطاعت ان تقضي على الامبراطورية العثمانية . غير ان الاتراك كانوا من التماسك العنصري في الاناضول ، والاستقرار السياسي في البلقان ما يجعل من العسير طردهم ، كما انه لم يكن لتيمور ما لجنكيزخان من العبقرية ، إذ أن امبراطوريته اخذت تتجزأ عقب وفاته مباشرة ، سنة ١٤٠٥ . فعجّل المماليك باسترداد سوريا ، وظهرت في اذربيجان أسرة الشاه السوداء ، وأقامت مُلكاً امتد من شرقي الاناضول حتى بغداد . وظهرت فورات قومية في فارس حيث لم تلبث الأسرة الصفوية ان ظهرت . وظلت سلالة تيمور تحكم اقليم ما وراء النهر نحو قرن من الزمن ، على انهم اقاموا في الهند وحدها امبراطورية ، وهي المعروفة بأمبراطورية المُغَل في دلهي ، استمرت أمداً طويلاً[2] .

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. II, pp. 65 - 67.

(٢) انظر : Bouvat, op. cit. pp. 84 ff.

ولم تكن النتيجة النهائية لغزو تيمور بلاد الاناضول سوى انه ادخل بها سيلاً جديداً من الترك والتركمان ، وبذا ازدادت جذور الدولة العثمانية رسوخاً . فحينما مات تيمور ، تسلّم ابناء بايزيد إرث ابيهم . وما نشب من الحروب الداخلية هيأ للقوى المسيحية فرصة جديدة لوقف النمو المضطرد للدولة العثمانية ، غير ان هذه الفرصة لم يجر اغتنامها . فقد استعاد الامبراطور البيزنطي بعض المدن الساحلية ، وتهيأ لفرسان الاسبتارية في رودس ان يشيدوا قلعة على بر الأناضول المواجه لجزيرتهم ، في بودرون المعروفة قديماً باسم هاليكارنا ّسوس . غير انه فيما عدا ذلك لم يتحقق شيء . فلما انفرد محمد الاول بالسلطنة سنة ١٤١٣ ، كانت الامبراطورية العثمانية متماسكة . ومع ان محمداً اشتهر بأنه امير يميل الى السلام ، وتجنب الحروب العدوانية ، فإنه أصرّ على إعادة تنظيم ممتلكاته ، فأضحى العثمانيون عند وفاته سنة ١٤٢١ أقوى مما كانوا عليه قبله (١) .

الحملة الصليبية على فارنا سنة ١٤٤٤ :

استهلّ مراد الثاني ، الذي خلف محمداً على السلطنة ، حكمه بمحاولة الاستيلاء على القسطنطينية . غير انه لا زال يفتقر الى المدفعية الثقيلة ، وإلى السفن . وإذ استبسل اليونانيون في الدفاع عن حاضرتهم ، دون مساعدة خارجية ، في الفترة من يونيه الى اغسطس سنة ١٤٢٢ ، تخلى مراد عن الحصار ، وركز اهتمامه على المضي في الفتوح في شبه الجزيرة

(١) انظر : Hammer, Histiore de L'Empire Ottoman, (trans. Helbert), II, pp. 120 ff.

اليونانية ، وفي آسيا ، وفيما وراء الدانوب [1] . وفي سنة ١٤٣٩ وافق الامبراطور يوحنا الثامن ، الذي خلف مانويل على الحكم ، وقد استبد به اليأس ، في مجمع فلورنسه على ان تخضع كنيسته لروما . فرفض قومه الاتحاد ، فلم يحظ بشيء لقاء جهوده ومتاعبه [2] . ودعا البابا يوجينيوس الرابع ، سنة ١٤٤٠ الى حملة صليبية جديدة ، كما انه حدث بعد اربع سنوات ان اعلن زعيم الباني ، اسكندر بك ، الحرب على الاتراك ، وانحاز اليه ملكه وسيده جورج ملك الصربيين . ووعد كل من البابا وملك اراجون بأن يرسل الى الشرق عشر سفن كبيرة . أما الجيش المجري بقيادة ابن غير شرعي للملك سيجسموند ، وهو يوحنا كورفينوس المعروف باسم هونيادي ، الذي كان يتولى حكم ترانسلفانيا من قبل فلاديسلاف ، فقد تجهز لعبور نهر الدانوب . على ان الحلفاء لم يلبثوا بعد بضع مناوشات ان تخاذلوا ، فوافقوا على عقد هدنة لمدة عشر سنوات ، تمّ ابرامها في سزيجدين ، في يونيه سنة ١٤٤٤ [3] . ثم استعد مراد لأن يقود جيشه لمواجهة الاعداء في الأناضول ، وعندئذ استطاع المندوب البابوي المرافق للجيش المتحالف الكاردينال يوليان شيزاريني ، ان يقنع قادة الجيش على ان كل يمين تبذل لكافر تعتبر باطلة ، وحثهم على مواصلة الزحف . غير ان ملك الصربيين الارثوذكسي لم يوافق على هذه العلة ، ولم يسمح لاسكندر بك ان يبقى مع الجيش ، واحتج على ذلك يوحنا هونيادي ، على انه بقي في قيادة

---

(١) انظر : Hammer, op. cit. II, pp. 159 ff.

(٢) انظر : Vasiliev, op. cit. pp. 672 - 674.

(٣) انظر : Hammer, op. cit. II, pp. 288 - 302.

الجيش ، فقاد الجيش المتحالف الذي يبلغ عدده نحو عشرين الف رجل ، الى فارنا ، التي بلغها في زمن مبكر من شهر نوفمبر سنة ١٤٤٤ . وإذ علم مراد بما اقدموا عليه من انتهاك الهدنة ، بادر الى لقائهم بجيش يبلغ في العدد ثلاثـــة امثال جيشهم . ونشبت المعركة في شهر نوفمبر ، فاستبسل المسيحيون في المقاومة ، وفي أثناء حدة المعركة ، كان السلطان الذي أمر بأن ترفع على لوائه المعاهدة التي جرى انتهاكها ، يصيح هاتفاً « أيها المسيح إذا كنت إلهاً حسبما يقول أتباعك ، فلتنزل العقاب بهم لما ارتكبوه من خيانة » وتغلبت دعوات مراد وأعداد جيشه ، إذ ان كل الحلفاء المسيحيين على وجه التقريب تعرضوا للدمار ، فلقي مصرعه الملك فلاديسلاف الذي كان يقود عساكره ، وهلك الكاردينال الخائن ، وأفلت هونيادي مع فلول جيشه الضئيلة [١] .

وما بذله اسكندر بك من جهود رائعة انقذت استقلال البانيـا لمدة عشرين سنة اخرى . ومع ان يوحنا هونيادي لحقت به هزيمة منكرة في معركة استمرت ثلاثة ايام على ساحـة قوصوه المنذرة بالشر ، في سنة ١٤٤٨ ، فإنه طالما كان حياً ، منع السلطان من عبور نهر الدانوب . غير انه عند وفاته سنة ١٤٥٦ ، كان الاتراك قد حققوا ما كان يسيطر على الاسلام من طموح منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم. ففي سنة ١٤٥١ خلف مراد على السلطنة ابنه محمد الثاني ، وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره ، فائق النشاط ، شديد النزوع للمغامرة ، بالغ الكفاية . وأول ما كان يرمي اليه

---

(١) انظر : Haleki, The Crusade of Varna, passim.

من هدف ، هو ان يستولي على القسطنطينية . وليس هنا موضع الحديث عن القصة الرائعة المؤلمة التي تروي الايام الاخيرة لبيزنطة ، إذ أن اليونانيين الذين شقوا عصا الطاعة على حكامهم الذين باعوا كنيستهم الى روما ، احتشدوا في شجاعة نادرة لمواجهة مصيرهم الاخير . وما أرسله الغرب من مساعدة لم تكن كافية ، مهما كانت بسالة رجالها . فما توافر للسلطان من موارد ضخمة ، وما بذله من اهتمام في استعداداته ، فضلاً عن ارادته التي لا تنثني ، كل ذلك كان لا بدّ ان يقوده الى النصر . على ان ما احرزه من انتصار لم يكن راجعاً فحسب الى ما اقترن به من مكانة وهيبة ، إذ أن بيزنطة ظلت منذ زمن طويل تعاني سكرات الموت ، غير ان زوالها كفل للترك انهم سوف يبقون في اوربا ، إذ سوف يجعل لهم السيادة على كل البحار الشرقية ، إذ قرع ناقوس نهاية امبراطوريتي جنوة والبندقية ، ومملكة قبرص ، والاسبتارية في رودس ، وأطلق للسلطان الحرية في ان يسوق جيوشه الى ابواب فيينا[1] .

البابا بيوس الثاني آخر دعاة الحروب الصليبية سنة ١٤٦٤ :

يعتبر سقوط القسطنطينية في جميع انحاء اوربا نهاية مرحلة من مراحل التاريخ . ومع أن النبأ لم يكن غير متوقع ، فإنه اضحى عذراً مرّاً للتأنيب الذاتي ، ومع ذلك فإنه باستثناء الأمراء الذين تتعرض حدودهم

---

(١) انظر : Pears, The Destruction of the Greck Empire, pp. 273 ff. Vasiliev, op. cit. pp. 647 - 655.
لا زال كتاب بيرز خير تاريخ عن سقوط القسطنطينية .

للتهديد المباشر من قِبل الاتراك ، ما من احد صار يحفل باتخاذ اجراء لمواجهتهم . ولم يحاول اثارة الغرب الى واجبه بعد فوات الاوان ، إلا الكاردينال فنسيو في المانيا وهو الانساني الكبير اينياس سيلفيوس ، غير ان احاديثه الى مجالس الديات بالمانيا لم تسفر عن نتيجة ، كما ان رسائله الى البابا ، كشفت عن انه لم يكن مخدوعاً . ففي سنة ١٤٥٨ اضحى بابا باسم بيوس الثاني . وظل طوال بابويته يسعى لأن يبعث من جديد حملة صليبية كالتي سبق لأسلافه الكبار ان ارسلوها . وفي سنة ١٤٦٣ كاد مشروعه فيما يبدو يجني ثماره . فما حدث في الوقت المناسب من اكتشاف مناجم للنطرون في املاك البابوية أمدته بموارد لم تكن متوقعة ، وهددت بكسر احتكار الترك للنطرون . كان دوج البندقية الجديد فيما يبدو يؤيد الحرب . اما ملك المجريين الذي تصالح آخر الامر مع الامبراطور، فكان حريصاً على قيام تحالف مسيحي . وأظهر يوحنا الصالح دوق برجنديا عن طيب خاطر اهتماماً ملحوظاً . وما اصدره البابا في اكتوبر من المرسوم البابوي المعروف باسم Ezechielis يعكس تفاؤله . غير انه كلما مضت الشهور ، تضاءل الحماس ، إذ لم يعرض عليه مساعدة مادية إلا المجريون ، الذين كانوا فعلاً يواجهون الحرب التركية ، وأظهر البنادقة التردد . وما من مدينة ايطالية كانت مستعدة لتغامر بضياع التجارة الذي يترتب على قطع علاقاتها بالسلطان . وكتب يوحنا دوق برجنديا ان ما دبره ملك فرنسا من مؤامرات جعل من المستحيل عليه ان يغادر بلاده . وعزم البابا في شجاعة على ان يموّل الحملة الصليبية ويتولى بنفسه قيادتها . وبناء على اوامره حشد وكلاؤه اسطولاً من السفن في انكونا ، وفي ١٨ يوليه سنة ١٤٦٤ ، وبرغم ما يعانيه من ارهاق وصحة معتلة ، اتخذ الصليب في احتفال جرى في كنيسة القديس بطرس .

ولم تنقض إلا بضعة ايام حتى توجه الى الميناء الذي سوف يستقل منه العساكر السفن . وإذ شعر خدامه انه رجل يشرف على الموت ، أخفوا عنه الحقيقة بأنه مـا من احد من امراء اوربا قد احتذى نهجه ، وأن ما من جيوش تسير خلفه لتستقل سفنه الى الشرق . بل حدث العكس ، فحينما اقترب من انكونا ، اسدلوا ستائر محفتة حتى لا يتطلع منها ، إذ اكتظت الطرق بالبحارة من اسطوله ، الذين هجروا سفنهم وهرعوا للعودة الى بلادهم ، ولم يكد يبلغ انكونا حتى توفي بهـا في ١٤ اغسطس سنة ١٤٦٤ ، إذ تداركته الرحمة فجنبته العلم بمـا انتهت اليه الحملة الصليبية من انهيار تام[١] .

لقد حدث منذ نحو اربعة قرون ان ارسل البابا اربان الثاني بدعوته للحرب الصليبية ، الألوف من الرجال ليخاطروا بحياتهم في الحرب المقدسة . أمـا الآن فإن كل ما استطاع البابا الذي اتخذ الصليب ، ان يحشده لم يتجاوز عدداً قليلاً من المأجورين ، الذين تخلوا عن واجبهم ، قبل ان تتحرك الحملة . لقد ماتت الروح الصليبية .

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 227 - 230.
Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, VII, 2, pp. 1291 - 1352.

الفصل الثاني

الخلاصة

المعروف ان الحملات الصليبية قد جرى توجيهها لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي من المسلمين ، فلما انتهت الحروب الصليبية اضحى العالم المسيحي الشرقي خاضعاً لحكم المسلمين . فحينما ألقى البابا اربان الثاني خطابه في كليرمونت ، كان الترك فيما يبدو يوشكون على تهديد البوسفور . ولما دعا البابا بيوس الثاني الى الحملة الصليبية الاخيرة ، كان الترك يجتازون نهر الدانوب . ومن اواخر ثمار الحركة الصليبية ، ما حدث من سقوط رودس بأيدي الاتراك سنة ١٥٢٣ ، وانتقال جزيرة قبرص اليهم سنة ١٥٧٠ ، بعد ان خربتها الحروب مع مصر وجنوة ، ثم استيلاء البنادقة عليها آخر الأمر . ولم يتبق للغزاة من الغرب سوى بضع جزائر يونانية ظلّ بقاؤها في ايدي البنادقة محفوفاً بالخطر . على ان الزحف التركي لم يوقفه ما بذله العالم المسيحي من جهد مشترك ، بل ما اتخذته من اجراء الدول التي كانت أكثر تعرضاً لتهديد الترك . إذ مضى في مساندة المسلمين ، البندقية وأمبراطورية هابسبرج ، فضلاً عن فرنسا ، الراعية قديماً للحرب المقدسة .

وأخذت الامبراطورية العثمانية في التداعي ، لما اصابها من فشل في اقامة حكومة قوية لممتلكاتها الشاسعة ، فلم يعد بوسعها ان تقاوم طموح جيرانها ، او تقمع ما عند رعاياها المسيحيين من الروح القومية التي حافظت عليها تلك الكنائس التي بذل الصليبيون كل جهد لتدمير استقلالها .

على انه وفقاً للمنظور التاريخي ، ليست الحركة الصليبية بأكملها إلا فشلاً ذريعاً . فما صادفته الحملة الصليبية الاولى من نجاح يفوق حد الاعجاز أدى الى قيام إمارات الفرنج في الشرق الادنى . ولما تراءى ان كل شيء قد ضاع ، بعد قرن من الزمان ، لم يبق عليها لمدة قرن آخر سوى ما بذلته الحملة الصليبية الثالثة من جهد رائع . على ان ما اضحت عليه مملكة بيت المقدس والإمارات الاخرى من الضآلة لم يكن سوى نتيجة هزيلة لجهد وحماس بالغي الضخامة . فما من امير او سيد في اوربا لم يعد في حماس في وقت من الاوقات ، طوال ثلاثة قرون ، بالمضي الى الحرب المقدسة . وما من اقليم بأوربا لم يرسل عساكر للقتال في الشرق من اجل العالم المسيحي ، إذ ان بيت المقدس لم تبرح تفكير كل رجل ، وكل امرأة . ومع ذلك فإن ما بذل من جهود للاحتفاظ بالمدينة المقدسة او استردادها لم تكن مجدية ، ولم تكن مجرّدة من الهوى والعاطفة . كما انه لم يكن لهذه الجهود من التأثير على التاريخ العام للأوربيين في الغرب ما كان يتوقع منها. والواقع ان فترة الحروب الصليبية تعتبر من أهم المراحل في تاريخ المدنية الغربية . فحينما بدأت ، لم تكد اوربا تخرج من مرحلة غارات المتبربرين الطويلة الأمد والتي يطلق عليها العصور المظلمة . فلما انتهت ، كانت براعم ما نطلق عليه النهضة الاوربية تأخذ في الظهور . على اننا لا نستطيع ان نخص الصليبيين انفسهم بدور مباشر في هذا التطور . فلم يكن للحروب

الصليبية تأثير فيما ساد الغرب من أمن وطمأنينة ، هيأت للتجار والطلاب ان يرتحلوا كيفما شاءوا . اضحى من اليسير فعلاً الوصول الى مـا اختزنه العالم الاسلامي من العلوم ، عن طريق اسبانيا . فالطلاب ، أمثال جربرت اورياك سبق لهم ان زاروا مراكز التعليم في اسبانيا . بل انـــه جرى طوال فترة الحروب الصليبية إن كانت صقلية ، لا بلاد الشرق الفرنجي ، مركز إلتقاء للحضارة الاسلامية واليونانية والغربية . والواقع ان الشرق الفرنجي لم يضف شيئاً يذكر من الناحية العقلية [1]. إذ كان بوسع رجل من طراز القديس لويس ان يقضي عدة سنوات في الشرق الفرنجي دون ان يتعرّض اتجاهه الثقافي لأقل تأثير . وإذا اهتم الامبراطور فردريك الثاني بالمدنية الشرقية ، فلم يكن ذلك راجعاً إلا لنشأته وتربيته في صقلية . ولم يسهم الشرق الفرنجي ايضاً في رقى الفن في الغرب إلا في مجـال العمارة العسكرية ، وفي إدخال العقد المدبب اليها . أمـا في فن الحرب ، باستثناء بناء القلاع ، فإن الغرب دلّ دائماً على انـــه لم يتعلم شيئاً من الحروب الصليبية . فـإن كل الحملات الصليبية ، ابتداء من الحملة الاولى حتى حملة نيكوبوليس وقعت في نفس الاخطاء . إذ ان احوال فن الحرب في الشرق بلغت من الاختلاف عنها في غرب اوربا ، انـه لم يحفل بتذكر التجربة الغـابرة إلا الفرسان المقيمون في الشرق الفرنجي . والراجح ان المستوى العام للمعيشة في الغرب ، لم يرتفع إلا بفضل رغبـــة العساكر والحجاج العائدين ، في ان يلجأوا في اوطانهم الى محاكاة ما اشتهر به الشرق من مظاهر الحياة الوادعة . وعلى الرغم من ان الحروب الصليبية اسهمت في

(١) عن الحياة العقلية في الشرق الفرنجي ، انظر ما يلي ، الملحق الثاني .

زيادة التجارة بين الشرق والغرب ، فإنه لم يتوقف عليها بقاء التجارة وحياتها .

الحروب الصليبية والبابوية :

لم تترك الحروب الصليبية طابعاً إلا في بعض مظاهر التطور السياسي في غرب اوربا . فكان من الاغراض التي ركز عليها البابا اربان في دعوته للحروب الصليبية ، ان يلتمس عملاً مجدياً للبارونات الذين نزعوا لإثارة الاضطراب والقتال ، وإلا انفقوا طاقتهم ونشاطهم في الحروب الأهلية بأوطانهم . ولا شك ان إبعاد شطر كبير من هذا العنصر المتمرّد الى الشرق أعان على ظهور السلطة الملكية في الغرب ، وإنما على حساب ما اصاب البابوية من ضرر . على ان البابوية في تلك الاثناء قد أفادت من الحروب الصليبية ، إذ ان البابا وجه الحرب الصليبية على انها حركة مسيحية دولية تخضع لقيادته ، وما احرزته في مستهلها من نجاح اسهم الى حد كبير في ازدياد سلطة البابا ومكانته . إذ ان الصليبيين كانوا ينتمون جميعاً لقطيعه . ولم تكن فتوحهم إلا فتوحاً له . وإذ خضع لسلطانه البطريركيات القديمة ، انطاكية ، وبيت المقدس ، والقسطنطينية ، الواحدة بعد الاخرى ، اضحى فيما يبدو لدعواه بأن يكون رئيس العالم المسيحي ما يبررها . وازداد امتداد سيادته وسلطانه في الأمور الكنسية . إذ ان جموع المؤمنين في كل أرجاء العالم المسيحي اعترفوا بسيادته الروحية . فمضى مبشروه في طوافهم حتى بلغوا اثيوبيا والصين . كما ان الحركة الصليبية بأكملها جعلت لنظام المحكمة البابوية العليا أساساً دولياً يفوق ما كان

له من قبل ، فقـــام بدور كبير في تطور القانون الكنسي [١] . ولو قنع البابوات بجـــني الفوائد الكنسية وحدها ، لتوافر لديهم سبب سليم لأن يهنئوا انفسهم . غير ان الوقت لم يحن بعد لحدوث تفرقة ظاهرة بـــين السياسة الكنسية والسياسة العلمانية ، على ان البابوية تجاوزت حدودها في السياسة العلمانية . لم تفرض الحرب الصليبية احترامها إلا حـين توجهت لقتال المسلمين . فما حدث من توجيه الحملة الصليبية الرابعة ، دون ان يجري التبشير بها ، لقتال المسيحيين في الشرق ، تلاها حملة صليبية لقتال الملحدين بجنوب فرنسا ، والنبلاء الذين كانوا يعطفون عليهم ، وأعقبها الدعوة لحملات صليبية لقتال اسرة هوهنشتاوفن ، فـلم يعد للحرب الصليبية آخر الأمر من معنى سوى انهـا مجرّد حرب لمناهضة اعداء السياسة البابوية . فجرى استخدام كل ما يرتبط بغفران الذنوب من مزايا روحانية ، ومكافآت من قبل الله ، لتأييد ما للمقر الرسولي من اطماع دنيوية . وما احرزه البابوات من انتصار في تدمير أباطرة الشرق والغرب معاً ، لم يؤدِّ إلا الى ما تعرّضوا له من الإذلال في الحرب الصقلية ، والأسر في افينيون . فانحرفت الحرب المقدسة حتى اضحت ملهاة فاجعة .

وباستثناء ما حدث من اتساع السلطان الروحي لروما ، كان اكبر ما جناه العـــالم المسيحي في الغرب من الحروب الصليبية من فائـدة ، لم تكن ايجابية . فحينما بدأت الحروب الصليبية كان المركزان الرئيسيان للمدنية بالشرق في القسطنطينية والقاهرة ، ولمـــا انتهت ، نقلت المدنية

---

(١) انظر : Ullmann, Medieval Papalism, pp. 120 - 121, 128 - 129.

مركزها الى ايطاليا والممالك الناشئة في الغرب . ولم تكن الحروب الصليبية السبب الوحيد لتداعي العالم الاسلامي . إذ ان غارات الترك سبق ان قوّضت فعلاً الخلافة العباسية في بغداد ، بل انـه لولا الحروب الصليبية لدمّرت نهائياً الخلافة الفاطمية في مصر . غير انـه لو لم تحدث الإثارة الدائمة للحروب مع الفرنج ، لاندمج الترك في العالم العربي ، وأمدوه بحيوية وقوة جديدة دون ان يحطموا وحدته الاساسية . على ان غارات المغول كانت أشدّ تدميراً للمدنية العربية ، ولا يصح إلقـاء اللوم على الحروب الصليبية لقدوم المغول . غير انـه لولا الحروب الصليبية لأضحى العرب أقـدر على مواجهة اعتداء المغول . إذ ان دولة الفرنج الدخيلة لم تكن سوى جرح فاسد لا ينساه المسلمون . فطالما الهتهم دولة الفرنج ، لم يكن بوسعهم مطلقاً ان يركزوا جهودهم على المشاكل الاخرى .

الحروب الصليبية والاسلام :

على ان ما ألحقته الحروب الصليبية بالاسلام من ضرر حقيقي كان بالغ العمق والأثر . فالمعروف ان الدولة الاسلامية كانت ثيوقراطية توقفت مصلحتها السياسية على الخلافة ، التي تتمثل في سلسلة من الملوك الكهان ، هيأ لهم العرف والتقاليد ولاية الحكم بالوراثة . وصادف هجوم الصليبيين مـا اصبحت عليه الخلافة العباسية من عجز سياسي وجغرافي منعها من قيادة المسلمين لمواجهته ، أما الفاطميون الذين يعتبرون ملحدين فـلم يكن بوسعهم ان يحملوا الناس على الولاء لهم . فالقادة الذين نهضوا لإنزال الهزيمة بالمسيحيين ، من امثال نور الدين وصلاح الدين كانوا أبطالاً ، ظفروا باحترام الناس وتعلقهم بهم ، على انهم كانوا ايضاً مغامرين . ومهما كان للأيوبيين من

كفاية وقدرة ، فإنهم لم يحظوا بالقبول على انهم سادة المسلمين الذين لا ينازعهم احد ، لأنهم لم يكونوا خلفاء ، بل انهم لم ينحدروا ايضاً من النبي صلى الله عليه وسلم. وليس لهم وضع خاص في ثيوقراطية الاسلام . وما انزله المغول من الدمار ببغـداد هوّن العمل على المسلمين من بعض الوجوه ، إذ استطاع المماليك ان يقيموا دولة في مصر استمرت زمناً طويلاً ، لأنه لم يعد ببغداد خلافة شرعية ، فلم يعد ثمـة إلا فرع غامض زائف ، ظلّ في حجز شريف بالقاهرة . على ان السلاطين العثمانيين قاموا آخر الأمر بحل المشكلة بأن تقلدوا منصب الخلافة . وما كان لهم من سلطان قوي حمل المسلمين على قبولهم ، لا عن اخلاص وصدق ، لأنهم كانوا ايضاً يعتبرون مغتصبين ، ولم ينتسبوا للنبي . اما المسيحية فانها أقرت منذ البداية التفرقة بين الامور التي تخص قيصر ، وتلك التي تخص الله ، ولذا لما تحطمت الفكرة السائدة في العصور الوسطى عن مدينة الله التي لا تنقسم من الناحية السياسية ، لم تضعف حيويتها ، على حين ان الاسلام كان يعتبر وحدة سياسية دينية ، وتعرضت هذه الوحدة للتشقق قبل الحروب الصليبية . غير أن ما جرى في تلك القرون (اثناء الحروب الصليبية) من احداث جعل هذه الشقوق من الاتساع مـا يعجز معه الاصلاح . وأجرى السلاطين العثمانيون الكبار اصلاحاً ظاهرياً ، لم يفد إلا في الوقت الراهن ، ولا زالت هذه الشقوق مستمرة حتى اليوم .

على ان ما يعتبر اكثر ضرراً وأذى ، هو مـا كان من تأثير الحرب المقـدسة على روح الاسلام . فكل ديانة تقوم على الوحي الخالص تلتزم بأن تظهر امتعاضها واحتقارها لغير المؤمنين . ولم يكن الاسلام في اول عهده مجرّداً من التسامح الديني ، إذ اعتبر النبي محمـــد ، عليه الصلاة

والسلام ، ان اليهود والنصارى قد تلقوا ايضاً جانباً من النبوّة ، ولذا فينبغي ألا يتعرضوا للاضطهاد . وقام المسيحيون ، زمن الخلفاء الأوائل ، بدور مشرف في المجتمع العربي . فالملحوظ ان عدداً كبيراً من مفكري العرب وكتّابهم الأوائل كانوا من المسيحيين ، الذين هيّأوا باعثاً عقلياً نافعاً ، لأن المسلمين باعتمادهم على كلام الله الوارد في القرآن ، نزعوا الى البقاء محافظين في فكرهم ولم يودّوا المخاطرة . ولم تكن المنافسة بين الخلافة وبيزنطة المسيحية خالية من المودّة ، فكان العلماء والصنّاع يتنقلون في كلتا الامبراطوريتين من اجل المصلحة المتبادلة . على ان الحرب المقدسة التي استهلها الفرنج دمرت هذه العلاقات الطيبة . وما أظهره الصليبيون من تعصب همجي ، لم يكن له من رد عند المسلمين سوى ما كان من نمو الاضطهاد بينهم . وما اتصف به صلاح‌الدين وأسرته من الانسانية الكبيرة لم تلبث ان اضحت نادرة بين رفاقهم المؤمنين ، حتى اذا كان زمن المماليك أضحى المسلمون من ضيق الأفق مثلما كان عليه الفرنج . وكان رعاياهم المسيحيون اول من عانى هذا الاضطهاد . فلم يستردوا مطلقاً ما كان لهم من معرفة سابقة بجيرانهم وسادتهم المسلمين ، فأخذت حياتهم العقلية في الذبول . وباستثناء ما حدث في فارس بما ساد فيها من تقاليد الحادية مضطربة ، اقتصر المسلمون على الاحتجاب وراء عقيدتهم ، على انه ليس بوسع كل عقيدة متزمتة ان تتقدم .

الحروب الصليبية والعالم المسيحي الشرقي :

ما ألحقته الحروب الصليبية بالإسلام من ضرر يعتبر ضئيلا بالقياس الى ما انزلته بالعالم المسيحي الشرقي . إذ سبق للبابا اربان الثاني ان امر الصليبيين

بأن ينهضوا لبذل المساعدة والنجدة للمسيحيين في الشرق . على انها كانت نجدة غريبة ، إذ انه لما انتهى الأمر ، كان العالم المسيحي الشرقي قد خضع لسيادة المسلمين ، وبذل الصليبيون انفسهم كل ما في وسعهم لمنع استعادته . فحينما استقروا بالشرق ، لم يعاملوا رعاياهم المسيحيين بما يفضل ما عاملهم به الخليفة من قبل . والواقع انهم كانوا أشدّ قسوة وعنفاً ، لأنهم تدخلوا فيما تمارسه الكنائس المحلية من طقوس دينية . ولما تمّ طردهم ، لم يعد للمسيحيين المحليين من الحماية ما يجعلهم يتحملون غضب الغزاة المسلمين . والواقع ان المسيحيين الوطنيين استحقوا قدراً كبيراً من هذا الغضب ، لاعتقادهم الشديد بأن المغول سوف يبذلون لهم الحرية الدائمة التي لم يحصلوا عليها من الفرنج . وما تعرضوا له من عقاب كان قاسياً وتاماً . وإذ رزحوا تحت القيود والمهانات ، تلاشت أهميتهم . بل ان بلادهم تعرّضت ايضاً للجزاء ، إذ حلّ الدمار والخراب بالساحل السوري الجميل . وأصاب المدينة المقدسة ذاتها من الاهمال والاغفال ما أدى الى ان تهوي الى انحطاط طويل مضطرب .

ومع ان مأساة المسيحيين السوريين كانت طارئة ، وليس لها علاقة بفشل الحروب الصليبية ، فإن تدمير بيزنطة كان تدبيراً مقصوداً . فليست الكارثة الفعلية للحروب الصليبية سوى عجز العالم المسيحي في الغرب عن فهم بيزنطة . ففي جميع العصور ظهر من السياسيين المتفائلين من يعتقدون أنه لو اجتمعت أقوام العالم معاً ، لسادت المحبة بينهم ، ولاستطاع احدهم ان يفهم الآخر . ولكن لم يكن هذا إلا اعتقاداً كاذباً . فطالما لم تتعارض المصالح بين بيزنطة والغرب ، أضحت العلاقات بينهما ودّية . اذ ان حجاج الغرب ، والجند المحظوظين ، كانوا يلقون الترحيب في المدينة

الامـبراطورية (القسطنطينية) ، فاذا عادوا الى اوطانهم رووا ما شهدوه من عجائبهـا ، على أنه لم يجرِ الاحتكاك إلا من عـدد قليل ، فقامت من حين الى آخر أسس للاتصال بين الامبراطورية البيزنطية ودول الغرب غير ان هذا الاساس إما ان ينهار في الوقت المناسب ، وإما ان يجري إعداد صيغة مرنة لتفتيته وتقسيمه ، إذ كان ثمة مشاكل دينية مستمرة ، زاد من مرارتها دعاوي البابوية الهيلدبراندية . على انه قد يتم التوصل الى اتفاق متى خلصت النية عند الجانبين ، غير انه بدأت فترة قلقة جديدة بما كان من عزم النرمان على التوسع في شرق البحر المتوسط ، وبذا وقعت المصالح البيزنطية في صدام حـــاد مع مصالح شعب ينتمي الى الغرب (النرمان) ، فتوقف زحف النرمان ، وجرت الحروب الصليبية على انهـا حركة للتوصل الى السلام . غير ان سوء التفاهم ظهر منذ البداية ، إذ اعتقد الامبراطور البيزنطي ان من واجبـه المسيحي ان يستعيد حدوده كيما تبقى حاجزاً لدرء خطر الترك ، الذين اعتبرهم العدو ، أما الصليبيون فأرادوا ان يمضوا قدماً الى الارض المقدسة . إذ انهم لم يقدموا إلا لينشبوا الحرب المقدسة مع الكفار من جميع الاجناس . وإذ فشل قادتهم في تقدير سياسة الامبراطور ، اضحى ألوف الجند والحجاج في بلاد تراءت لهم لغتها وعاداتها وديانتها غريبة عنهم ، وليست مفهومة لديهم ، ولم تكن بذلـك البلاد المقصودة . فلم ينتظروا فحسب ان يحاكيهم الفلاحون وسكان المدن في البلاد التي اجتازوا ، بل توقعوا ايضاً ان يرحبوا بهم . على انهم صادفوا خيبة امل مريرة . وإذ لم يدركوا ان ما قاموا به من اعمال اللصوصية وما نزعوا اليه من التدمير والتخريب ، لن يكسبهم محبة واحترام ضحاياهم ، أحسوا بالإهانـــة ، واشتد غضبهم وحقدهم . ولو ترك الاختيار للجندي الصليبي العادي ، لتعرّضت القسطنطينية للاعتداء والنهب في زمن اكثر

تبكيراً . ولكن قادة الحملة الصليبية كانوا اول الأمر بالغي الاحساس بواجبهم المسيحي ، فكبحوا جماح اتباعهم . إذ رفض الملك لويس السابع قبول نصيحة بعض نبلائه وأساقفته بالالتجاء الى السلاح لمهاجمة المدينة المسيحية ، ومع ان هذه الفكرة راودت فردريك بربروسه ، فإنه كظم غيظه واجتازها دون ان يهاجمها ، وأضحى الأمر متروكاً لأولئك الاشرار النهمين الذين وجهوا الحملة الصليبية الرابعة كيما تفيد من ضعف طارىء حلّ بالدولة البيزنطية ، فتضع الخطة وتتولى تدميرها .

ولم تكن الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية بعد ان تناهت في إثمها ، إلا كالطفل الكسيح ، الذي حرص الغرب على تضحية حاجات سائر الاطفال في الارض المقدسة ، لتوفير اسباب السعادة له . على ان حرص البابوات على ان يخضعوا لسلطانهم الكنسي اليونانيين الكارهين، فاق حرصهم على النهوض لإنقاذ بيت المقدس . فلما استرد البيزنطيون عاصمتهم (القسطنطينية) ، بذل البابوات ورجال السياسة معاً في الغرب كل جهد لإعادة سلطان الغرب . فلم يعد المقصود بالحركة الصليبية حماية العالم المسيحي ، بل فرض سلطة كنيسة روما .

خراب بيزنطة :

على ان عزم رجال الغرب على فتح بلاد بيزنطة واستعمارها يعتبر كارثة لمصالح الشرق الفرنجي ، وازدادت الكارثة فداحة للمدنية الاوربية ، إذ أن القسطنطينية ظلت مركزاً للعالم المسيحي المتمدين . ففي صفحات تاريخ فيلهاردوين ، ينعكس تحت نظرنا ما كان لها من انطباع على الفرسان الذين قدموا من فرنسا وايطاليا ليقهروها . فلم يكن بوسعهم ان يصدقوا

ان تقوم على سطح الارض هذه المدينة الشامخة ، إذ كانت سيدة المدائن كلها [1] . إذ أن رجال الحملة الصليبية الرابعة ، شأن معظم الغزاة المتبربرين ، لم يقصدوا تدمير ما صادفوه ، انما ارادوا ان يقتسموها ، وأن يسيطروا عليها . غير ان نهمهم وحماقتهم حملتهم على ان ينغمسوا في تدمير ما لا يرجى اصلاحه . على ان البنادقة وحدهم بما اشتهروا به من مستوى حضاري رفيع ، هم الذين عرفوا ان ينقذوا من بلادها ما يعتبر اكثرها جلباً للربح . والواقع ان ايطاليا جنت بعض المنافع من انهيار بيزنطة وسقوطها . امـــا الفرنج الذين نزلوا بالبلاد البيزنطية فـــانهم لم يكونوا صالحين لأن يفهموا مـــا للحضارة اليونانية من تراث طويل الامد ، على الرغم مما جلبوه لتلال بلاد اليونان ووديانها من حيوية ظاهرية خيالية . على حين ان الايطاليين الذين لم تنقطع علاقاتهم ببلاد اليونان مدة طويلة ، فاقوا غيرهم في تقدير قيمة ما استولوا عليه ، فلما نجم عن انهيار بيزنطية تفرق العلماء وتشتتهم ، لقوا ترحيباً في ايطاليا . فما انتشر في ايطاليا من الحركة الانسانية ليس إلا نتيجة غير مباشرة للحملة الصليبية الرابعة .

فالنهضة الايطالية تعتبر موضع اعتزاز عند جميع البشر . على انهـا لو تحققت دون تخريب العـالم المسيحي في الشرق ، لكان ذلك خيراً .

---

(١) انظر : Villehardouin, ed. Faral, I, p. 130.

حيث اورد النص التالي :

« Or poez savoir que mult esgarderent Costantinople cil qui onques mais l'avoient veüe, que il ne pooient mie cuidier que si riche ville peüst estre en tot le monde... Nuls nel poïst croire, se il ne le veist à l'oil le lonc et le de la ville, qui des totes autres ere soveraine ».

فالحضارة البيزنطية تجاوزت صدمة الحملة الصليبية الرابعة ، ففي القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ازدهر الفن والفكر البيزنطي في فيض رائع . غير أن الاساس السياسي للأمبراطورية لم يكن بنجوة من الخطر . فعلى الرغم من انه لم يعد للأمبراطورية وجود منذ سنة ١٢٠٤ ، غير انها كانت من بين دول عديدة تضارعها او تفوقها في القوة ، وإذ واجهها عداء الغرب ، وتنافس الدول البلقانية المجاورة ، لم يعد بوسعها حراسة العالم المسيحي ازاء الاتراك . ويعتبر الصليبيون وحدهم مسئولين عن اصرارهم على تحطيم الدفاع عن العالم المسيحي ، فهيأوا بذلك للمسلمين ان يجتازوا المضايق وأن ينفذوا الى جوف اوربا . ولم يكن الشهداء الحقيقيون للحرب الصليبية اولئك الفرسان البواسل الذين هووا وهم يقاتلون في حطين ، او امام ابراج عكا ، انما كانوا المسيحيين الابرياء بالبلقان والأناضول وسوريا ، الذين جرى تسليمهم ليلقوا الاضطهاد والاسترقاق .

على ان الصليبيين انفسهم لم يدركوا اسباب فشلهم . إذ انهم كانوا يحاربون من اجل الله القوي ، فإذا كان الايمان والمنطق مستقيمين ، لانتصرت قضية الله . ففي اول انتصار أحرزوه ، جعلوا لتواريخهم عنوان (Gesta Dei per Francos) اي (عمل الله الذي صنعته يد الفرنج) . غير انه توالى بعد الحملة الصليبية الاولى سلسلة طويلة من الهزائم ، بل ان انتصارات الحملة الصليبية الثالثة لم تكن مكتملة وثابتة . إذ كان ثمة من قوى الشر ما اعترض كلمة الله . ففي اول الامر جرى إلقاء اللوم على البيزنطيين ، وعلى الامبراطور المنشق وقومه الذين لا يؤمنون بالله ، لأنهم رفضوا الاعتراف بما للصليبيين من رسالة إلهية . على انه لم يعد من المستطاع الاستناد الى ذلك العذر بعد الحملة الصليبية الرابعة ، ومع ذلك ازدادت الامور سوءاً .

إذ يجوز للدعاة الاخلاقيين ان يزعموا ان الله نقم على محاربيه بسبب ما ارتكبوه من آثام . ومع ان في هـذا شيئاً من الصدق ، فإن اعتبار هذا الزعم تفسيراً كاملاً قـد انهار حينما قـاد القديس لويس جيشه الى هزيمة كانت من الفداحة ما لم يتعرض لها الصليبيون حتى وقتذاك ، لأن القديس لويس كان رجلاً ، اعتقد عالم العصور الوسطى انه مجرّد من كل ذنب . الواقع ان أشد مـا دمّر الحرب المقدسة ، كان الغباء لا الانحراف عن الدين . ومع ذلك فإن من الطبيعة البشرية ما يحمل الشخص اكثر استعداداً للإقرار بأنه مذنب ولا يكون أحمق . وما من احد من الصليبيين يودّ ان يعترف بأن مـا ارتكبوه من جرائم كان عن قصد وجهل ، وعن افتقار شديد الى بُعد النظر .

كان الايمان هو الباعث الأساسي الذي دفع الجيوش المسيحية للتوجّه صوب الشرق . على ان صدق ايمانهم وبساطته قادهم الى أخطار خفية . لقد هداهم في خضمّ ما صادفوه من شدائد الى النصر في الحملة الصليبية الاولى ، التي يعتبر نجاحها فيما يبدو من المعجزات . ولذا توّقع الصليبيون ان المعجزات سوف تستمر كيما تنقذهم كلما ظهرت المشاكل ، إذ أن ثقتهم جعلت بسالتهم تتسم بالرعونة والطيش ، بل انهم حتى في نهاية الحروب الصليبية ، في معركة نيكوبوليس ، وفي انطاكية ، كانوا متأكدين أنهم سوف يتلقون عوناً إلهياً . كما ان ايمانهم بما اتصف به من البساطة الشديدة ، جعلهم متعصبين ، إذ أن الله عندهم إله غيور ، فـلم يكن بوسعهم أن يدركوا أن لإله المسلمين نفس القـوة . على ان النزلاء الذين استقروا في الشرق الفرنجي بلغوا من سعة الأفق والتفكير ما لم يبلغوه . اما العساكر القادمون من الغرب فإنما جاءوا للقتال من اجل إله المسيحيين ، ويعتبرون

كل من يتسامح مـع المسلمين خائناً . بل ان اولئـك الذين يعبدون إله المسيحيين في شعائر مختلفة ، يعتبرون موضع ريبة وموطن رثاء .

هذا الايمان الصادق اقترن عادة بالنهم الشديد . فليس من المسيحيين إلا فئة قليلة اعتقدت انه ليس من الملائم ان يقرن عمل الله بحيازة مزايا مادية . فمـا ينتزعه جنود الله من الكفار من الاراضي والثروة يعتـبر مشروعاً ، ولا جنـاح في سلب الملحد والمنشق ايضاً . على ان الاطماع الدنيوية دعت الى القيام بمغامرات اتسمت بالبسالة ، استند اليها قدر كبير من النجاح الذي احرزته الحركة الصليبية . غير ان النهم والشهوة يعتبران من الامور بالغة الخطورة ، إذ ولـّدا القلق ، ونظراً لأن حياة الانسان قصيرة ، فإنه احتـاج الى احراز نتائج سريعة ، وولـّدا ايضاً الحقـد والخيانة ، ونظراً لأن الوظائف والممتلكات كانت محدودة ، فمن المستحيل ارضاء كل مطالب ومدّع . وقع باستمرار العداء بين الفرنج الذين استقروا فعلاً في الشرق ، وبين اولئك الذين قدموا لقتال المسلمين ، وللسعي وراء حظهم ونصيبهم ، إذ نظر كل من الجانبين الى الحرب من زاوية مختلفة . وفي خضم الحقد ، وانعدام الثقة ، والتـآمر ، لم يتهيأ إلا لبضع الحملات الفرصة للنجاح . فالمشاجرات والعجز زادها امتداداً ما ساد من الجهل ، إذ أن النزلاء واءموا انفسهم في بطء مع اساليب الشرق الادنى ومناخه ، فأخذوا يتعلمون كيف يمارس اعداءهم القتـال ، وكيف يتخذون منهم اصدقاء ، اما المحارب الصليبي الذي قدم حديثاً فألفى نفسه في عالم ليس مألوفاً له مطلقاً ، وبلغ به عادة الكبرياء انه لم يقر ما يفرض عليه من قيود . كره ابناء عمومته النازلين في الشرق الفرنجي ، ولم يود ان يستمع اليهم . ولذا ارتكبت الحملات الواحدة بعـد الاخرى نفس الاخطاء ، وبلغت نفس النهاية المحزنة .

الافتقار الى القائد :

على ان الحركة الصليبية كان يصح ان ينقذها قيادة قوية ذكية . غير ان الاساس الاقطاعي الذي نبت منه الصليبيون جعل من العسير ان يحظى القائد بالقبول . فالحروب الصليبية كانت من صنع البابا ، وقلّ ان كان مندوبو البابا قادة صالحين . كان من بين ملوك بيت المقدس كثير من القادة الأكفاء ، ولكن لم يكن لهم إلا سلطة ضئيلة على رعاياهم ، ولم يكن لهم سلطان مطلقاً على الحلفاء الزائرين . فالطوائف الدينية العسكرية التي بذلت أبرع العساكر وأكثرهم خبرة ، كانت مستقلة ، ومتحاسدة . على ان الجيوش الوطنية التي قادها الملك كانت تعتبر في بعض الاوقات سلاحاً قوياً ، ومع ان رتشرد ملك انجلترا الذي يعتبر جندياً عبقرياً ، كان احد القلائل من قـــادة الصليبيين الناجحين ، فان سائر الحملات الملكية دون استثناء كان نصيبها الهزيمة . كان من العسير على كل ملك ان يمكث طويلاً بجملته في بلاد بعيدة عن وطنه . فمـــا حدث من مكوث قلب الاسد والقديس لويس في الشرق ، كان على حساب مصلحة انجلترا وفرنسا . كما ان النفقات المالية ، بصفة خاصة ، كانت بالغة الارتفاع . ففي وسع المدن الايطالية ان تجعل من الحروب الصليبية صفقة مثمرة ، كما ان النبلاء المستقلين الذين كانوا يأملون في ان يحوزوا ضياعاً او يتزوجوا من وَريثات الاقطاعات في الشرق الفرنجي قد يجدون تعويضاً عن نفقاتهم . أما إرسال جيش ملكي الى ما وراء البحار فكان مشروعاً كثير النفقات ، تضاءل امله في ان يحوز جزاء مادياً . فلا بدّ من فرض ضرائب خاصة في انحاء المملكة ، فلا غرابة في ان الملوك ذوي العقلية العملية امثال فيليب الرابع ملك فرنسا ، آثروا أن يفرضوا الضرائب ، ثم مكثوا في اوطانهم . اما

القائد المثالي ، وهو الجندي اللامع ، الدبلوماسي العظيم ، الذي توافر له من الوقت والمال مـــا ينفقها في الشرق ، والذي اشتهر بإدراكه الواسع للأساليب الشرقية ، فلم يكن معروفاً . على ان ما تعرضت له الحركة الصليبية من الذبول في فشلها ليقلل من شأنها عما اذا كانت قد حظيت بانتصار ، وما كان للشرق الفرنجي ان يعيش قرنين من الزمن ما لم يضف الى رصيده بعد قيامه الرائع بعض الانتصارات .

فما احرزته الحرب الصليبية من انتصار يعتبر انتصاراً للايمان والعقيدة . ولكن الايمان المجرد من الحكمة يعتبر امراً بالغ الخطورة . ووفقاً لقوانين التاريخ الصارمة ، يؤدي العالم بأسره ما يكفر به عن جرائم وحماقات كل فرد من مواطنيه . وفيما كان بين الشرق والغرب من حلقة طويلة من التفاعل والتلاحم المتبـــادل ، الذي نبتت منـه مدنيتنا في الغرب ، لم تكن الحروب الصليبية إلا فاصلاً محزناً مدمّراً . وكلما تطلع المؤرخ الى الوراء عبر القرون الى قصة بطولتها ، لا بد ان يلقى ان اعجابه قد حجبه الأسى والحزن لما يحمله من شاهد على قيود الطبيعة البشرية . لقد توافرت الشجاعة ، وتضاءل الشرف ، واشتد الايمان وضعف الفهم والادراك . فالمثل العليا ، افسدتها القسوة والنهم ، كما ان المغامرة والتحمل دمّرهما الاستقامة الذاتية العمياء الضيقة ، بل ان الحرب المقدسة ذاتها لم تعد اكثر من اجراء طويل من التعصب باسم الله ، الذي ليس إلا جرماً في حق الروح القدس .

الملاحق

الملحق الاول

المصادر الأساسية لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة

١ — المصادر اليونانية :

ليس للمصادر اليونانية أهمية إلا لتاريخ الحملة الصليبية الرابعة . ويعتبر نيكيتاس خونياتس[١] أهم مؤرخ روى قصة هذه الحملة . أمـــا جورج اكروبوليتس[٢] . فعالج الحملة الصليبية الرابعة ، والفترة الواقعة بعدها حتى استعادة البيزنطيين للمدينة (القسطنطينية) . على ان تاريخ جورج باخيمر[٣] هو اشهر تاريخ تناول الفترة التالية .

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٦٩ — ٧٧٠ .

(٢) نشره ميسنبرج في مجموعة توبنر Teubner .

(٣) صدر في مجموعة بون .

ولم يحفل المصدران اليونانيان عن تاريخ قبرص اللذان ألفهما ماخايراس[١] وجورج بوسترون[٢] ، إلا قليلاً بدراسة الفترة السابقة على القرن الرابع عشر[٣] .

٢ – المصادر المدوّنة باللغتين اللاتينية والفرنسية القديمة :

أهم مجموعة للتواريخ التي عالجت الشرق الفرنجي منذ الحملة الصليبية الثالثة حتى سقوط عكا ، هي التذبيلات على وليم الصوري المدوّنة باللغة الفرنسية القديمة . فالمصدر الاصلي الذي يتناول الفترة الى سنة ١١٩٨ ليس فيما يبدو سوى التاريخ المفقود الذي ألفه إرنول . وما هو معروف حالياً من (ارنول) او برنارد متولى الخزانة ، والمخطوطتين المرموز لهما بحرفي G. C. من تاريخ هرقل Eracles تعتبر اقرب النسخ لتاريخ ارنول الاصلي . أما المخطوطتان A. B. اللتان تشابه احداهما الاخرى ، والمخطوطة D. التي لا تختلف إلا قليلاً عنهما ، فليست جميعها إلا نسخاً اخرى لتاريخ ارنول . أما الفترة الممتدة من سنة ١١٩٨ الى سنة ١٢٠٥ ، فإن جميع المخطوطات

---

(١) نشره دوكنز وترجمه الى الانجليزية بعنوان :
Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus.

(٢) انظر : Khronikon Kuprou, edited in Sathas Mesaiooniky Bibliothiky, vol. II.

(٣) وصف فتوح رتشرد في قبرص :
Neophytus, De Calamitatibus Cypri.
الذي نشره ستبز ، وجعله تصديراً لكتاب (Itinerarium) .
انظر المصادر والمراجع في المجلد الثاني .

التي تعالجها متطابقة . ويتفق ارنول مع المخطوطات D. G. C. من تاريخ هرقل حتى سنة ١١٢٩ التي ينتهي عندها ارنول ، ثم تطابق مخطوطات D. G. C. من تاريخ هرقل ، مخطوطتي هذا التاريخ ا ، ب ، مع اختلافات يسيرة ، ولم يعد لتاريخ هرقل ابتداء من سنة ١٢٠٥ إلا صلة ضئيلة بتاريخ ارنول . وتنتهي المخطوطة ا عند سنة ١٢٤٨ ، بينما تستمر المخطوطات D. C. B. حتى سنوات ١٢٦٦ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٧ . وفي تلك الاثناء ، يعالج المرحلة من سنة ١٢٢٩ حتى سنة ١٢٦١ تذبيل آخر ، وهو المعروف باسم مخطوطة روثلين Rothelin ، ومن المحقق انها نشرت في مكان ما بفرنسا[1] . وما هو معروف بحوليات الارض المقدسة Annales de Terre Sainte ليس فيما يبدو إلا مصنفاً مختصراً لأحد مصادر تذبيلات وليم الصوري . ويكاد يطابقه المخطوطات التي تعالج الفترة التي تبدأ بسنة ١٢٤٨ وما تلاها من السنوات[2] .

أما المصنف الذي يرجع الى اوائل القرن الرابع عشر ، والمعروف باسم Gestes des Chiprois ، فيبدأ بموجز عن تاريخ الارض المقدسة Chronique de Terre Sainte في الفترة بين سنتي ١١٣١ ، ١٢٢٢ ، الذي استند الى Annales de Terre Sainte . ويتناول القسم الثاني من الكتاب تاريخ الحروب التي نشبت بين انصار اسرة ابلين وأنصار الامبراطور ، وقد صنفه حوالي سنة ١٢٤٥ ، وعلق عليه ، فيليب نوفارا ، وكان ايطالياً

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٧٣ — ٧٧٤ .
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 21 - 25.

(٢) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٧٦ ، حاشية ٢ .

يعيش في جزيرة قبرص ، ويكتب بالفرنسية . وتتسم كتابة فيليب بالحيوية والرشاقة . أدخل في قصته قصائد طويلة من نظمه ، اشتهرت بحسن الطلاوة وسلامة الإدراك ، مع انه ليس لها قيمة شاعرية كبيرة . تعلق فيليب عن عاطفة بالإبلين ، ولكن يعتبر صادقاً ودقيقاً بقدر مـا يجيزه له ولاؤه . أما القسم الاخير من كتاب Gestes ، فهو تاريخ الشرق الفرنجي من سنة ١٢٤٩ حتى سنة ١٣٠٩ ، ألفه رجل جرى العرف على تسميته فارس الداوية بصور Templar of Tyre . ومن المحقق انه لم يكن من الداوية ، غير انـه فـيما يبدو اضطلع لفترة من الزمن بوظيفة امين (كاتب) مقدم الداوية ، وليم بوجيه . والواضح انه وقف على المصدر الذي قامت عليه تذبيلات وليم الصوري . والراجح ان جيرار مونتريال جمع اقسام الجست معـاً حوالي سنة ١٣٢٥ [١] .

الواقع ان لكل من الحمـلات الصليبية الرئيسية مجموعة مؤرخيهـا ، فالحملة الصليبية الثالثة عالجتها تواريخ انجليزية نورمانية مختلفـة ، اشهرها تواريخ بنيدكت بيتربره ، ورتشرد دفيزيس ، ورالف ديكيتو ، ووليم نيوبورج[٢]. ولهذه المصادر بالاضافة الى كتاب Libellus de Expugnatione اهمية خاصة للمرحلة المبكرة من الحملة الصليبية الثالثة قبل وصول رتشرد

---

(١) نشر الجست Gestes ، جاستون راينو . انظر :

Cahen, op. cit. pp. 25 - 26.

Hill, History of Cyprus, III, p. 1144.

(٢) جميع هذه التواريخ صدرت في مجموعة رولز . انظر ما يلي ، المصادر والمراجع ، ومـا سبق ، المجلد الثاني ص ٨٥٥ — ٨٥٧ .

الى الشرق . كما انهـا تحتوي على نسخ من رسائل تتعلق بأمـور الشرق الادنى . اما حملة رتشرد فعالجها مصدران اساسيان ، اولهما مكتوب باللغة اللاتينية وعنوانه Itinerarium Regis Ricardi والواضح ان الذي ألفـه رجل من لندن اسمه Richard of the Holy Trinity ، والثاني عبارة عن قصيدة نظمها باللغـة الفرنسية القديمة أمبرواز ، وعنوانها تاريخ الحرب المقدسة L'Estoire de la Guerre Sainte [1] ، وما بين المصدرين من صلة بالغة الوثاقة ، ترجح انهما مستمدان من يوميات مفقودة كتبها جندي بالجيش الانجليزي ، شديد التعلق بملكه (رتشرد) ، ويعتبر صادقاً وفقاً لما سبق ان التزم بـه من معرفة [2] . ووردت وجهة النظر الفرنسية في التقرير المختصر الذي ألفه ريجور ، وعنوانه Gesta Philippi Angusti [3].

أمـا التواريخ الالمانية التي تصف حملة فردريك بربروسه الصليبية ، مثل

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ، المصادر والمراجع ص ٨٥٥ — ٨٥٧ .

(٢) اعتقـد جاستون باريس في تصديره لطبعة امبرواز ان كتاب رحلة رتشرد Itinerarium اعتمـد على امبرواز ، على حين ان الآنسة نورجيت ترى ان امبرواز استند الى Itinerarium . انظر :

Norgate : « The Itineraium Peregrinorum and the Song of Ambroise », English Historical Review, vol. XXV.

اما ادواردز فأورد من الحجج مـا يثبت ان امبرواز و Itinerarium استندا الى مصدر مفقود . انظر : Edwards : « The Itinerarium Regis Ricardi and the Estoire de la Guerre Sainte », in Essays in Honour of James Tait, (pp. 59 - 77).

وأقره على رأيه هيوبرت ، ولامونت في تصديرهما لترجمة امبرواز .

(٣) نشره ديلابورد .

تاريخ انزبيرْت المعروف باسم Expeditio Frideric ، فإنها تنتهي بوفاة الامبراطور [١] .

ويعتبر المصدر الغربي الاساسي عن الحملة الصليبية الرابعة ، الكتاب الذي ألفه جفري فيلهاردوين بعنوان فتح القسطنطينية [٢] . وإذ ألفه جندي قام بدور كبير في الحملة ، وكان ابن عم فيلهاردوين الذي فتح المورة ، فالراجح ان فيلهاردوين أقام قصته على ما اثبته من ملاحظات وقتذاك ، ويعتبر شاهداً موثوقاً به بصرف النظر عن تعصبه الشديد للغرب . اما فتح القسطنطينية الذي ألفه روبرت كلاري فهو ايضاً رواية شاهد عيان ، غير ان المؤلف كان رجلاً بالغ السذاجة والجهل [٣] .

وأهم المصادر التي عالجت الحملة الصليبية الخامسة ، باستثناء المصادر التي وضعت في الشرق الفرنجي ، هي رسائل الكاردينال جيمس فيتري [٤] ،

---

(١) نشره خروست Chroust . انظر :
Cahen, op. cit. p. 19, n. 3.

(٢) نشره فارال وترجمه الى الفرنسية الحديثة ، ويعتبر بالغ الأهمية ، وجعل له فارال مقدمة عظيمة النفع .

(٣) نشره لاور ، على ان ترجمة شارلوت الى الفرنسية الحديثة التي ظهرت في :
(Poèmes et Récits de la Vieille France, vol. XVI).
لا تفي بالمطلوب ، ولا سيا فيما يتعلق بحواشيها ، ترجمه الى اللغة العربية الدكتور حسن حبشي .

(٤) نشرها : Röhricht in the Zeitschrilt fûr Kirchengeschichte.
انظر ما يلي ، المصادر والمراجع .

وتاريخ دمياط الذي ألفه أوليفر بادنبورن ، الذي كان كاتباً للكاردينال بيلاجيوس . وعلى الرغم من ولاء أوليفر لسيده ، فان تقريره يتسم بالوضوح وبالموضوعية [١] .

لم تستهو حملة فردريك الثاني الصليبية احداً من المؤرخين المختصين ، على حين ان حملة القديس لويس الصليبية نلتمسها في التاريخ نادر القيمة الذي ألفه يوحنا سيد جوانفيل وعنوانه تاريخ القديس لويس . شهد جوانفيل الحملة الصليبية (السابعة) ، على ان اعجابه الشديد بالملك لم يمنعه من ان يكتب قصة امينة حية ، شخصية [٢] .

ومع ان سقوط عكا تناوله جماعة كبيرة من المؤرخين ، غير انه لم يشهده منهم سوى فارس الداوية . والواضح ان ثاديوس نابولي والمؤرخ المجهول لكتاب De Exidio Urbis Acconis قد اوردا في كتابيهما من المبالغات ما يخدم أغراض الدعوة للحملات الصليبية [٣] .

---

(١) قام هوبيج Hooeweg على نشره مع رسائله . ومما نشره روريخت من مجلدات Scriptores Minores Quinti Belli Sacri تحوي كل المصادر الصغرى التي تعالج الحملة الصليبية الخامسة .

(٢) تعتبر طبعة وايللي خير الطبعات. اما وليم نانجيس المؤرخ الثاني لحملة لويس التاسع فيعتبر من اعظم المؤرخين أهمية ، وكتب تاريخه بعد بضعة عقود زمنية .

(٣) انظر ما سبق ، ص ٦٩٨ حاشية ٢ . صدر De Excidio في :
Martene and Durand, Amplissima Collectio, vol. V.
انظر ايضاً : Kingsford in Transactions of Royal Historical Society, 3rd series, vol. III, p. 142, n. 2.

ومن أهم المصادر ما جرى طوال فترة الحروب الصليبية من مراسلات بابوية ، فضلاً عن الرسائل التي لا زالت باقية ، والتي خلفها رجال الطوائف الدينية العسكرية ، والملوك ووزراؤهم [١] .

أما المصدران الرئيسيان اللذان يعالجان المسائل الدستورية فهما كتاب فيليب نوفارا وعنوانه Livre de Forme de Plait وأكثر ما اهتم به الاجراءات

---

(١) صدرت رسائل البابا انوسنت الثالث في :

Migne, P. L. vols. 214 - 216.

يحسن جعلها على الرسم الآتي :

سجلات البابا هونوريوس الرابع — نشرها بريستوني .

جريجوري التاسع	اوفراي .
انوسنت الرابع	بيرجن .
اسكندر الرابع	بوريل دى لا رونسيير .
اربان الرابع	جيرو .
كليمنت الرابع	جوردان .
جريجوري العاشر	جيرو .
نقولا الثالث	جاي وفيت .
هونوريوس الرابع	برون .
نقولا الرابع	لانجلوا .

وجميعها صدر في :

Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome.

الدستورية ، وكتاب يوحنا ابلين وهو دراسة رائعة عن الفقه الدستوري ، كتبها كونت يافا [١] . فقوانين المحكمة البورجوازية التي جرى تصنيفها بين سنتي ١٢٤٠ ، ١٢٤٤ ، تصف الإجراءات التجارية [٢] . أما قوانين انطاكية فلم تبقَ إلا في ترجمة أرمنية قام بها حوالي سنة ١٢٦٠ سمباد شقيق الملك هيثوم الاول . وهي تعالج في ايجاز مـا لمحكمتي البارونات والبورجوازية بإمارة انطاكية من اجراءات وتقاليد [٣] .

وما خلفه الرحالة المعاصرون من مؤلفات تعتبر عظيمة الأهمية ، ولا سيما في وصف علاقات الغرب مع المغول . وأوفى هذه المؤلفات ، هي التقارير عن بعثاتهم كالتي كتبها يوحنا بيان كاربيني ، ووليم روبروق [٤] . أمـا وصف بيت المقدس الذي اورده جيمس فيتري ، والوصفان اللذان كتبهما فـيما بعد لودولف سوكيم ، وفيليكس فابري ، فجميعها تضمنت معلومات قيمة [٥] .

---

(١) صدرت في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، القوانين ، جـ ١ .

(٢) صدرت ايضاً في المجلد الاول من قوانين مملكة بيت المقدس ، في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٣) اصدرها مع ترجمة فرنسية الآباء المختارية في البندقية .

(٤) ترجمها ونشرها :
Rockhill in Hakluyt Society Publications, 2nd series, vol. 77.

(٥) كل هذه التقارير صدرت في ترجمات انجليزية في :
Palestine Pilgrims Text Society.
على ان الترجمة لم تكن دائماً خالية من الأخطاء ، وينبغي الرجوع الى النص اللاتيني لرحلة لودولف ، الوارد في :
Archives de l'Orient Latin, vol. II.

٣ – المصادر العربية :

سبق الإشارة في الملحق الاول ، بالمجلد الثاني من هـذا التاريخ ، الى التواريخ العربية التي تعالج حروب صلاح الدين والعقود الاولى من القرن الثالث عشر . إذ ينتهي كتاب بهاء الدين (ابن شداد) القيم بوفاة صلاح الدين ، بينما ينقلنا الى القرن الثالث عشر ، ابن الاثير وأبو شامه (الذي ينقل عن عماد الدين الاصفهاني) ، وكمال الدين بن العديم [١] . وما تبقى من سنوات القرن الثالث عشر ، تناولها عدة مؤرخين معاصرين ، غير ان كثيراً من مؤلفات أهم هؤلاء المؤرخين لم تنشر بعد ، ولا بـــدّ من الرجوع الى مخطوطاتها . فمؤلفات ابن واصل ، عن التاريخ الصالحي الذي يستمر حتى سنة ١٢٥٠ ، وتاريخ الايوبيين حتى سنة ١٢٦٣ ، نلتمسها في مخطوطات عديدة ولم ينشر منها رينو إلا شذرات ضئيلة ، في كتاب ميشو ، مكتبة الحروب الصليبية ، الجزء الرابع [٢] . ومع ذلك فإن المؤرخين المتاخرين امثال ابن الفرات والمقريزي اكثروا من النقل عنه والاقتباس منه [٣] . أما ابن شداد الجغرافي فإن تاريخه عن بيبرس يكاد يكون مفقوداً . ومع ان تاريخ بيبرس المنصوري عن قلاون تألف من شذرات من الكتب السابقة ، فقد دأب ابن

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ، ص ٧٨١ — ٧٨٣ .

(٢) الواقع ان الدكتور جمال الدين الشيال عكف على دراسة ابن واصل ، فاتخذه موضوعاً لرسالة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، مع نشر مفرج الكروب في تاريخ بني ايوب ، الذي صدر منه ثلاثة أجزاء تناولت دولة نور الدين ، وصلاح الدين، وأبناء صلاح الدين.

(٣) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 68 - 70.

الفرات على استخدامه والإفـادة منه [١] . وأورد رينو في الكتاب الذي سبق الإشارة اليه ، فقرات من كتابي ابن عبد الظاهر عن بيبرس وقلاون [٢]. ويتضمن تاريخ ابن العميد القبطي معلومات اصيلة عـن الفترة حتى سنة ١٢٦٠ [٣] . ويضيف معلومات مستمدة من المصادر القبطية ، تاريخ بطاركة الاسكندرية الذي يتوقف عند هـذا التاريخ ايضاً (١٢٦٠) [٤] . وليس تاريخ ابي الفداء إلا مصنفاً مستمداً من مصادر سابقة عليه حـتى بلغ احداث زمنه ، ابتداء من سنة ١٢٩٠ الى ما بعدها [٥] . أما تاريخ اليونيني فلا زال مخطوطاً [٦] ، وينتهي اليونيني عند سنة ١٣١١ ، غير انه يحوي نفس المعلومات كالتي وردت عند معاصره الجزري [٧] .

---

(١) Ibid, pp. 75, 78, 79.

(٢) Ibid, p. 74.

(٣) نشره شيخو في :
Corpus Scriptorum Christianorum Orientalum, vol. III.
اما ترجمتا ايرينوس وايكيلنسيوس اللتان ترجعان الى القرن السادس عشر ، فتنتهيان عند سنة ٥١٢هـ (١١١٨ م) .

(٤) لم يلشر الكتاب كاملا ، غير ان الفقرات التي تعالج أوائل القرن الثالث عشر ، ترجمها الى اللغة الفرنسية بلوشيه ، ونشرها في : Revue de l'Orient Latin, vol. XI.

(٥) نشرت منه فقرات في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين ، جـ ٣ .

(٦) تاريخ اليونيني وهو المعروف باسم ذيل مرآة الزمان ، جرى نشره في الهنـد منذ بضع سنوات .

(٧) قـام سوفاجيه على نشر ترجمة فرنسية لجانب من تاريخ الجزري ، يبدأ سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) .

وأشهر رجال الادب ، من المؤرخين المتأخرين ، عدا ابن خلدون وابن خلكان [١] ، هو ابن الفرات ، الذي ألف تاريخه في نهاية القرن الرابع عشر . وليس كتابه إلا مصنفاً مستمداً الى حد كبير من المصادر المتقدمة ، التي ضاع عدد كبير منها ، على انه جرى تصنيفه بحماسة التأريخ الحقيقية [٢] . وافتقر معاصره المقريزي الى ما تفوق فيه ، على انه كاتب . وباستثناء ما اورده المقريزي عن مصر من معلومات خاصة ، فان تواريخه عن مصر زمن سلاطين الايوبيين والماليك مستمدة بأكملها من المصادر المتقدمة ، التي تعتبر وافية وصادقة ومن اليسير التوصل اليها [٣] . وليس تاريخ العيني الذي جرت كتابته حوالي منتصف القرن الخامس عشر إلا مصنفاً ضخماً مستمداً من المصادر المتقدمة فيما عدا الفصول المتأخرة [٤].

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٥ .

(٢) على ان الفصول التي تعالج القرن الثالث عشر لم تنشر بعد ، انظر :
Cahen, op. cit. pp. 85 - 86.

(٣) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٥ . اورد بلوشيه فقرات كاملة من تاريخ المقريزي عن مصر ، في : Revue de l'Orient Latin, vol. VIII, IX, X.
وهي المرموز لها (Makrizi, VIII, IX, X.) ، وترجم كاترمير تاريخ سلاطين المماليك في مجلدين ، وجرت الاشارة اليه : Makrizi, Sultans, I and II.
والمقصود بهذا الكتاب ، السلوك لمعرفة دولة الملوك ، وقد قام الدكتور مصطفى زيادة على نشره ، فصدر منه جزءان في ستة اقسام .

(٤) وردت فقرات منه في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين ، جـ ٢ ، قسم ٢ .

٤ ـ المصادر الارمنية :

سبق الاشارة في الملحق الاول بالمجلد الثاني من هذا التاريخ الى المؤرخين الارمن لمملكة قليقية . وأهم هؤلاء المؤرخين ، ولا سيما في امور المغول ، هو فارتان ، الذي كان له دراية شخصية وثيقة بهم [١] . ويدخل في المصادر الارمنية كتاب Flor des Estoires de la Terre d'Orient ، الذي ألفه الامير الارمني هايتون (هيثوم كوريكوس) باللغة الفرنسية بعد التجائه الى فرنسا في اوائل القرن الرابع عشر . ويعتبر من التواريخ القيمة لعصره . وألف ايضاً باللغة الارمنية تواريخ ، اعتمدت على المصادر الارمنية وعلى حوليات الارض المقدسة Annales de Tene Sainte [٢] .

ويعتبر ابن العبري اهم من كتب بالسريانية من المؤرخين عن القرن الثالث عشر . مات سنة ١٢٨٦ في الستين من عمره . ومع ان روايته عن الفترات المتقدمة زخرت بالحكايات والنوادر التي لا يصح الوثوق بها ، فانه حينما يكتب عن الاحداث التي وقعت في زمنه ، يورد من الروايات القيمة الصادقة ما لم يرد في مصدر آخر [٣] . اما تاريخ رابان سَومْا عن حياة

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٦ — ٧٨٧ . ونشر امين النص الارمني الكامل لفارتان ، في موسكو سنة ١٨٦١ .

(٢) صدر كتاب Flor في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، الوثائق الارمنية ، جـ ٢ . اما التواريخ الارمنية فنشرها اوشر في البندقية ، سنة ١٨٤٢ . ووردت فقرات منها في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، الوثائق الارمنية ، جـ ١ .

(٣) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٧ — ٧٨٨ .

جاثليق النساطرة مارياهبهللا ، وعن حيــاته ، الذي جرت كتابته باللغة الاويغورية ، وترجمه مجهول الى اللغة السريانية بعد بضع سنوات ، فترجع اهميته لما اورده من روايات عن حياة النساطرة زمن المغول ، وزاد في اهميته قصة سفارة رابان َسو ْما الى غرب اوربا [١] .

٥ ـ المصادر الفارسية :

على الرغم من ان تاريخ ابن بيبي عن سلاجقة الروم طغت التفاصيل في كتابته ، فانه عظيم القيمة لتاريخ الاناضول أثناء الشطر الاول من القرن الثـالث عشر [٢] . ويعتبر تاريخ العالم لرشيد الدين بالـغ الاهمية لتاريخ المغول . جرت كتابته للاشادة بايلخانات فارس ، فعرض وجهة نظرهم [٣].

٦ ـ مصادر اخرى :

لا زال لتــاريخ الكرج اهميته في أمور القوقاز [٤] ، امــا التواريخ

---

(١) ترجمه بَدْج الى الانجليزية بعنوان :

The Monks of Kublai Khan.

ونشر بيديجيان النص السرياني .

(٢) نشر هوتسما له ترجمة تركية وموجزاً باللغة الفارسية ، في :

Textes Relatifs à l'histoire des Seldjoucides, vol. III, and IV.

نشره من جديد اخيراً الدكتور دودا في فيينا .

(٣) قام بريزين على نشر الكتاب كاملاً باللغة الروسية . ونشر كاترمير القسم الثـاني من تاريخ الايلخانات مع ترجمة فرنسية .

(٤) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٩ .

الروسية القديمة ولا سيما ما يتعلق بتاريخ نوفجورود [1] ، فاهتمت بالأمور البيزنطية ، وتعتبر جوهرية لدراسة المغول . ومن اهم المصادر المغولية : يوان شاو بي شيه Yuan Ch'ao Pi Shih ، أي التاريخ الرسمي او السري للمغول [2] .

(١) لعل خير طبعة لتاريخ نوفجورود ، تلك التي نشرها ناسونوف في موسكو سنة ١٩٥٠.
(٢) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٤١٠ حاشية ١ .

الملحق الثاني

الحياة العقلية في الشرق الفرنجي

الواقع ان الحياة العقلية في الشرق الفرنجي كانت مخيبة للآمال ، إذا جرت مقارنتها بما حدث في صقلية وأسبانيا . إذ كان متوقعاً ، مثلما حدث في بالرم ، ان يثير الاتصال بين الفرنج وأهل الشرق النشاط العقلي ، على ان مجتمع الشرق الفرنجي الذي كاد يتألف بأسره من العساكر والتجار لم يكن في الواقع صالحاً لأن يخلق او يقيم مستوى فكرياً رفيعاً . كان من الأمراء والنبلاء كثير من رجال الثقافة ، مثال ذلك اننا نعلم ان الملك بلدوين الثالث والملك اماريك الاول شغفاً بالآداب (١) . وساءت سمعة رينالد سيد صيدا عند الفرنج لاهتمامه بالعلم الاسلامي ، بينما اشتهر همفري الرابع سيد تبنين بدرايته التامة باللغة العربية (٢) . وأنجب الشرق الفرنجي

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥٨٤ ، ٥٩٤ .

(٢) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٧٥٨ ، المجلد الثالث ص ١١٥ .

وليم الصوري [١] الذي يعتبر من اعظم مؤرخي العصور الوسطى . على اننا لا نعلم إلا النزر اليسير عن التعليم في الشرق الفرنجي . ولا شك انه كان به ، مثلما كان بالغرب ، مدارس ملحقة بالكاثدرائيات الكبرى . على انه من الملحوظ ان وليم الصوري توجه في صباه الى فرنسا كيما يتعلم ، وفيما عداه كان كل رجال الكنيسة الذين قاموا بدور كبير في تاريخ الشرق الفرنجي رجالاً نشأوا وشبوا في الغرب . وولع بالآداب كثير من هؤلاء الكنسيين مثل ايمري بطريرك انطاكية [٢] ، او مثل جيمس فيتري اسقف عكا الذي اهتم بما يجري حوله من حياة علمية [٣] . على ان الخطط المختلفة للحملات الصليبية المتأخرة شجعت الاهتمام الفعلي بجغرافية الشرق [٤] . وفي الجملة ظلت ثقافة الفرنج في الشرق الفرنجي مستوردة من الغرب ، ولم يحدث إلا اتصال ضئيل بالثقافة المحلية ، فيما عدا الفنون ، أما الطب فقد ظلّ بأكمله في ايدي الوطنيين ، فالأمراء الصليبيون كانوا فيما يبدو يستخدمون دائماً الاطباء السوريين المسيحيين ، فحينما رفض اماريك الاول نصيحة اطبائه السوريين ، بألا يستشير احد الفرنج ، مات أثر استشارته لهم .

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٧٢ — ٧٧٤ .

(٢) ومع ان ايمري ليموج كان امياً ، فانه ظل على اتصال برجال الادب الاوربيين ، مثل هوجو ايثيريانوس . وجرى نشر رسائله في :

Martène and Durand, Thesaurus Anecdotorum, vol. I.

(٣) ما اورده جيمس فيتري من وصف للارض المقدسة يدل على اهتمامه بالنظريات المحلية عن الزلازل (ed. P. P. T. S. pp. 91 - 92.)، غير انه انكر في شدة ما للمسلمين والمسيحيين الوطنيين من اتصال مباشر بها .

(٤) انظر : Rey : Les Colonies Franques, pp. 177 - 186.

وما اورده اسامة بن منقذ من امثلة عن ممارسة الفرنج للطب ، تدل على ان الطب عندهم كان جافاً غليظاً [1] . ولم يحاول الفرنج فيما يبدو ، مثلما حدث في جنوب ايطاليا ، ان يتعلموا شيئاً من الطب المحلي ، على الرغم من ان استيفن الانطاكي ترجم عن اللغة العربية سنة ١٢٢٧ ، رسالة في الطب [2] . ليس معروفاً ان الفرنج ، باستثناء بعض النبلاء ، حاولوا دراسة ما كان في الشرق من فلسفة او علوم .

ومـا للفرنج في الشرق الادنى من انتاج ادبي يقع في ثلاثة اقسام ، اولها ، الحوليات والتواريخ ، وكلها باستثناء تاريخ وليم الصوري ، وتاريخ احد المذيلين عليه ، مثل ارنول ، ألفها رجال نشأوا بالغرب ، وجروا على تقليد الكتابة التاريخية في الغرب [3] .ويشمل القسم الثاني، الانتاج الضخم من المؤلفات القانونية . إذ اشتد اهتمام النزلاء وسلالتهم بالأمور القانونية والدستورية ، وحرصوا على تدوين آرائهم وأحكامهم القضائية الى حـد لا مثيل له في الغرب . على ان ما استنبطوه من قانون كان غربياً خالصاً ، على الرغم من انه دلّ على ما انطوى عليه من تطويعات ضرورية [4] . اما القسم الاخير

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥١٤ ، ٦٤٥ .

(٢) انظر : Leclerc, La Médicine Arabe, II, p. 38.

(٣) انظر مـا سبق ، المجلد الثاني ص ٧٧٢ — ٧٧٤ ، والمجلد الثالث ص ٨٠٣ — ٨٠٦ .

(٤) استندت قوانين مملكة بيت المقدس ، ومؤلفات يوحنا ابلين ، وفيليب نوفارا الى القانون في الغرب . انظر :

La Monte, Feudal Monarchy, passim.

فيتمثل في الشعر القومي والعاطفي . هوى النزلاء بالشرق الفرنجي ما كان سائداً وقتذاك من ملاحم عاطفية ، إذ توجّه مع الحملات الصليبية كثير من الشعراء الغنائيين من التروبادو والمنيسنجر ، امثال رودل ، او البرت يوهانزدورف [١] . والمعروف ان ريموند امير انطاكية ، لم يكن سوى ابن شاعر التروبادور الكبير وليم التاسع دوق اكيتانيا . وما اقترنت بـه الحروب الصليبية من احداث مثيرة كانت بالغة الملائمة لغزارة الاغراض التي تغنى بهـا الشعراء ، فلم يلبث جودفري اللورين أن اضحى بطـلاً أسطوريـاً ، اندمجت مغامراتـه في حلقـة Chevalier au Cygne ، فالقصائد عن شبابه وأجداده ، كانت فعلاً متداولة في الشرق حينما ألف وليم الصوري تاريخه [٢] . غير ان هذه القصائد جرى قرضها في الغرب . وشبيه بذلك ، القصتان المنظومتان عن الحملة الصليبية الاولى ، وهما انشودة

---

(١) من المحقق ان روديل قـام بزيارة الشرق ، اذ ان شاعر التروبادور ، مادكابرون أهـداه قصيدة مع عبـارة « الى جاوفر روديل ، فيما وراء البحر » . على ان عشقه للأميرة النـائية (La Princesse Lointaine) ميليسند بطرابلس ، يعتبر على الاقل شبه خرافة . انظر :
Chaytor, The Troubdours, pp. 44 - 46.

اما بطرس فيدال فانه فيما يقال توجه مع الحملة الصليبية الثالثة حتى بلغ جزيرة قبرص ، فاقترن بفتاة يونانية من قبرص ، وقرر انهـا كانت ولية عهد القسطنطينية (Ibid, p. 7.) . ورافق وايمبالد فاكيراس الحملة الصليبية الرابعة ، ومات في بلغاريا . والراجح ان سورديللو صحب لويس التاسع في حملته الاولى (Ibid, pp. 98 - 99, 102.) .

ومن شعراء المنيسنجر ، ألبرت يوهانزدورف الذي توجه في صحبة الحملة الصليبية الثالثة ، مثلما فعل فردريك هاوزين الذي مات قبل ان يبلغ الجيش الالماني قونية .

(٢) انظر : Hatem, Les Poèmes Epiques des Croisades, pp. 395-400.

انطاكية Chanson d'Antioche ، وأنشودة بيت المقدس Chanson de Jerusalem ، إذ كان تأليفها قد جرى في الغرب ، على اساس ما نقله الصليبيون العائدون معهم من معلومات [1] . اما الملحمة الوحيدة التي جرت اصلاً في الشرق الفرنجي ، فهي انشودة الحقراء Chanson des Chetifs وهي قصة عجيبة عن الصليبيين الذين وقعوا في أسر كربوقا (Corboran) ، واختلطت وتشابكت فيها قصتا الحملة الصليبية الاولى ، وحملة سنة ١١٠١ . ونظم هذه القصيدة مؤلف مجهول ، تلبية لرغبة عاجلة من ريموند امير انطاكية ، على انها لم تكتمل حتى وفاة ريموند سنة ١١٤٩ [2] . وما استندت اليه القصة من اساس تاريخي مضطرب بعيد عن الدقة ، يوحي بأن مؤلفها كان من القادمين حديثاً الى الشرق ، إذ كان الفرنج تشدّهم جاذبية عاطفية عن مصير الأسرى المسيحيين الذين وقعوا بأيدي المسلمين . فالغرض الذي قامت عليه انشودة الحقراء كان من الاغراض التي حظيت بقبول كبير في الشرق الفرنجي وأوربا سواء [3] .

وصدرت اثار شعرية اخرى عن الشرق الفرنجي ، غير انه ما من احد من المؤلفين المعروفين نشأ في الشرق . إذ ان فيليب نوفارا السياسي ،

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 12 - 16.

(٢) انظر : Cahen, op. cit. pp. 569 - 576.
Hatem, op. cit. pp. 375 ff .

(٣) انظر مـا كان من حكايات عن اطلاق سراح بوهمند من الأسر ، والقصص التي تجعل من ايدا ماركيزة استريا اماً لزنكي ، والتي تشير الى ان اخت برتراند تولوز تزوجت من نور الدين ، فانجبت له ابنه الملك الصالح . انظر مـا سبق ، المجلد الثاني ص ٦٧ حاشية ١ ، ص ٥٣ ، ص ٤٦٣ حاشية ١ .

والمؤرخ ، والمشرع ، الذي كتب بالفرنسية على الرغم من انـه كان ايطالي المولد ، ادخل في تاريخه شعراً من نظمه ، امتاز بالحيوية ، وإن لم يلتزم قواعد الشعر [١] . ونظم فيليب نانتيل في اسره بالقاهرة ، قصائد عن وطنه الفرنسي ، وكلها تدور حول افتقاده وطنه وحنينه اليه [٢] . ومع انه يصح اعتبار فيليب نوفارا من مؤسسي ثقافة الفرنج الاقليمية في قبرص ، فليس الأدب في الشرق الفرنجي إلا فرعاً للأدب الفرنسي ، ولم يكن لرعـايا الفرنج الوطنيين في سوريا أدب اصيل ، على الرغم من انـه نمى وترعرع في قبرص وبلاد اليونان ذاتها زمن سيادة الفرنج ، أدب يوناني شبه شعبي ، اشتد تأثره بالعوامل الفرنجية .

والواقـع ان الحياة العقلية في الشرق الفرنجي ليست إلا حياة عقلية لمستعمرة فرنجية ، إذ اختصت قصور الملوك والأمراء بسحر مختلط ، على ان عدد العلماء المقيمين بالشرق الفرنجي كان قليلاً . وما نشب من الحروب وما ساد من متاعب مالية منع قيام نظام لإنشاء مراكز فعلية للدراسة ، حيث يجري ارتشاف علـم الوطنيين والمجاورين . وترتب على انعدام قيام هذه المراكز ، ان ما أسهمت به الحروب الصليبية من ثقافة لغرب اوربا كان بالغ الضآلة ومخيباً للرجاء .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٤٤ ، ٨٠٤ — ٨٠٥ .

Hill, History of Cyprus, III, pp. 1112 - 1115.

ويبدو ان وليم ماشو مؤلف الملحمة المنظومة عن حمـلة بطرس ملك قبرص ، لم يقم مطلقاً بزيارة الى الشرق (Ibid, p. 1115) .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٣٧٦ .

الملحق الثالث

أنساب الأسرات الحاكمة

مملكة بيت المقدس

اماريك الاول = اجنيس كورتيناي
= ماريا كومنينا
|
ايزابيلا
= ١ همفري سيد تبنين
= ٢ كنراد مونتفيرات
|
ماريا = يوحنا برين
|
يولنده = الامبراطور فردريك الثاني
|
كنراد = اليزابيت بافاريا
|
كنرادين

(تابع) مملكة بيت المقدس

ايزابيللا = ٣ — هنري كونت شامبانيا

- اليس = هيو ملك قبرص
  - ايزابيللا = هنري انطاكية
    - هيو الثالث (قبرص) هيو الاول (بيت المقدس) = ايزابيللا ابلين
      - بوهمند
      - يوحنا الاول (قبرص وبيت المقدس)
      - هنري الاول (بيت المقدس) هنري الثاني (قبرص) = كونستانس (ارجون)
      - اماريك (صور) = ايزابيللا (ارمينية) (مملكة ارمينية)
      - جاي = ايشيفا ابلين ايزابيللا
        - هيو الثاني (بيت المقدس) هيو الرابع (قبرص)
  - هنري الاول ملك قبرص = (١) اليس مونتفيرات = (٢) ستيفاني لامبرون = (٣) بلايسانس انطاكية
    - هيو الثاني = ايزابيللا ابلين (انظر بيت ابلين)
  - ماريا = والتر بريين
    - هيو بريين
- فيليبا

هيو الثاني (ملك بيت المقدس)
هيو الرابع (ملك قبرص)
= (١) ماريا ابلين
= (٢) اليس ابلين

يوحنا (انطاكية) — بطرس الاول (بيت المقدس وقبرص) — جيمس الاول (بيت المقدس وقبرص) = هياواز برلسويك

بطرس الاول = ايشيفا مونتفورت
الياثور اراجون

جيمس (طرابلس)
جاي امير الجليل (ابن ماريا ابلين)
بطرس الثاني
مرجريت=جيمس(طرابلس)

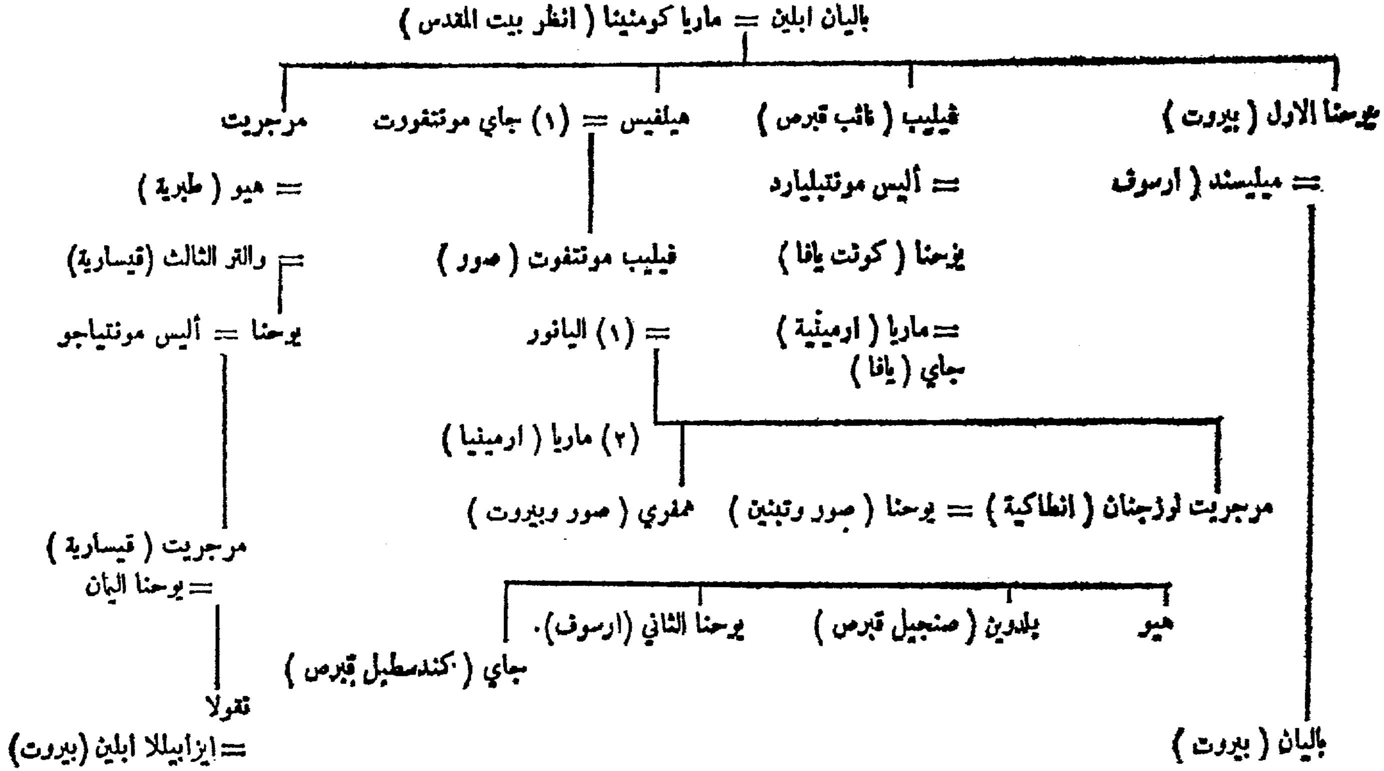
الامرة الحاكمة
في بيت المقدس وقبرص

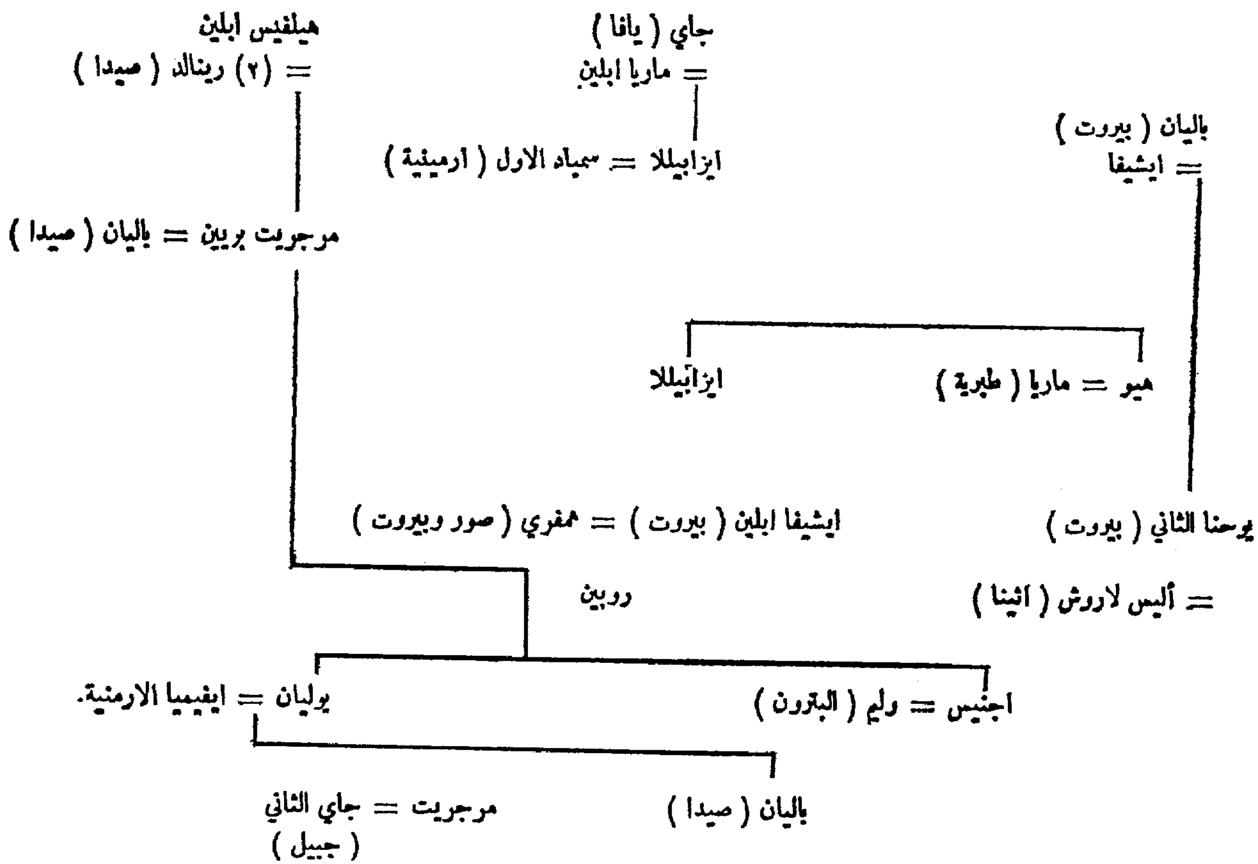
= ماريا بوربون
هيو امير الجليل

ايزابيلا (ملكة بيت المقدس) = (٤) امالريك الثاني (بيت المقدس)
امالريك الاول (قبرص)

سيبللا = ليو الثاني (ارمينية)
ميليسند = بوهمند الرابع (انطاكية)
ماريا

بيت ابلين


باليان ابلين = ماريا كومنينا (انظر بيت المقدس)
يوحنا الاول (بيروت)
= ميليسند (ارسوف)
باليان (بيروت)
فيليب (نائب قبرص)
= أليس مونتبليارد
يوحنا (كونت يافا)
= ماريا (ارمينية)
جاي (يافا)
هيلفيس = (١) جاي مونتفورت
فيليب مونتفوت (صور)
= (١) اليانور
(٢) ماريا (ارمينيا)
مرجريت لوزجنان (انطاكية) = يوحنا (صور وتبنين)
همفري (صور وبيروت)
هيو
بلدوين (صنجيل قبرص)
يوحنا الثاني (ارسوف).
جاي (كندسطبل قبرص)
مرجريت
= هيو (طبرية)
= والتر الثالث (قيسارية)
يوحنا = أليس مونتياجو
مرجريت (قيسارية)
= يوحنا اليان
نقولا
= ايزابيللا ابلين (بيروت)



باليان (بيروت)
= ايشيفا
جاي (يافا)
= ماريا ابلين
هيلفيس ابلين
= (٢) رينالد (صيدا)
ايزابيلا = سمباد الاول (ارمينية)
مرجريت برين = باليان (صيدا)
هيو = ماريا (طبرية)
ايزابيلا
يوحنا الثاني (بيروت)
= أليس لاروش (اثينا)
ايشيفا ابلين (بيروت) = همفري (صور وبيروت)
روبين
اجنيس = وليم (البترون)
يوليان = ايفيميا الارمنية.
باليان (صيدا)
مرجريت = جاي الثاني
(جبيل)

انطاكية

بوهمند الثالث امير انطاكية

= اورجيللوزا (حارم)

= سبيللا

بوهمند = (وريثة البترون)

أليس = جاي الاول امبرياكو (جبيل)

وليم = اجنيس (صيدا)

يوحنا

لوسيا امبرياكو = يوحنا (البترون)

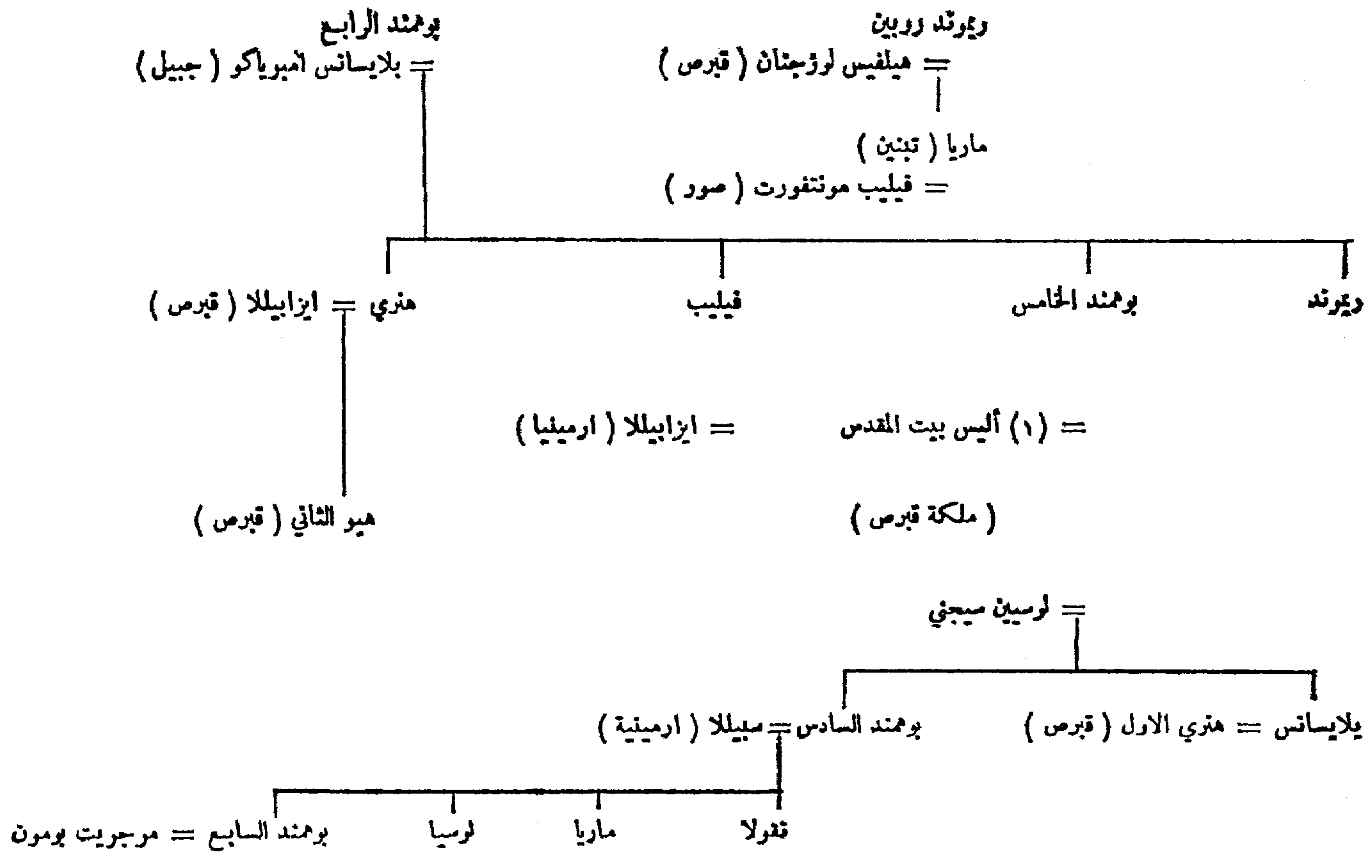
وليم

بوهمند الرابع (انطاكية وطرابلس)

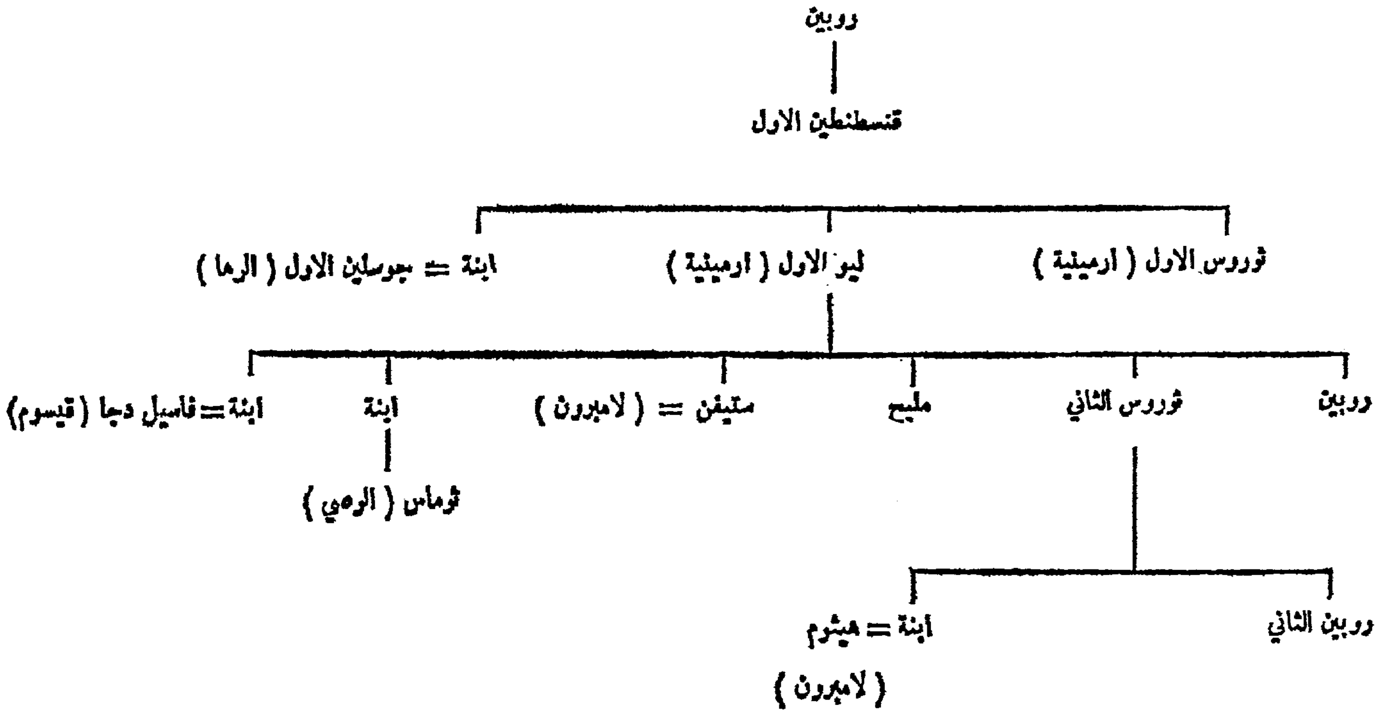
= بلايسانس امبرياكو (جبيل)

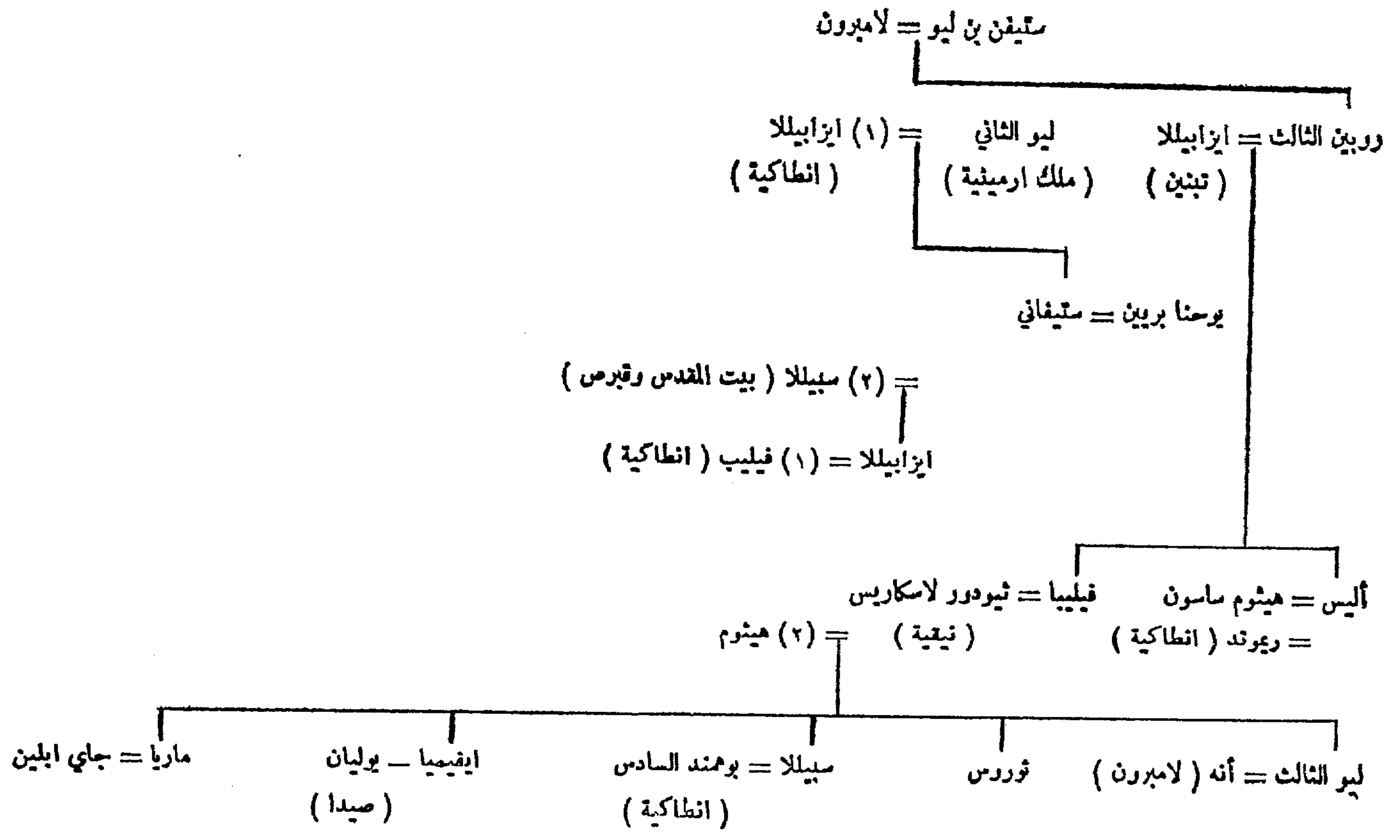
ريموند = أليس الارمنية (تبنين)

ريموند روبين


ريموند روبين
= هيلفيس لوزجنان (قبرص)
ماريا (تبنين)
= فيليب مونتفورت (صور)
بوهمند الرابع
= بلايسانس أمبرياكو (جبيل)
ريموند
بوهمند الخامس
= (١) أليس بيت المقدس
(ملكة قبرص)
= ايزابيلا (ارمينيا)
فيليب
هنري = ايزابيلا (قبرص)
هيو الثاني (قبرص)
= لوسين سيجني
بلايسانس = هنري الاول (قبرص)
بوهمند السادس = سيبلا (ارمينية)
تقولا
ماريا
لوسيا
بوهمند السابع = مرجريت بومون

أرمينية الصغرى




ستيفن بن ليو = لامبرون
روبين الثالث = ايزابيللا
(تبنين)
ليو الثاني
(ملك ارمينية)
= (١) ايزابيللا
(انطاكية)
يوحنا بريين = ستيفاني
= (٢) سبيللا (بيت المقدس وقبرص)
ايزابيللا = (١) فيليب (انطاكية)
أليس = هيثوم ساسون
= ريموند (انطاكية)
فيليبا = ثيودور لاسكاريس
(نيقية)
= (٢) هيثوم
ليو الثالث = أنه (لامبرون)
ثوروس
سيبللا = بوهمند السادس
(انطاكية)
ايفيميا — يوليان
(صيدا)
ماريا = جاي ابلين

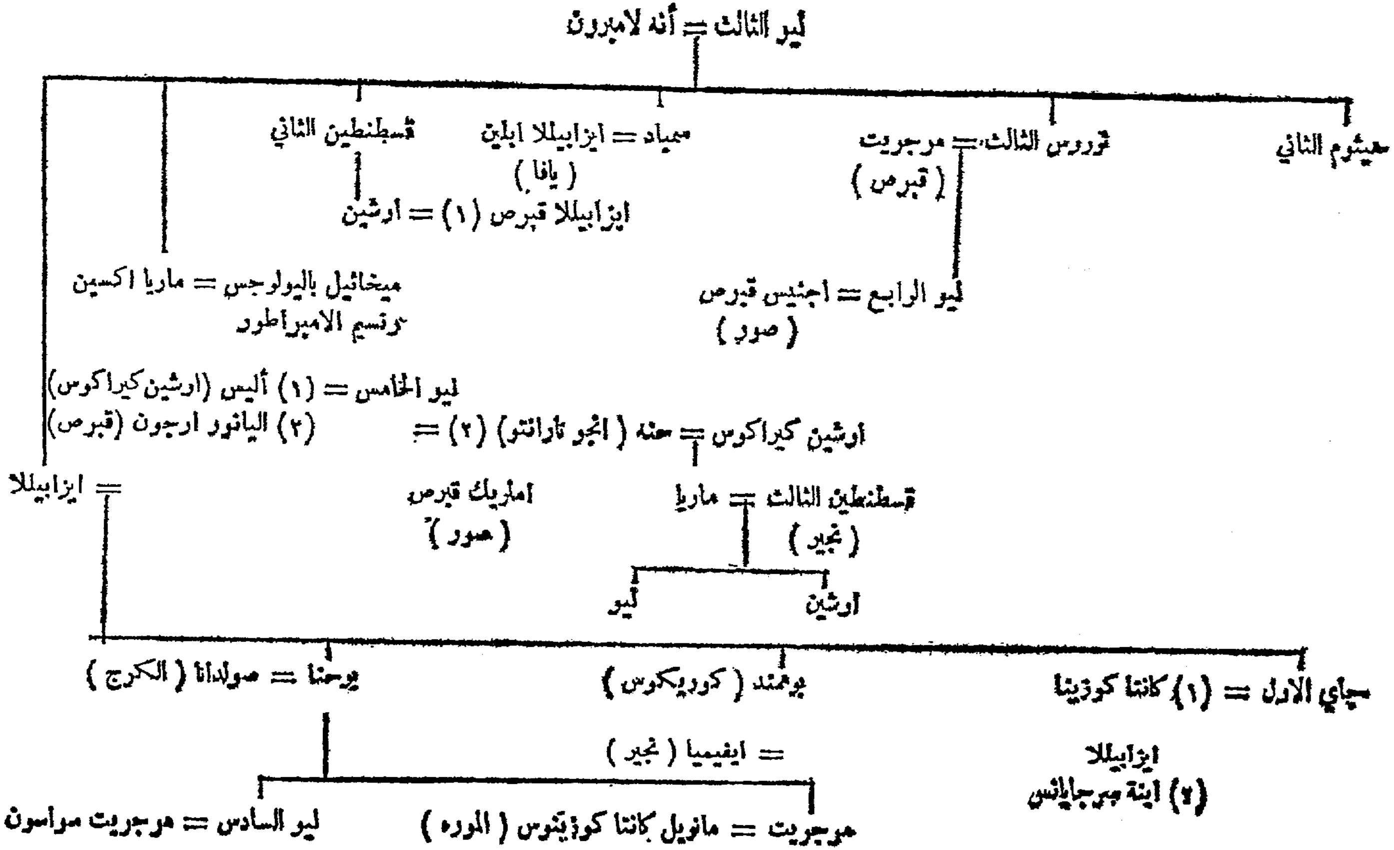
(تابع) ارمينية الصغرى

روبين الثالث = ايزابيلا (تبنين)

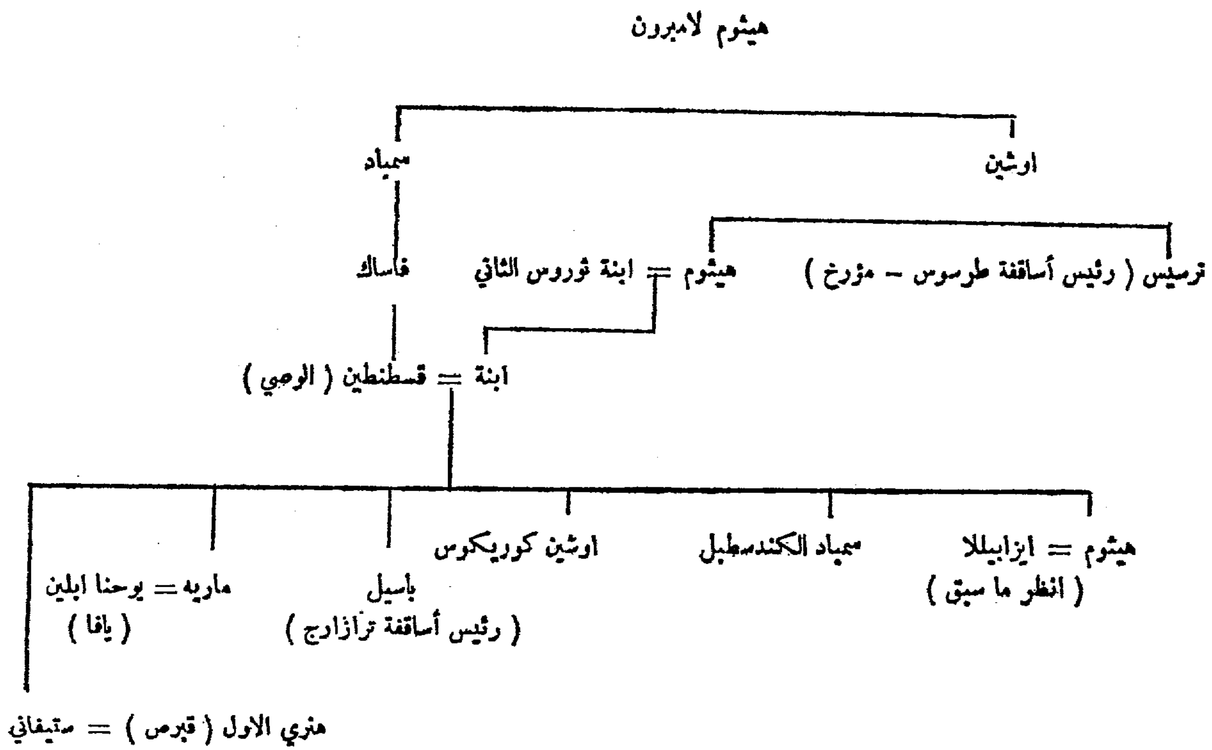
أليس = ريموند (انطاكية)

ريموند روبين = هيلفيس (قبرص)

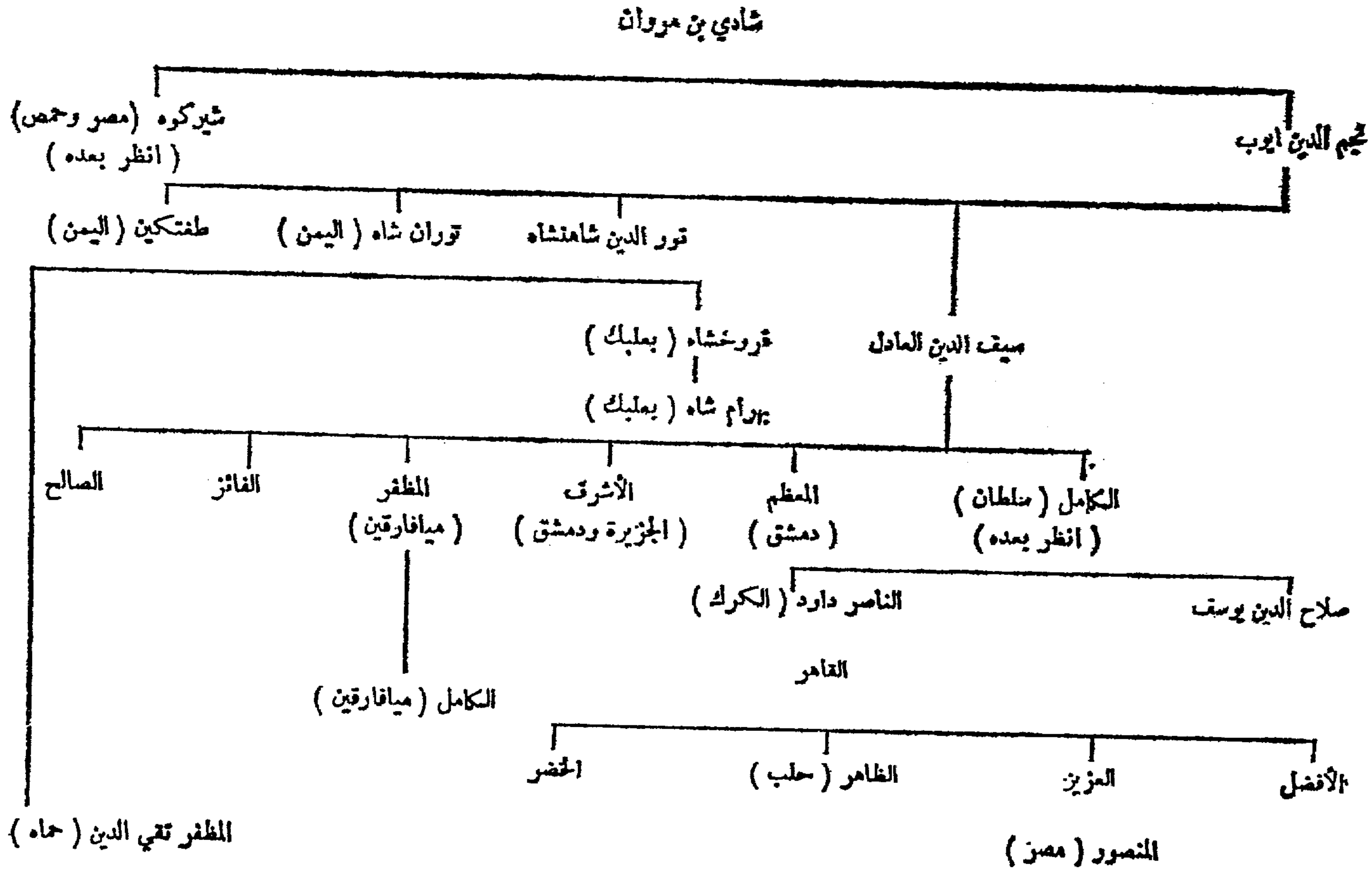
ماريا = فيليب مونتفورت (صور)


ليو الثالث = أنة لامبرون
حيثوم الثاني
توروس الثالث = مرجريت
(قبرص)
مميلد = ايزابيلا ابلين
(يافا)
قسطنطين الثاني
ايزابيلا قبرص (١) = اوشين
ليو الرابع = اجنيس قبرص
(صور)
ميخائيل باليولوجس = ماريا اكسين
ترتسيم الامبراطور
ليو الخامس = (١) أليس (اوشين كيراكوس)
(٢) اليانور ارجون (قبرص)
اوشين كيراكوس = حنه (انجو تارانتو) (٢) =
قسطنطين الثالث = ماريا
(نجير)
املريك قبرص
(صور)
ايزابيلا =
اوشين
ليو
حياي الاول = (١) كانتا كوزينا
ايزابيلا
(٢) ابنة حبرجايانس
بوهمند (كوريكوس)
= ايفيميا (نجير)
يوحنا = صولدانا (الكرج)
مرجريت = مانويل كانتا كوزينوس (المورة)
ليو السادس = مرجريت مراسون

(تابع) ارمينية الصغرى

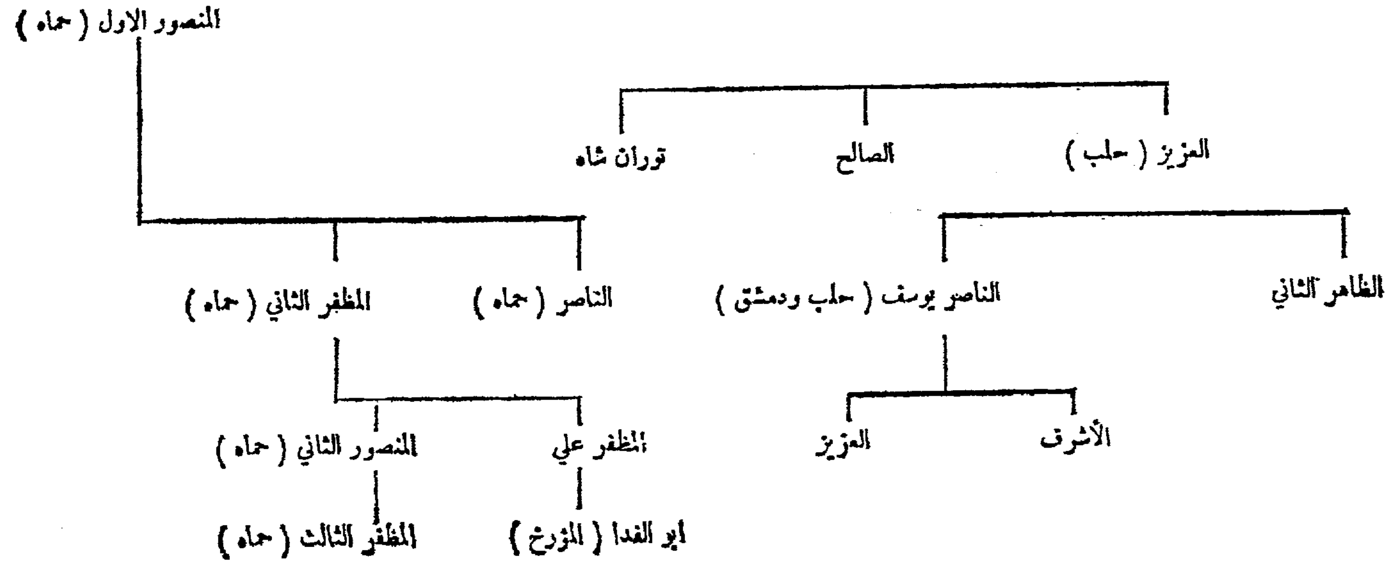


الأيوبيون



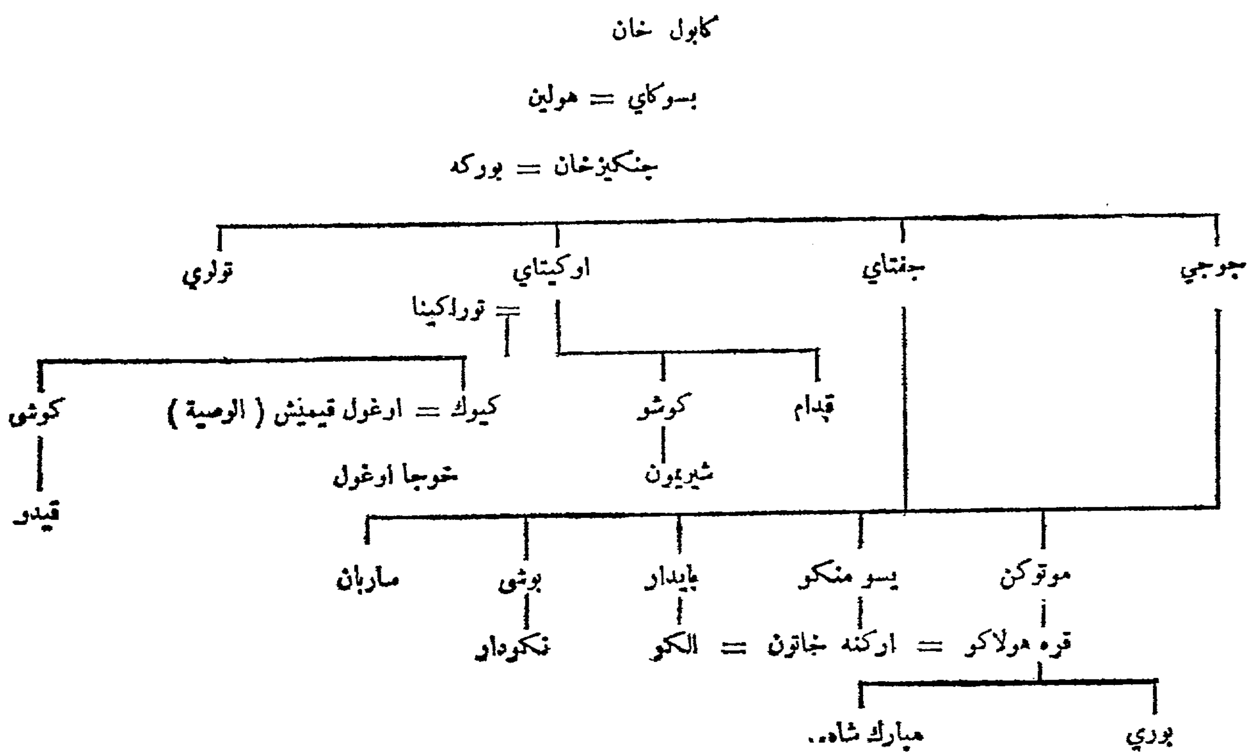
شادي بن مروان
نجم الدين ايوب
شيركوه (مصر وحمص)
(انظر بعده)
نور الدين شاهنشاه
توران شاه (اليمن)
طغتكين (اليمن)
سيف الدين العادل
فروخشاه (بعلبك)
بهرام شاه (بعلبك)
الكامل (سلطان)
(انظر بعده)
المعظم
(دمشق)
الأشرف
(الجزيرة ودمشق)
المظفر
(ميافارقين)
الفائز
الصالح
صلاح الدين يوسف
الناصر داود (الكرك)
القاهر
الكامل (ميافارقين)
الأفضل
العزيز
الظاهر (حلب)
الخضر
المنصور (مصر)
المظفر تقي الدين (حماه)

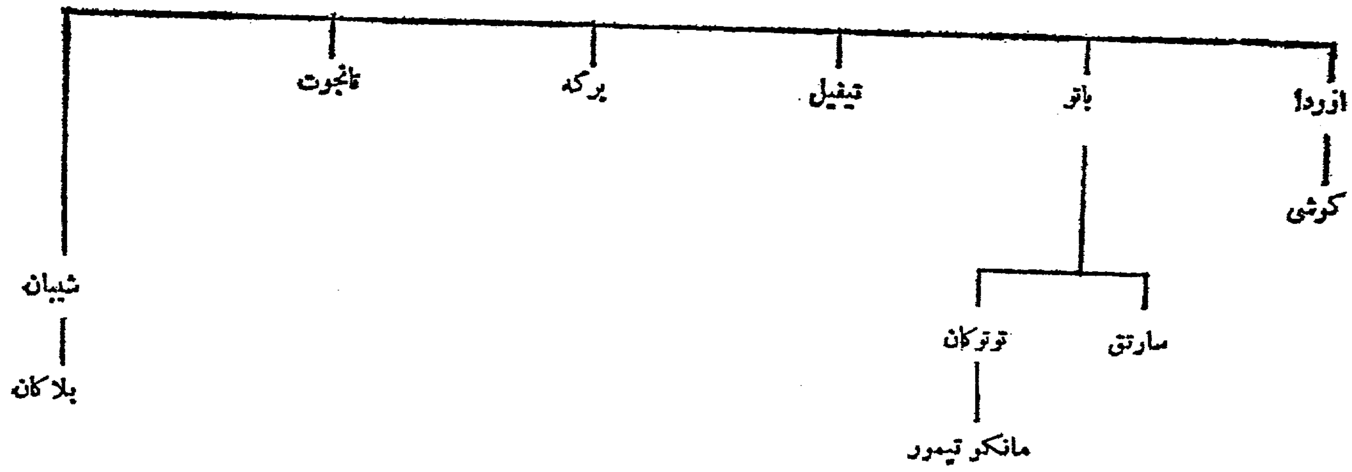
(تابع) الأيوبيون



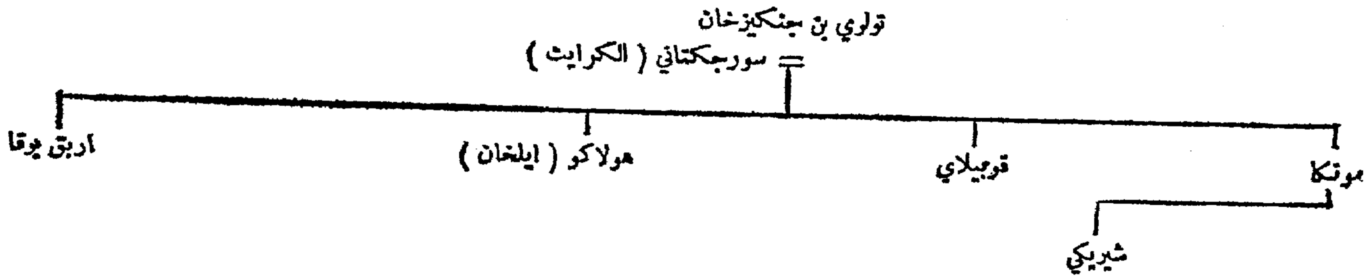

شيركوه (مصر وحمص)
محمد (حمص)
شيركوه الثاني (حمص)
المنصور ابراهيم (حمص)
الأشرف (حمص)
الكامل بن العادل (السلطان)
العادل الثاني (السلطان)
عمر (الكرك)
الصالح ايوب (السلطان)
توران شاه (السلطان)
المسعود (اليمن)
صلاح الدين
الأشرف موسى (سلطان اسمي)

بيت جنكيزخان



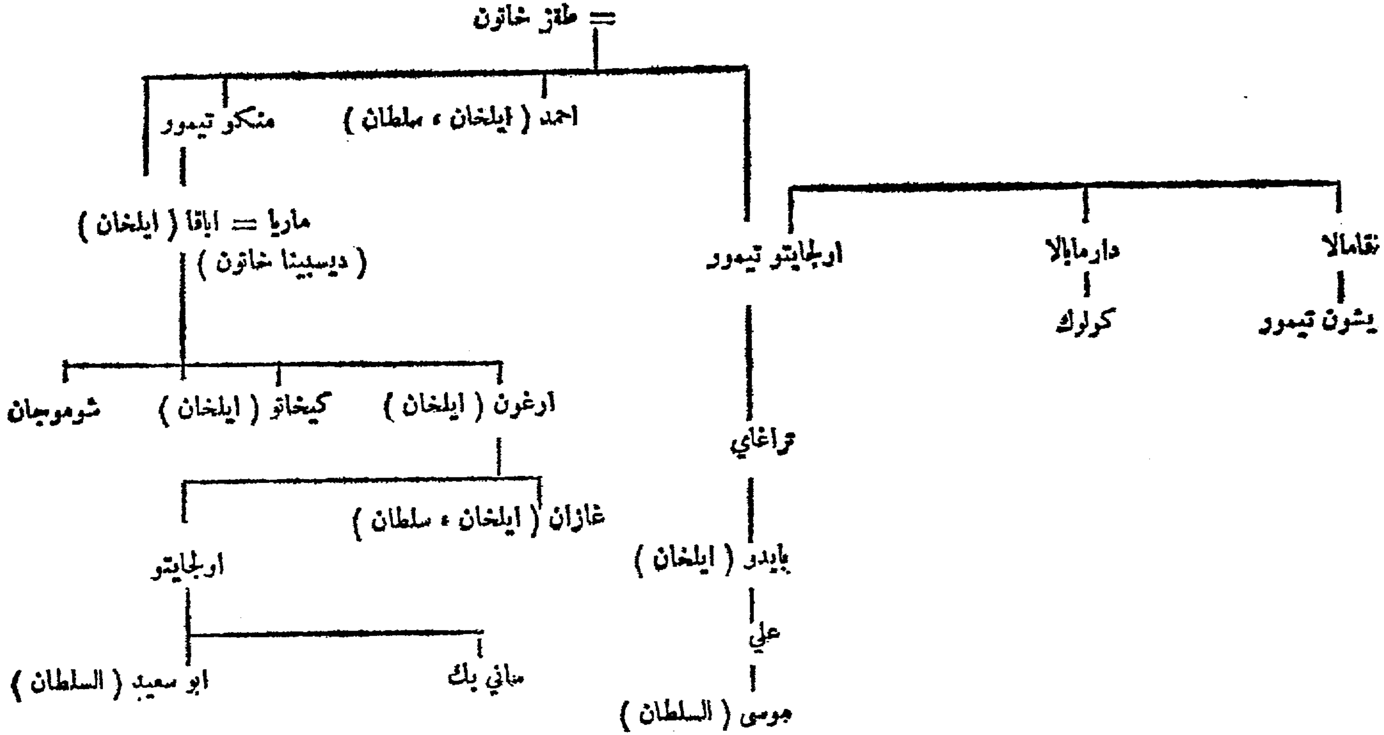


أوردا
كوشي
باتو
سارتق
توتوكان
مانكو تيمور
تيفيل
بركه
قانجوت
شيبان
بلاكان



تولي بن جنكيزخان
سورجكتاني (الكرايت)
موتكا
شيريكي
قوبيلاي
هولاكو (ايلخان)
اريق بوقا

تابع) بيت جنكيزخان



الملحق الرابع

اسماء ملوك وأمراء الاسرات الحاكمة، والأباطرة البيزنطيين والبابوات وأمراء الفرنج ، والأمراء المسلمين ، والمغول والارمن

اسرات الفرنج الحاكمة في سوريا منذ سنة ١١٨٧

مملكة بيت المقدس

جاي لوزجنان	١١٨٦ – ١١٨٧
كنراد مونتفيرات	١١٩٢
هنري شمبانيا	١١٩٢ – ١١٩٧
أملريك لوزجنان ملك قبرص	١١٩٧ – ١٢٠٥
ماريا (بيت المقدس) مونتفيرات	١٢٠٥ – ١٢١٢
يوحنا بربين زوج ماريا (بيت المقدس) مونتفيرات	١٢١٠ – ١٢٢٥
الامبراطور فردريك الثاني هوهنشتاوفن زوج يولندا بربين	١٢٢٥ – ١٢٥٠
كنراد ملك اسمي	١٢٢٨ – ١٢٥٤
هيو الاول لوزجنان ملك قبرص	١٢٤٦ – ١٢٥٣

هيو الثاني لوزجنان ملك قبرص	١٢٥٣ – ١٢٦٧
هيو الثالث انطاكية – لوزجنان – ملك قبرص	١٢٦٨ – ١٢٨٤
شارل انجو ملك صقلية (مغتصب)	١٢٧٧ – ١٢٨٥
يوحنا انطاكية – لوزجنان ملك قبرص	١٢٨٤ – ١٢٨٥
هنري الثاني انطاكية – لوزجنان ملك قبرص	١٢٨٥ – ١٢٩١

امارة انطاكية

بوهمند الاول ، تارنت	١٠٩٨ – ١١١١
تانكرد وصي ١١٠١ – ١١٠٣	
١١٠٤ – ١١١١	
روجر سالرنو	١١١٢ – ١١١٩
وصاية بلدوين الثاني ملك بيت المقدس	١١١٩ – ١١٢٦
بوهمند الثاني	١١٢٦ – ١١٣٠
كونستانس	١١٣٠ – ١١٦٣
وصاية بلدوين الثاني للمرة الثانية	١١٣١
وصاية فولك ملك بيت المقدس	١١٣١ – ١١٣٦
وصاية بلدوين الثالث ملك بيت المقدس	١١٤٩ – ١١٥٣
ريموند بواتييه زوج كونستانس	١١٣٦ – ١١٤٩
رينالد شاتيون زوج كونستانس	١١٥٣ – ١١٦٠
بوهمند الثالث	١١٦٣ – ١٢٠١
بوهمند الرابع	١٢٠١ – ١٢١٦
ريموند – روبين	١٢١٦ – ١٢١٩
بوهمند الرابع عودته للعرش	١٢١٩ – ١٢٣٣
بوهمند الخامس	١٢٣٣ – ١٢٥١
بوهمند السادس	١٢٥١ – ١٢٦٨

كونتية طرابلس

ريموند كونت تولوز – انطرطوس	١١٠٢ – ١١٠٥
وليم جوردان – انطرطوس	١١٠٥ – ١١٠٩
برتراند في طرابلس	١١٠٩ – ١١١٢
بونز	١١١٢ – ١١٣٧
ريموند الثاني	١١٣٧ – ١١٥٢
ريموند الثالث	١١٥٢ – ١١٨٧
ريموند الرابع (انطاكية)	١١٨٧ – ١١٨٩
بوهمند الرابع (انطاكية)	١١٨٩ – ١٢٣٣
بوهمند الخامس (انطاكية)	١٢٣٣ – ١٢٥١
بوهمند السادس (انطاكية)	١٢٥١ – ١٢٧٥
بوهمند السابع	١٢٧٥ – ١٢٨٧
لوسيا	١٢٨٧ – ١٢٨٨

اقطاع جبيل

جوجليلمو الاول امبرياكو	١١٠٩ – ١١١٨
هوجو الاول امبرياكو	١١٢٧ – ١١٣٥
جوجليلمو الثاني امبرياكو	١١٣٥ – ١١٥٧
هوجو الثاني	١١٦٣ – ١١٨٤
هوجو الثالث	١١٨٤ – ١١٨٧
جويدو الاول	١١٩٩ – ١٢٤١
يوريكو	١٢٥٤ – ١٢٦٢
جويدو الثاني	١٢٧١ – ١٢٨٢

اقطاع طبرية او امارة الجليل

تانكرد	١٠٩٩ — ١١٠١
هيو سانت اومر (فولكنبرج)	١١٠١ — ١١٠٦
جيرفاس باسوخ	١١٠٦ — ١١٠٨
جوسلين الاول كورتيناي	١١١٢ — ١١١٩
وليم دي بور	١١٢٠ — ١١٤١
اليناند طبرية	١١٤٢ — ١١٤٨
وليم شقيق اليناند	١١٤٨ — ١١٥٨
جوتييه سانت اومر	١١٥٩ — ١١٧١
ريموند الثالث كونت طرابلس	١١٧٤ — ١١٨٧

اقطاع بيروت

فولك جيين	١١١٠
جوتييه الاول بريسبار	١١٢٥
جاي الاول بريسبار	١١٣٨ — ١١٥٦
جوتييه الثاني بريسبار	١١٥٧ — ١١٦٤
جوتييه الثالث بريسبار	١١٦٥ — ١١٦٦
يوحنا الاول ابلين الكبير	١٢٠٥ — ١٢٣٦
باليان الثالث ابلين	١٢٣٦ — ١٢٤٧
يوحنا الثاني ابلين	١٢٤٧ — ١٢٦٤
ايزابيللا ابلين	١٢٦٤ — ١٢٧٧
ايشيفا ابلين	— ١٢٩١

اقطاع صيدا

يوستاس جارنييه	١١١١ – ١١٢٣
رينالد	١١٧١ – ١١٨٧
باليان	١٢٢٩ – ١٢٤٠
جوليان	١٢٤٧ – ١٢٦٠

اقطاع تبنين

همفري الاول	١١٠٧ – ١١٣٦
همفري الثاني (كندسطبل بيت المقدس)	١١٣٧ – ١١٧٩
همفري الرابع	١١٧٩ – ١١٨٠
فيليب مونتفورت (سيد صور)	١٢٤٠ – ١٢٧٠
يوحنا مونتفورت (سيد صور وتبنين)	١٢٧٠ – ١٢٨٣

اقطاع قيسارية

يوستاس جارنييه	١١٠١ – ١١٢٣
جوتييه الاول	١١٢٣ – ١١٤٩
هيو	١١٥٤ – ١١٦٨
جاي	١١٧٤ – ١١٧٦
جوتييه الثاني	١١٨٢ – ١١٩١
ايمار لايرون	١١٩٣ – ١٢١٣
جوتييه الثالث	١٢١٧ – ١٢٢٩
يوحنا	١١٢٩ – ١٢٤١
يوحنا أليمان	١٢٤٩ – ١٢٦٤

اقطاع الرملة ويبنة

بلدوين الاول	١١١٠ — ١١٢٠
هيو	١١٢٢ — ١١٢٩
بلدوين الثاني	١١٣٦ — ١١٣٨
رينييه	١١٤٤ — ١١٤٧
باليان الاول ابلين	١١٥٤ — ١١٦٩
بلدوين ابلين	١١٧١ — ١١٨٦

كونتية يافا

هيو بويزيه	حوالي ١١١٨
هيو الثاني بويزيه	١١٢٠ — ١١٣٥
جوتييه بريين	١٢٢١ — ١٢٤٦
يوحنا ابلين (مصنف قوانين بيت المقدس)	١٢٤٧ — ١٢٦٦
جاي ابلين	١٢٦٦ — ١٢٦٨

اقطاع الشوبك والكرك

رومان دي بويه	١١١٨ — ١١٣٣
باجان ميللي	١١٣٣ — ١١٤٨
فيليب (نابلس)	١١٦١ — ١١٦٨
همفري الثالث (تبنين)	١١٦٨ — ١١٧٣
مايلز بلانسي	١١٧٣ — ١١٧٤
رينالد شاتيون	١١٧٧ — ١١٨٧

مقدمو الاسبتارية بالارض المقدسة

جيرار	١١٠٠ — ١١٢٠
ريموند دى بويه	١١٢٥ — ١١٥٨
اوجر بالين	١١٦٠ — ١١٦٢
جيلبرت اسايللي	١١٦٣ — ١١٧٠
كاسته دي موروا	١١٧٠ — ١١٧٢
جوبير	١١٧٣ — ١١٧٧
روجر دي مولين	١١٧٧ — ١١٨٧
ارمنجو اسبا	١١٨٨ — ١١٩٠
جارنييه (نابلس)	١١٩٠ — ١١٩٢
جفري دونجون	١١٩٢ — ١٢٠٤
الفونسو (البرتغال)	١٢٠٤ — ١٢٠٦
جفري	١٢٠٦ — ١٢٠٧
جارين مونتايجو	١٢٠٧ — ١٢٢٧
برتراند دي ثيبسي	١٢٣٠
جورين	١٢٣١ — ١٢٣٦
برتراند دي كومب	١٢٣٦ — ١٢٣٩
بطرس	١٢٤٠ — ١٢٤١
وليم شاتونيف	١٢٤٣ — ١٢٥٨
هيو ريفل	١٢٥٨ — ١٢٧٧
نقولا لورجن	١٢٧٧ — ١٢٨٣
يوحنا فيلييه	١٢٨٥ — ١٢٩٣

مقدمو الاسبتارية في رودس

فولك فيلاريت	١٣٠٥ — ١٣١٩
هيليون فيلنيف	١٣١٩ — ١٣٤٦
ديدونيه دي جوزون	١٣٤٦ — ١٣٥٣
بطرس كورنيون	١٣٥٤ — ١٣٥٥
روجر دي بين	١٣٥٥ — ١٣٦٥
ريموند برنجار	١٣٦٥ — ١٣٧٤
روبرت جولياك	١٣٧٤ — ١٣٧٧
يوهان فيراندية هيريديا	١٣٧٧ — ١٣٩٦
فيليبرت نايلاك	١٣٩٦ — ١٤٢١
انطوان فولونيان	١٤٢١ — ١٤٣٧
يوحنا لاستيك	١٤٣٧ — ١٤٥٤
جاك ميللي	١٤٥٤ — ١٤٦١
بطرس — ريموند زاكوستا	١٤٦١ — ١٤٦٧
يوحنا المعمدان اورسين	١٤٦٧ — ١٤٧٦
بطرس أوبوسون	١٤٧٦ — ١٥٠٣
ايمري امبواز	١٥٠٣ — ١٥١٢
جاَي بلانشفورت	١٥١٢ — ١٥١٣
فابريك جاريتو	١٥١٣ — ١٥٢١
فيليب فيلييه	١٥٢١ — ١٥٣٤

مقدمو الداوية في الارض المقدسة

هيو باينز	١١١٨ — ١١٣٦
روبرت كراون	١١٣٦ — ١١٤٨

ايفراردي بار	١١٤٨ – ١١٤٩
برنارد تريميلاي	١١٥٢ – ١١٥٣
ايبرارد	١١٥٤
اندريه مونتبار	١١٥٥
برتراند بلانشفورت	١١٥٦ – ١١٦٨
فيليب ميللي	١١٦٩
اود سانت – اماند	١١٧٢ – ١١٧٩
ارمود تورّوج	١١٨٣ – ١١٨٤
جيرار ريدفورت	١١٨٦ – ١١٨٩
روبرت	١١٩١ – ١١٩٦
جيبرت هورال	١١٩٤
فيليب بليسيس	١٢٠٤ – ١٢٠٩
وليم بويسّيه	١٢١٠ – ١٢١٩
بطرس مونتايجو	١٢٢٠ – ١٢٢٩
ارمان بريجورد	١٢٣٢ – ١٢٤٤
وليم سوناك	١٢٤٧ – ١٢٥٠
رينالد فيشييه	١٢٥٠ – ١٢٥٦
توماس بيرار	١٢٥٦ – ١٢٧٣
وليم بوجيه	١٢٧٣ – ١٢٩١

الفرسان التيوتون بالارض المقدسة

هينريش والبو	١١٩٨ – ١٢٠٠
اوتو فون كيربين	١٢٠٠ – ١٢٠٩

هينريش باردت	١٢٠٩ — ١٢١٠
هرمان سالتزا	١٢١٠ — ١٢٣٩
كنراد ثورنجيا	١٢٣٩ — ١٢٤٠
جيرارد مالبرج	١٢٤١ — ١٢٤٤
هينريش هوهنلوه	١٢٤٤ — ١٢٤٩
جونتر شفارتزبورج	١٢٥٠ — ١٢٥٢
بوبو اوستيرنا	١٢٥٣ — ١٢٥٦
انو سانجرز هاوزن	١٢٥٧ — ١٢٧٣
هارتمان هلدرونجن	١٢٧٢ — ١٢٨٢
بورشارد شفندن	١٢٨٢ — ١٢٩٠
كنراد فويختفانجن	١٢٩٠ — ١٢٩٦

الفرنج في جزيرة قبرص

١ – بيت لوزجنان :

جاي لوزجنان	١١٩٢ — ١١٩٤
املريك لوزجنان	١١٩٥ — ١٢٠٥
هيو الاول	١٢٠٥ — ١٢١٨
هنري الاول	١٢١٨ — ١٢٥٣
وصاية فيليب ابلين	١٢١٨ — ١٢٢٧
وصاية يوحنا ابلين (سيد بيروت)	١٢٢٧ — ١٢٢٩
وصاية الامبراطور فردريك الثاني	١٢٢٩
هيو الثاني	١٢٥٣ — ١٢٦٧

٢ – بيت انطاكية – لوزجنان :

هيو الثالث . انطاكية – لوزجنان	١٢٦٧ – ١٢٨٤
يوحنا الاول	١٢٨٤ – ١٢٨٥
هنري الثاني	١٢٨٥ – ١٣٢٤
امالريك امير صور ، شقيق هنري الثاني اغتصب الحكم	١٣٠٦ – ١٣١٠
هيو الرابع	١٣٢٤ – ١٣٥٩
بطرس الاول	١٣٥٩ – ١٣٦٩
بطرس الثاني	١٣٦٩ – ١٣٨٢
جاك الاول	١٣٨٢ – ١٣٩٨
جانوس	١٣٩٨ – ١٤٣٢
يوحنا الثاني	١٤٣٢ – ١٤٥٨
شارلوت	١٤٥٨ – ١٤٦٠
جاك الثاني	١٤٦٠ – ١٤٧٣
جاك الثالث بوصاية امه كثيرين كورنارو	١٤٧٣ – ١٤٧٤
كاثرين كورنارو	١٤٧٤ – ١٤٨٩

اسرات الفرنج التي حكمت في بيزنطة وبلاد اليونان

٢ – الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية :

بلدوين الاول كونت فلاندر	١٢٠٤ – ١٢٠٦
هنري الاول هينولت	١٢٠٦ – ١٢١٦
بطرس كورتيناي	١٢١٦ – ١٢١٨

روبرت كورتيناي	١٢١٩ – ١٢٢٨
بلدوين الثاني	١٢٢٨ – ١٢٦١
يوحنا بريين – قسيم الامبراطور	١٢٣١ – ١٢٣٧

٢ – مملكة سالونيك :

بونيفاس مونتفيرات	١٢٠٤ – ١٢٠٧
ديمتريوس مونتفيرات	١٢٠٧ – ١٢٢٢

٣ – امارة الخايا والمورة :

وليم كامبليت	١٢٠٥ – ١٢٠٩
جفري فيلهاردوين (نائب)	١٢٠٩ – ١٢١٠
جفري الاول فيلهاردوين	١٢١٠ – ١٢٢٩
جفري الثاني فيلهاردوين	١٢٢٩ – ١٢٤٦
وليم فيلهاردوين	١٢٤٦ – ١٢٧٨
ايزابيلا فيلهاردوين	١٢٧٨ – ١٣٠٧
فيليب انجو – تارنت	١٣٠٧ – ١٣١٣
ماتيلدا هينولت	١٣١٣ – ١٣١٨
يوحنا انجو	١٣١٨ – ١٣٣٢
كثرين فالوا	١٣٣٢ – ١٣٤٦
روبرت الثاني انجو – تارنت	١٣٤٦ – ١٣٦٤
ماريا بوربون ارملة روبرت الثاني	١٣٦٤ – ١٣٦٩
فيليب الثالث انجو تارنت	١٣٧٠ – ١٣٧٣
حنه ملكة نابولي	١٣٧٤ – ١٣٨٢

جاك (تمثله جماعة النافاربين)	١٣٨٢ – ١٣٨٣
بطرس زعيم جماعة النافاربين	١٣٨٣ – ١٤٠٢
كنتربون الثاني زكـّريا	١٤٠٤ – ١٤٢٨

دوقية أثينا وطيبة

١ – بيت لاروش :

اوتو لاروش سيد أثينا	١٢٠٥ – ١٢٢٥
جاي الاول	١٢٢٥ – ١٢٦٣
يوحنا	١٢٦٣ – ١٢٨٠
وليم	١٢٨٠ – ١٢٨٧
جاي الثاني	١٢٨٧ – ١٣٠٨
جوتييه بريين	١٣٠٩ – ١٣١١

٢ – زعماء الشركة الكاتالونية :

روجر ديسلاور	١٣١١ – ١٣١٢
برنجار استانول	١٣١٢ – ١٣١٦
وليم توماس	١٣١٦ – ١٣١٧
الفونسو فدريك ارجون – صقلية	١٣١٧ – ١٣٣٠
نقولو لانكيا	١٣٣٠ – ١٣٣٥
ريموند برناردى	١٣٥٦
جايم فدريك ارجون	١٣٥٦ – ١٣٥٩
جونسالفو أرينوس	١٣٥٩

ماتيو مونكادا	١٣٥٩ — ١٣٦١
روجر لوريا	١٣٦١ — ١٣٦٣
ماتيو مونكادا (للمرة الثانية)	١٣٦٣ — ١٣٦٧
روجر لوريا (للمرة الثانية)	١٣٦٧ — ١٣٧١
ماتيو بيرالتا	١٣٧١ — ١٣٧٥
لويس فدريك ارجون	١٣٧٥ — ١٣٨١
فيليب دلمان روكابرتي	١٣٨١ — ١٣٨٢
رامون فيلانوفا	١٣٨٢ — ١٣٨٣
روجر الثاني وانطونيو لوريا	١٣٨٣ — ١٣٨٥
بدرو باو	١٣٨٥ — ١٣٨٧

٣ — بيت اكيولى :

نيريو الاول	١٣٨٥ — ١٣٩٤
انطونيو دوق اثينا	١٤٠٤ — ١٤٣٥
نيريو الثاني دوق اثينا	١٤٣٥ — ١٤٣٩
	١٤٤١ — ١٤٥١
كيارا جيورجيو ، الكونتيسة	١٤٥١ — ١٤٥٦
فرانكو اكيولى	١٤٥٦ — ١٤٥٨

ماركيزية بودونيتزا (ثيرموبيل)

١ — بيت بالوفيتشيني :

جويدو بالوفيتشيني	١٢٠٤ — ١٢٣٧

اوبرتينو	١٢٣٧ - ١٢٧٨
ايزابيللا	١٢٧٨ - ١٢٨٦
البرتو	١٣١١
جوجليلمينا	١٣١١ - ١٣٥٨

٢ - بيت جيورجيو :

نيقولو الاول جيورجيو	١٣٣٨ - ١٣٤٥
فرانسسكو	١٣٥٤ - ١٣٨٨
جاكوبو	١٣٨٨ - ١٤١٠
نيقولو الثاني	١٤١٠ - ١٤١٤

اقطاع سالوني (امفيسا قديما)

توماس الاول	١٢٠٥ - ١٢١٢
توماس الثاني	١٢٥٨
وليم	١٢٧٥
توماس الثالث	١٢٩٤ - ١٣١١

دوقية ناكسوس

١ - بيت سانودو :

ماركو الاول	١٢٠٧ - ١٢٢٧
انجيلو	١٢٢٧ - ١٢٦٢

ماركو الثاني	١٢٦٢ — ١٣٠٣
جوحليلمو الاول	١٣٠٣ — ١٣٢٣
نيقولو الاول	١٣٢٣ — ١٣٤١
جيوفاني الاول	١٣٤١ — ١٣٦١
فيورينزا	١٣٦١ — ١٣٧١
نيقولو الثاني (زوج فيوروينزا)	١٣٦٤ — ١٣٨١
نيقولو الثالث	١٣٧١ — ١٣٨٣

٢ — بيت كريسبو :

فرانسسكو الأول	١٣٨٣ — ١٣٩٧
جياكومو الاول	١٣٩٧ — ١٤١٨
جيوفاني الثاني	١٤١٨ — ١٤٣٧
جيوفاني جياكومو	١٤٤٧
جوجليلمو الثاني	١٤٥٣ — ١٤٦٣
فرانسسكو الثاني	١٤٦٣
جياكوموا الثالث	١٤٦٣ — ١٤٨٠
جيوفاني الثالث	١٤٨٠ — ١٤٩٤
فرانسسكو الثالث	١٤٩٤ — ١٥١٨
جيوفاني الرابع	١٥١٨ — ١٥٦٤
فرانسسكو الرابع	١٥٤٥
جياكومو الرابع	١٥٦٤ — ١٥٦٦

كونتية كيفالونيا

١ - بيت اورسيني :

ماتيو ادرسيني	١١٩٤ - ١٢٣٨
ريكاردو	١٢٣٨ - ١٢٧٨
جيوفاني الاول	١٣٠٣ - ١٣١٧
نيقولو	١٣١٧ - ١٣٢٣
جيوفاني الثاني (اضاع الكونتية)	١٣٢٤
(احتفظ بابيروس)	١٣٢٣ - ١٣٣٥
نقفور اورسيني (ابيروس)	١٣٣٥ - ١٣٥٨

٢ - بيت توكو :

ليوناردو الاول كونت كيفالونيا	١٣٥٨ - ١٣٨١
كارلو الاول	١٣٨١ - ١٤٣٠
كارلو الثاني	١٤٣٠ - ١٤٤٨
ليوناردو الثاني	١٤٤٨ - ١٤٧٩
انطونيو	١٤٨١ - ١٤٨٣

الاباطرة البيزنطيون منذ سنة ١١٨٧

اسحاق الثاني انجيلوس	١١٨٥ - ١١٩٥
الكسيوس الثالث انجيلوس	١١٩٥ - ١٢٠٣

اسحاق الثاني انجيلوس (للمرة الثانية)	١٢٠٣ — ١٢٠٤
والكسيوس الرابع انجيلوس	
الكسيوس الخامس مورتسوفلوس	١٢٠٤
ثيودور الاول لاسكاريس	١٢٠٤ — ١٢٢٢
يوحنا الثالث دوكاس فاتاتزيس	١٢٢٢ — ١٢٥٤
ثيودور الثاني لاسكاريس	١٢٥٤ — ١٢٥٨
يوحنا الرابع لاسكاريس	١٢٥٨ — ١٢٦١
ميخائيل الثامن باليولوجوس	١٢٥٩ — ١٢٨٢
اندرونيقوس الثاني باليولوجوس	١٢٨٢ — ١٣٢٨
اندزونيقوس الثالث باليولوجوس	١٣٢٨ — ١٣٤١
يوحنا الخامس باليولوجوس	١٣٤١ — ١٣٩١
يوحنا السادس كونتا كوزينوس	١٣٤٧ — ١٣٥٤
اندرونيقوس الرابع باليولوجوس	١٣٧٦ — ١٣٧٩
يوحنا السابع باليولوجوس	١٣٩٠
مانويل الثاني باليولوجوس	١٣٩١ — ١٤٢٥
يوحنا الثامن باليولوجوس	١٤٢٥ — ١٤٤٨
قنسطنطين الحادي عشر باليولوجوس	١٤٤٩ — ١٤٥٣

بابوات روما منذ ١٠٩٥

اربان الثاني	١٠٨٨ — ١٠٩٩
باسكال الثاني	١٠٩٩ — ١١١٨
جيلاسيوس الثاني	١١١٨ — ١١١٩
كاليكستوس الثاني	١١١٩ — ١١٢٤

هونوريوس الثاني	١١٢٤ — ١١٣٠
انوسنت الثاني	١١٣٠ — ١١٤٣
اناكليت الثاني	١١٣٠ — ١١٣٨
فيكتور الرابع	١١٣٨
سلستين الثاني	١١٤٣ — ١١٤٤
لوكيوس الثاني	١١٤٤ — ١١٤٥
بوجينيوس الثالث	١١٤٥ — ١١٥٣
انستاسيوس الرابع	١١٥٣ — ١١٥٤
هادريان الرابع	١١٥٤ — ١١٥٩
الاسكندر الثالث	١١٥٩ — ١١٨١
فيكتور الرابع	١١٥٩ — ١١٦٤
باسكال الثالث	١١٦٤ — ١١٦٨
كاليكستوس الثالث	١١٦٨ — ١١٧٩
لوكيوس الثالث	١١٨١ — ١١٨٥
اربان الثالث	١١٨٥ — ١١٨٧
جريجوري الثامن	١١٨٧
كليمنت الثالث	١١٨٧ — ١١٩١
سلستين الثالث	١١٩١ — ١١٩٨
انوسنت الثالث	١١٩٨ — ١٢١٦
هونوريوس الثالث	١٢١٦ — ١٢٢٧
جريجوري التاسع	١٢٢٧ — ١٢٤١

سلستين الرابع	١٢٤١
انوسنت الرابع	١٢٤٢ — ١٢٥٤
الاسكندر الرابع	١٢٥٤ — ١٢٦١
اربان الرابع	١٢٦١ — ١١٦٤
كليمنت الرابع	١٢٦٥ — ١٢٦٨
جريجوري العاشر	١٢٧١ — ١٢٧٦
انوسنت الخامس	١٢٧٦
هادريان الخامس	١٢٧٦
يوحنا الحادي والعشرون	١٢٧٦ — ١٢٧٧
نقولا الثالث	١٢٧٧ — ١٢٨٠
مارتن الرابع	١٢٨١ — ١٢٨٥
هونوريوس الرابع	١٢٨٥ — ١٢٨٧
نقولا الرابع	١٢٨٨ — ١٢٩٢
سلستين الخامس	١٢٩٤
بونيفاس الثامن	١٢٩٤ — ١٣٠٣
بنيدكت الحادي عشر	١٣٠٣ — ١٣٠٤
كليمنت الخامس	١٣٠٥ — ١٣١٤
يوحنا الثاني والعشرون	١٣١٣ — ١٣٣٤
بنيدكت الثاني عشر	١٣٣٤ — ١٣٤٢
كليمنت السادس	١٣٤٢ — ١٣٥٢
انوسنت السادس	١٣٥٢ — ١٣٦٢

اربان الخامس	١٣٦٢ — ١٣٧٠
جريجوري الحادي عشر	١٣٧٠ — ١٣٧٨
اربان السادس	١٣٧٨ — ١٣٨٩
بونيفاس التاسع	١٣٨٩ -- ١٤٠٤
انوسنت السابع	١٤٠٤ — ١٤٠٦
جريجوري الثاني عشر	١٤٠٦ — ١٤٠٩
الاسكندر الخامس	١٤٠٩ — ١٤١٠
يوحنا الثاني والعشرون	١٤١٠ — ١٤١٥
مارتن الخامس	١٤١٧ — ١٤٣١
يوجينيوس الرابع	١٤٣١ — ١٤٤٧
نقولا الخامس	١٤٤٧ — ١٤٥٥

اسماء أمراء وملوك ارمينية الصغرى

١ – بيت روبين :

روبين او روبين الاول سيد بارتزربيرد	١٠٨٠ — ١٠٩٥
قنسطنطين الاول امير ارمينية	١٠٩٥ — ١٠٩٩
ثوروس الاول	١١٠٠ — ١١٢٩
ليو الاول	١١٠٠ — ١١٢٩
ثوروس الثاني	١١٤٥ — ١١٦٨

روبين الثاني	١١٦٨ — ١١٧٠
مِلح	١١٧٠ — ١١٧٥
روبين الثالث	١١٧٥ — ١١٨٧
ليو الثاني الكبير ، ملك ارمينية	١١٨٧ — ١٢١٩
ايزابيلا تزوجت من فيليب انطاكية	١٢٢٢ — ١٢٢٥

٢ – بيت هيثوم (ولوزجنان) :

هيثوم الاول (الزوج الثاني للملكة ايزابيللا)		١٢٢٦ — ١٢٦٩
ليو الثالث		١٢٦٩ — ١٢٨٩
هيثوم الثاني	١٢٨٩ — ١٢٩٣	١٢٩٩ — ١٣٠١
ثوروس الثالث		١٢٩٣ — ١٢٩٩
سمباد مغتصب		١٢٩٦ — ١٢٩٩
قنسطنطين الثاني		١٢٩٩
ليو الرابع		١٣٠١ — ١٣٠٧
اوشين		١٣٠٨ — ١٣٢٠
ليو الخامس		١٣٢٠ — ١٣٤٢
جاي لوزجنان		١٣٤٢ — ١٣٤٤
قنسطنطين الرابع		١٣٤٤ — ١٣٦٣
قنسطنطين الخامس		١٣٦٥ — ١٣٧٣
ليو السادس لوزجنان		١٣٧٤ — ١٣٧٥

القرمانيون

١٢٥٦ - ١٤٨٣

الاناضول (1)

قرمان بن نورا الصوفي	١٢٥٦
محمد الاول	١٢٦١
بدر الدين محمود	١٢٧٨
برهان الدين موسى	١٣٣٩
فخر الدين احمد	
شمس الدين	١٣٤٩
علاء الدين خليل	١٣٥٢
علاء الدين بن خليل	١٣٨١
السيادة العثمانية	١٣٩٠ — ١٤٠٣
محمد الثاني	١٤٠٣
السيادة المملوكية	١٤١٩ — ١٤٢١
محمد الثاني عودته للحكم	١٤٢١
علاء الدين علي	١٤٢٤
تاج الدين ابراهيم	١٤٢٤
اسحاق بن ابراهيم	١٤٦٣
بير احمد بن ابراهيم	١٤٦٤

(١) عن سلاجقة آسيا الصغرى ، انظر المجلد الثاني ص ٨٤٦ - ٨٤٧ .

بير احمد بالاشتراك مع قاسم	١٤٧٩
قاسم	١٤٧٤ — ١٤٨٣
استيلاء العثمانيين على بلاد القرمانيين	

العثمانيون

١٢٨١

الاناضول – البلقان

عثمان بن ارطغرل	١٢٨١
ارخان	١٣٢٤
مراد الاول	١٣٦٠
بايزيد الاول يلدرم	١٣٨٩
غزوة تيمورلنك	١٤٠٢
محمد الاول	١٤٠٣
سليمان الاول	١٤٠٣
مراد الثاني	١٤٢١
محمد الثاني (الفاتح)	١٤٤٤
مراد الثاني (للمرة الثانية)	١٤٤٦
محمد الثاني (الفاتح) للمرة الثانية	١٤٥١
بايزبد الثاني	١٤٨١
سليم الاول	١٥١٢
سليمان الثاني القانوني	١٥٢٠

خانات المغول

(بيت اوكيتاي وتولوي)

١٢٠٦

منغوليا

جنكيزخان	١٢٠٦
اوكيتاي	١٢٢٧
توراكينا وصية	١٢٤١
كيوك	١٢٤٦
اوغول قيميش وصية	١٢٤٩
مونكو	١٢٥١
قوبيلاي	١٢٦٠
اولجايتو	١٢٩٤
كيولوك	١٣٠٧
بويانتو	١٣١١
كـَه كـُن	١٣٢٠
يسّون تيمور	١٣٢٣
راجي بقا	١٣٢٨
جياغاتو	١٣٢٨
كويتنالا	١٣٢٩
رينجن بال	١٣٣٢
طوغان تيمور	١٣٣٢ - ١٣٧٠

بيت جغتاي باقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية

جغتاي	١٢٢٧
قراهولاكو	١٢٤١
يسّو منكو	١٢٤٧
قراهولاكو للمرة الثانية	١٢٥٢
الكنّو	١٢٦١
مبارك شاه	١٢٦٦
براق خان	١٢٦٦
نيكباي	١٢٨١
توقا تيمور	١٢٧٢
ذووا خان	١٢٩١
قونجوق خان	١٣٠٦
تاليقو	١٣٠٨
كِبك خان	١٣٠٩
اسن بغا	١٣٠٩
كِبك خان للمرة الثانية	١٣١٨
ايلجي كداي	١٣٢٦
دووا تيمور	١٣٢٦
علاء الدين ترماشيرين	١٣٢٦
جنكشي (جنكشاي)	١٣٣٤
بوزون	١٣٣٤
اسن تيمور	١٣٣٨

محمد	١٣٤٢
قازان تيمور	١٣٤٣
دانشمندجه	١٣٤٦
بويان قولى	١٣٤٨
شاه تيمور	١٣٥٩
تقلق تيمور	١٣٥٩ — ١٣٧٠
حاز تيمور تلك البلاد	

ايلخانات فارس

١٢٥٦ — ١٣٥٣

فــــارس

هولاكو	١٢٥٦
اباقا	١٢٦٥
احمد تكودار	١٢٨٢
ارغون	١٢٨٤
كيختو	١٢٩١
بايدو	١٢٩٥
غازان محمود	١٢٩٥
اولجايتو خدا بنده محمد	١٣٠٤
ابو سعيد بهادر	١٣١٧
اربا كاون (معز الدين)	١٣٣٥
موسى	١٣٣٦

انقسام فارس بين اسرات عديدة امثال الجلائريين والمظفرين والسربداريين (خراسان) . ١٣٣٦ – ١٣٥٣

خانات القبيلة الذهبية

(جوجي)

١٢٢٦

جنوب روسيا وغرب سيبريا

١ – فرع باتو – خانات القبيلة الزرقاء في جنوب روسيا وغرب بلاد القبجاق :

باتو بن جوجي	١٢٢٧
سارتاق	١٢٥٥
اولاغجي	١٢٥٦
بركة بن جوجي	١٢٥٧
منكو تيمور	١٢٦٧
تودا منكو	١٢٨٠
تولا بوغا	١٢٨٧
تقتو ، غياث الدين	١٢٩٠
اوزبك ، غياث الدين محمد	١٣١٢
تيني بك	١٣٤١
جاني بك	١٣٤١
عصر فوضى واضطراب	١٣٥٧ – ١٣٨٠

٢ - فرع أوردا - خانات القبيلة البيضاء في سيبريا وشرقي بلاد القبجاق ثم اتحدت القبيلتان الزرقاء والبيضاء في القبيلة الذهبية في جنوب روسيا ، بعد ١٣٧٨ :

اوردا بن جوجي	١٢٢٦
قوجي	١٢٨٠
بايان	١٣٠٢
ساسي يوقا	١٣٠٩
إبسان	١٣١٥
مبارك خواجه	١٣٢٠
جمتاي	١٣٤٤
اوروس	١٣٦١
توقتاكيه	١٣٧٥
تيمور ملك	١٣٧٥
غياث الدين تقتاميش	١٣٧٦
تيمور قتلغ	١٣٩٥
شادي بك	١٤٠١
بولاد	١٤٠٧
تيمور	١٤١٠
جلال الدين	١٤١٢
كبك	١٤١٤
جبار بردى	١٤١٧
اولغ محمد	١٤١٩

دووا بردى	١٤٢٠
اولغ محمد (للمرة الثانية)	١٤٢٧
سيد احمد	١٤٣٣
كوجك محمد	١٤٣٥
احمد	١٤٦٥
شيخ احمد	١٤٨١

الايوبيون

١ – في مصر :

الملك الناصر صلاح الدين	١١٦٩
العزيز عثمان	١١٩٣
العادل	١٢٠٠
الكامل	١٢١٨
العادل الثاني	١٢٣٨
الصالح نجم الدين ايوب	١٢٤٠
المعظم توران شاه	١٢٤٩
الأشرف موسى (الثاني)	١٢٥٠ – ١٢٥٢

عزله ايبك التركماني

٢ – في دمشق :

الأفضل علي	١١٨٦
العادل	١١٩٦

المعظم عيسى	١٢١٨
الناصر داود	١٢٢٧
الأشرف موسى (الاول)	١٢٢٩
الصالح اسماعيل	١٢٣٧
الكامل	١٢٣٨
العادل الثاني	١٢٣٨
الصالح نجم الدين أيوب	١٢٣٩
الصالح اسماعيل (للمرة الثانية)	١٢٣٩
الصالح نجم الدين ايوب (للمرة الثانية)	١٢٤٥
المعظم توران شاه	١٢٤٩
الناصر صلاه الدين يوسف	١٢٥٠ – ١٢٦٠

الغزو المغولي

٣ – حلب :

العادل	١١٨٣
الظاهر غازي	١١٨٦
العزيز	١٢١٦
الناصر صلاح الدين يوسف	١٢٣٧ – ١٢٦٠

الغزو المغولي

٤ – دياربكر (ميافارتين وجبل سنجار) :

صلاح الدين	١١٨٥
العادل	١١٩٥

الاوحد نجم الدين ايوب	١٢٠٠
الأشرف موسى (الاول)	١٢١٠
المظفر شهاب الدين	١٢٢٠
الكامل الثاني نصر الدين	١٢٤٤ — ١٢٦٠

الغزو المغولي

٥ — دياربكر (حصن كيفا وآمد) :

الصالح نجم الدين ايوب	١٢٣٢
المعظم توران شاه	١٢٣٩
الموحد تقي الدين	١٢٤٩
الكامل الثالث محمد	١٢٨٣
العادل مجير الدين	
العادل شهاب الدين غازي	
الصالح ابو بكر بن غازي	
العادل فخر الدين بن غازي	١٣٧٨
الأشرف شرف الدين	؟
الصالح صلاح الدين	١٤٣٣
الكامل الرابع احمد	١٤٥٢
العادل خلف بن محمد	
خليل	١٤٦٢
سليمان بن خليل	؟
الحسين بن خليل	؟

٦ – حماه :

المظفر الاول تقي الدين	١١٧٨
المنصور الاول ناصر الدين	١١٩١
الناصر صلاح الدين قلج ارسلان	١٢٢٠
المظفر الثاني تقي الدين	١٢٢٨
المنصور الثاني سيف الدين	١٢٤٤
المظفر الثالث تقي الدين	١٢٨٤
الصالح المؤيد عماد الدين ابو الفدا اسماعيل	١٣١٠
الأفضل محمد بن اسماعيل	١٣٣١

٧ – حمص :

ناصر الدين محمد بن شيركوه	١١٧٨
المجاهد صلاح الدين شيركوه (الثاني)	١١٨٥
ناصر الدين ابراهيم بن شيركوه (الثاني)	١٢١٩
الأشرف موسى (الثاني)	١٢٤٦
استولى بيبرس على حمص	١٢٦٢

٨ – بعلبك :

توران شاه (الاول) بن ايوب	١١٧٢
فروخشاه داود بن هاهنشاه (الاول)	١١٧٩
الأمجد مجد الدين بهرام بن داود	١١٨٢

الأشرف الاول (صاحب دمشق)	١٢٢٩
الصالح اسماعيل	١٢٣٧
الصالح ايوب	١٢٤٥
توران شاه الرابع	١٢٤٩
الناصر يوسف	١٢٥٠

٩ – الكرك :

العادل الاول	١١٨٨
المعظم عيسى	١١٩٥
الناصر صلاح الدين داود	١٢٢٦
المغيث بن عمر بن العادل الثاني	١٢٣٩
استولى بيبرس على الكرك	١٢٦٢

المماليك

١ – المماليك البحرية :

شجر الدر	١٢٥٠
المعز ، عز الدين ايبك	١٢٥٠
المنصور نور الدين علي بن ايبك	١٢٥٧
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري	١٢٦٠
السعيد بركة بن بيبرس	١٢٧٩

سلامش بن بيبرس	١٢٧٩
سيف الدين قلاون	١٢٨٠
خليل بن قلاون	١٢٩٠
الناصر محمد بن قلاون	١٢٩٤
العادل كتبغا	١٢٩٥
حسام الدين لاجين	١٢٩٧
الناصر محمد بن قلاون (للمرة الثانية)	١٢٩٩
ركن الدين بيبرس الثاني الجاشنكير	١٣٠٩
الناصر محمد بن قلاون (للمرة الثالثة)	١٣٠٩
سيف الدين ابو بكر محمد بن قلاون	١٣٤٠
علاء الدين كجك	١٣٤١
شهاب الدين احمد	١٣٤٢
عماد الدين اسماعيل	١٣٤٢
سيف الدين شعبان	١٣٤٥
ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاون	١٣٤٧
صلاح الدين صالح بن الناصر بن قلاون	١٣٥١
ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاون (للمرة الثانية)	١٣٥٤
صلاح الدين محمد بن حاجي بن قلاون	١٣٦١
ناصر الدين شعبان	١٣٦٣
علاء الدين علي بن شعبان	١٣٧٦
صلاح الدين حاجي بن شعبان	١٣٨١
سيف الدين برقوق (من البرجية)	١٣٨٢
حاجي الثاني	١٣٨٩

٢ – المماليك البرجية :

سيف الدين قلاون	١٣٨٢
حاجي بن شعبان	١٣٨٩
برقوق للمرة الثانية	١٣٩٠
فرح بن برقوق	١٣٩٩
عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥
فرح بن برقوق للمرة الثانية	١٤٠٥
الخليفة المستعين العباسي	١٤١٢
المؤيد شيخ	١٤١٢
احمد بن شيخ	١٤٢١
ططر	١٤٢١
محمد بن ططر	١٤٢١
الاشرف برسباي	١٤٢٢
يوسف بن برسباي	١٤٣٧
جقمق	١٤٣٨
عثمان بن جقمق	١٤٥٣
اينال	١٤٥٣
احمد بن اينال	١٤٦٠
خشقدم	١٤٦٠
بلباي المؤيدي	١٤٦٧
تمربغا	١٤٦٨
الاشرف قايتباي	١٤٦٨

محمد بن قايتباي	١٤٩٦
قانصوه خمسمائة	١٤٩٧
محمد بن قايتباي للمرة الثانية	١٤٩٧
قانصوه الاشرفي	١٤٩٨
جانبلاط	١٥٠٠
طومان باي الاول	١٥٠١
قانصوه الغوري	١٥٠١
طومان باي التالي	١٥١٦ - ١٥١٧
الفتح العثماني	

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

ملحوظة — ليست هذه القائمة سوى ملحق لما ورد في المجلدين الأول والثاني ، من المصادر والمراجع ، فلا تحوي ما جاء بهما من مؤلفات إلا عند استخدام طبعات تختلف عن الواردة بهما . وجرى أيضاً إثبات ما بهما من رموز ، أما الرموز الإضافية الكثيرة المثبتة في الحواشي وقائمة المصادر والمراجع بهذا المجلد (الثالث) ، فقد جرى إلحاقها بما يتصل بها من المؤلفات .

أولاً — مصادر أصلية

١ — مجموعات المصادر

Acta Imperii Selecta (ed. J. F. Bohmer). Innsbruck, 1870.

Annales Monastici (ed. H. R. Luard), Rolls Series, 5 vols. London, 1864–9.

Baluzius, S. *Collectio Veterum Monumentorum*, 6 vols. Paris, 1678–1715.

Baluzius, S., *Vitae Paparum Avenionensium* (ed. Mollat), 4 vols. Paris, 1914–27.

Bartholomaeis, V. de. *Poesie Provenziale Storiche relative all' Italia*. Instituto Storico Italiano, Rome, 1931.

Bongars, J. *Gesta Dei per Francos*, 2 vols. Hanover, 1611.

Chronicles: Stephen, Henry II and Richard I (ed. Howlett), Rolls Series, 4 vols. London, 1885–90.

Chroust, A. *Quellen zur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I*, *M.G.H.Ss.*, new series. Berlin, 1928.

Cobham, C. D. *Excerpta Cypria*. Cambridge, 1908.

Cotelerius, J. B. *Ecclesiae Graecae Monumenta*, 4 vols. Paris, 1677–92.

Delaville le Roulx, G. *Cartulaire générale de l'Ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1894–1904.

Du Chesne, A. *Historiae Francorum Scriptores*, 5 vols. Paris, 1636–49.

Golubovich, G. *Biblioteca Bio-bibliografica della Terra Santa e dell' Oriente Francescano*, 5 vols. Florence, 1906–27.

Heisenberg, A. *Neue Quellen zur Geschichte des Lateinischen Kaisertums*. Munich, 1923.

Historia Diplomatica Friderici Secundi (ed. J. L. A. Huillard-Breholles), 6 vols. Paris, 1852–61.

Kohler, C., *Mélanges pour servir à l'Histoire de l'Orient Latin et des Croisades*. Paris, 1906.

Martène, E. and Durand, U. *Thesaurus Novus Anecdotorum*, 5 vols. Paris, 1717.

Martène, E. and Durand, U. *Veterum Scriptorum et Monumentorum Amplissima Collectio*, 9 vols. Paris, 1727–33.

MAS LATRIE, L. DE. *Documents, see* Bibliography II.

MAS LATRIE, L. DE. *Nouvelles Preuves de l'Histoire de Chypre*, in *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*, vols. XXXII, XXXIV and XXXV. Paris, 1871–4.

POTTHAST, A. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2 vols. Berlin, 1874–5.

RAYNALDUS, O. *Annales Ecclesiastici*, 15 vols. Lucca, 1747–56.

Regesta Honorii Papae III (ed. P. Pressutti), 2 vols. Rome, 1188–95.

Regestum Innocentii Papae super Negotio Romani Imperii (ed. F. Kempf), *Miscellanea Historiae Pontificiae*, vol. XII. Rome, 1947.

Registres des Papes, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris:

Alexander IV, (ed. Bourel de la Roncière), 2 vols. 1902, 1917.

Gregory IX (ed. Auvray), 2 vols. 1896, 1907.

Gregory X (ed. Guiraud), 2 vols. 1892, 1906.

Innocent IV (ed. Berger), 4 vols. 1884–1921.

Nicholas III (ed. Gay and Vitte), 2 vols. 1898, 1938.

Nicholas IV (ed. Langlois), 2 vols. 1886, 1905.

Urban IV (ed. Guiraud), 4 vols. 1892–1929.

RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877–8.

RÖHRICHT, R. *Scriptores Minores Quinti Belli Sacri*, Société de l'Orient Latin. Série Historique, II. Geneva, 1879. (Röhricht, *S.M.Q.B.S.*).

RÖHRICHT, R. *Testimonia Minora de Quinto Bello Sacro*, ibid. III. Geneva, 1882.

RYMER, T. *Foedera, Conventiones, Literae et Acta publica inter Reges Angliae*, 4 vols. in 7. London, 1816–69.

SCHWANDTNER, J. G. *Scriptores Rerum Hungaricarum*, 3 vols. Vienna, 1746–8.

STREHLKE, E. *Tabulae Ordinis Teutonici*. Berlin, 1869.

TAFEL, G. L. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856–7.

THEINER, A. *Vetera Monumenta Historica Hungariam Sacram Illustrantia*, 2 vols. Rome, 1859–60.

WATTERICH, J. M. *Pontificum Romanorum qui fuerunt inde ab exeunte saeculo IX usque ad finem saeculi XII Vitae*, 2 vols. Leipsic, 1862.

WINKELMANN, E. *Acta Imperii Inedita Saeculi XIII*, 2 vols. Innsbruck, 1880–5.

٢ ـ مصادر غربية مؤلفة باللغـــات اللاتينية والفرنسية القديمة ، والالمانية .

Adam, William. *De Modo Saracenos Extirpandi* (ed. Kohler), *R.H.C. Arm.* vol. II.

Alberic of Trois Fontaines. *Chronicon*, in *R.H.F.* vol. XVIII.

Amadi, Francesco. *Chroniques d'Amadi et de Strambaldi*, ed. Mas Latrie. Paris, 1891.

Annales Claustroneoburgenses, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.

Annales de Dunstaplia, in *Annales Monastici*, vol. III.

المصادر والمراجع

Annales Janucnses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.

Annales Marbacenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVII.

Annales Romani, in Watterich, *Pontificum Romanorum Vitae.*

Annales Stadenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.

Anonymus Halberstadensis. *De Peregrinatione in Greciam*, in Riant, *Exuviae*, vol. I.

Ansbert. *Expeditio Friderici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen.*

Assises of Romania (ed. Recoura). Paris, 1930.

Auria, Jacobus. *Annales*, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.

Bacon, Roger. *Opus Majus*, (ed. Bridges), 3 vols. *Oxford*, 1900.

Baldwin I, Emperor of Constantinople, letter, in *R.H.F.* vol. XVIII.

Bartholomew of Neocastro. *Historia Sicula*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, new edition, vol. XIII, 3.

Bonomel, Ricaud. Poems, in Bartholemaeis, *Poesie Provenziale.*

Bruno, Bishop of Olmutz, *Bericht* (ed. Höfler), *Abhandlungen der historische Klasse der Bayerische Akademie der Wissenschaft*, series 3, IV, Munich, 1846.

Burcard (Brochard). *Directorium ad Philippum Regem*, in *R.H.C. Arm*, vol. II.

Chronica Regia Coloniensis (ed. Waitz), *M.G.H.Ss. in usum scholarum*, 1880.

Chronicle of Mailros (ed. Stevenson). London, 1856.

Collectio de Scandalis Ecclesiae (ed. Stroick), in *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. XXIV, Rome, 1931.

Cotton, Bartholomew, *Historia Anglicana* (ed. Luard), Rolls Series. London, 1859.

Dardel, John. *Chronique d'Arménie*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.

De Excidio Urbis Acconis, in Martène and Durand, *Amplissima Collectio*, vol. V.

De Itinere Frisonum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*

Devastatio Constantinopolitana, in *Annales Herpipolenses*, *M.G.H.Ss.*, vol. XVI.

Dubois, Peter. *De Recuperatione Terre Sancte* (ed. Langlois). Paris, 1891.

Durand, William. *Informatio brevis de Passagio futuro* (ed. Viollet), *Histoire Litteraire de la France*, vol. XXXV. Paris, 1921.

Edward I, King of England. Letter to Joseph of Chauncy, in *P.P.T.S.* vol. V.

Epistola de Morte Friderici Imperatoris, in Chroust, *Quellen.*

Epistolas Cantuarenses (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1865.

Fabri, Felix. *Book of the Wanderings*, trans. Stewart, 3 vols. *P.P.T.S.* vols. VII–IX.

Fidenzio of Padua. *Liber Recuperationis Terrae Sanctae*, in Golubovich, *Biblioteca Bio-bibliografica*, vol. II.

Figuem, Guillem, 'Dun Servientes Fat', in Bartholemaeis, *Poesie Provenziale.*

Fragmentum de Captione Damiate, Provencialis textus, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*

Frederick II, Emperor. Letter to King Henry, in Bohmer, *Acta Imperii Selecta.*

Galvano: *Liber Sancti Passagii Christocolarum contra Saracenos*, extracts (ed. Kohler), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. VI. Paris, 1898.

Gesta Crucigerorum Rhenanorum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*

المصادر والمراجع

Gesta Innocentii III, in *M.P.L.* vol. ccxiv.
Gesta Obsidionis Damiete, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Gestes des Chiprois (ed. Raynaud). Geneva, 1887.
Gregory IX, Pope. Letters, in *M.G.H. Epistolae Saeculi*, xiii, vol. i.
Gunther of Pairis. *Historia Constantinopolitana*, in Riant, *Exuviae*, vol. i.
Guyot of Provins, *Œuvres* (ed. Orr). Manchester, 1915.
Haymar Monachus. *De Expugnata Accone* (ed. Riant). Lyons, 1876.
Hayton (Hethoum). *Flos Historiarum Terre Orientis*, in *R.H.C. Arm.* vol. ii.
Hayton (Hethoum). *La Flor des Estoire de la Terre d'Orient*, *ibid.*
Henry II, King of Cyprus. *Informatio ex parte Nunciorum Regis Cypri*, in Mas Latrie, *Documents.*
Historia Peregrinorum, in Chroust, *Quellen.*
Humbert of Romans. *Opus Tripartitum*, in E. Brown, *Appendix ad fasciculum rerum expetendarum et fugiendarum*. London, 1690.
Innocent III, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vols. ccxiv–ccxvii.
John of Ypres. *Chronicon Sythiense Sancti Bertini*, in Martène and Durand *Thesaurus Anecdotorum*, vol. iii.
John of Tulbia. *De Domino Johanne Rege Jerusalem*, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Joinville, John, Sieur of. *Histoire de Saint Louis* (ed. Wailly). Paris, 1874.
Joseph of Chauncy. Letter to Edward I, in *P.P.T.S.* vol. v.
La Broquière, Bertrandon of. *Voyage d'Outremer* (ed. Schefer). Paris, 1892.
Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou (ed. Delaborde), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. ii. Paris, 1894.
Liber Duellii Christiani in Obsidione Damiate exacti, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Louis IX, King of France. Letter in Baluzius, *Collectio*. vol. iv.
Ludolph of Suchem (Sudheim). *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. xii.
Lull, Ramon. *Liber de Fine*, in Gottron, *Ramon Lulls Kreuzzugsideen*, see Bibliography II.
Machaut, William. *La Prise d'Alexandrie* (ed. Mas Latrie). Geneva, 1877.
Manuscrit de Rothelin, in *R.H.C. Occ.* vol. ii.
Matthew Paris. *Chronica Majora* (ed. Luard), Roll Society, 7 vols. London, 1872–84.
Matthew Paris. *Historia Minora* (ed. Madden), Rolls Society, 3 vols. London, 1866–9.
Matthew of Westminster. *Flores Historiarum* (ed. Luard), Rolls Society, 3 vols. London, 1890.
Memoria Terre Sancte, in Kohler, *Mélanges*, vol. ii.
Molay, James of. Report to Clement V, in Baluzius, *Vitae Paparum*, vol. iii.
Muntaner, Ramon. *Cronica* (ed. Caroleu). *Barcelona*, 1886.
Narratio Itineris Navalis ad Terram Sanctam (ed. da Silva Lopez). Lisbon, 1844.

Oliver Scholasticus. *Opera*, I. *Historia Damiatana*; II. *Epistolae* (*ed. Hooeweg*), *Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart*, vol. CCII. Tübingen, 1894.

Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss. in usum Scholarum*, 1912.

Philip of Novara. *Le Livre de Forme de Plait*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.

Philip of Novara. *Mémoires*, in *Gestes des Chiprois* (English translation by La Monte and Hubert, *The Wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and Cyprus*. New York, 1936).

Pian del Carpine, John. *Historia Mongalorum* (ed. Pulle). Florence, 1913.

Richard of Devizes. *De Rebus Gestis Ricardi Primi*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. III.

Richard of San Germano, *Chronicon* (ed. Pertz), *M.G.H.Ss.* vol. XIX.

Rigord. *Gesta Philippi Augusti* (ed. Delaborde). Paris, 1882.

Robert de Monte (appendix), in *R.H.F.* vol. XVIII.

Robert of Clary. *La Conquête de Constantinople* (ed. Lauer). Paris, 1924.

Roger of Wendover. *Chronica* (ed. Hewlett), Rolls Series, 3 vols. London, 1886–9.

Rutebeuf. *Onze Poèmes concernant la Croisade* (ed. Bastin and Faral). Paris, 1946.

Salimbene de Adam. *Cronica* (ed. Holder-Egger), in *M.G.H.Ss.* vol. XXXII.

Sanudo, Marino. *Liber Secretorum Fidelium Crucis*, in Bongars, *Gesta Dei per Francos*, vol. II.

Sequentia Audegavensis, in Riant, *Exuviae*, vol. I.

Sicard of Cremona. *Cronica* (ed. Holder-Egger), *M.G.H.Ss.* vol. XXXI.

'Templar of Tyre.' *Chronique*, in *Gestes des Chiprois*.

Thaddeus of Naples. *Hystoria de Desolacione et Conculcacione Civitatis Acconensis et tocius terre sancte* (ed. Riant). Geneva, 1873.

Thomas of Spalato. *Historia Salonitana*, in Schwandtner, *Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. III.

Thwrocz, Joannes de. *Illustrissima Hungariae Regum Chronica*, in Schwandtner, *Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. I.

Via ad Terram Sanctam, in Kohler, *Mélanges*, vol. II.

Villaret, Fulk. *Mémoire* (ed. Petit), *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*. Paris, 1889.

Villehardouin, Geoffrey of. *La Conquête de Constantinople* (ed. Faral), 2 vols. Paris, 1938–9.

Vincent of Beauvais. *Speculum Historiale*. Douais, 1624.

Vitry, James of. *Epistolae* (ed. Röhricht), *Zeitschrift für Kirchengeschichte*, vols. XIV–XVI. Gotha, 1894–6.

Vitry, James of. *History of Jerusalem* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XI.

Wilbrand of Oldenburg. *Reise* (ed. Laurent). Hamburg, 1859.

William le Breton. *Gesta Philippi Regis* and *Philippis* (ed. Delaborde), 2 vols. Paris, 1882, 1885.

المصادر والمراجع

William of Newburgh. *Historia Rerum Anglicarum*, in *Chronicles* (ed. Howlett) vol. II.
William of Rubruck (Rubruquis). *Itinerarium* (trans. Rockhill), Hakluyt Society, series II, vol. IV. London, 1900.
William of St Pathus. *Vie de Saint Louis* (ed. Delaborde). Paris, 1899.
William of Tripoli. *Tractatus de Statu Saracenorum*, in Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge* (see Bibliography II).
Zaccaria, Benito. *Mémoire*, in Mas Latrie, *Documents*.

٣ ـ مصادر يونانية

Acropolita, George. *Opera* (ed. Heisenberg). Leipsic, 1903.
Germanus, Patriarch of Constantinople, Ἐπιστολαί, in Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, vol. II.
Letter of Greek clergy to Innocent III, in Cotelerius, *Ecclesiae Graecae Monumenta*, vol. III.
Makhaeras, Leontius. *Recital concerning the sweet Land of Cyprus, entitled Chronicle* (ed. with translation Dawkins), 2 vols. Oxford, 1932.
Mesarites, Nicholas. *Opera*, in Heisenberg, *Neue Quellen*.
'Narrative of the thirteen holy fathers burnt by the Latins', in Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, vol. II.
Pachymer, George. *De Michaele et Andronico Palaeologis*, 2 vols. *C.S.H.B.* Bonn, 1835.

٤ ـ مصادر عربية وفارسية

al-Aini. *Perles d'Histoire*, extracts in *R.H.C.Or.* vol. II, 2.
Dimashki. *Geography* (ed. Mehren). St Petersburg, 1866.
History of the Patriarchs of Alexandria, extracts (trans. Blochet), *Revue de l'Orient Latin*, vol. XI. Paris, 1908.
Ibn al-Amid. *Chronicle* (ed. Cheikho), *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. III, 1.
Ibn Batuta. *Voyages* (ed. with French translation Defremery and Sanguinetti), 4 vols. Paris, 1879.
Ibn Bibi. *History of the Seldjuks*, Turkish translation (ed. Houtsma), *Textes relatifs à l'histoire des Seldjouqides*, vols. III, IV. Paris, 1902.
Ibn al-Furad. *Chronicle* (part ed. Zouraiq). Beirut, 1935–7.
Ibn Shedad. *Geography*, extracts (ed. by Cahen), in *Revue des Etudes Islamiques*. Paris, 1936.
Ibn Wasil. *History of the Ayubites*, selections in Reinaud, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.
Idrisi. *Geography*, ed. Gildemeister, *Zeitschrift für Deutsche Palästina Verein*, vol. VIII. Leipsic, 1885.

المصادر والمراجع

Al-Jazari. *Chronique de Damas* (trans. Sauvaget). Paris, 1949.

Juwaïni, Sa'd ad-Din Ibn Hamawiya, extracts (trans. Cahen), 'Une Source pour l'Histoire des Croisades', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 28e année, no. 7, 1950.

Maqrisi. *Histoire des Sultans Mamelouks*, (trad. Quatremère), 2 vols. Paris, 1837–45.

Muhi ad-Din Ibn Abdazzahir. *Lives of Baibars and Qalawun*, selections in Reynaud, *Extraits* in Michaud, *Bibliothèque*.

Rashid ad-Din. *History of the Mongols* (Russian trans. by Berezin), 4 vols. St Petersburg, 1861–88: Part IV, *History of the Mongols of Persia*, (ed. with French translation Quatremère). Paris, 1836.

Yakut. *Alphabetical Dictionary of Geography* (ed. Wustenfeld), 6 vols. Leipsic, 1866–73.

5. A • ــ مصادر ارمنية ، وسريانية ، وسلافية ومغولية

Ballad on the captivity of Leo, son of King Hethoum I, in *R.H.C.Arm.*, vol. I.

Hayton (Hethoum of Corycus). *Chronological Tables*, in *R.H.C.Arm.*, vol. I.

Hethoum II, King of Armenia, *Poem*, in *R.H.C.Arm.* vol. I.

Kirakos of Gantzag. *History* (trans. Brosset). St Petersburg, 1870.

Orbelian, Stephen. *History of Siunia*, Armenian text. Moscow, 1861.

Vartan. *History of the World*, Armenian text. Moscow, 1861.

Rabban Sauma. *History of Rabban Sawma and Mar Yahbhallaha* (trans. Budge), in Budge, *The Monks of Khublai Khan*, see Bibliography II.

Novgorod Chronicle (*Novgorodskaya Pervaya Lietopis*, ed. Nasonov), Academy of Sciences of the U.S.S.R. Moscow/Leningrad, 1950.

Histoire Secrète des Mongols (*Yuan Tch'ao Pi Che*), Mongol text transcribed in Latin letters, with partial French translation and ed. Pelliot. Paris, 1949.

ثانيا ــ مراجع حديثة

ALPHANDERY, P. 'Les Croisades d'Enfants', in *Revue de l'Histoire des Réligions*, vol. LXXIII. Paris, 1916.

AMARI, M. *La Guerra del Vespro Siciliano*, 3 vols. Milan, 1886.

ATIYA, A. S. *The Crusade in the Later Middle Ages*. London, 1938.

ATIYA, A. S. *The Crusade of Nicopolis*. London, 1934.

BALTRUŠAITIS, J. *Le Problème de l'Ogive et l'Arménie*. Paris, 1936.

BARTHOLD, W. Articles, 'Cingis Khan' and 'Khwaresm', in *Encyclopaedia of Islam*.

BOASE, T. S. R. 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Institute*, vol. II. London, 1938–9.

BOUVAT, L. *L'Empire Mongol, 2me Phase*, vol. VIII, 3, pt. II of Cavaignac, *Histoire du Monde*. Paris, 1927.

المصادر والمراجع

BRATIANU, G. I. *Recherches sur le Commerce Génois dans la Mer Noire au XIIIe. Siècle*. Paris, 1929.

BRETSCHNEIDER, E. *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources*, 2 vols. London, 1888.

BUCHTHAL, H. 'The Painting of Syrian Jacobites in its relation to Byzantine and Islamic Art', in *Syria*, vol. xx. Beyrouth, 1929.

BUDGE, E. A. W. *The Monks of Kûblâi Khân, Emperor of China*. London, 1928.

CAHEN, C. 'Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III, Orient Latin et Commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 9e annee, no. 8, 1951.

CAHEN, C. 'Turcomans de Roum', in *Byzantion*, vol. XIV. Brussels, 1939.

CARTELLIERI, A. *Philipp II August und der Zusammenbruch des angevinischen Reiches*, Leipsic, 1913.

CHABOT, J. B. 'Rélations du Roi Argoun avec l'Occident', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1894.

CHAYTOR, H. J. *The Troubadours*. Cambridge, 1912.

CLAPHAM, A. W. *Romanesque Architecture in Western Europe*. Oxford, 1936.

COGNASSO, F. *Un Imperatore Bizantino della Decadenza*, in *Bessarione*, vol. XXXI, Rome, 1915.

DALTON, O. M. *Byzantine Art and Archaeology*. Oxford, 1911.

DALTON, O. M. *East Christian Art*. Oxford, 1925.

DELAVILLE LA ROULX, J. *La France en Orient au XIVe Siècle*, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris, 1886.

DER NERSESSIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire*. Cambridge, Mass. 1945.

DESCHAMPS, P. *La Défense du Royaume de Jérusalem*, 2 vols. Paris, 1939.

DESCHAMPS, P. *Le Crac des Chevaliers*, 2 vols. Paris, 1934.

DIEHL, C. *Une République Patricienne, Venise*. Paris, 1915.

D'OHSSON, M. *Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'à Timur Béc*. 2 vols. Amsterdam, 1834–5.

DONOVAN, J. P. *Pelagius and the Fifth Crusade*. Philadelphia, 1950.

DUCKWORTH, H. T. F. *The Church of the Holy Sepulchre*. London, 1922.

EBERSOLT, J. *Monuments d'Architecture Byzantine*. Paris, 1934.

EDWARDS, J. G. 'The *Itinerarium Regis Ricardi* and the *Estoire de la Guerre Sainte*', in *Essays in honour of James Tait*. Manchester, 1933.

ENLART, C. *Les Monuments des Croisés dans le Royaume de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1925.

FEDDEN, R. *Crusader Castles*. London, 1950.

FLICHE, A. *La Chrétienté Romaine*, vol. x of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1950.

FOREVILLE, R. and ROUSSET DE PINA, J. *Du Premier Concile du Latran à l'Avènement d'Innocent III*, vol. IX, 2, of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1952.

المصادر والمراجع

GIBBONS, H. A. *The Foundation of the Ottoman Empire.* Oxford, 1916.

GOTTRON, A. 'Ramon Lulls Kreuzzugsideen', in *Abhandlungen zur Mittleren und Neueren Geschichte*, vol. XXXIX. Berlin/Leipsic, 1912.

GREGOIRE, H. 'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade', in *Byzantion*, vol. XV. Boston, 1941.

GREKOV, B. and IAKOUBOVSKI, A. *La Horde d'Or* (trans. into French by Thuret). Paris, 1939.

GREVEN, J. 'Frankreich und der Funfte Kreuzzug', in *Historisches Jahrbuch*, vol. XLII. Munich, 1923.

GROUSSET, R. *L'Empire des Steppes.* Paris, 1941.

GROUSSET, R. *L'Empire Mongol, Ière Phase*, vol. VIII, 3, of Cavaignac, *Histoire du Monde.* Paris, 1941.

HAENISCH, E. 'Die Letzen Feldzüge Cingis Han's und sein Tod', in *Asia Major*, vol. IX. Leipsic, 1932.

HALECKI, O. *The Crusade of Varna.* New York, 1943.

HAMMER-PURGSTALL, J. VON. *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. into French by Hellert), 18 vols. Paris, 1843.

HILL, G. *History of Cyprus*, vols. II and III. Cambridge, 1948.

HOPF, K. *Geschichte Griechenlands vom Beginne des Mittelaltes bis auf die neuere Zeit*, Leipsic, 1867.

HOWORTH, H. H. *History of the Mongols*, 5 vols. London, 1876–88.

IORGA, N. *Philippe de Mezières et la Croisade au XIVe Siècle.* Paris, 1896.

JORDAN, E. *Les Origines de la Domination Angévine en Italie.* Paris, 1909.

KANTOROWICZ, E. *Frederick the Second.* London, 1931.

KARAMZIN, N. M. *History of the Russian Empire* (in Russian), 3 vols. St Petersburg, 1851.

KINGSFORD, C. L. 'Otho de Grandison', in *Transactions of the Royal Historical Society*, 3rd series, vol. III. London, 1909.

KÖPRÜLÜ, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman.* Paris, 1935.

LA MONTE, J. L. 'John d'Ibelin', in *Byzantion*, vol. XII. Brussels, 1937.

LANGLOIS, C. V. *La Vie en France au Moyen Age*, 3 vols. Paris, 1927.

LECLERC, L. *La Medecine Arabe.* Paris, 1876.

LEVIS-MIREPOIX, DUC DE. *Philippe le Bel.* Paris, 1936.

LEVY, R. *A Baghdad Chronicle.* Cambridge, 1929.

LIZERAND, G. *Le Dossier de l'Affaire des Templiers.* Paris, 1928.

LONGNON, J. *L'Empire Latin de Constantinople.* Paris, 1940.

LONGNON, J. *Les Français d'Outre-mer au Moyen Age.* Paris, 1929.

LUCHAIRE, A. *Innocent III: La Question d'Orient.* Paris, 1911.

MAKHOULY, N. *Guide to Acre.* Jerusalem, 1941.

MARTIN, E. J. *The Trial of the Templars.* London, 1928.

MARTIN, H. D. *The Rise of Chingis Khan and his Conquest of North China* Baltimore, 1950.

MAS LATRIE, L. *Histoire de l'Ile de Chypre sous le Règne de la Maison de Lusignan*, vol. I, *Histoire*; Vols. II and III, *Documents*. Paris, 1852–61.

MELVIN, M.. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.

MUNRO, D. C. 'The Children's Crusade', in *American Historical Review*, vol. XIX. New York, 1914.

NORGATE, K. *Richard the Lion Heart*. London, 1924.

NORGATE, K. 'The *Itinerarium Peregrinorum* and the *Song of Ambroise*', in *English Historical Review*, vol. XXV, London, 1910.

OMONT, H. 'Peintures d'un Evangélaire Syriaque', in *Monuments et Mémoires publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, vol. XIX. Paris, 1911.

PELLIOT, P. 'Chrétiens d'Asie Centrale et de l'Extrème Orient', in *T'oung Pao*, vol. XI. Leiden, 1914.

PELLIOT, P. 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vols. XXIII, XXIV, XXVIII. Paris, 1922–32.

PIQUET, J. *Les Banquiers du Moyen Ages: Les Templiers*. Paris, 1939.

POWICKE, F. M. *King Henry III and the Lord Edward*, 2 vols. Oxford, 1947.

PRAWER, J. 'Etude de Quelques Problèmes Agraires et Sociaux d'une Seigneurie Croisée au XIIIe Siècle', in *Byzantion*, vol. XXII. Brussels, 1952.

PRAWER, J. 'L'Etablissement des Coutumes du Marché à Saint-Jean d'Acre', in *Revue Historique de Droit Français et Etranger*. Paris, 1951.

PRUTZ, H. G. *Kaiser Friedrich I*, 3 vols. Danzig, 1871–4.

PRUTZ, H. G. *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1883.

REY, E. G. *Les Monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'Ile de Chypre*. Paris, 1871.

RÖHRICHT, R. 'Der Kinderkreuzzug 1212', in *Historische Zeitschrift*, vol. XXXVI. Munich, 1876.

RÖHRICHT, R. *Etudes sur les Dernier Temps du Royaume de Jerusalem*, *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.

RÖHRICHT, R. *Studien sur Geschichte des Fünften Kreuzzüges*. Innsbruck, 1891.

SACERDOTEANU, A. *Marea Invazie Tatara si Sud-estul European*. Bucarest, 1933.

SCHLUMBERGER, G. *Byzance et Croisades: Pages Mediévales*. Paris, 1927.

SMAIL, R. C. 'Crusaders' Castles in the Twelfth Century', in *Cambridge Historical Journal*, vol. X, 2. Cambridge, 1951.

SOBERNHEIM, M. Article 'Baibars' in *Encyclopaedia of Islam*.

STERNFELD, R. *Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis 1270*. Berlin, 1896.

STRAKOSCH-GROSSMANN, G. *Der Einfall der Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242*. Innsbruck, 1893.

THROOP, P. A. 'Criticism of Papal Crusade Policy in Old French and Provençal', in *Speculum*, vol. XIII. Cambridge, Mass., 1938.

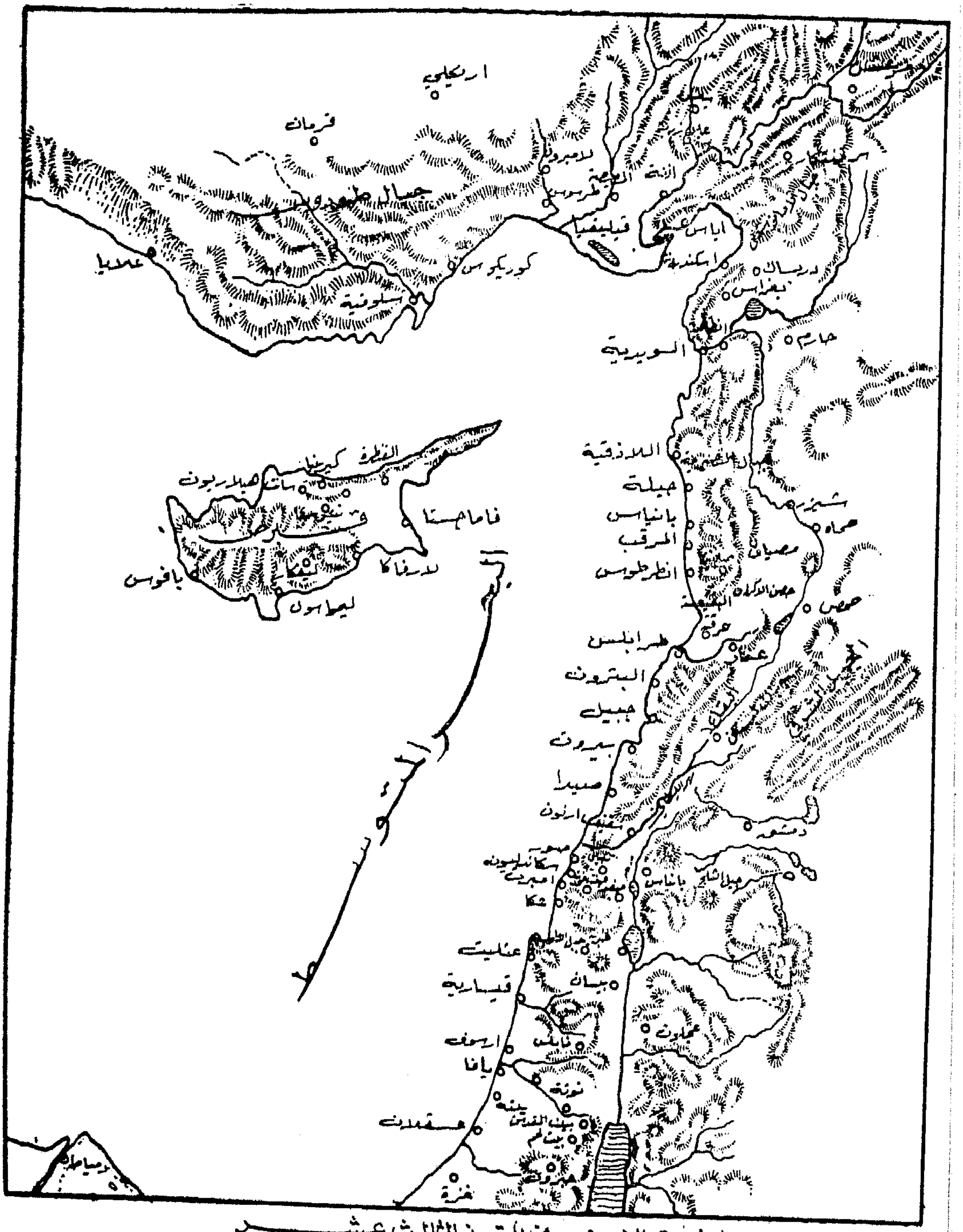
THROOP, P. A. *Criticism of the Crusades*. Amsterdam, 1940.

VAN ORTROY, F. 'Saint François et son Voyage en Orient', in *Analecta Bollandiana*, vol. XXXI. Brussels, 1912.

VASILIEV, A. A. *History of the Byzantine Empire*, new edition. Madison, 1952.
VASILIEV, A. A. 'The Foundation of the Empire of Trebizond', in *Speculum*, vol. XI. Cambridge, Mass., 1936.
VERNADSKY, G. *Kievan Russia*, vol. II of Ven.adsky and Karpovitch, *History of Russia*. Newhaven, 1948.
WINKELMANN, E. *Kaiser Freidrich II*, 2 vols. Leipsic, 1889–97.
WINKELMANN, E. *Philipp von Schwaben und Otto IV von Braunschweig*, 2 vols. Leipsic, 1873–8.
WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1838.
YULE, H. *Cathay and the Way Thither*, 2 vols. Hakluyt Society, no. 37. London, 1866–7.

كشاف عام

عن أسماء الأعلام والمدن والانهار والوقائع والمصطلحات والوظائف



٥ الشرق الادنى في القرن الثالث عشر

المحتوى

الكتاب الاول

الحروب الصليبية الثالثة

الكتاب الثاني

الحملات الصليبية المنحرفة

المـــلاحق

المصادر والمراجع

اللوحات

الخرائط